خالد حبيب الراوي

الاعمال الادبية الكاملة

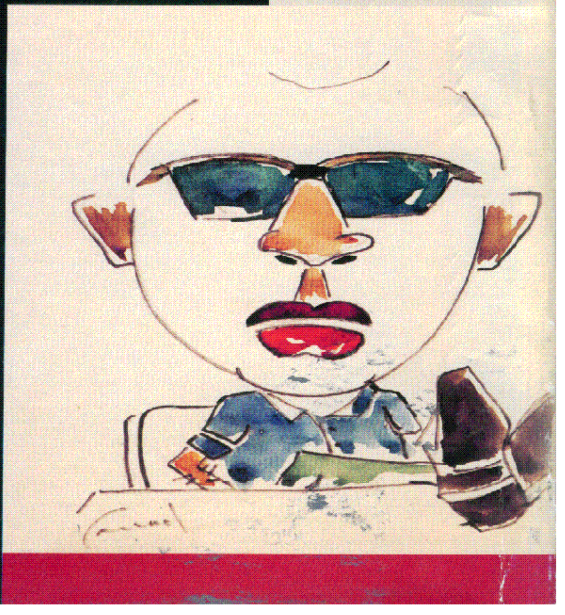

تحرير وتقديم
د . احمد خالد الراوي

خالد حبيب الراوي
الأعمال الأدبية الكاملة

خالد حبيب الراوي
الأعمال الأدبية الكاملة

تحرير وتقديم

د.أحمد الراوي

بغداد 2006

المحتويات

مقدمة	7
خالد الراوي في سطور	26
الجسد والأبواب (مجموعة قصصية)	29
القناع (مجموعة قصصية)	61
القطار الليلي (مجموعة قصصية)	105
العيون (مجموعة قصصية)	157
قصص (مجموعة قصصية)	215
قصص بلا عنوان (مجموعة قصصية)	323
مسرحيات	334
خواطر	385
أشعار	423
ملاحق	
ملحق 1: كتابات ومراجعات نقدية	439
ملحق 2: قصص للأطفال	479
ملحق 3: خالد ... الإنسان	495

مقدمة

هذا الكتاب

خالد حبيب الراوي (1944–1999) عمل صحفياً وناقداً فنياً وأدبياً وقاصاً وكاتباً مسرحياً ومحامياً وخبيراً إعلامياً وباحثاً ومؤرخاً وأكاديمياً ومراسلاً لعدة جرائد ومجلات. عاصر المؤلف جيل الستينات بالأخص، وهو يصنف عند النقاد كافة ضمن هذا الجيل بالرغم من معاصرته جيل السبعينات بكل ما فيه من تطورات واختلافات عن الجيل الذي سبقه. لذلك كان لا بد من نشر الأعمال الأدبية الكاملة للقاص خالد الراوي خاصة بعد وفاته بأكثر من ست سنوات.

والكتاب هذا قد تم جمعه من العشرات بل المئات من قصاصات الجرائد والمجلات العراقية والعربية المنشورة في فترة الستينات وبداية السبعينات من القرن الماضي. وفضلاً عن ذلك، تم إدراج الكثير من الكتابات التي لم تنشر مسبقاً سواء في مجال القصة القصيرة جداً أو الأشعار. اعتمد الكاتب على نشر قصصه في الجرائد لكونها الوسيلة الأفضل والأرخص للوصول الى الجمهور علاوة على كون الشكل الأدبي المختصر والمركز الذي يستعمله صالحاً للنشر في الصحافة. بدأ خالد الراوي الكتابة عام 1962 عندما كان في الثانوية العامة حيث اعتاد إرسال الخواطر والتعليقات الى الجرائد.* وبعد عام 1963 أرسل بعض القصص القصيرة الى عدد من الصحف ونشرت حينها، وتعد من القصص القليلة التي ظهرت بعد ثورة 1963. وفي عام 1964، بدأ خالد الراوي عمله الصحفي المنتظم، حيث كتب عموداً يومياً في صحيفة (صوت العرب) باعتباره المحرر الثقافي لأن موقع الجريدة كان الأقرب الى المقهى. وبعد توقف صدور الجريدة، انتقل الى جريدة (الثورة العربية) ليعمل محرراً فيها، لكن سرعان ما عاد الى جريدة (صوت العرب)

---

1 بلا مؤلف، "حكايتي مع الصحافة: د. خالد حبيب الراوي،" جريدة العراق، العدد 4283، 7 شباط 1990. يذكر خالد الراوي أنه خلال عام 1962 كانت "السيدة سلام خياط تحرر إحدى الصحفات المنوعة وكنت أرأسلها باستمرار، وحين انقطعت عن الكتابة اليها، أرسلت لي رسالة تحثني فيها على عدم الانقطاع عن الكتابة. وقد كان لرسالتها أثر كبير في نفسي.. ومازالت السيدة سلام خياط تناديني حتى اليوم ب –"ابني".

بعد معاودة إصدارها. وكان العديد من الكتاب والقصاصين والشعراء ينشرون أعمالهم في هذه الجريدة علاوة على الصفحات الأدبية لجريدة المنار والأنباء الجديدة والفجر الجديد ومجلة الطيران وأبناء النور...الخ.

وتكمن أهمية هذا الكتاب في توثيق مرحلة أدبية مهمة في الأدب العراقي، لأنه يعكس هموم الشباب وانتكاساتهم بسبب الحروب المتلاحقة والهزائم التي منيت بها الشعوب العربية. والكاتب لم يقتصر على القصة القصيرة جداً التي كان السباق والرائد في كتابتها في العراق، بل كتب أيضاً المسرحيات وخاصة العبثية منها والتمثيليات التي تم تمثيل معظمها في التلفزيون الوطني العراقي وقصص الأطفال والخواطر والأشعار. وتتميزمعظم الخواطر والأشعار التي كتبها خالد الراوي برهافة الحس وعذوبة الكلمات وتعبرعن مرحلة الشباب التي كان يمر بها. وامتازت كتاباته اللاحقة بالهدفية والالتزام نحو قضايا مصيرية كالمسألة الفلسطينية والتحرر من الاستعمار المتمثل بالجهل والعبودية للتقاليد المتهرئة. لكن المؤلف لم يكن حريصاً على جمع كتاباته وضمها في كتاب واحد، ولم يكن يهتم بالسعي وراء الشهرة، حيث اقتصر على نشر بعض قصصه ضمن أربع مجاميع وهي الجسد والأبواب (1969) و القناع (1970) و القطار الليلي (1974) و العيون (1977).

لذلك ارتأيت أن أقوم بنشر الأعمال الأدبية الكاملة وانتقاء ما هو أدب محض وإهمال النقد الأدبي والفني الذي اشتهر به في تلك الفترة. حيث تم تصنيف الكتابات المختلفة حسب الترتيب الزمني لنشرها بالرغم من أن بعض الأعمال قد أعيد نشرها في فترات أخرى، وتمت الإشارة الى هذه التفاصيل في الهوامش. ويتضمن الكتاب مقدمة نقدية كتبها المحرر وتعرض فيها الى طبيعة وأهمية القصص القصيرة جداً بالأضافة الى أسلوب وهدف القصة عند خالد الراوي. ويحوي الكتاب أيضاً صوراً منتقاة للقاص من حياته منذ صغره حتى آخر صورة التقطت له من أجل التوثيق. ويختتم الكتاب بثلاثة ملاحق أحدها خاص عن خالد الإنسان ويحتوي كتابات متعددة تبدأ بوصية أبيه التي كتبها يوم ولادته ومقالات أخرى كتبها أصدقاؤه نشرت معظمها في الجرائد العراقية بعد وفاة الأديب. ولابد هنا ان اتقدم بخالص شكري الى الأستاذ ستار زيارة الذي قام بالمراجعة اللغوية وأثرى الكتاب بآراءه النقدية.

---

1 د. خالد حبيب الراوي، "جيل الستينات،" مجلة الف باء، العدد 869، 22 أيـــار 1985، صفحة 49

القصة القصيرة والقصيرة جداً..

من الخطأ أن يقال إن القصة القصيرة هي نتاج القرن العشرين، حيث يمكن إيجاد القصة القصيرة منذ أيام السومريين والفراعنة وفي كتاب العهد القديم ومنها قصص روث ويوحنا. استمرت القصة القصيرة متداولة بين الناس في مختلف البلدان والثقافات في العالم لأنها الوسيلة المفضلة لنقل الحقائق التأريخية والعادات والتقاليد. وهي تختلف عن الرواية في الحجم وليس المضمون، حيث تتألف الرواية عادة من 20 ألف كلمة وأكثر بينما تتكون القصة القصيرة المطولة من كلمات أقل. وتختلف القصة القصيرة عن الرواية في التكثيف اللغوي والتركيز على الشخصية أو الحدث وامتلاك الوحدة في الموضوع أو حتى في الأسلوب.* ويذكر نقاد آخرون أن القصة القصيرة تتكون من حوالي 15 ألف كلمة ومن المستحيل تمييزها عن الرواية سواء في استخدام عدد الشخوص أو في وحدة الموضوع.† يقول الروائي الإنكليزي أي أم فورستر إن القصة مبنية على الترتيب الزمني بينما الحبكة تعتمد على السببية بغض النظر عن طول القصة، مثلاً "مات الملك، فماتت الملكة من الحزن". فهذه قصة بحد ذاتها لأن لها حبكة متكاملة تتمثل بإدراج سبب ونتيجة ونرى تطوراً أو تغييراً في الشخصية الرئيسة.‡ أما القصة القصيرة جداً فلا يتعدى حجمها صفحة أو صفحتين يستخدم القاص فيها لغة مركزة.

ويمكن أن تعد الكاتبة الفرنسية ناتالي ساروت (1900–1999) الرائدة في القصة القصيرة جداً، حيث اشتهرت بمجوعتها (انفعالات) 1938 والمكونة من 24 قصة. استخدمت ساروت منهج الوصف البحت للظاهرة الذي وضعه

---

1. **Sylvan Barnat, Morton Berman, & William Burto, A Dictionary of Literary, Dramatic, and Cinematic Terms, Boston: Little, Brown and Company, 1997, p.100.**
2. **E.M. Forster, Aspects of the Novel, Middlesex: Penguin Books, 1971, p. 93.**
3. **F. C. Hugh Holman, A Handbook to Literature, New York: The Odyssey Press, 1960, p. 458.**

الفيلسوف الألماني هوسرل. فكاتب القصة القصيرة جداً يكتب بدون مراعاة إدراج استنتاج أو استدلال أو حكم، فعلى القارىء أن يستنتج ويستدل ويحكم بحرية. حيث قطع القاص صلته بالقارىء لأن الهدف هو إمرار التجربة الإنسانية وإن كانت معقدة ورمزية لكنها تبقى تعبيراً صادقاً عن الواقع الخارجي المعقد وغير المنطقي.* ومايميز كتابات ساروت هو أنها تصف انفعالات الشخوص وتحاول وصف مكنوناتها، لذلك "جاءت عباراتها منفصلة...وكلماتها متباعدة. كثرت النقاط الثلاث...والمعاني المبهمة والأفكار المترنحة التي تعبر عن حالة نصف شعورية، إن لم تكن لا شعورية على الإطلاق".†

على هذا الأساس، أنتج الكثير من الكتاب قصصهم لكنهم اختلفوا في الشكل والأسلوب، لذلك جاءت القصة القصيرة جداً لكي تعبر عن حقيقة وتركز عليها بدلاً من تشويش القارىء بتفاصيل روائية وجموع من الشخصيات. وتمتاز القصة القصيرة جداً بالشد والتكثيف اللغوي، حيث يعمد القاص إلى استخدام أقل الكلمات الممكنة وأكثرها تعبيراً، لذلك تبدو القصة في النهاية قصيدة شعرية تكون عادة ذات طبيعة رمزية. ويعرف الناقد عباس الجبوري القصة القصيرة جداً على أنها "نمط فني يختزل الحدث الحسي والفني بصورة خاطفة، محاولة في اقتناص لقطة عابرة... وهي عملية تعتمد الدقة والتركيز في اختطاف الصورة – الواقع– الإحساس. وهي بالتالي تعتمد على قدرة القاص الفنية في تشكيل ضربة فكرية حادة إزاء الهدف المقصود."‡

ويذكر خالد الراوي في مقال نشر عام 1966 يتعلق بالقصة القصيرة جداً، أنها "من الأعمال الأدبية الخطيرة التي تتطلب الدقة والفن والعلم... فقد انتهى دور السرد والتسلسل والوضوح وهي شروط كتابة القصة الكلاسيكية.. وأضحى واجباً على الكاتب المعاصر أن يراعى اعتبارات معينة لكتابة القصة القصيرة.. من هذه الاعتبارات.. اختيار المضمون المراد الكتابة فيه..

---

1 ناتالي ساروت، انفعالات، ترجمة وتقديم فتحي العشري، "ساروت..والانفعالات والرواية الجديدة"، القاهرة: المطبعة الثقافية، 1971، صفحة 2.

2 نفس المصدر، صفحة 25.

3 عباس الجبوري، "مدخل دراسة (القصة القصيرة جدا)"، مجلة الطليعة الأدبية، العدد 5–6، أيار وحزيران 1976، صفحة 29.

بحيث ينطلق الكاتب اليه دون إضاعة خطاه في الجزئيات والحوادث الجانبية.. والأمر الآخر هو البحث عن شكل حديث في كتابة القصة.. هذا الشكل لا نستطيع أن نحدده سلفاً فلكل كاتب طريقته الخاصة.. إنما المهم أن يبتعد عن شكل الحكاية التي تشكل القطاع الأكبر في كتابة القصة.. أن يبتعد عن نقل الأحداث الجاهزة التي هي حكومة الحكاية.. بالقدر الذي لا يضيع فيه المضمون أو يشوهه في التفصيلات الهامشية.. وخلوص هذه الكلمات يجرنا الى البحث في مهمة القصة القصيرة.. إن غاية الحكاية هي تمضية الوقت بها والتسلية لسامعيها. ولكن أهذه هي مهمة القصة القصيرة أيضاً؟؟ لا نستطيع أن نلغي الواقع ونقول ليست هذه مهمة القصة المعاصرة.. إنما نقول إن مهمتها استجلاب اللذة والتسلية الى حد معين.. يرافقه في معاصرة المضمون الذي يدفع بماهيته عبر التسلية أو اللذة الى القارىء.. كذلك فإن للجمالية أساسها في القصة القصيرة فالكاتب الجيد يختار وينتقي ويصفي القصة ويجعلها محدودة مثل القصيدة".*

ومن أبرز الكتاب العرب الذين كتبوا القصة القصيرة جداً زكريا تامر من سوريا ورشارد أبو شاور من فلسطين وجمال أبو حمدان من الأردن. أصر هؤلاء الكتاب على إدخال الشكل الجديد في القصة الى الوطن العربي بالرغم من الانتقادات الكثيرة التي واجهوها.

خالد حبيب الراوي : رائد القصة القصيرة جداً في العراق

يعد خالد حبيب الراوي من رواد كتابة القصة القصيرة جداً في العراق، حيث حاول إدخال الشكل الأدبي الجديد من أجل تغيير الشكل التقليدي للقصة. وقد استخدم تقنيات أدب اللامعقول في كتاباته، لكنه أصر في الوقت ذاته على ضرورة وجود هدف أخلاقي أو اجتماعي وحتى سياسي من وراء الكتابة. وهو ينتقد معاصريه قائلاً "إن الأشكال الجديدة ليست من (ابتداع) الكتاب العراقيين.. بل إن جميع كتاب الدول النامية تفتحوا على الانتقالات الواسعة للأدب في الغرب (وراحوا) يختلسون الأشكال المناسبة لهم... إن الأدب العظيم لا يقاس بشكله، بل بما يرد فيه من كشوفات أصيلة وعصرية، وطالما أن أدبنا عاجز عن الإتيان بالكشوفات، فإنه يبقى مكتسحاً، وهامشياً...نحن إزاء أناس لا يشعرون بمسؤوليتهم تجاه الأدب..كل ما

---

1 خالد حبيب الراوي، "كلمة المحرر،" جريدة صوت العرب، 2-8-1966.

يقدمونه لنا متخلف، وشكلي يتخذونه وسيلة للامتياز والاستعراض. وعلى هذا ينبغي أن نهدم هذه الأشكال البراقة، المجوفة. إن تجاربنا العظيمة، وحياتنا الهائجة ستبقى خلف النوافذ في ظلام جهل هؤلاء الكتاب وبهلوانيتهم".* ويبدو أن خالد الراوي اتبع نصيحة ميخائيل نعيمة الذي اعتاد مراسلته، حيث يقول الأخير في ما يخص هدف أدب اللامعقول: "اذا وجدت في أدب اللامعقول ما يهزك فاهتز. وإذا نفرت منه فدعه وشأنه. فالأدب، كالطعام. ما يهضمه وينتفع به الواحد قد لا يهضمه ولا ينتفع به الآخر".† اعتاد بعض النقاد على مهاجمة الكتابات التجديدية التي تقدم شكلاً غير معهود. ويعلق ميخائيل نعيمة عن هؤلاء النقاد قائلاً: "ليكتب الناس ما شاؤوا– أدباً معقولاً أو لا معقولاً. فالمهم أن يكون هناك تفاعل بين الكاتب والقارىء، وأن يكون ذلك التفاعل لخير الاثنين".‡

يؤمن خالد الراوي أن التجديد يحصل دوماً كجزء من تطور الأدب، حيث تتغير الأنواع الأدبية لكن يبقى إيصال المعاناة الإنسانية والمشاعر الصادقة الهدف من وراء الكتابات الأدبية. ويتساءل القاص: "ما حقيقة التجديد..يكشفه ممثلوه بأن تجديدهم كان إسقاط الشكل القديم و (اختراع) شكل جديد.. ومسألة الشكل هاوية أساساً.. إذ ما أهمية إذا كان شكلاً وحسب..فانهيار أحد الركنين – الشكل والمضمون– في كافة الأعمال والمدارس يجعل العمل هلوسة أو بوقاً لا غير".§ ولا يعني التجديد بالنسبة للقاص محو الأسس الصلبة للأدب، بل تشير الى تغيير الهيكل الخارجي فقط، فهو يقول: "إن التجديد... لا يعني هدم الموجودات.. ولا تدمير المسائل المنطقية في الأشكال والصيغ والأفكار.. كذلك ليس بناء عمل أدبي من كلمات نافرة عن الالتصاق الشرعي".** وقد كانت الكتابة بشكل جديد صعبة في البداية لعدم الاعتياد على النوع الأدبي الحديث، حيث يعلق القاص في هذا الخصوص:

---

1 بلا مؤلف، "هل القصاصون العراقيون الجدد هامشيون؟"، جريدة الجمهوريـــة، العـــدد 1054، 27 نيسان 1971.

2 رسالة شخصية من ميخائيل نعيمة الى خالد الراوي، 10 تشرين الثاني، 1964.

3 رسالة شخصية من ميخائيل نعيمة الى خالد الراوي، 3 شباط، 1965.

4 خالد حبيب الراوي، "صفحة المحرر،" مجلة وعي العمال، العدد 13، 7 تموز 1969.

5 خالد حبيب الراوي، "كلمة المحرر،" جريدة صوت العرب، 26-10-1965.

جرى التطورفي "القصة القصيرة" في الغرب نتيجة عوامله الطبيعية المعروفة. أما في الشرق، لا سيما في بلادنا، فقد حدث فجائيًا، ولعل أهم سبب في (التطور) يرجع الى (رغبة) الكتاب بأن يصبحوا معايشين للحضارة وأن يواكبوا مسارها ونموها، لذا كان التطور مسخًا هزيلاً، لا يملك قوة وجودة الحاضر. وبالاستطراد قليلاً، نستطيع تحديد الانقسام الموجود بين الكتابة الأصيلة وغيرها معرفة حقيقة مؤداها أن الكتاب انفتحت أمامهم فجأة عشرات المطبوعات الأدبية المترجمة التي كانت تنقص أسلافهم. وقد نجح المقلدون في نسخ اللغة والبناء على شاكلتها. أما المضمون والموضوع، فقد ظل منحلاً ومتهافتا في الكتابات. والسبب أن الكتابات العظيمة ليست شكلاً مجرداً، بل هي فكر عظيم وأصيل. إذن فالتطور يعتمد على الوعي والتجربة، وبدونهما لا يمكن إلا صنع نسخ مكررة ومفضوحة. وبالنسبة لي، فقد عاصرت جيلين مختلفين. جيل انقرض تقريبًا كان يعتمد على الحكاية الخارجية وملامسة الأفعال من سطحها. والجيل الجديد الذي بدأ بغضبه على سلفه ومازال غاضباً دون أن يقدم، فعلاً، الأعمال الأدبية التي تجعل موقعه ثابتاً. إن دأب الكاتب لا يتحدد ولا ينتهي. لذا فمهمته هي تعميق وعيه بالتأريخ. بالزمن الحاضر، بالعالم، مستخدماً كل التراث الإنساني والذهني في تعيين موقعه والاستمرار منه. وعلى هذا تكون علاقتي بالتطور. ان الأشكال وحتى تفصيلات الذهنيات تكون تجريبية في هذه المرحلة من فترة النمو. وعلي أن أبطل القناعات التي تجعل العمل يرتخي أو يقف عند نقطة الانتهاء.[1]

ويقول حمدي مخلف الحديثي إن خالد الراوي "حاول أن يكون متفرداً من أبناء جيله" بالقصة القصيرة جداً، فهو جزء من الاتجاه التجريبي لجيل الستينات الذي يعرفه على أنه "يبحث في الشكلية وبرؤيا جديدة حاولت طرح أفكار ناقشت الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي بإحساس ممتلىء بالرمزية ذات روح نقدية حادة. وأصحاب هذا الاتجاه حاولوا تجاوز جيل الخمسينات وعدم الاعتراف بما قدموه إلا من الناحية التوثيقية التاريخية

---

1 بلا مؤلف، "حوار مع القاص خالد الراوي،" مجلة وعي العمال، السنة الرابعة، العـدد 57، 1 حزيران 1970.

لمسيرة القصة العراقية".* لكن الاعتماد على نوع أدبي جديد يعد خطوة جريئة لم تخل من انتقادات لاذعة. يقول خالد الراوي "أعتقد أن كل مرحلة أفرزت كتابها ولكن التركيز على كتاب الخمسينات كان يأخذ شكله المركز وكان للحركات السياسية الدور الكبير في تسليط الضوء على بعض الكتاب والتعتيم على بعض الأسماء الأخرى ولكن في الستينات واتصالاً مع حركات التمرد في جميع أنحاء العالم فقد جرى تقويض الكثير من التقاليد والأعراف القديمة وظهرت موجة كتاب الستينات بصفاتها المعروفة عنها..."†

لكن بعض النقاد في فترة الستينات والسبعينات لم يستطيعوا تقبل مسألة التجديد ببساطة، لذلك عمدوا الى السخرية من أدب اللامعقول ومن كتاب القصة القصيرة جداً. يقول فاضل عباس هادي بعد نقاشه عن الأسلوب البلاغي والقصصي لخالد الراوي في مقالته "الناشطون السياسيون والأسلوب الأدبي" (1970)، إن اللغة المجردة والمختصرة للقاص لا تجعله فاهماً للطبيعة البشرية فهو يحلق فوق السطح مضحياً بالعمق، وهذا ما يصعب فهمه مما جعله مؤخراً عرضة للسخرية".‡ لكن تتساءل ناتالي ساروت أليس هدف القصة هو "إحداث هزة تؤدي الى تغيير في شعور القارىء؟"§ أليس هدف الأدب إمرار رسائل مختلفة الأنواع بغض النظر عن الشكل والطريقة؟ لذلك يؤمن خالد الراوي أن التجديد هو وسيلة وليست غاية. وفيما يتعلق بهدف الأدب بشكل عام، يقول خالد الراوي إن "هناك نوعين من الكتاب ينشران، الأول يهدف الى استمرار لتنبيه اليه للمحافظة على مواقفه التي إنشاها بالنشر المركز...وبالتأكيد أنا لا أحترم هذا النوع...إذ يحمل إدانته المتجددة مع كل نشرة جديدة. فهذا النوع قد كشف تجوفه ولا أهميته لكنه ظل منطلقاً بروح الوقاحة الفظة في النشر. إن من كان وقحاً مغلقاً لا يحس

---

1 حمدي مخلف الحديثي، "القصة القصيرة جدا: جيل الستينات.. موقف،" جريدة العراق، 2 تشرين الثاني 1996.

2 الرحماني، "دقائق مع د. خالد الراوي،" جريدة العراق، العدد 3466، 15 حزيران 1987.

3 Fadhil Abbas Hadi, "Of Political Agitators and Poetic Diction," Baghdad Observer, No. 823, 29-09-1970.

4 ناتالي ساروت،انفعالات، ترجمة وتقديم فتحي العشري، "ساروت..والانفعالات والرواية الجديدة"، القاهرة: المطبعة الثقافية، 1971، صفحة 32.

بمسؤولية قط ولا تحرجاً إزاء الفكر. إنه كومة من كلمات مزوقة مزينة بتفاهة، خالية من الفكر والكشوفات. أما النوع الثاني الذي يريد التخلص من مرحلة سابقة وتجاوزها الى تقدم دائم وتفتح أوسع فهو المسؤول الذي يعتقد أن مهمته تبدأ. إنه عكس وانعكاس. أن يبقى جديداً حاراً. أن يهدأ وعيه ويكف عن الكشوفات".*

وربما اقترب الناقد شجاع مسلم العاني في تحليله للقصة القصيرة جداً وما يسميه بتيار الوصف الخارجي المباشر مما تهدف اليه ساروت، حيث يذكر أن قصص خالد الراوي "في اقتصادها الشديد بالكلمات، وفي اقتصارها في وصفها للعالم الخارجي على أقل ما يمكن من الموضوعات، وفي إسرافها النثري بعيداً عن سمو الشعر أو روح التحليل، هذه الأقصوصة تقترب من (السكتش). إن القاص هنا، لا يقدم لنا أقصوصة حية نابعة بالحياة، بل يقدم لنا هيكلاً عظمياً للأقصوصة وعلى خيال القارىء تقع مهمة إكساء هذا الهيكل العظمي باللحم والدم".† تعد العلاقة بين القارىء والكاتب إحدى مكونات الحداثة، فأصبح الاثنان يسيران معاً نحو فهم العمل الأدبي وتعريضه لتفسيرات أدبية لا متناهية.

نشر خالد الراوي أول مجموعة قصصية عام 1969 بعنوان (الجسد والأبواب) وامتازت برمزيتها ولغتها الصعبة وهي تمثل المرحلة الأولى لتطوره القصصي مع المجموعة التي تلتها (القناع) عام 1971. ويشير عنوان المجموعة الأولى الى الجسد، لأنه كيان مقدس، ويجب أن يعامل بكل تبجيل حسب رؤية القاص. وتدل بعض القصص على وجود اعتقاد لدى الكاتب بقدسية جسد المرأة خصوصاً والرجل عموماً. وهو ما يشير إليه دوما بإحساس ابن الشرق نحو المحرمات ويتحول في بعض الأحيان الى إحساس نرجسي نحو جسده نفسه. وتؤكد رمزية العنوان أن الجسد هو باب الروح والكيان الذي يميز الإنسان ويعطيه ماهيته من خلال شكله وحاجاته الفسيولوجية. بالرغم من أن الرموز الجنسية واضحة في القصص بشكل عام، إلا إن الكاتب يمرر دروساً وعبراً أخلاقية ملتزمة في الوقت ذاته. على

---

1 بلا مؤلف، "حوار مع القاص خالد الراوي،" مجلة وعي العمال، السنة الرابعة، العـدد 57، 1 حزيران 1970.

2 شجاع مسلم العاني، "اتجاهات الأقصوصة العراقية الجديدة"، المثقف العربي، العدد 3، نيسان 1970، صفحة 82.

سبيل المثال، يحاول الرجل في قصة (مسافات) ضمن مجموعة (العيون) ممارسة الجنس مع امرأة غريبة، لكن ينتابه شعور بالقرف والضياع في الأخير. وهذا ينطبق على أغلب قصصه التي تتناول علاقات حب غير شرعية حيث تنتهي بالفشل، وهو ما يدل على البعد الأخلاقي والهادف للقصص.

وتتناول القصص في مجموعة (الجسد والأبواب) لمحات مقتضبة وقصيرة عن حياة العامة ومتاعبهم وخاصة بعض الناشطين السياسيين من الشباب. وتصور كذلك مواقف مختلفة من حياة خباز وبائع السميط وزبال وبائع النفط وعامل البناء وصباغ الأحذية...الخ. ويظهر القاص تعاطفاً مميزاً مع هذه الفئات المظلومة، نظراً لأنها تكدح من أجل لقمة عيش شريفة، لكن أغلبهم يصطدمون مع جشع وطمع الأرستقراطيين الأغنياء. والكاتب يمرر رسالة فحواها أن الإنسان لا يقاس إطلاقاً بطبيعة عمله بل من خلال حسن معاملته للآخرين، بغض النظر عن المال الذي يمتلكه. ويشير كذلك الى حقيقة أن الإنسان يمكن أن يكون قاسياً وأنانياً الى درجة يفقد معها إنسانيته التي تميزه. وهنالك محور قوي في قصصه ألا وهو الصراع الطبقي بين الأرستقراطيين وطبقة الكادحين. والقاص يؤكد دوماً على دناءة الأغنياء لأنهم يسحقون الآخرين ويتحكمون بحيواتهم. حيث يتناول القاص مسألة الظلم في المجتمع وبالأخص ضد الفقراء الجهلة الذين لا يعرفون كيف يحصلون على حقوقهم الأساسية. وعلاوة على ذلك، يعرض خالد الراوي صوراً سينمائية من حيوات المضطهدين السياسيين ولو كانت متقطعة وقصيرة، لكنها تعبر عن معاناة إنسانية حقيقية. ويمكن بوضوح رؤية التفسير الماركسي للأدب عند القاص الذي يميز بين الكتاب البرجوازيين والاشتركيين الثوريين الذين يريدون تغيير وهدم كل الأصنام القديمة والعادات الرجعية من خلال أدب اشتراكي عربي يؤمل منه أن يصل الى مصاف الأدب العالمي. ولقد وصف أهمية الأدب في الحياة العامة والسياسية بالكلمات التالية: "إن بعض مهمة الأدب... يمكن أن يشار إليها بإسهامها بجد وصدق بترسيخ الثورة والدعوة لها.. وبث المفاهيم الاشتراكية وما ينبع منها من معتقدات وأخلاقيات وغرزها في طبيعة البشر.. مع احتفاظها بالطليعة في إنجاح معارك التحرر

والبناء.. مع اتصالها الكامل بالإنسان بداية ونتيجة".[*] لم يكن خالد الراوي مقتنعاً تماماً بنتاج الأقصوصة العراقية خصوصاً والعربية عموماً لأنها كانت مرتبطة بمرحلة رجعية عانت فيها الأمة الكثير وأثرت، تبعاً، على مستوى الكتابات السابقة. يقول القاص في هذا الخصوص:

إن الأديب الذي يعيش في رقعة مكانية معلومة تحكمها شرائع معينة وتحوطها عادات وروابط يكون ابن تلك الأجواء. فعندما يمنح وجوده الأدبي الحياة يستمد ما يعينه على الحياة والانطلاق من تلك البيئة.. فهو يرصد التحركات والغرائز والكوامن ويرصد المحيط العام.. ومن خلال عمق التقاطه لتلك الأشياء يستطيع بذلك العمق ذاته تفريغ إكسائه الشخصي لمحتوى تلك الأشياء.. وكلما كانت معاناته متفاعلة كان العطاء أنضج وأفضل.. ونخلص الى أن الأدب للشعب هو الذي يكون من الناس وينتهي اليهم.. ومن سمات الأدب الأشتراكي أن علاقته التامة بالإنسان والعلاقات الإنسانية هما الجدولان اللذان يغترف منهما الأدب معينه.. والإنسان هو قمة الموجودات في العالم وهو الملتقي الأول والأخير للأدب لذا ينبغي البحث في مجاهيله وكوامنه وإسبار علاقاته مع الناس ليتمكن هذا – الإنسان– من العثور على نفسه التامة.[†]

ولهذا، وبسب حسه الوطني والقومي العالي، ركز القاص على ربط نفسه بالواقع لكي يعكس أدباً محدثاً وهادفاً، لكونه عاش مرحلة مضطربة. وفي جوابه عن تصوير معاناة الثوريين في قصصه، يقول خالد الراوي:

أنا موجود ضمن أرض محددة لها حدود معلومة وتهب عليها رياح ذات روائح وألوان مميزة. فوجودي هذا أباح لي تقدير المساقة والأنواء والعوامل المؤثرة في الحياة عى تلك الأرض. لقد مر معظم الشباب العراقي بتجارب سياسية، سواء حزبية أو لا منتمية. ولخلل في المسار التأريخي حصلت التباسات كثيرة وانكسارات متعددة قذفت بالفاعل السياسي الى خارج الفعل وجردته تماماً من ديناميكيته لقد كبر الطفل وهو مصبوب في قالب سياسي. كبر بلا طفولة، بلا مراهقة، بلا عبث، بلا أحلام. كبر ورأسه يدوي

---

1 خالد حبيب الراوي، "الأدب والثورة العربية،" جريدة صوت العرب، العدد 183، 28-2-1966.

2 خالد حبيب الراوي، "علامات الخلاص والأدب العربي الحديث،" جريدة صوت العرب، 15-8-1966.

بالشعارات ومقولات الثورة. ثم اكتشف فجأة أنه وحيد. الآخرون انسحبوا أو اختفوا أو صاروا جلادين يلاحقونه فأية مرارة تملأ فمه ورأسه وقلبه بعد ذلك. والغريب أن ثورة 14 تموز بدأت كبيرة ثم بدأت تصغر مباشرة بعدانبثاقها. إن المرارة ومحاولة الجنون للبقاء في النظافة واليأس مع الأمل في الثورة هي التي دفعت الى ارتباك النموذج الفعلي. إن التملص من الأرض أو من الإنسان الذي فيها هو سقوط في الفراغ وهو الحاجز الذي تنهار عليه الادعاءات والحذلقات والثقافات الموهومة. إن معاناة العيش ضمن التجارب مع قدرة كشفها ضمن وعي عصري شامل هو الذي يخلق الأدب الحقيقي. أما قدرة فرز نماذج تجريدية منفصلة فلا يحمل دلالة ابتسار وعي الكاتب المحمل بمقدمات رنانة.

وعلاوة على ذلك، يتناول الكثير من القصص الرعب الذي ينتاب الشخصيات جراء مواجهتها الموت سواء داخل السجن أو في جبهة القتال أو الحياة العامة. أما معاناة السجن، فهو هاجس دائم اعتاد الكاتب تكراره كأنه كابوس يطبق على شخصياته. يشعر الكاتب أن الإنسان يضحى معزولاً وضعيفاً وفاقداً لإنسانيته في الزنزانة، لذلك ركز مراراً على هذه التجربة الإنسانية من أجل إيصال الشعور بالألم والمرارة التي تنتاب السجين. في مقابلة صحفية مع خالد الراوي عام 1969 وصف العالم العربي بأنه يحوي "نظماً جافة متراكمة. الإنسان فيها صفر، لا يملك حق جسده وفكره. إنه مطارد للنهاية. لا يدري ماذا تخبئ له خطوته القادمة وعبر سنوات كثيرة امتصت الإنسان حتى عظامه. هذا الهول الإنساني أكبر وأكبر من أية قصة كتبت حتى الآن..والقصة عندنا كما طرحت تبدو خالية تماماً من الأرضية العراقية الحقيقية..."[1] وقد شخص القاص الحالة السياسية المتردية للعالم العربي عموماً التي تنعكس دوماً على الإنسان الذي يضحى مسحوقاً وممزقاً نتيجة الاضطهاد والدكتاتورية، قائلاً: "إن تألق أي أدب.. هو ارتباطه بقضية ما...فكيف نطلب من كاتب كان يعيش في بلد يخشى إنسانه من ظله، وهو لا يأمل البقاء حياً في خطوة تالية، ويمسح في كل صباح أمطار الدم التي تملأ

---

1 بلا مؤلف، "حوار مع القاص خالد الراوي،" مجلة وعي العمال، السنة الرابعة، العدد 57، 1 حزيران 1970.

2 أسامة الصالحي، "الجديد في القصة العراقية: الإنسان صفر ولا يملك حق فكره وجسده"، مجلة الأسبوع العربي، العدد 520، 26 آيار، 1969.

باحات حياته والتي كانت تتفجر في كل ثانية..كيف نطلب منهم ذلك ورؤيتهم كانت ابتسامة أو بصقة امرأة.. أو يعيشون شبه ذلك.. إن إنسان العصر الذي يبحث عن حريته الجسدية والمطلقة في شكليها الوجودي أو العقائدي.. او الإنسان الفوضوي الذي يبقي تهديم كل شيء..هو الإنسان الذي افتقدناه..وهو وقضيته يشكلان الكتابة العصرية.."[1]

ومن الموضوعات المتكررة في قصصه هي العلاقات الإنسانية المعقدة وخيانة الحبيبة والعلاقات الزوجية المتفككة، نجدها مثلاً في قصة (المعادلة) في مجموعة (القناع) وقصة (الانزلاق) في مجموعة (الجسد والأبواب) التي تتناول قصة امرأة أرادت خيانة زوجها، لكنها غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة.

في المجموعة الثانية (القناع)، يركز الكاتب على موضوع الشخصية في صراعاتها النفسية مع الذات والآخر. ويشيرالعنوان الى أن الناس يرتدون أقنعة في تصرفاتهم مع الآخرين وحتى مع أنفسهم. وهذا الزيف الذي بدأ ينتشر ويعم بين الناس وبالأخص الأدباء هو من أكثر القضايا التي ينتقدها الكاتب. يقول خالد الراوي في مقالته "هموم القصة القصيرة" إن بعض كتاب القصة القصيرة "يزيفون الكلمات ويكذبون حتى على أنفسهم..يكتبون عن الحب والجنس والرغبات الحارقة والضياع والابتذال المعنوي الخ.. وينسون أنهم على أرض.. إنهم في حقيقة.. حقيقة هائلة لا تنتهي.. إن الوطن سار في بحر مائج سنوات طوالاً وهم يكتبون وكأنهم كانوا نياماً أو مفقودين.. أهي غفلة أم تهرب؟ الجواب هو تهرب.. تهرب من وضعية خطرة.. لا يستطيع لمسها إلا من يملكون إيمان المتعصبين وتضحية الأبطال الخرافيين.. هذا التهرب مقصود ويداخل الخوف عظامهم من محاولة الاقتراب لأنهم ما إن يقفوا حتى تصفعهم الريح وتنتزع تركيزاتهم وأذهانهم.. إنهم ينتمون الى جيل الحكائيين المستهلكين الذين لم يعرفوا ما المراد من القصة القصيرة.. إن هؤلاء الناس الذين تستلب عقولهم فتيات حسناوات او الكتابيين لأسمائهم أو من الموسرين الذين يتسلون بالكتابة القول ينطبق عليهم.. إنهم الهزيمة التي تعيشها القصة في هذا البلد..إنهم يكتبون عن أفكار ومضامين دخل فيها آلاف المرات منذ مئات السنين..إنهم الشيخوخة التي تتعفن في هذا الزمن.. القصة القصيرة يا سادة ليست لعبة وليست سلماً لمضاجعة امرأة وليست تسلية..إنني

---

1 خالد حبيب الراوي، "صفحة المحرر،" مجلة وعي العمال، العدد 13، 7 تموز 1969.

أردد مع أحد النقاد العراقيين– إن كتابنا يبدأون من بداية البداية.. وما دامت النتيجة موحشة منهارة..فلن يفيد هؤلاء الناس النصح ولا الإنذارات ما داموا يستمرئون الرقص على غباء بعض البشر.."*

وتميل الكثير من القصص الى السخرية من الذين يدعون ماليس لهم أو من الذين يلبسون الأقنعة في تصرفاتهم. ويستهجن القاص بشدة الادعاء والكذب داعياً الناس لأن يتصرفوا حسب طبيعتهم رافضاً في الوقت نفسه الطبقية في المجتمع. والدلالة الأخرى للعنوان (القناع) هو أن الرمزية اللغوية لهذه المجموعة ما هي إلا قناع يستخدمه الكاتب لكي يستدل القارىء على رسائله بشكل غير مباشر. وبشكل عام، هنالك نظرة سوداوية متشائمة نوعاً ما في القصص، يعود جزء منها الى الواقع المرير الذي عاشه مع جيله، وجزء آخر يعود الى وجهة النظر الشخصية للكاتب تجاه الآخرين.

وتنبثق رؤية خالد الراوي من فلسفة وجودية متمثلة في تصوير الإنسان الذي يكافح في حياته محاولاً التملص والتخلص من حتمية المعاناة والألم. وتأتي هذه النظرة من الواقع الذي كان يعيش فيه القاص وخاصة في نهاية الخمسينات والستينات التي اتسمت بانتشار مفاهيم فلسفية وثقافية جديدة على الواقع العربي. وهو يتساءل على لسان إحدى شخصياته: "لماذا يولد الإنسان ليموت؟"†

وتنحو بعض القصص الى الخيال معتمدة على التحول الكينوني للشخوص بما يسمى بالميتامورفوسس. ويشير القاص هنا الى عبثية الوجود ورؤية سريالية نحو الإنسان جاعلاً بعض قصصه أشبه بسرد أحلام ذات دلالات رمزية غير خالية من حس فكاهي. يقول الناقد عباس الجبوري إن خالد الراوي وهو "أكثر غزارة في كتابة" القصة القصيرة جداً من بين أبناء جيله، حيث "نجد عالماً فنتازياً تختلط به أجواء كافكا وكامو وسارتر الضبابية، (و)تتمسرح في قصصه شخوص انطوائية وسوداوية قاتمة تذكرنا بميرسو

---

1 خالد حبيب الراوي، "هموم القصة القصيرة،" جريدة الجمهوريـــة، 21 تشـــرين الأول 1966.

2 خالد حبيب الراوي، "الجدار وزهور البحر،" في مجموعة الجسد والأبواب، النجـــف: مطبعة الغري الحديثة، 1969، صفحة 26.

الغريب، وبطل الغثيان والمسخ، والقصر.. ثم تبرز من خلال القصص علامات فكرية تجرنا الى التمرد والوجود واللامعقول، (كولن ولسن)".*

وفي مجموعته الثالثة (القطار الليلي)، غير خالد الراوي أسلوبه اللغوي والقصصي بعض الشيء، حيث أصبحت اللغة أسهل وقل استخدامه للرموز والأسلوب البلاغي. على الرغم من هذا، حافظ القاص على موضوعاته المعتادة ومنها معاناة السجين والقضية الفلسطينية وتصوير حياة الفدائيين الذين يقاتلون من أجل تحرير وطنهم المحتل. وحتى أسماء الشخوص قلما تكون كاملة، إنما على الأغلب يرمز لها القاص بحرف واحد، للإشارة إلى أن ليس لها كينونات ثابتة ولا تشعر بإنسانيتها وهي ممثلة بالتالي لإنسان العصر الحديث. وفي هذا المنحى التجديدي، يقول الناقد فوزي كريم إن خالد الراوي يملك "المنهاج الشعري–الإنشائي وهو يبتعد ما وسعه عن الاسترسال ويلتجيء إلى ملاحقة الحدث والأبطال بلقطات سريعة".†

وتبين مجموعة (العيون) 1977 تأثير ناتالي ساروت أكثر من غيرها، وهي لاتتعامل مع شخوص محددة بل نماذج من شخوص. ويشير القاص هنا الى أن الأحداث المقتضبة التي يتناولها في قصصه قد تحدث لأي شخص في أي زمان، حيث يكون التركيز على الموقف أكثر من الشخصية. فقصة (النافذة) على سبيل المثال، تعد لوحة فنية انطباعية بحد ذاتها.

الأدب الملتزم : والقضية الفلسطينية

تنبثق رؤية خالد الراوي من الواقع الذي كان يعيشه، فقد اعتاد انتقاد الاتجاهات الأدبية السائدة في وقته والكتاب الذين يقلدون الغرب من أجل التقليد فقط بدون وجود الهدفية. وقد ركز على أهمية الصدق والانفتاح في الكتابات النقدية، لأنه يشعر أن للكاتب مهمة أخلاقية ومسؤولية اجتماعية تمليها عليه ظروف محيطه، فهو يقول: "إن الأدب والسياسة محركان يدفع

---

1 عباس الجبوري، "مدخل دراسة (القصة القصيرة جدا)"، مجلة الطليعة الأدبية، العـدد 5–6، أيار وحزيران 1976، صفحة 31.

2 فوزي كريم، من الغربة حتى وعي الغربة، بغداد: دار الحرية للطباعة، 1972، صفحة 242.

أحدهما الآخر حيويته فيمنحه البقاء الحقيقي".[1] وقد مر الوطن العربي في فترة الستينات بالأخص بمرحلة عصيبة شهدت انتكاسة حزيران 1967، التي تركت جرحاً عميقاً عند أبناء الجيل الملتزم في وقتها. حيث خلقت الانتكاسات الحربية للعرب واقعاً مريراً ومؤلماً عند الأجيال الشابة الواعية التي أرادت النهوض ثورياً بهذا الواقع. وبشكل عام، امتازت هذه الكتابات بالحدية والجدية المفرطة، وقد اشتمل نقد خالد الراوي على الأدب بأنواعه والفن وحتى بعض الممارسات الاجتماعية الخاطئة.

بعد انضمام خالد الى اللجنة الإعلامية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كان يكلف بالذهاب الى بيروت وعمان ودمشق في مهمات خاصة. ويذكر أنه اعتاد السفر بأسماء وهمية كجزء من التمويه وقد دون بعض تجاربه التي أغناها السفر في قصتي (مياه) و (الحدقة) في مجموعة (القناع) وقصة (القوس) في مجموعة (القطار الليلي). وظلت المسألة الفلسطينية من الموضوعات التي انشغل بها في كتاباته وحياته. يذكر خالد الراوي عن دور الأديب في القضية الفلسطينية:

النهر الجديد الذي اكتشفه الكتاب العراب بعد 5 حزيران.. هو دور الأديب العربي في المعركة وأدب ما بعد حزيران.. وصار الكل يرمون بهذا النهر تخطيطاتهم وابداعاتهم الفكرية الكلامية وتصوراتهم للأدب السحري الجديد وابعاده! كأن الأدب إختراع وليس حياة.. وغير جديد الاستنتاج أن النكسة الحزيرانية امتداد لانفصال فلسطين عام 1948.. وإن ذات الأسباب- وإن اختلفت نسبيا- كانت منتجة الخسارة.. إن فلسطين- من خلال الأدب البرجوازي الزائف- كانت حلما للشعراء الذين يتغنون ببرتقالها وليمونها ويرثون لخيامها.. وصار الصهاينة محطات للعنة والتهديدات بأسوأ المصائر...بهذه العاطفة الحمقاء بهذا السعي الساذج، هكذا كان يواجه الأدب البرجوازي تلاقي وتفاعل الجماهير العربية المخدوعة والمخدرة بقضية فلسطين. فخلال الكثير من السنوات..طرحت مئات الالاف من القصائد والموضوعات عن فلسطين..واكتشفنا زيفها وبطلانها كلها في حزيران..لأنها كانت خالية من الصدق والشجاعة والأصالة..إن الحرب هي القوة والستراتيج

---

1 خالد حبيب الراوي، "تموز القائد،" جريدة الثورة العربيـــة، العـــدد 301، 16 تمـــوز 1965.

والسرعة..والشعر العربي هو الشعر العربي: شباك نصطاد بها أنفسنا..إن المسألة الأساسية التي أريد توضيحها..أن الأديب الأصيل لا يمكن بأي حال ان يكتب عن قضية ما الا من خلال انفعاله الداخلي بها.. وتكون عملية ربط الوعي بالإحساس هو النور النقي في ولادة الأدب الحقيقي...اما أن يقف الكتاب ويتحدثوا عن دور الأدب في المعركة..فهذا هو البؤس الذي نرفضه- أين كانوا خلال عشرين سنة من المعركة!!-..إنهم ممثلون زاحفون من الطين البرجوازي الذي كنا غرقى الى أعناقنا فيه..

-الى الأدباء- انكم تحددون دور الأديب في المعركة..فأين دوركم الأدبي في المعركة!! إن النغمات الفجائية الفقاعية تبقى رنينا مملا مزعجا.. إنها تدين -الإبداعات- التي تطلقها..انها سقوط الجيل الأدبي القديم..انه موته النهائي في هذا العصر..إن الأديب إنسان يملك من الحساسية والقدرة على التشخيص ما يفوق به غيره من الحرفيين.. لذا فهو يعيش الحرب والنكسة والأمل والثورة كجزء منها..كفرد يتلقى ويعطي، وهو مرصود ومتحفز..وعند الضرورة يحمل السلاح ليقاتل.. ومن هذه الأرضية يكون الأديب الحقيقي الذي يعيش دوره.. لا أن يكتب عن فلسطين ليقال عنه انه ملتزم أو بشارك- بشعوره!!- في الأحداث التي تقع هناك!! ان عصر الوعي الحقيقي ابتدأ.. وكل عربات التزييف والاستغفال التي كانت تحمل الأدب لشعبنا العربي خلال المئات من السنين سيحرقها الشباب..الذين تولد الثورة من دمائهم وتنمو بهم..[1]

ويخطئ الناقد رزاق إبراهيم حسن في وصف القاص خالد الراوي بأنه "يهمل الكثير من المعطيات المتوفرة في الشخصية، كما يعزلها عن الواقع الاجتماعي والسياسي، ويجعلها في مواجهة نفسها فقط".[2] ربما احتوت بعض القصص على تحليل نفسي مجرد لبعض الشخصيات، لكن ظلت القضايا المصيرية في مخيلة الكاتب تشغل همه وفكره كلياً وانعكست على شخصياته التي رسمها. يقول خالد الراوي في مقابلة صحفية إن "في جميع كناباتي كنت

---

1 خالد حبيب الراوي، "دور الأديب،" مجلة الشباب، العدد 12، حزيران 1969، صفحة 35.

2 رزاق إبراهيم حسن، الشخصية العمالية في القصة العراقية، بغداد: دار الحرية للطباعة، 1977، صفحة 111.

أعبر عن نضال الإنسان وبحثه عن الحرية وقيمه الوطنية.."* وهو يأمل بخلق أدب قومي له أهدافه المتمثلة بخلق وعي عند الشباب يتعلق بالقضايا المصيرية، وهو يقول: "إن الأدب الحقيقي في البلاد العربية نما بطيئاً كالأشجار ولذا فمسؤولية الشباب عسيرة لخلق أدب قومي– عالمي ولم يكشف النشر حتى الآن عن انطلاقة عظيمة".† وبكلمات أخرى، ينجح الأدب إذا ربط الإنسان بتأريخه وثقافته ودينه وهمومه، لكنه يضحى أدباً سلبياً، كما يشير اليه القاص، إذا كان "غايته تشويه العلاقة بين الإنسان والمحيط الخارجي لذاته،" ويضحى هنا "أدب مخرب.. مهما كانت روعة الأسلوب وفنية العبارات التي صيغ بها".‡ لكنه كان يعتقد بوجود مؤامرة كبيرة من أجل محاربة أي أدب قومي هادف، لتثني الجماهير عن مواصلة نضالها أو حتى تعميق الوعي بهذا النضال. ففي مقابلة مع الأديبة المصرية صافيناز كاظم نشرت في مجلة الف باء، طرح السؤال التالي: "ما مدى صحة ما يقال من أن الأدب العراقي أو الأدب العربي بصورة عامة مهمل بقصد مسبق؟ فقالت بدهشة: كيف؟ هل هذا كلام خالد الراوي؟"§

وتجدر الإشارة إلى أن القاص كانت له حساسية مفرطة تجاه قضايا الوطن جعلته يعكف في بداية السبعينات وما تلاها عن التفكير في المشاركة الفعالة في الحياة السياسية نظراً الى خيبات الأمل الكثيرة والأنظمة القمعية التي لا ترحم. لهذا فضل الصمت كردة فعل طبيعية نحو الفساد الحكومي والمصائب التي ابتليت بها الشعوب العربية، وباتت الأنظمة الدكتاتورية الناجي الوحيد بفضل الظلم والإجحاف الذي مارسته.**

---

1 الرحماني، "دقائق مع د. خالد الراوي،" جريدة العراق، العدد 3466، 15 حزيران 1987.

2 "حوار مع القاص خالد الراوي،" مجلة وعي العمال، السنة الرابعة، العدد 57، 1 حزيران 1970.

3 خالد حبيب الراوي، "السلبية والأدب المعاصر،" جريدة فتى العرب، العدد 2888، 28 آذار 1966.

4 صادق الصائغ، "لقاء مع صافي ناز كاظم،" ملحق الف باء، العدد (41)، 1969/4/16.

5 لمزيد من البحوث والدراسات النقدية التي تناولت القاص خالد الراوي، أنظر يوسف الحيدري، "الجسد والأبواب،" مجلة العلوم، العدد 8، آب 1969، صفحة 65–66 و حسب الله يحيى، "أبواب الراوي المفتوحة،" جريدة الجمهورية (العدد الأسبوعي)،

العدد 437، 10 مايس 1969 وعباس البدري، "ملاحظات عن الجسد والأبواب،" مجلة العمل الشعبي، العدد 11، 16 نيسان 1969، صفحة 33 و حامد الهيتي، "وجوه في الجسد والأبواب،" جريدة الجمهورية (العدد الأسبوعي)، العدد 409، 12 نيسان 1969، صفحة 14 و شريف الربيعي، "خالد الراوي.. العلاقة والتجربة،" مجلة الأذاعة والتلفزيون، العدد 7، نيسان 1969، صفحة 27 و شريف الربيعي، "نحو بطل ثوري.. دون (قناع)"، مجلة الهدف (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، السنة الثانية، العدد 60، 19 أيلول 1970 و حامد الهيتي، "عن القناع.. ورعب الوجه المخدوع،" جريدة الجمهورية، 1971/1/15 و موسى كريدي، "كتب عراقية صدرت،" مجلة المثقف العربي، أيلول وتشرين أول 1971، صفحة 164 و أنور الغساني "دراسة في أمراض القصة العراقية القصيرة: من أجل إعادة علاقة القصة بالواقع" مجلة الأقلام، العدد الخامس، حزيران 1971 و أحمد فياض المفرجي "مصادر دراسة القصة القصيرة في العراق" مجلة الأقلام، العدد الأول، 1972 و جهاد مجيد "محاولة في الكشف عن القصة العراقية" مجلة الأقلام، العدد الرابع، 1972و فاضل ثامر وياسين النصير، "محاولة في الكشف عن واقع القصة العراقية" مجلة الأقلام، العدد الثامن، 1972 وباسم عبد الحميد حمودي، "هذه القصة العراقية القصيرة جدا،" جريدة الجمهورية، العدد 2014، 9 مايس 1974 و غالب هلسا، "القصة في شهر،" مجلة الف باء، العدد 472، 5 تشرين الأول، 1977 و بلا مؤلف، "العيون،" جريدة الثورة، العدد 2827، صفحة 6، 1977/10/16 وسلام كاظم، "العيون ولماذا القصة القصيرة جدا..؟" جريدة الثورة، العدد 2819، 1977/10/6، صفحة 6 و يوسف نمر ذياب، "العيون،" جريدة الجمهورية، العدد 3082، 1977/10/7، صفحة 6 ونفيسة محمد قنديل، "العيون" مجلة الأقلام، العدد الرابع، السنة الثالثة، كانون الثاني 1978، صفحة 146-149 وعلي عبد الحسين مخيف، "العيون" مجلة الأقلام، العدد الحادي عشر، آب 1978، صفحة 125-129 و باسم عبد الحميد حمودي، "القصة العراقية القصيرة في زمن الثورة: الثورة حلما..الثورة واقعا،" جريدة الجمهورية، العدد 8525، 26 تموز 1993 وشكيب كاظم سعودي، "حديث عن القصة القصيرة جدا،" جريدة العرب الدولية، العدد (6121)، 2001/4/18 واحمد خالد الراوي، "خالد حبيب الراوي: رائد القصة القصيرة جدا في العراق"، الأطروحة، الجامعة المستنصرية، كلية المعلمين، العدد الأول، السنة الأولى، آب 2002، صفحة 32...الخ.

خالد حبيب علي الراوي
في سـطور

- ولد في بغداد في 1944/5/26
- نشر أول مقال له عام 1962 في جريدة الأخبار
- أكمل دراسته في إعدادية الأعظمية للبنين عام 1963
- دخل كلية الحقوق/ جامعة بغداد وتخرج فيها عام 1967
- سافر الى مصر ودرس الدبلوم العالي في التشريع الضريبي في كلية الحقوق/ جامعة القاهرة عام 1967 وعمل حينها مراسلاً لعدة جرائد ومجلات عراقية.
- رجع الى العراق عام 1969 وعمل محررا في مجلة الشباب وسكرتير تحرير مجلة العلم والحياة التابعتين لوزارة رعاية الشباب
- عمل مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مسؤولاً عن الأبواب الأدبية لمجلة الهدف عام 1969 وسافر الى العديد من البلدان العربية بأسماء مستعارة لهذا الغرض من بينها الأردن ولبنان وسوريا
- عمل مديراً لقسم الإعلام والوثائق والترجمة والنشر في وزراة التعليم العالي والبحث العلمي عام 1971
- سافر الى بريطانيا من أجل دراسة الدكتوراه في الإعلام عام 1978 من جامعة كييل وكتب أطروحته عن "التلفزيون والتنمية في العراق"
- عمل مراسلاً ثقافياً لجريدة الجمهورية عام 1979 في بريطانيا
- أنهى دراسته للدكتوراه عام 1983، وبعد حصوله على الشهادة رجع الى العراق
- عين في قسم الإعلام/ جامعة بغداد عام 1983 وترأس القسم أول مرة ما بين عامي 1987-1989 ولأكثر من مرة
- ترأس تحرير جريدة (الإعلام) لأكثر من مرة
- حصل على لقب الأستاذية (بروفسور) عام 1993 ليصبح أول عراقي يحمل هذه الدرجة العلمية في الإعلام بعد أكثر من ربع قرن من تأسيس قسم الإعلام عام 1964
- رشح لنيل لقب عالم عام 1993 المشمول ضمن قانون رعاية العلماء، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
- توفي في بغداد في 1999/4/6

من مؤلفاته

- الجسد والأبواب، قصص (1969)
- القناع، قصص (1970)
- منطلقات في الصحافة العراقية (1972)
- اساليب الدعاية الأمبريالية (1973)
- القطار الليلي، قصص (1974)
- من تاريخ الصحافة العراقية (1977)
- العيون، قصص (1977)
- الأشاعات حرب خفية (1986)
- تاريخ الإذاعة والتلفزيون (1991)
- الصحافة العربية في بلدان المهجر (مشاركة) الجزء الثالث – الموسوعة الصحفية العربية (1991)
- موسوعة إعلام العرب (مشاركة) الجزء الأول– بيت الحكمة (2000)
- وسائل الإعلام في العراق (غير منشور)
- تاريخ الصحافة العراقية (غير منشور)
- الدعاية الأجنبية الموجهة الى الوطن العربي (غير منشور)
- كتب في السبعينات العديد من التمثيليات التلفزيونية التي عالج فيها بعض المشكلات الاجتماعية في العراق. وقد جرى إنتاجها وعرضها على شاشة تلفزيون العراق مثل خيط العنكبوت، الدهاليز، طفيلي الدوائر، دائرة أصولية، أبواب وشوارع وغيرها.
- له أكثر من خمسين بحثاً منشوراً في دوريات ومجلات متخصصة متعلقة بالإعلام وتاريخ العراق الحديث.

من إنجازاته

- اشترك في العشرات من المؤتمرات العلمية المتخصصة في داخل العراق واحدها في جامعة العين في دولة الإمارات العربية المتحدة عام 1984.
- أشرف على عشرات طلاب الماجستير والدكتوراه وناقش الكثير من الرسائل الجامعية في مجال الإعلام والتاريخ والفنون.
- هو عضو نقابة المحامين والاتحاد العام للكتاب والأدباء في العراق ونقابة المعلمين ونقابة الصحفيين العراقيين ونقابة المحامين العراقيين.

الجسد والأبواب*

* نشرت هذه المجموعة في عام 1969، مطبعة الغري الحديثة ، النجف .

الرصاص:البيوت*

يبست القرية فجأة : الأبواب موصدة، والشبابيك محكمة الاغلاق.
توقف الرجل الغريب وسط الشارع الخاوي ومد عينيه في الهدوء.
كان قد ترك المدينة الكبيرة هارباً من رجال الشرطة.. انه مطلوب – بزعمهم – لاخلاله بالامن : سياسي مناوىء.
تساءل وهو يرفع عنقه الى الشمس المنحسرة على السطوح ماذا حدث؟
وتقدم الى باب قديم يعرفه وقرعه..
رنين وحشي.
ورجع خطوة.
ثمة ريح تتسكب في الدروب بروية.
دفع الباب بكفه، وتقدم نحو الشباك الخشبي ودفعه.
ثم اقترب من الباب ثانية وصاح:

- عزيز.. عزيز..

وتناهت اليه من نواح نائية إطلاقات نارية..
عاد هذه المرة بتصميم لدق الباب، لكنه انحنى بغتة الى الثقب وسطح نظره..
لم يبصر شيئاً.. لكن ظلمة ما انسحبت من الجهة الأخرى، فتكشف جوف البيت، ان شخصاً ما كان ينظر اليه.
اعتدل وهو يهتف:

- انا محمد.. افتحوا..

حدق في العجوز الواقفة في فتحة الباب ودفع لها يده.

- كيف انت يا عمتي..

وضعت العجوز كفها الضئيل في يده..

- ليس على ما يرام يا ولدي
- هل حدث أمر سيّء؟
- انقطعت اخبار ابني.. كان يزورنا خلسة في الليل.. اما الآن، وهزت رأسها:

---

* **نشرت هذه القصة اول مرة في مجلة العمل الشعبي، 2 شباط 1969، العدد الثامن.**

- فلا
غمرها بالطمأنينة وهو يتقدم في الداخل:
- انه بخير.. سمعت احد الوافدين من هناك يتحدث عنه قبل يومين.
تمتمت العجوز خلفه.
- الحمد لله..
وقف الرجل على باب الغرفة الداخلية وحملق في العجوز متسائلاً : كانت امرأة جالسة في الزاوية تتفحصه وطفل صغير أسند رأسه على ساقها.
كشفتها العجوز:
- انها جارتنا.. قتل زوجها في الجبل، ولم يبق لها احد فجاءت معي.
طرح الرجل دخوله، الى وجهها الحلو – بود. وقال وهو يجلس على الأرض قبالتها..
- هل انت بخير؟
تلت المرأة كلمات شكر غامضة..
التفت الرجل الى العجوز:
- ما بال القرية مقفلة؟
- منذ أيام ورجال مجهولون يأتون من السهل، يقتحمون القرية وينهبون، ثم يفرون الى السهل.
اندهش حانقاً.
- والرجال هنا.. ماذا يفعلون.. ألم يبق أحد منهم؟
هزت العجوز رأسها نفياً.
كانت الظلمة تثقل في الخارج.
طلب الى العجوز:
- هل أضيء الفانوس؟
نفرت العجوز هابة:
- لا.. لا.. لا نريد ان يكتشف أولئك الرجال ان بيتنا حي.. سنتناول طعامنا في الظلمة.
وفتحت قدراً نحاسياً كبيراً، ناولته رغيفا وتفاحة:
- أعطها لها.
وقدمت المرأة المنزوية جذعها اليه.

ثم أخذ حصته.
أسند ظهره الى الحائط وهو يقضم التفاحة، نظر بعينين نصف مغمضتين الى المرأة المنكمشة، ولحظها عبر جفنيه المنكسرين تلمسه بعينيها.
طفر من حلقه السؤال.
- منذ كم مات زوجك؟
وفتح عينيه بكاملهما في وجهها.
أجابته العجوز:
- منذ خمسة أشهر.
انه يقيس المدة:
- زمن طويل..
وأغمض عينيه ثانية:
(متوحدة في جبل الموت
لن تشرق شمس ما في غدها).
سعل الصبي مرتين طويلتين – هتفت العجوز:
- اذهبي به الى فراشه – وسألحق بك – اما انت فسأجيء لك بفراش.
نهضت المرأتان وتدلى الطفل وهما تعبران قرب قدمه.
: (السلاح في الاكتاف
والدم يبحث عن الدم)
أسقطت العجوز فراشاً مطوياً بجانبه:
مد ذراعيه.
- اتركيه.. انا سأرتبه.
ووضع في أذنها قبل أن تخرج :
- سأقيم هنا زمناً ثم ارتحل لأنظم الى الآخرين في الجبل.
وحين تغيبت العجوز سحب الغطاء الى صدره ودس يديه تحت رأسه.
الريح في الخارج تحمل معاطف الثلج للأرض : لا شرطة ولا سجن في هذه القرية النائية، انه الآن يهتم بسماع تنفسه حيث لم تعد عيناه تبصران قشرتيهما.
شدت أصابع متصلبة من الذعر زنده.
- محمد.. محمد

كانت العجوز منحنية فوقه، والمرأة الأخرى وسط الغرفة:

- الا تسمع؟

شد جمجمته للأعلى متسمعاً.

- لقد جاؤا.

أتمت العجوز وهي تنسحب الى جانب المرأة.

اقترب الضجيج من البيت وأصبح قرب الباب.

همست العجوز : اش.

ثم ابتعدت الخطوات تماماً عن البيت.

سحبت العجوز نفساً طويلاً مرتجفاً.

دوت أربع إطلاقات

- من السيء الحظ الذي كسر بابه.

امتص الصمت وجوههم..

ومرت أقدام كثيرة تركض خارج الباب، وصوت نسائي يصرخ مستنجداً.

حدقت العجوز بوجه الرجل.

- لقد نهبوا جسداً آخر، وربما هاجمونا غداً.

بقي الثلاثة واقفين، وانحنى الرعب مغرقاً جسد القرية مرة أخرى، والريح ما زالت تحمل معاطف الثلج للأرض والأحياء.

* * *

القطار الذي لن يعود

لم يبق على انطلاق القطار، الا دقائق ضئيلة ..
انتبه الرجل النحيف الذي يقف الى جانب القطار. رجل يتكيء على حائط المحطة القديم يرمقه.
ومن جانب آخر تعلقت به انظار بائع يرتدي دشداشة مخططة على رأسه حلقات من السميط.
تضخمت رهبته لتأخر المسافر الذي اتفق معه ..
تحرك بائع السميط وكاد يلامس الرجل النحيف راصداً الحقيبة الصغيرة التي تدلت من يده. ودفع ناحية صاحبه المتكيء على الحائط إشارة سريعة.
اعتدل المتكيء ببطء وفرك يديه.. تقدم خطوات ووضع كفه على ساعد الرجل النحيف وقال بصوت خفيض.

- افتح الحقيبة.

أجابه النحيف.

- لن افتحها. من تكون حتى افتحها لك؟

طارت غمزة سريعة من عيني الشرطي السري مع كلماته المتدفقة الخافتة.

- سارغمك على فتحها ان لم تفعل.

أنزل البائع سميطه. ووضع كتفه في ظهر الرجل همس:

- دعه يفتشها بهدوء.

تلفت النحيف في المحطة.
كان المسافرون ينتشرون فوق الرصيف متناثرين.
أراد أن يجد له منفذاً ليفر منه.
ضغطت أصابع الشرطي على القفل ومد يده.
أغمض النحيف عينيه.
وأخرج الشرطي طبقة من المنشورات السياسية.
قرأ اسم الحزب ثم أعادها الى الحقيبة وأغلقها.
علقها بيده اليسرى.
ثم خنق بأصابعه ساعد الرجل النحيف.

- تحرك.

انتبه اثنان او ثلاثة من الواقفين وتابعوهما بانظارهم وهما يخرجان من باب المحطة وبائع السميط يمشي خلفهما كالظل.

قال ضابط المخابرات وهو ينظر اليه مستخفاً:

- تفضل استرح.

ثم أشار الى الشرطي السري:

- اخرج.

كانا وحيدين في غرفة وسيطة تضيف العتمة الى أثاثها القاتمة نفورا كبيراً.. استطرد:

- الله بالخير.

لم يجب الرجل النحيف.. ظل متحفز العينين، منتبهاً في رعشته : في عبور الصرخات من الاقبية السرية باذنيه عندما جيء به.

سأل الضابط..

- من أعطاك المناشير؟

كان الرجل النحيف يستحضرذهابه للمحطة حاملاً ًالنشرات لمسافر الى البصرة، وكانوا قد كلفوه بايصالها له.. فنفذ الامر وانتظر قدوم ذلك المسافر فلم يأت.

ضحك الضابط وهو ينظر الى الحقيبة وقال واعداً:

- يبدو عليك انك شاب طيب، اذا أعلمتنا عن الذي سلمك المناشير نعفو عنك.

هربت عينا النحيف.

انتفض الضابط صارخا:

- انا أعرفكم، لا تتكلمون، انكم تموتون هباء، أعطنا أسماء الذين تعرفهم في تنظيمكم.

رد النحيف:

- ليست لي علاقة بأي تنظيم.. الحقيبة عثرت عليها في الشارع.

دوت ضحكة الضابط الساخرة ثم صرخ بسخط:

- هذا كلام أطفال، ابحث عن غيره، سنخرج اعترافك من عظامك.

وضغط على جرس بجانبه ودخل الرجل الذي قبض على النحيل.

ابتدره الضابط :

- منذ متى تعرفه؟

أجاب الطاريء:

- نحن نراقبه منذ زمن.

تلا الضابط : ألم يكشف لنا المسافر الذي لم يحضر؟

- آه، أجل.

- انكم تكذبون.

ابتسم الطاريء بقسوة :

- ستنهار كالرمل، وتفتح الأصداف العليا.

كان الرجل منقوعا ًبقسوة الصمود : والضحكات تتضاءل في أذنيه وهم ينحدرون به الى القبـــو.

* * *

الحائط*

كان البيت بعيداً عن المدينة، قرب خط الحديد على الشمال الشرقي منها، لا تحيطك به سوى أرض صلعاء ينسكب فيها ظل طريق وكانت الشمس منتفخة تقلي ذلك البيت اللامنتمي.

انسرب رجل نحيف الى الخارج حاملاً (علاقة) خوصية

بصوت رفيع انقذف من نافذة مفتوحة صرخت امرأة:

- كن يقظاً لئلا يسرقك تجار المدينة.

قهقهة بصوت متخشب:

- يسرقونني؟!

تسطحت على شاشة النافذة فملأتها.

- سينهبونك وانت تنظر اليهم.

- لا تسيئي بي الظن.

تلا كلماته المخنوقة وهو يمسك بدراجة هوائية شد على مقودها العلاقة، ضرب مقعد الدراجة بكفه.

- وهذه الدراجة العظيمة،هل سرقت فيها. لا يحصل المرء على مثلها الا نادراً. رخيصة كالهواء.

- ما زلت مرتابة ببائعها.

هدر بضحكة طبلية وهو يسحب الدراجة عن الحائط:

- انت ترتابين أبداً .

ثم ركب الدراجة ومشى.

مسحت بعينيها خط الحديد الباهت، ومن بعيد كانت المدينة، الدور، الاشجار، أعمدة النور والهاتف.

امتلأت بالحنين:

الحدائق والصغار. وعلى كرسي منزو يجلس عاشقان.

وهناك الأقدام التي لا تقف، المدينة، المدينة.

ركزت في خط الحديد:

---

1 نشرت هذه القصة اول مرة تحت عنوان (جدار في الشمس)، في مجلة العاملون في النفط، 4 كانون الاول 1966، العدد 57.

.. منذ ستة أشهر بنوا المنزل واسكنونا ليقيموا مشروعاً للدواجن، لكنهم لم يبدأوا، واخالهم لن يبدأوا أبداً، ونحن وحيدان، ان لقمة العيش تفرض إرادتها.

تضخمت كتلة المرأة في النافذة:

- هذا رجل يتعجل دراجته الى منزلنا، ترى ماذا يريد؟

أوقف الرجل الغريب دراجته على صفحة الحائط، وتنحنح. همست بقلق:

- لا أعرفه، ولم أره من قبل.

اندفعت الى اذنها رنة طرقة.

هتفت:

- نعم.

طرقتان أخريان.

اكتسحت هيأتها بنظرة وعدلت ثوبها.

اندفع الباب من الخارج مكتسحاً يدها الواهنة.

- السلام عليكم.

كتل من الصدأ تعلو الصوت.

رجعت الى الوراء خطوة.

- أهلاً

- سمعت ان زوجك اشترى بالأمس دراجة.

أجابته ورعبها يرتخي.

- اجل.

- كانت دراجتي، سرقها الصبي الذي يشتغل عندي.

وعندما قبضت عليه دلني الى هنا.

كلماته سقطت دون حنق.

ارتبكت المرأة

- سيعود ما دام الأمر هكذا فتأخذ دراجتك.

أرادت ان تبني جداراً:

- عندما أطل الصبي كانت عيناه تحومان. أمسكت بزوجي وقلت له : انه مريب، لكنه رمقني بغضب : دراجة بدينارين ادعها تفوت؟ وأخذ يقنعني، قد يكون محتاجاً للنقود، وان دراجتنا القديمة قد تهرأت.

كان الرجل يتابع فمها، ينفتح وينغلق.
تقدم اليها.
ارتعشت اجفانها صرخت:
- ارجع.
وثب عليها انفجرت أصابعه في ذراعها وانفاسه تحرث اذنيها : لا أريد الدراجة.
تجمعت قواها في كوعها وضربته في أواسط صدره.
- وركضت الى الخارج.
ناداها الرجل.
- لن تنجي، اين تفرين؟
انغمرت بجذور الشمس.
- اخرج، سيحضر زوجي، لا نريد زرع الشر.
التفتت الى الشمس كانت ناراً تلتهب في رأسها
وبدأ من مسافة وسيطة من الجوف الشرقي ثلاثة فلاحين يسوق كل منهم حماره.
- تذهب في الحال والا ناديتهم.
قال – انتظري.
- لن انتظر، اذهب الآن.
- اني ذاهب
وتلكأ قرب الباب الآخر منتظراً دخولها، الا ان الصوت دخل وحيداً– أسرع.
ركب دراجته وابتعد، دخلت وأغلقت البابين، كنست ما تعلق بوجهها من عرق براحة يدها، واستندت الى النافذة تنظر.
كان الرجل قد توقف ثم استدار عائداً الى المنزل.
- انه مجنون.
سددت حنقها بنظرة غاضبة.
اقترب من النافذة ثم صرخ:
- خبري زوجك، سأحضر عصراً لاسترجع دراجتي.
لم تجبه، استدار وأضحى نقطة في الافق.

الكلب*

كلب آخر ميت، رمقه بحيرة ثم أدار وجهه وبصق.
وعاد ينظره ويتفحصه.
رصاصتان : الاولى تحت الاذن والثانية في الصدر.
رفع يده من عربة القمامة وحك بأظافره جلدة رأسه.
كان الفم مفتوحاً منغرساً في التراب.
ركله فقلبه على ظهره ورجع الكلب يميل منقلباً الى الجهة ذاتها.
– منْ من هؤلاء المترفين قتله؟ لم يفتح اي باب حتى الآن.أخذ يدفعه تحت الحائط، ثم توقف.
ماذا لو خرج الضابط البدين صاحب هذه الدار ورأى الكلب تحت سور بيته، سيصرخ بي ان احمله والقيه بعيداً.
وسأجيبه باننا سنتخلص منه عندما تحضر سيارة القمامة.
دس يده في جيبه.
في الاسبوع الفائت وجد كلباً ميتاً قرب بابه فعلقه الضابط بالشتائم.
فسحب الكلب بصمت ورماه في شارع آخر، يتعهده زبال غيره.
وعندما دفع عربته كان الضابط يحدث جاره.
– هؤلاء الميتون لا يعملون اذا لم تضربهم.
كركرت العجلات.
(لا يعملون الا بالضرب)
– زبال
ارتفع الصوت الفظ منادياً، استدار، وامتلأت عيناه بالضباب.
(ماذا يريد، الكلب ليس تحت حائطه)
– الا تسمع؟
هتف الضابط حيث انتصب بمنامته قرب حرف الباب:
– تأمر سيدي
همهم الزبال:
– تعال هنا

*** نشرت هذه القصة اول مرة في جريدة المنار، 25 تشرين الاول 1965.**

ارتعش :
يريد ان يصفعني ويركلني وربما يخبىء عصا ضخمة وراء الباب.
مد نظره في الشارع الطويل، وكانت امرأة مغطاة بعباءة سوداء آتية من نهاية الشارع.
كان على استعداد للاستدارة هارباً عند أية حركة مفاجئة.
ارتد الضابط قليلاً واختفى جذعه خلف الباب.
تشنجت عينا الزبال.
(سيلتقط العصا)
تراجع خطوة.
– احمل هذه التنكة.
قد تكون خدعة. يريد ان ادخل فيغلق الباب ويضربني.
بل ربما رماني برصاصة.
– تعال، انك بطيء.
تقدم بحذر:
دفع رأسه وحدق في التنكة ثم دخل:
– هل انت ميت؟
طوى الضابط حديثه.
– ماذا؟ تصلب ظهره وبقي ممسكاً بالتنكة ومؤخرته النحيلة مرتفعة.
الا تقوى على رفعها؟
ثار الضابط.
سحب الزبال نفساً عميقاً – عبر مسرعاً وافرغها، ثم مر بجانبه ووضع التنكة على الأرض بأناة واندفع الى الخارج.
سأله الضابط :
– في الليلة الفائتة كان هنا كلب؟
وأشار بيده الى مكان الكلب المقتول.
ردد الزبال – نعم.
شزره الضابط ثم تلفت ناحية حائطه.
كنت نازلاً من السيارة فهجم علي، ولم أجد بداً من قتله.
ابتعد الزبال نحو عربته.
رأيته يسقط أمامي ميتاً، أين ذهب؟

سلط عينيه .
– ذاك هو
أشار الزبال .
وبصوت ثلجي بنى الضابط السؤال:
– لماذا ترميه هناك؟
هرع الزبال صوب الحائط وأمسك بذيل الكلب، وسحبه بعنف.
ناداه الضابط – اين ستذهب به؟
لم يلتفت اليه.
وكان ثمة خط متعرج يتعرى بين التراب خلفه.

* * *

الشاحنة*

اندفعت عربة النفط الخضراء التي يجرها حمار ضامر- مرتجة وهي تعبر السدة الترابية المقوسة وقد اعتلى طرف البرميل القابع عليها - فتى كالح الوجه.

قرع القطعة المدورة المثبتة بالخشبة، المعلق بها اللجام، بقضيب حديدي قصير بقوة وهو يلقي أنظاره الى الاكواخ الكابية الممتدة كالمقبرة.

ومن زقاق لا يتسع لمرور حصانين امتد رأس رجل ملفوف بيشماغ يصعد وينزل بين السقوف متجهاً ناحيته، ومضى رجال آخرون من أزقة مختلفة منحدرين الى المدينة الكبيرة التي تحيا في جانب السدة الثاني.

تفرس بائع النفط بالرجل الآتي من الزقاق حاملاً بيده صرة قماشية مكورة هتف به:

- خالي، انك تبكر بالخروج.لا زال للفجر ساعة.

رمى الرجل الصاعد بعينيه الذابلتين الى الفتى.

- بالامس لم اعمل، وقبله. وفي الاسبوعين الماضيين لم اشتغل الا ثلاثة أيام.
- ظل يتشربه بنظراته. أتم الرجل الملطخة ملابسه ببقع بيض ولطخ جصية.
- الأعمال قليلة والايدي اكثر من الرمل.

انسرب بعض الرجال وقطعوا السدة نازلين الى المدينة. فتح الشيخ كلماته :

- لم يحالفني الحظ في يوم ما بالاستمرار في عمل دائم فأخذت اقف منتظرا المقاولين، وحتى في هذا لم أفلح فصفوف من الشباب ينافسونني. يلتقطهم المقاول. يملأ بهم سياراته ولا يراني.

هزالفتى القضيب الحديدي بغضب، واندفعت زخة من عواءات كلاب تراكضت بين الازقة مبتعدة.

*** نشرت هذه القصة اول مرة بعنوان (خبز الدم) في جريدة النصر، 21 ايار 1966. ويجدر بالذكر ان مجلة المتفرج في عددها الصادر في 26 ايار 1966 ذكرت ان القاص خالد الراوي سينشر قريباً مجموعته القصصية الاولى تحت عنوان " خبز الدم". المحرر**

حرك الشيخ رأسه.

– سأذهب. ربما سأعثر على عمل في هذا الصباح.

أجابه الفتى:

– وانا سأغدو الى المحطة لأملأ البرميل.

رفع الشيخ يده مودعاً وهو ينحدر من السدة رافعاً جانب (دشداشته) الأيسر قليلاً:

وعلى رصيف ساحة مسورة تبعثر عدد من الرجال الحفاة، السمر الوجوه.

اندس الشيخ بين رجلين مستندين على الحاجز ينظران الى فوق وقد امحت النجوم وبدأت الظلمة تنضوي وثمة ارتعاشة من نور انطلقت تشفف السماء.

ترقبت عيون الرجال الطريق الذي يلد سيارات المقاول الثلاث كل فجر.

همس رجل:

– حان الوقت وسيظهر في اية لحظة، لا بد لي ان أحصل على عمل هذا اليوم : سأرمي بنفسي وراء اول صاعد وليكنْ ما يكون.

حك مخه صوت رجل عابس.

– وانا اذا صعدت فلن أنزل ولو ضربني بخنجر. يكفي ما تلقاه.

– ببرود عاجز سأل صوت اخر:

– الترديد اليومي الذي لا يتغير.

تصلبت حركات الرجال وهم يزدادون حدة في مراقبة الطريق.

سقط بينهم صوت بوق سيارة قادمة من المنعرج. تقارب الرجال والتحموا في اول الطريق.

وانسابت سيارة غريبة.

حدق بها الرجال ببرود وانفك تلاحمهم، لكنهم لم يتفرقوا بل ظلوا متلازمين وكل منهم يحمل صرة طعامه بيده.

ودوت ثانية ابواق قريبة، فتجمعوا من جديد بتصميم.

ونبعت ثلاث سيارات (بيكب) وتوقفت حذاء الرصيف.

مد المقاول رأسه وبرزت عينه التي تعلوها غشاوة محدقاً.

– اليوم يكفينا خمسة عشر وانتم تزيدون على الثلاثين .

حسنا سأختار.

اصعد انت.
وأشار الى رجل صلب العود، فأسرع الرجل باعتلاء السيارة.
- وانت..
- وانت..
أخذ الرجال يصعدون والشيخ لا يحس بعيني المقاول تقتربان من وجهه.
التف من خلف الرجال الواقفين وقفز الى مؤخرة السيارة، رمقه المقاول وصاح به:
- تمهل.. اين؟
لم يجب واختفى بين الجالسين.
أخرج المقاول رأسه بكامله وصاح:
- أنزل، من قال لك اصعد.
فتح المقاول الباب حين لم يجبه، واستدار الى خلف السيارة، ثم مد ذراعه وأشار بأصابعه الى الشيخ.
- انت، أنزل، أنزل.
جر الشيخ جسده من بين الرجال بتخاذل، ومضى الى السور.
وانطلقت السيارة وعاد الرجال الى محلاتهم السابقة ينتظرون من قد يكون بحاجة الى خدماتهم.
هصر الشيخ الصرة بين كفيه، وخداه يرتعدان.

* * *

رجفة في الضوء

انقطع المطر لكن ظلت تتهدل من بطن السماء الكبيرة غيوم سوداء مضطربة، تزحف ببطء نحو الشرق.

وقرب باب مسجد تسمر شخص ناتىء الوجه انحنى ظهره قليلاً للأمام وتشابكت كفاه واختبأتا في بطنه.

الريح الباردة سريعة في الدرب.

لفت الرجل عنقه من فوق سور المسجد المظلم وقرع الباب الخارجي.

الريح تجرف رنات طرقاته.

اهتز جسده وازداد التصاقاً بالحائط.

قبل ساعات طرده صاحب الخان الذي يسكن فيه بعد ان استولى على تختته الخشبية وأصباغ الاحذية :

قال له : ما دمت لا تملك أجرة منام الشهر الفائت فهذه الأصباغ والتختة رهن عندي حتى تجيئني بالدينارين التي اطلبها.

وخرج من الخان لا يملك الا ذراعيه .

مر لوري يدوّي مملوء بشرطة مقرفصين، وعندما ابتعد مرقت من الجهة الأخرى سيارة صغيرة.

– ما بال بيت الله مغلقاً.

حك كفيه بسرعة ثم نفخ نفخات متصلة وطويلة. صاحب الخان العجوز الحاد العينين جرده من ادواته ولم يستمع الى تضرعاته. كان يريد إمهاله يومين يسدد بعدهما دينه.

لكن العجوز اعتبرها كمماطلات الآخرين التي لم يعد يصدقها.

البرد يدخل ذرات جسده متوغلاً الى العظام.

أراد ان يجد له مكاناً آخر.

حك أذنيه وأرنبة أنفه ودس يديه في جيبي سترته المتآكلة.

ترى لماذا لم يتمهل في ارسال النقود الى امه، لو تمهل يومين او ثلاثة لكان قد سدد أجرة الخان ثم أرسل ما تبقى عنده.

كان متعجلا ومضطربا. نار الحرب غمرت قريتهم، فالتجأت امه واختاه الى قرية مجاورة. وهناك كان كثيرون مثلهم جاؤا من قرى متعددة مسحتها القنابل. الطعام هناك قليل ونادر وثمنه مرتفع للغاية.

البرد يتضخم ويتوالد اضعافا.

حين عاد في المساء الى الخان تسلل من جانب الحائط مبتعداً عن غرفة العجوز المضاءة بفانوس قوي والمفتوحة الباب دائماً فوارب الباب الخشبي الغليظ وأبصر في الظلمة الرجال الثلاثة نائمين فتسلل بسكون وارتد الباب مطقطقاً خلفه.

كان يحس بفرح كبير لأن صاحب الخان لم يشاهده.

وبغتة اندفع الباب بعنف بعد دقائق وظهر صاحب الخان العجوز وبيده فانوسه القوي. أغمض الصباغ عينيه فوراً ولم تفت العجوز انطباقة الجفن الخاطفة.

قال له:

– ها كاكة حسن، اين الايجار؟

لم يجبه حسن بل سحب نفساً طويلاً.

تقدم اليه صاحب الخان وركله بقدمه.

فتح حسن عينيه باندهاش زائف وتملى باستفهام.

احتد العجوز.

– الايجار.

– اعتدل حسن في جلسته وهو يلم أصابع كفه اليمنى.

– امهلني يومين ثم أعطيك الايجار.

أجابه العجوز:

– يومان، لا، هاتها الآن.

قال حسن:

– ليس لدي الآن شيء.

قال العجوز:

– انهض لأفتشك.

وقف حسن فوق فراشه المفتق وفتح الرجال النائمون عيونهم.

دس العجوز يده في جيوب حسن ولم يعثر الا على تسعين فلساً وضعها في جيبه، ثم التقط التخت الخشبي والأصباغ وقال له :

– هذي عندي رهن، اطلع واجلب الايجار ثم تعال خذها.

أراد بيأس ان يستوقفه:

من اين سيجيء بالدينارين في هذا الليل: رفاقه في الغرفة مفلسون دوماً.
خرج يسحب خطواته مرغماً.
اصطكت اسنانه.
الحركة توقفت في الشارع تماماً.
رفع عينيه المرتجفتين مرة أخرى من فوق السور.
ثم أمسك الحافة واستطاع ان ينقلب الى الفناء الخارجي للمسجد واقترب من الباب الداخلي وقرعه بقوة.
لا جواب.
رعود تنفجر في السماء وبروق تلتمع في نثيث المطر الذي أخذ ينحدر الى الأرض.
تكور حسن قرب الباب وانكفأ على جانبه وركبتاه تلتصقان بصدره، ورجفة حادة تهتز في جسده.
تكاثرت الرعود، والمطر أخذ يشتد.

* * *

المتربصون*

انحدرت شبكة من حمام رمادي قبل غروب الشمس، وقفت على المئذنة، وانقذفت تكبيرة المؤذن فتناثرت هاربة الى الآفاق.

ازاء باب خشبي مسود استطال رجل، أمسك باحدى يديه حديدة مثبتة على الباب وراح يقرع، وتدلى من يده الأخرى زنبيل طافت في قاعه رؤوس بامياء وطماطم وقطعة لحم ملفوفة بورقة.

طقطق المزلاج الخشبي عند رفعه وصر الباب.

سقطت عينا العجوز الملتفعة بفوطة سوداء على الزنبيل. انحنت والتقطته.

صرالباب ثانية وهو ينغلق على درب ضيق خال.

قالت العجوز بعد ان غرزت يدها الى معصمها في الزنبيل وجست قاعه.

– جاء سيفو اليوم وهددنا بانه سينشرنا على حبال المدينة اذا لم نخل بيته ونرحل.

– ماذا يعني هذا الحوذي، مؤجر القبر.

لملمت العجوز اطراف فوطتها وطوحت بطرفها.على كتفها.

انزلقت كلماتها:

– قال انه سيذهب الى المقهى ويهتف هناك بأنك تشتغل في الشرطة السرية وانك السبب في حبس أولادهم – اذا لم ندفع له أجرة الشهور الخمسة الماضية.

انكمش الرجل.

ترك أقدامه تدب الى الغرفة المظلمة.

كانت عينا العجوز مصوبتين عبر الباب اليه.

قلب الفراش.

مد يده في جارورة.

ثم وقف على الباب، سعت اليه.

*** نشرت هذه القصة اول مرة في الملحق الاسبوعي لجريدة الجمهورية، 9 كانون الاول 1965، ملحق عدد 14، العدد 694. ونشرت مرة أخرى في مجلة البريد والبرق والتليفون في شهر آب 1966.**

- ما عاد بمقدورنا البقاء، لنرحل.

كانت عيناه غارقتين في الجدار المقابل، توسعت حدقتاه.

- اصمتي.

امتدت يده تتسلق الباب بتشنج وثمة عرق بارز يهتف في رقبته.

ارتعشت شفتاها.

- لا جدوى من البقاء. ولن يكلفنا الرحيل خسارة.

تقدم نحو الباب الخارجي عابراً الممر.

- قلت لن نرحل، اصمتي.

ثم انسد الباب على خطوات مبعثرة.

أمسك سيفو لجام حصاني عربته على مقربة من باب محطة القطار محدقاً بالوجوه العابرة وهو متربص على فوق مقعده.

هجمت عيناه الى اليسار (الصوت مألوف للغاية).

- اهذا انت، والسلام عليكم.

- جئتك لتنزع ريشي.

- اي شر تلمع به عيناك في هذا المساء. اذهب ودعني واقفاً على باب الله .

- سيفو ثبت سوطك وأنزل.

كان الرجل رافعا ًرأسه وسيفو مستدير اليه بنصف ظهره وركبته مرفوعة وبيده اليسرى انتصب سوط.

سحب سيفو اللجام معتدلاً وهو يهتف (ديخ)

تحركت العربة خطوتين.

قفز الرجل على يد سيفو وجر الزمام بعنف ولوى عنقي الحصانين.

- سنرى من سيتعرى في المدينة.

مرت سيارة بانطلاق رصاصي رامية اشعتها على الرجلين الواقفين في الظلام.

المحطة اقفرت والحارس مقرفص على الباب.

نظر الحوذي بثقة.

- مثلما تريد لحقوقك الا تضيع. كذلك لا اريد انا.

- ستندم.

- ستدفع أجرة خمسة أشهر، والا فسأشكوك الى الحكومة.
- الحكومة، ههها، اتظن الحكومة تفتح اذنها لحوذي. وتغلق الباب على شرطي.

وضع الرجل قدمه على سلم العربة الرفيع ممسكاً طرف المقعد بيده اليسرى، وظلّ خابٍ ينحدر من قبضة اليد اليمنى.

صرخ الحوذي بفزع.

- لا.

انقلب الى الجهة الثانية ليفر.

أمسك الرجل بساقه وزحف اليه.

بقي الحارس نائماً على باب المحطة وضفادع كثيرة تنق بين الحشائش.

* * *

ناعور في نهر يابس*

نهر من الناس ينحدر في دروب المدينة، يلوحون بأكفهم المنقبضة.
يسقط.
يعيش.
الموت. الموت.
نهر ينصب من اول المدينة ويغيب في الطرف الآخر.
همس صاحب مكتبة صغيرة في اذن صاحبه.
– من اين جاء هذا البشر الغاضب.
زم صاحبه شفتيه.
– لا أدري.
تقدم الاول الى باب المكتبة ثم كر راجعاً الى وسطها.
– عجباً الم يكن هؤلاء الناس انفسهم يصفقون للسلطة السابقة.
مد الثاني رقبته بلا اهتمام.
– هم انفسهم.
– يبدو انهم لن ينتهوا، مضى عليهم سبع ساعات.
صحح الآخر.
– بل اكثر من تسع ساعات.
مسح الاول ذقنه براحة يده.
– من الخير ان ننصرف، فلا أدري ماذا يخبىء الليل.
انهمك الشريكان برص الصحف والمجلات وادخال قناني المرطبات في صناديقها، ثم مرق الاول حاملاً حقيبة جلدية سوداء يدوية.
ولحقه الآخر.
سحب الاول القمحي الشاحب – الباب الحديدي وضغط بكفه على القفل ثم انصرف الاثنان كل في اتجاه.
توقف الاول بعد امتار قرب مخزن مغلق.
الهتافات المتشنجة تضوضي والقطع القماشية المرفوعة تهتف.

*** نشرت هذه القصة اول مرة في الملحق الأدبي لجريدة الجمهورية، 13 تشرين الاول 1966، العدد 58.**

الموت للخونة.
الموت للخونة.
رمق وجهاً مألوفا لديه فأرجع رأسه في العتمة:
– من الخير الا يشاهدني هذا الصديق القديم، انه لن يتذكر الصداقة حتماً.
ومضى الرأس المألوف منحدراً في نهر الناس.
قذف القمحي الوجه خطوة سريعة، تلاها بخطى طويلة في الظل ثم استدار الى منعرج وتوقف عند باب خشبي مغرق في العتمة:
انسحب الباب شبرين فحشر القمحي الوجه جسده.
صاح به واحد من الداخل.
– اين انت يا سليم، خشينا عليك كثيراً.
حاول سليم ان يمزق الظلمة بعينيه. أجابه.
– ها انت تراني، لا ازال حياً يا حمودي.
قال حمودي.
– لقد قلقنا عليك ليلة امس الاول حين خرجت. فبعد ذهابك بدقائق انطلق مشطان من الرصاص.
– سمعتها ايضاً.
– لا أحد يضمن مصيره في الليل، فأقصى امنياتنا ان يمر ونبقى أحياء الى الصباح.
تحركت أقدامهما.
تقدم حمودي وفتح باباً جانبياً فترنحت ظلال نور من قعر سرداب.
وقف سليم خلف حمودي ونزل الاثنان بصمت.
وكانت شمعة كبيرة ترمي نورها على مطبعة صغيرة رمادية اللون، صفت الى جانبها كومة عالية من المنشورات وفي الجانب الثاني من السرداب جلس رجلان ملوحا الوجهين على تختين متقابلين وبينهما منضدة صغيرة فوقها ثلاثة مسدسات.
هتف سليم.
– مرحبا.
قال حمودي:
– تم طبع المنشور. أجابه سليم.

- اذن سنوزعه فوراً، قال حمودي.
- لا تتعجل، سنتأنى هذه المرة، فقد قبض في الصباح على نجم ومناضل.

التصق ظهر سليم بالمسند.

أتم حمودي.

- ومساء امس فتشت الشرطة دار كامل والثلاثة يعرفون محلنا.

اهتز قلب سليم، اكد بقنوط:

- لن يعترفوا ولو سلخوا جلودهم، انا أعرفهم جيدا.

بتحدٍ أجابه حمودي:

- مهما يكن فعلينا ان نتحسب لما قد يقع.
- هذا صحيح، لكن لنمض.

وبغير اقتناع تراجع حمودي.

- لنبق في أتم حذر.

نهض سليم والتقط ورقة من المناشير، قرأها ثم التقط طبقة ثخينة منها.

- سأخذ هذه.

لم يتكلم الثلاثة.

كانوا ينظرون اليه وهو يفتح حقيبته ويضع فيها المناشير.

لفحه صوت حمودي المندى بالتضرع.

- كن حذرا.

ضحك سليم بجفاف.

- ستراني أمامك دوماً.
- ان هذا ما اريده.

صعد سليم درج السرداب، توقف عند منتصفه وتبعه حمودي.

استدار الى الرجلين الجالسين.

- سنلتقي قريبا.

توقفا عند الباب الخارجي، فتحه حمودي بأناة تامة.

وحدق في الدرب.

همس:

- لا احد يستطيع الخروج.

أومأ سليم برأسه.

– الى اللقاء.

كانت ريح خفيفة تهز اشجار النبق والتوت، فتنجلد ظلالها على الاسفلت. الشوارع ساكنة، عدا بعض الدراجات النارية للشرطة وسيارات جيش تعبر مسرعة في طرق بعيدة.

اندفع سليم في موازاة جدران الحدائق والأبواب مخرجاً منشوراً من حقيبته، ملقياً به من فوق كل باب، وتوقف عند باب قضباني.

دس المنشور قرب المزلاج، وفتح أصابعه، صرخ صوت من نافذة مظلمة.

– ماذا تفعل.

اقشعر سليم.

وسمع الصوت يصرخ بعد ثوان.

– انه منهم، قف.

كاد سليم يصل الى نهاية الطريق، التفت. كانت أضواء الأبواب الخارجية تعتلق على طرفي الطريق قرب ذلك البيت.

تحسس جوف حقيبته الصغيرة.

ولمس ورقة واحدة، اخرجها وطوح بها في حديقة منزل والصوت يرتفع.

– أمسكوه، الحقوا به وأمسكوه.

اندفعت تجاهه أربع دراجات.

استدار في المنعطف وقفز فوق جدار مغطى بنباتات متسلقة.

نظر الى المنزل النائم ثم أمسك حافة الجدار بكفيه وراح يرصد الطريق.

انعطف راكبو الدراجات واثنان منهما يؤكدان:

– اجل، انه مر من هنا.

هتف الثالث.

– ذاك هو.

انكمش سليم وسقط الثلاثة على رجل يمشي قرب الجدار المقابل على بعد ثلاثين خطوة.

صاح واحد منهم.

– انه هو.

هتف اثنان.
- انه هو.
دفعهم الرجل.
ماذا تريدون.
انضم الرابع اليهم.
ذاب صوت الرجل.
- انا عامل في المخبز، ذاهب الى عملي .
صفعه الاول.
- لن تخدعنا ايها المتآمر.
سحبه احدهم واركبه أمامه على الدراجة واحاط به الآخرون. انفطر صوت الرجل.
- والله انا بريء.
غاب راكبو الدراجات في المنعطف، والريح ظلت تهب رخية.

* * *

الانزلاق

ظل صوت الوداع يملأ الغرفة الى ان اصطفق الباب فغمر الهدوء الأشياء الصغيرة البالية : حتى وجه المرأة التي سرعان ما ادارت ظهرها للرجل الجالس وانصرفت الى زاوية.

حدق الرجل الكث الشاربين في ظهرها.

عندما مست يده يدها الناعمة الدقيقة بالامس– وهي تناوله قدح شاي، ارتعش،وثبت عينيه بوجه زوجها الذي جلس مقدساً له.

حرك السكر في القدح وهو يضغط اسنانه ليطرد الرعشة نهائياً.

قال للزوج ليخلق أرضاً جديدة.

– هل ذهبت اليه؟

– اجل اخبرته انك موجود في بيتي وقال عليك ان تظل مختفياً هنا الى ان يجدوا لك مكاناً آخر، فالشرطة السريون اطبقوا على عدة منازل كنت تختلف اليها.

شد الرجل الكث الشاربين شفتيه بصرامة، فصمت الثاني. كانت أصابعها تحرك الاواني والقدور، المدينة الضخمة صارت أسواراً منخفضة حال لون جصها الى أسمر وجداراً مكعباً لا ينتهي. فتركز جسده على الفراش المسطح على الأرض.

سمع صوتها – هل ستنام؟

حرك عينيه تجاهها، كانت عيناها معلقتين بعينيه.

أومأ لها – كلا.

– انا ذاهبة لاتسوق، وسأعود بعد قليل.

اصطفق الباب، وبقي الجسد ممدداً، انهم هناك يتوقون للقبض عليه، وصورته في جيوب الشرطة السريين.

(كنت متيقناً ان هناك جاسوساً في الحزب، كان أسرع منا، لما انحصر شكنا فيه. انها نافذة مميتة تلك التي فتحها علينا : حين كشف التنظيم).

نهض الشارب. وأطل من الشباك على نساء فقيرات يمضين الى السوق ورجال مكدودين: حدق بها وهي آتية وقبل ان تلامس الباب فتحه.

سألته باندهاش:

- هل رأيتني؟
- آه.. كنت ارقب الطريق

وضعت حاجياتها

سألها – متى سيعود؟

- عند انتهاء العمل طبعاً.
- ها

كان الرواق الرطب والجدران الملفوفة تجذب جسده اليها.

وضع قامته بجانبها.

- دعيني أساعدك.

انبهرت.

- أبداً، لا يجوز.

جسده يحتك بها، تقدمت خطوة للأمام، وافترقت.

جسده يتفتح في ظهرها مرتجفاً.

- لابد أن أساعدك.

زم كفيه في بطنها وضمها إليه.

كان يرتجف في ظهرها.

فتحت يديه بأظافرها، واستدارت.

كانت تدفعه بيد ناعمة وأخرى جسورة قاسية.

إنها تلين كالقماش بين يديه، وجسدها يرتعش بين الكفين الكبيرتين.

كان الشارب يريد إسقاط المرأة الى الأرض.

انفتح الباب بسرعة.

وانتبهت هي الى الباب الذي انفتح.

تصلب القماش بين يديه وصرخت:

- ابتعد عني يا خائن.
- ارتفع الشارب من ياقته واستطال بجانب الزوج.
- إنك حقير للغاية. تخون بيتي. تعال.
- انسحب الشارب من كمه، وصار بجانب الباب.
- لن تهمني حياتك أيها السافل. إنك الجاسوس الحقيقي الذي طاردك وجعلك تختفي.

قذفه خارج المنزل :

– ليقبضوا عليك أولا يقبضوا، الى جهنم.
تقدم الرجل نحو امرأته. وكان عنكبوت صغير يركض في زاوية الغرفة العليا. مر بذبابة ميتة في شراكه ثم اختفى.

* * *

القــناع*

* نشرت هذه المجموعة في بغداد عام 1970، مطبعة الشعب.

الحدقة
خرائط الرمل

في الطريق الصاعدة، والمنخسفة في امتدادها، كانت الأقدام تحدث وبشيء من الرهبة فواصل متعددة وحادة.

- أية ساعة مخيفة تلك التي تثب فيها مقرراً، بجرأة نهائية، حياتك. في هذا الزمن الذي فقد فيه الناس جرأة التصدي لضربة غامضة.

انه ذلك النور الصاعق الذي يتفجر في بقاع موحشة، ومتباعدة في العالم، يلوح جاذباً أقداماً، حذرة، تغيب في مجهولات حقيقية.

إحدى قواعد القتال:
جدارك في انسحاب المواجهة هو الرصاص
وإلا غصت في الأرض

الأقدام تسير متوازية، متباعدة. رجال يتقوسون على نقطة متحركة، النقطة المتحركة تتوضح متذبذبة، بين الحجارة والأرض الحصوية، تدخل النقطة في الفوهات تماماً، وتصبح خطوطاً ساكنة، متقاطعة قليلاً.

ومن الجهة المقابلة ترتعش قدمان وتنثنيان على الأرض متمددتين، وصرخة تعدو مع الأقدام القافزة، المبتعدة.

(- أيها السادة لا تغتبطوا كثيراً لأننا قتلنا اثنين، فقد قتل لنا رفيق).

تقرير الى القيادة العسكرية
قتلنا اثنين وفقدنا رفيقاً
لم نستطع سحبه

أطبقت الوجوه أجنحة أفواهها في القاعدة. وكانت الجثة الغائبة تزحم بينهم فتكمشهم فاسحين لها أقصى وسع.

كان واجباً سحبها.

(العائدون قدموا تبريرهم)

انوثق الأفراد، متوحدين، بالجثة البعيدة

كدت أصرخ بالسائق مرعوباً – قف، أحسست برجفة مسننة وأنا أبصر رجلاً شاهق الطول يسير ببطء أمام السيارة غير آبه وآخر يشبهه يقف على جانب الطريق يراقب المسافة بين السيارة والرجل دون حركة في الطريق الحاد المربوط بأعلى الجبال الموصلة الى عمان.

اختفى الرجل ومضت السيارة في ليل يعمق ظلامه. وأيقنت أنني نجوت من موت حقيقي .

الجثة في جمجمتي وكنت أرقبها بألم طفيف.

- لا يجدي الحزن.

ومع ذلك كنت أرتب خطة لسحب الجثة. وكان الجميع بالتأكيد يرتبون خططاً مماثلة.

(كنت ممدداً والرفاق يبتعدون. تقدم الأعداء، ينقبون في جيوبي ويأخذون أوراقي، يحيطونني بدائرة من الالغام. ثم يربطون جسدي بها، وينسحبون. ثم يعود الرفاق، وعندما يرفعونني، يتناثرون في الهواء.)

صدمني صوت

- سيجعلونه فخاً لنا.. كما فعلوا دائماً بالقتلى.

- لن يصيد الفخ هذه المرة، لكن، ترى هل نتركه؟

أجاب بحزم

نعم

قراءة

الدم يبعث النفور. ليس لدى البشر

استعداد لابصار المزيد منه

(أصرخ عالياً. فعندما ترفع البندقية لتكون حراً لن تخشى السفاكين. واذا كنت حراً لن تضطر الى القتل او الفرار. لكن تلك الحفنة من سفاكي العالم تأبى ترك البشر يعيشون في مسراتهم الصغيرة.)

- أعتقد أننا نستطيع رؤية الجثة من هنا، بالمنظار.

- ربما.

- تناول المنظار المعلق على الحائط وتسلل خارجاً. وعاد بعد دقيقة هامساً باكتشافه.

لقد أبصرتها. تعال.

نهضت وتبعته. ناولني المنظار وأشار الى الاتجاه. اكتسحت الأرض الممتدة. وتثبت بالزاوية المنفرجة لخطّي العدسة المتقاطعين جسد صغير للغاية، مموه لا تبدو ملامحه. تعلقت أيدٍ متعددة بالمنظار.

- دعنا نرى.

وكان الرفاق يرفعون أيديهم. قدمت المنظار. ونظرت في الاتجاه بعيني المجردتين فلم أحددْ شيئاً.

استمر الرفاق يراقبون الجثة البعيدة.

وعاد الدور إليّ مجدداً في الرؤية. كانت الجثة ملتحمة تماماً بالأرض. أبعدت المنظار.

واختلطت طيور كثيرة، برزت من الجهة الغربية، بالمطر الكثيف.

* * *

انقسامات الزاوية

انتهى السيد م الى اتخاذ قراره الأخير.
اتصل بالفتيات الخمس اللواتي له علاقة بهن وحدد لهن، كل واحدة، موعداً متفقاً في شقته.
دخلن كلهن. وأجلسهن واحدة بجانب الأخرى. وجلس أمامهن.
اضطربت الفتيات وأخذن يتأملن. وطلبت عيونهن استفساراً من السيد م .
قال السيد م.
– انتبهن.

تفصيلات
ابتدأ السيد م برواية علاقاته بكل واحدة منهن وذكرجميع الاحداث التي حصلت معهن. هذه الاحداث لا تعنينا كثيرا.

واضاف بحزم بارد
– والآن استمعن. سأسافر.
توترن جميعهن بتأهب. لكنهن بقين رابضات ازاء السيد م الذي كان يضع ساقه اليمنى فوق الساق اليسرى.
(بحار. مدن ضاجة. طائرات تنتشر في ضوء الشمس. جبال مثلوجة. زوارق في أنهار افريقيا. طرق مستقيمة. اشجار مزهرة. نساء لا يحصين. عالم يتجدد بلا توقف)
اكد السيد م
– رغم وسع العالم فانه صغير لا يحتويني. انني اطلب عالماً أشمل، لا يحد.
نهضت فتاة نحيفة وأشارت تجاهه:
– لقد خدعتنا نحن الخمس سوية. والآن تهرب.
(عربة تنطلق بسرعة نهائية وانا راقد فيها. انظر الى العالم يتقدم بكافة حركاته وأضاءاته وظواهره من شباكي ثم ينطفيء وتمرق العربة في فراغ مهجور. اصحح اتجاهها فتعود الى العالم)
رمق السيد م الفتاة الواقفة

((لقد انتهى زمن الامتلاك. الإنسان يسعى لان يملك نفسه وحدها. كافة الأشياء لكافة الناس دون احتكار ودون امتلاك ايضاً))

قال لها:

– اجلسي. سننتهي الى أجساد مجردة اذا امتلكنا بعضنا. انني اسمع كل ذرة في بقاع العالم تناديني، واخشى ان ينتهي زمني دون ان أتحرك.

انبرت النحيفة مجدداً

– سأجيء معك

ولاحقتها الأخريات

– نحن على استعداد لمرافقتك.

:(لكي نولد دائماً ومجدداً ينبغي المضي وحدنا، فلا فائدة من الكشوفات اذا كان هناك من يراقب).

قال السيد م:

– لن أخذ واحدة منكن.

اشتركن خمسهن فجأة في البكاء فلم تعد هناك فائدة من التظاهر بكتمه أمام تصميمه ومنظر حقيبته الصغيرة المهيأة.

– لن انهركن في اللحظة الأخيرة. سيسوى كل شيء. وأتمنى ان تخلقن لكن حياة سعيدة.

رفع السيد م حقيبته ثم نظر الى ساعته.

– بعد نصف ساعة ستقلع الطائرة.

نهضت الفتاة النحيفة

– لن ندعك ترحل. اننا نمنعك.

أزاحها بحقيبته لكن الاخريات وضعن ظهورهن على الباب. قالت النحيفة.

– لن تسافر سنضعك تحت رقابتنا .

قال السيد م للفتيات الأربع :

– دعوني أمر.

ازددن التصاقاً بالباب

نظر اليهن ثم عاد الى كرسيه، أسند حقيبته على طرف المقعد.

– لنتفق اذن، هيا اجلس.

اتخذت الفتيات موضعهن السابق أمامه.

أشار بهدوء كامل
– ماذا تردن بالضبط؟
رمقت الفتيات بعضهن بتردد وتأهبت كل واحدة للبدء في الحديث.
اختطف السيد م حقيبته وقفز بسرعة غير مميزة الى الباب. أداره ورنت خطواته وهي تبتعد.
كان السيد م يركض صوب المطار وهو قلق لتأخره وشاكاً بان الطائرة قد اقلعت.

* * *

انتظارات

اعتقلوني آخر مرة في حياتي وانا في الرابعة عشرة من عمري.
وضعوني بينهم في العربة الخضراء المحدبة، وسلموني الى ضابط عجوز.
تفحصني ثم أسقط عينيه في ملف به اوراق قليلة.
قال لي : تهمتك خطيرة.
أراد ان يكتسحني بكلماته. لم أجبه، فانا أعرف خريطة المحققين هذه.
- ماذا تخبىء خلف جلدك.. هيا.. اخلعه، ودعنا نرى .
وضعت يدي في جيوبي وتفحصته .
أتم في مودة مباغتة
- سنسير قليلاً في مسافة جلدك والداخل.. نتنزه.
- تنزه بعيداً عني ايها السافل.
- **(في الحقيقة لم اقل له – سافل – بوضوح)**
- ليس من حقك ان ترفض : فهي رغبتي.
- اطلب منك ان تطلق سراحي فوراً
- اتريد ان تكون حراً
- (___)
- اخرج فانت حر

استدرت الى الباب وفتحته، فتشرعت حربة توسطت التجويف.
انها مسمومة، اذا لامستك، لن ينفعك حتى الله. أقفلت الباب وعدت الى وجهه.
سألني:
- لماذا لا تخرج ... اتخشى ازاحة الحربة كي لا تموت؟

فكرت بذعر – ربما-
- ستحب هذا المكان وتعتاد عليه ... المطلوب ان تفكر قليلاً وستصل الى نتائج مبهجة تملأ بها أيامك.
- الا تعتقد ان لعبتك هذه مملة؟
- استيقظ فانت أسير.

أغلقت عينيّ وأذنيّ، وأنزلت رأسي من قمة جسدي ووضعته بين ثيابي.
نهض من خلف مكتبه وانتزع رأسي من كفيّ الواهنتين وأعاده الى الرقبة.

– ستموت وحدك ويبقى العالم.. ملايين قبلك ماتوا وظل العالم يتكون. هل تنتظر ان تكون انت مصير العالم : هيا اخرج احمل العالم بين ذراعيك، دعه يكون جسدك.

قرع الجرس فانفتح الباب.
أشار الى التجويف المملوء بالنور الصناعي.
الحربة اختفت
استدرت وقذفت خطواتي السريعة في الرواق.
استقبلني رجل جالس في نهاية الممر.

– اين تذهب؟
– ليس هذا من شأنك
– لا بد ان أعرف
– لقد طردني الضابط وقال اذهب فانت حر.
– انك مجنون.. لا يوجد هنا ضباط..
– الضابط الجالس في تلك الغرفة؟
– انك مجنون فعلاً.. لقد مكثنا بانتظارك.. هيا ادخل هذه الغرفة.

دفعني الى غرفة بيضاء نقية مغسولة ناصعة.

– افتح عينيك على سعتهما، وانظر اليّ .

ملأ بندقيته بالرصاص.. وأخذ يطلق علي النار..
سقطت أخيراً على الأرض البيضاء قتيلاً.. ولم تخرج من جسدي قطرة دم.

* * *

ميـــاه

الأشياء سوداء في الليل.. العالم أسود.. الفجر أسود.. الرجال.. النهر..
حملت خطتها الأجساد التي هرعت متسللة، واحداً إثر الآخر،.. وكانت القاعدة فوهة سوداء مضببة..
أنا الراصد : هذه مهمتي..
الاثنان اللذان يسرعان في الأمام سيتوليان تنفيذ المهمة.. والاثنان اللذان يتبعانهما يتوليان الحماية..
خضنا النهر النحيف الضحل : نفذ الماء البارد الى عظامي وأحسست برعشة، ثم ارتجفت في الهواء الأسود..
تخطينا الجرف الطيني وتموجت تحت أقدامنا أعشاب سوداء..
الساعة هي الخامسة صباحاً..
(أخبر زميلي في الرصد ان الجنود الأعداء يكمنون في ذلك الموقع في الساعة السادسة صباحا ً.. راقبهم عدة أيام وتأكد من الوقت بدقة. كانت خطتنا : الاختباء في مواقعهم والقبض عليهم)
سنختطفهم ونفيد من معلوماتهم..
اذا لم تكشف مواقع عدوك فلن تستطيع القضاء عليه .
توقفت ومضى الرجال في الضباب والظلمة ولم اعد اميزهم بسهولة.
(كانت خطواتنا تتسق سريعة في شارع مهجور..
قلت لها : ألست حبيبتي.. دعيني أقبلك.. قالت دون ان تلوي رأسها نحوي : لن أدعك..
.. قلت لها : سأقبلك بالعنف..
نفت : لن تستطيع ذلك.. لا يستطيع الطرف الواحد فرض إرادته على الطرف الآخر.
(دكاكين مضاءة بأنوار باهرة..
(نساء نصف عاريات في بيروت.. يسرعن
(رجال ينامون في البرد.. ورجال ينامون في دفء المدينة)
لم اعد أبصر الرفاق.. كان الهواء الأسود المثلج يصفر بين الأعشاب النحيلة..رفعت قدمي اليمنى على صخرة مراقباً ظلمة واسعة لا نهائية..

انزلق فجأة رصاص سريع متتابع..
رشاشات..
توتر جسدي وأصبح مركزاً في قبضتيْ يديّ.
لم أبصر شيئاً..
(رجال يتحركون في مقر القيادة.. يشرحون التعليمات بهدوء وببطء وحميمية ... رجال يتقاطعون وهم يعبرون. مدن... مدن : شوارع.. أعمدة ضوء في شوارع خالية)
ضباب وجنود في الناحية الأخرى.
ارجو ان تنجح عمليتنا..
تفوق انفجار خاطف على الرصاص..
مدفعنا.. انه مدفع الحماية
وعاد انفجار المدفع مكرراً..
(الموت والعبودية سواء. ماذا سنفقد في حياة منتهية.
قد ننتصر فنملك شيئاً وقد نموت ولن نفقد شيئاً لأننا لم نكن نملك شيئاً)
(دم بعيد غير مبصر.. كنت بعيداً لا أعرف هل سيعودون ام ستبقى جثثهم مدماة مرمية لا أحد يجرؤ على الاقتراب منها).
توقف الرصاص
كنت عصبياً متوتراً.. الظلام كامل أمامي، وخلفي حفرة النهر.. جلست على الأرض..
وكانت حرارة هائجة تغمر جسدي وانا انتظر..
سيجيئون جميعاً.. سنشرب الشاي وندخن وننام قليلاً...
انهما الحماية
اثنان فقط. اين الآخران؟
– هيا
صاح بي أولهما
– أسرع..
ركضت بجانبه صوب النهر..
– اين هما؟
كان يحتضن مدفعه الثقيل ويركض
صرخت به :

- اين هما؟
- سقطا هناك

ارتعشت في برودة الماء..

كنا نركض نحو القاعدة السرية وخلفنا رجل الحماية الآخر.

- هل تأكدت من موتهما؟

انزلقنا في فوهة القاعدة. وهب الرفاق الستة من أسرتهم الأرضية، وهتفوا مستفسرين :

- اين (... ابوعلي ومحمد)؟
- هناك

غيبتنا الظلمة في الصمت..

كان المدفع بين يديه وهو جالس على الأرض.. سحبته منه وأسندته على الحائط..

- تكلم.. كيف، كيف؟
- عندما وصلنا الى الكمين.. فتحوا النار علينا من مكمنين خفيين.. فصوبنا بأسلحتنا الخفيفة. وكان بحوزة (سليمان) المدفع المضاد للدروع..

صرخت به : اضرب.

كان نائماً فوق مدفعه متجمداً..

ناداه (محمد وابو علي) : اضرب

لم يتحرك..

صرخا به : قتلتنا.. قتلتنا..

زحفت اليه ودفعته. أخذت المدفع وصوبته الى اول كمين فأنهيت ناره.. وصوبته الى الثاني.

كانت نار (محمد وابو علي) قد توقفت.

صحت : محمد.. ابو علي..

وسمعت همسة بطيئة : لقد قتلنا..

وكانت النار المقابلة تنزل وتغيب في زبد الجسدين الممددين وتتحول علينا.

هتفت بـــ (بسليمان) وكان لا يزال متحشرجاً على الأرض هيا ننسحب.. زحفنا لننجو.. ولم نستطع سحب الجثتين لان نجدات للعدو بدأت تصل.

لو ضرب من البداية لكنا قضينا عليهم. لا أدري لماذا جبن مع انه اشترك في عمليات ناجحة سابقا.

دخل سليمان واختفى في نهاية المغارة.

– سيحاسب..

وانصت الى الهواء الأسود وهو يعبر مصفراً خارج فوهة القاعدة.

وفي الصباح حدقت خارج الكهف.

كانت الأرض المنبسطة المسطحة حادة واضحة. والبرتقال الأصفر يشع من بين الاوراق الخضراء الكثيفة في الوادي.. وعبر النهر.. كانت الأرض بعيدة وجرداء يرتفع فيها جبل.. وكانت سيارة منخفضة لكسح الالغام تنهب سريعة مثيرة خلفها خيطاً ترابياً أبيض.

* * *

الخوذة

حرك الهواء الباب الخشبي ودفعه بعنف فدوى وهو ينغلق. ارتج الزجاج الخشن الضخم الذي يفصل بين الغرفتين، وتذبذب الظهر الأخضر خلف الزجاج ثم سكن.

الاوراق البيضاء المستطيلة فوق المنضدة، وفتحة الهواء في السقف تقذف، من جهات سرية، عواءات غامضة، وعشرعيون تصعد من رقبتي الى ذقني وصدري.

في الطابق الثالث، كانت غرف أيامنا الصباحية تمتد الواحدة في الأخرى.. مملوءة برجال ونساء، كانوا يتلامسون بالغناء والرقص والحزن ثم يذهبون الى بيوتهم ظهراً ليعودوا في صباح اليوم التالي.

– بالأمس اشتريت قماشاً .

تذبذب الآخر خلف الزجاج والتوى جسده على المنضدة الغامضة.

وتحرك جسد آخر من الزاوية وصار بجانب الظهر المتموج على الزجاج. انحنى ثم انسحب بعيدا ًواختفى، وقعت الاوراق المتراكمة دون اهتمام.. فقد وقعت آلاف الاوراق هنا، في هذه الغرفة، من قبل، وستأتي آلاف غيرها. فواجبي ان اكتب واكتب ثم يأخذون الاوراق مني.

وكانت رؤوس عديدة تمتد فوق منضدتي وهي تهمس.

– كثف قوتك، يجب ان تملأ الاوراق.

أمسكت بأحد الرؤوس

– يجب ان افرغ يوما من هذه الاوراق.

– عليك الا تفرغ منها.

– سامزقها وانثرها مغطياً بها المدينة.

تداخلت خلف الزجاج أجساد سرية عديدة، متحركة، تتوضح ثم تغيب .

وتعود سريعة في فتحة الضوء المتوهج في زاوية الزجاج المضلع الخشن

جمعت الاوراق البيضاء ووضعتها أمامي ورفعت عيني الى عشرات الاذرع المشعرة.

كان رسغي يلتهب فوق المنضدة.

خارجنا يتساوى البشر، كلهم يتشابهون.

ارتفعت ذراع مبهمة في الغرفة الأخرى وامتدت، وضوضوت الأصوات.

- الشاي
- السرير
- الحصان
- دينار
- التلفون
- الحب

العرق يغطي جمجمتي، نهضت لأفر، وفكرت. سيمنعني الحارس من الخروج لان الدوام لم ينته وسيقول:

اذا كان لا بد لي ان اخرج فعلي ألا أعود أبداً.

انسحب شبح في الزجاج وأمسك بقبضة الباب وفتحه فاتصلت الغرفتان وامتزجت الأصوات.

جلس الرأس الجميل بجانبي

- ماذا ستفعل؟
- سأفرّ.

مدت أصابعها النحيلة الطويلة كأفاع قصيرة وطوقت رقبتي. نزعتها بعنف وطردتها من الغرفة : وانتبهت الى عواءات الفتحة الهوائية، وحين أغلق الباب، امتزجت الأجساد المبهمة مرة أخرى في حركات متقاطعة تلتحم وتنفك، ثم تلاشت جميعاً.

* * *

الطيور..العشب الأزرق

انتزعت اغفاءتي المتنبهة في الصورة الصغيرة لـــ ن..وشعرت بعينيّ ف تتوقدان بتركيز في رأسي.. طويت الصورة، وبرفق دسستها في جيبي.. قالت :

أرني ذلك الشيء الذي أخفيته؟

مسست ذراعها وحدقت في عينيها، برقة:

- انها ورقة خاصة.. لا تهمك أبداً..

- ف شريرة ودماثتها تجاهك زائفة، صدقني، لست غيرى.

ف ما زالت تتفحصني.

أتمت ن بدون ضجة : ثق.

امحت ن عندما شدتني ف : انك الرجل الذي أصنعه كل ليلة .

سكنت ف.

منذ مدة فقدت قدرة التمييز والانحسار نحو فتاة واحدة.. الفتيات تساوين لديّ عندما فقدت الحب. وأضحت الواحدة محطة تنتهي أثراً عندما أتركها..

هاتان الفتاتان تريدانني.

تزججت ف فاخترقتها نظراتي.

نهضت الفتاتان في الساحة الترابية الخالية. كنت جالساً على الحافة أرقبهما.. اقتربنا. ووضعت كل منهما يدها في شعر الأخرى واشتعل الصراع بينهما.. تخدش وجهاهما والتفت على الأصابع خصلات من الشعر.. ثم اقتلعت ن العين اليمنى لـــ ف، وتركتها تسقط على التراب الأحمر .

حدقت بعين ف وفكرت : اللعبة تجاوزت الطرافة. صحت بهما:

كفى، كفى.

اتكأت ف على المنضدة أمامي.. وكانت عيناها سليمتين.. وتحسست صورة ن في جيبي. الشقيتان : تباً لهما.

ينبغي ان تتزوجني، فقد انقطع الطمث. انني حامـــل .

حامل!

ماذا يعنيني حملها. ربما كنت السبب في حدوثه، لكن لن اتحمل نتائجه.

مسست الصورة في جيبي

ن ايضا حملت، لكنها خبأته ورحلت به. لم تقل لي مد يدك والمسه وتأكد منه ثم التصق به. كانت تدرك ان الطرف الاول يجب الا يزعج الطرف الثاني. لم أقل لـــ ف ذلك، فلا اريد أولا كشف علاقتي بـــ ن. ثم لانها تحمل جنينها بخوف.

– سيجيء واحد، ان لم تتزوجني، ذات يوم، ويرفع ثوبي. سيصرخ به الجنين.

حدقت بالرقبة اللزجة والسكين تدخل في القصبة الهوائية مفتحة الجلد الرطب عميقا. وخيط رفيع أحمر يلتمع ازاء النصل.

– ف لن يقتلك أحد، فالنساء يستطعن إخفاء أشيائهن.

– انك تتخلص مني.

الماضي هنا هو الحاضر والمستقبل: شيء مخيف ان يكون حاضرنا ومستقبلنا ماضياً.

الى الأبد تنتهي الحركة السابقة ولا اريد ان الصق فيها. انني أعرفك الآن وعلاقتي الماضية **انتهت**.

ن في حقل للرز في الصين تحمل بطنها المتورم. ن في كوبا تعبرأعواد القصب وبطنها منتفخة. ن تحمل مكنسة تنظف درج فندق في الولايات المتحدة وهي منحنية على بطنها... ن تتقي المطر الاستوائي وأمامها عشرات الزنوج العراة يقفزون فوق أشجار افريقيا.. انها مشغولة به في نهار العالم وليله.. وانا منفصل عنها.

– انفصلي يا ف. وافعلي ما شئت بجنينك.

سحبت ف آلة حادة صغيرة وأرادت ادخالها بين اضلاعي، أمسكت رسغها وأسقطت سكينتها..

التوت فوق المنضدة وهي تبكي.

دخلت ن الغرفة وسحبت ف من كتفها بعنف وغيبتها خارجاً.

مسست الصورة، وكانت ف تبكي.

– سأعود ثانية لنتفق، لن تتخلى عني، قل لي لن تتخلى عني.

– اتركيني وشأني.

– لن تتخلى عني.

وانصرفت ببطء ملوحة بكلماتها.

نهضت في الغرفة الرمادية عابراً رياشاً صفراً.. وأمسكت بالتلفون المرن..

انا ب.

- عرفتك.
- **انني وحيدة، هل تأتي الي؟**
- **انتظريني.**

علقت التلفون. وارتديت معطفي. ثم أغلقت الباب ومضيت.

* * *

القارب

التاريخ طبقات من تراب متراكم.

اشتغلت بحمية في الحفر والتنقيب. اخترت تلة مغطاة بالقحوف الطينية الجافة المكسورة : انها علامات الحضارة .

– الوجوه تكشف سرها، والأشياء تنفذ اليها وتزن ثقلها فتسقط جميعها أمامك، وتبقى وحيداً شامخاً.

أشار مساعدي وهو من أهالي المنطقة.

– لنحفر ثقباً في هذا المكان.

رفعنا معولينا وابتدأنا الضرب، تجمعت كومة من التراب الصلب، انحنى مساعدي ونقلها.

قلت له :

– لقد حفرنا مئة سنة.

ضحك ببلاهة، وانتشى بضحكته فلوى معوله برفاه.

قلت:

– مئة سنة، مات فيها ملايين من البشر، وولدت ملايين جديدة. وفي يدي حفنة من تراب، يا للمعادلة؟

كنا منحنيين عرقين والقرية التي جئت منها بهذا الرجل منسرحة بعيداً.

– ستدفع لي اجرتي كل يوم.

– سأدفع.

– شيء ممتع أن تثقب الأرض فقط لنحصل على المال.

حدجته بغضب فكف وجهه المتغضن عن الحركة.

يتساوى هؤلاء كلهم، وما عليك الا ان تراقبهم وهم يرفعون معاولهم.

أصبح الثقب عميقاً أسود. رفعت سلة التراب ورميتها فوق التلة الجديدة الصغيرة، وناديت المساعد. خرج من الثقب فقلت:

– سننصب الخيمة ثم يمكنك الذهاب.

انه يبتهج اذ يلمس النقود ويسمع صوتها.

استدار المساعد ومضى نازلاً. كنت أراقبه الى ان اختفى في القرية.

أوقدت المصباح ورقدت على الفراش النحيف.

– أتوحد الآن مع التاريخ، انا متحرك وهو متحرك في سكونه معي.

كل شيء يهرب الى الظلام يتوحد فيه، ما عدا يدي الملتمعتين.

أمسكت المصباح وخرجت الى الثقب، دليت النور فضاءت الحافات المعتمة.

عدت بالمعول، ثم هبطت الى القاع.

– أمامي الظلام بكامله.

كنت واعياً بحدة.

وكنت أغرز بفرح ذلك التراب الذي تبلل وراح يتفتح بمعولي.

رفعت سلالاً كثيرة، ثم رن المعول. أزلت التراب ولمست صخرة.

– وصلت الى موضع ما.

صعدت الى السطح وتنفست هواءً بارداً، ثم شددت المعول وعلقت النور على خشبة غرزتها في جانب الثقب. كانت الصخرة ترن.

هويت عليها بعنف، انزلقت الصخرة، وكنت منثنياً خلفها منسحباً في الظلمة.

كانت يداي مملوءتين بالتراب، نفضتهما ولمست جسدي، ثم نظرت الى السقف. المصباح يحيط الحافة العليا بنور أشقر غامض.

أخذت أتلمس الأرض بجانبي. زحفت الى اليسار وتصلبت حافة سلم تحت يدي. استدرت وأنزلت قدمي الأولى بحرص وضغطت على الدرجة. كانت صلبة فأنزلت القدم الأخرى.

هبطت درجات كثيرة وانتهى السلم الى ممر. الهواء ثقيل عطن.

– ستصيبني هذه القناة من الهواء الفاسد.

مددت يدي لأفتح طريقاً في الهواء الثقيل. ارتطمت بجدار. رجعت فوجدت ممراً جديداً فدخلته.

اشتد ثقل الهواء، وتحول الى قبضات تعصر رئتي.

- ينبغي أن أعود الى الفوهة.

كنت أتخبط في الممرات.

- **سأموت قبل خمسة الاف سنة.**

انغرزت في التراب البارد.

- لن أجد الطريق. عسى ان يعود المساعد مبكراً ليعثر علي. وكان الهواء أحزمة معدنية تشد وتضيق على جسدي.

* * *

الساعة
تقف على الصفر

- هل انت عضو؟
- كلا
- هل لديك أوراق تثبت انتماءك لهذا النادي؟
- ليست لدي أوراق على الإطلاق.

سوى البواب بزته الرسمية وأشار بسبابته

- اتبع هذا الطريق وستصل الى الجحيم.

ودفع الباب بقدمه ليقفله. منعت ذلك بقدمي. نفد صبره فقال:

- ألم أعلن، لا حق لك بالدخول، ماذا تريد؟
- انا مواطن، سمعت ان النادي مكان جميل فدعني ادخل.
- يا بني انتبه. ينبغي ان تنتمي لتحصل على امتيازات المشاركة في الأشياء. خذ هذه الورقة، اقرأ الشروط ثم قدم طلباً فيوافق عليه الاعضاء، وسأرفع يدي لك بالتحية عندما تجيء.

أمسكت بالورقة فأقفل الباب.

طرنق!

انفتح باب سيارة ونزلت منها ثلاث فتيات مرفهات. تقدمت منهن مبتسماً وحييتهن. تنحين بازدراء فمرقت الى الشارع.

- **انني صامت في مواجهتهن. واذا ما تكلمت سأجعلهن يحضرن الى غرفتي، عاريات، يهرعن الي من بيوتهن البعيدة.**

الشمس تعكس القير الأسود وأقدامي تغوص خفيفة فيه، وجسدي ينفرد لزجاً بالعرق الكثيف.

- السيارات تقف أمام النادي، ينزل الاعضاء ثم يدخلون في قنوات الأضواء الشفافة.

امتلأ جلد الحذاء بالقير وأخذت اقتلع خطواتي.

لا اطيق ان أرى فتاة تحب رجلاً غيري. انني اكرهها. وشرطي ان تلحق بي جميعهن.

فحصت ورقة النادي.

- يا لشروطهم القذرة.

أسقطت الورقة.

وعند مفترق الطرقات في نهاية المدينة خرج جندي من الكوخ الخشبي.

- تعال. أين تمضي؟
- لا أدري.
- هذه الطرق تؤدي الى الخارج. أرني جواز سفرك.
- لا أملكه.
- ادخل هذه الغرفة، ستمر الدورية فتأخذك للتحقيق.
- ههاه. ههاه.

* * *

الخيول تركض
والفرسان يضحكون

كانوا يتقاطرون: من الواحات، وضفاف الفرات، والقرى الصحراوية.
لوريات مملوءة بالبدو والفلاحين والتجار والمهربين تزحف الى المدينة: تطلع من رمل الصحراء المحيطة بها .
الغتر البيض والحمر والزرق تنسدل من الرؤوس على الظهور، والبنادق على الاكتاف.
الخيام طويت. والجمال المضيئة تزحف.
كانوا كثيرين. وجوههم شاحبة متوترة. ينطوون في الظلام.
- ثمة أمر مبيت وخطير.

اندلع الكلام بين عدة رجال يحتلون سطح مقهى.
- الجميع بالانذار.

نهضوا وتفرقوا في الطرقات، وانطووا مع الغتر البيض والحمر والزرق.

-2-

مكبرات الصوت تغمر المدينة بالصوت المتسق الذي يهوي من المآذن الثلاث.
أيها المؤمنون. هل ترضون لله أن يسقط؟
البنادق بجانب الأجساد المتربعة على الأرض والممتدة كالامواج في الباحة الضخمة.
ارتفعت الرؤوس الى القاضي مفتوحة الكفين، منفرجة الى الاعلى.
- من يقتل يدخل الجنة.

تطلعت الامواج وارتطمت الوجوه الغريبة بآلاف غيرها.
الايدي تشد البنادق والخناجر.
صرخة القاضي جمعتهم من قراهم البعيدة. وها هو يختتم خطبته ويترك المنبر فتتفرج الامواج ويتقدم هو بينها.
خلع عمامته على باب الجامع ونشرها على كتفيه.
تحفزت الامواج وصرخت أصوات.

- سنعيد العمامة الى رأسك.
استطالت الامواج واختضت.
توقف القاضي وتوقف أثرياء المدينة الكبار على جانبيه وانتظمت الامواج خلفهم.

-3-

كانت مقرات التجمع التي يمقتونها في منطقة واحدة متقاربة ممتدة في الشارع الرئيسي، وثمة مقاهٍ صيفية بجانبها محتشدة بالكادحين.
تباحث رجال المقرات القلائل في الليلة الماضية عن الزحف الذي جاءهم من الصحراء.
هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً في هذا العالم. خدعوهم وجاءوا بهم. أما كان الأجدر بهم ان يسحقوا الذين يسلبونهم حتى أجسادهم. الفقراء يقتل بعضهم بعضاً.
المقرات أقفلت أبوابها، والمقاهي تحفز فيها الرجال.
زحف القاضي وخلفه الامواج ترفع سكاكينها وبنادقها الى السماء.
التمت الرؤوس على سطح المقهى تحدق بالغتر.
- انهم كثيرون، اذا وصلوا سيحطمون المقرات ويضرمون النار في الكتب والأثاث وسيتصيدوننا في الطرقات برصاصهم.
كان الشارع متحركاً بالغتر الغزيرة.
رفع أحد الواقفين في المقهى الصيفي يده، وأطلق عياراً نارياً. تركز القاضي والغتر.
حمل الهواء طلقين آخرين، ثم أربعة، ثم ستة.
ضحك رجل في المقهى.
- القاضي ينقلب راكضاً متدحرجاً في نهاية الحشود.
استدارت الحشود وانطوت في الأزقة وفي دروب الصحراء.
أين بنادقهم. أين بنادقكم أيها الجبناء.
انمسحت الغتر والبنادق من الشارع الرئيسي. ومن مقهى آخر في نهاية الشارع مزقت الهواء الجاف الراكد رصاصات قليلة.
استدار حشد صغير فاراً الى الخلف.

نزل الرجال من المقاهي واتجهوا نحو الحشد الذي انحصر. كانت الغتر مبللة بالعرق والغبار متفرقة في الاتجاهات، والأيدي سقطت منها بنادقها وسكاكينها وهي تحمل ارتجافات متصلة.

* * *

المعادلة

انقذف لسانه خارجاً، ماسحا شفته العليا.. وسطح صوته:

- لك علاقة بزوجتي؟

أجبته – ذكرت ذلك.

- أقنعني.

- طيب.

أخرجت علبة صور كنت التقطتها بآلة توقيتية، أعطيتها له، وأخذ يفحصها ليتأكد من عدم التزوير، ثم رفع رأسه.

- ماذا تريد الآن؟

(ماذا؟)

- لست أدري

- إذن لم حضرت؟

دفع تجاهي العلبة.

- ضعها في جيبك. واخرج.

انه لا يثور. لا يثب لقتلي.. ربما سيقتل زوجته؟

- ستقتلها؟

- لا.

- إذن أخبرني عما سيحـــل بها.

رأسه الثلجي لا يتحرك وسكونه هذا يضطهدني. لن يصرح طير الدم في رأسه، كما يقولون.

فتحت العلبة وقلبت صوراً عدة، وضعت واحدة منها أمامه.

- انها جميلة هنا.

- صحيح.

ووضعت أخرى في عينيه.

- وضع قبيح هنا.

- ليس كثيراً

انه لا يتحرك، طويت الصور ونثرتها أمامه. نظر اليها برتابة .

- ليس من رجل في العالم لا يثور لانتهاك أملاكه.

كان يلذ لي مراقبة الآخرين في ارتباكهم، غير ان هذا الرجل جاف للغاية، أخذ هو يعذبني باهماله اثاراتي.. أصبحت مضطهداً.

- انك تقسو عليّ.

قال:

- وحدك تقيس الألم وتتحمل المقدار الذي يلائمك، كل العواطف خاضعة لك.

وتناول صحيفة وجعل يقرأ باهتمام.

انه يزداد إهمالاً لي.

تحركت نحوه.. رفعت الجريدة من يديه ودفعت قبضاتي في وجهه ورأسه.

تراخى على المسند محنياً جذعه الأعلى.

قلت له :

- ارفع رأسك.

لم يجب

وخرجت ببطء شديد .

* * *

الجلد، القوس

حددت الجسد الأنثوي المضبب الذي كان يصر على التسلل راعشاً غير أنني لم أستطع تفسير حركته الى غضب او استسلام. وعندما كانت تبتعد، تتوقف بيقظة هائجة، منتظرة يدي الزاحفة اليها. وحين تستقر كتلة جسدها بين أصابعي المتعددة وتهتز وتزيلني.

نتبهت الى اننا كنا نتطارد عبثاً.

قلت لها:

– انت تسحبينني في الفراغ، اقول لك للمرة الأخيرة : توقفي ولنذهب سوياً، او لنفترق الى الأبد.

أطبقت جفنيها وصار وجهها جلداً محدباً بلا عيون..

وانهمكت في صمتها الكثيف الذي أنهى ذبذبتها الإنسانية..

ما هي هذه العلاقة المتآمرة؟ انه تماس افعله وانا مندهش منه، بل استغربه.. لماذا استمر في هذا التواطؤ القذر؟

كان الجلد المحدب واضحاً أمامي.. وضعت كفي على ذراعها وقلت بحزم.

– لننه هذه المطاردة ونفترق .

لم تتحرك.

استدرت ومضيت في الطريق الضيق الى الخارج.

(منذ سنوات توقف نمو الحب في داخلي، وأنهت اهتماماتي الرأسبة تلك العاطفة حجراً صغيراً، صلباً مجهولاً)

يبدو انها توقفت، ماذا تفعل؟

أردت ان ألتفت لأرى ماذا سيحدث.

– انني أتواطأ من جديد اذا التفت.

(لكني أغرم، أحياناً، بمعرفة النتائج)

(لا بأس ان ألفت عنقي يسيراً لأبصر بجانب عيني ما تفعل، دون أن أجعلها – اذا كانت ترصدني – تظن انني انظر اليها).

- لا أستطيع الا ان أبرر، واني من الضعف مع الفتيات بحيث لا أتمكن من طردهن مباشرة.

كانت تمشي خلفي محدبة رأسها للأرض.

(أستطيع ان اؤكد انني شعرت بالانفصال يتوسع بيننا ماسحاً الانعطافات نحوها)

امتدت الأشياء وأحسست بوجوداتها الثقيلة المميزة، وهي تنتصب أمامي متحدية وجودي.

وانتبهت الى ملامسة لذراعي نصف العاري.

كانت تنزل رأسها الى جانب ذراعي وتمسه:

(رأس أشقر منحدر، غائب)

- لماذا لحقتني.
- انها صامتة أيضاً : ذلك مفزع.

(ماذا يهمني..)

كنت غائباً.. وكانت تسير مع جسدي، بصمت حاد.

* * *

الصيادون

استحالت قدماي الى فضاء صلب، تصعدان وتهبطان على صحراء شاسعة.

اختفت تقاطعات الأضواء وضجات الآلات والناس..

(كان جسدي مدتي الوحيدة التي ظلت بعد انهيار المدن الأخرى)

أحدهم الآن يركض، بعيداً خلفي، يبحث عني في الوجوه الكثيرة..

اختفيت وراء زجاجة مقهى وراقبت الطريق : وعبر هو مسرعاً.

عدت من الجانب الثاني.

وجاء آخر من أمام فاتحاً لي ذراعيه. استدرت وفررت وقابلني آخر..

كانوا يتقدمون جميعاً من أمام وخلف. عشرات من الرجال والنساء ليحاصروني.

مئات الأذرع المشعرة والأذرع الملساء.

آلاف من الأصابع المقوسة تجاهي.

كنت محاذياً لفندق ما.. فقفزت على السلم ودخلت إحدى الغرف.

حدقت في المرأة.

- أيتها السحنة، كم يودك هؤلاء القتلة.

أقفلت الباب من الداخل، أمسكت وجهي وغيرت كل شيء فيه ولونت جلدي.

هذا لهاثي.. وأخذت أغني.

انتبهت الى صوتي.

- الصوت لم يتبدل.

صرخت،همست : لم يتغير.

(- سأبقى صامتاً ولن يكتشفوا سحنتي الجديدة)

تركت الفندق ومررت بواحد كان يعرفني، حدق بي ومضى. انتشيت وانتبهت الى رجل يمشي إزائي.

- كم الوقت؟
- لا أدري
- لماذا لا تلبس ساعة، ينبغي ان...

- اصمت ايها الكلب، اتركني.
- انك تسيء اليّ.

وأمسكني من أبطي وهو ينادي:

- ايها المارة، هذا الرجل يشتمني.

تكدسوا علينا، وأخذت أتصبب عرقاً.

صرخ الجميع وهم يرفعون قبضاتهم.

- اعتذر له.
- لا تتعجلوا، فهو المسيء.
- هذا لا يقنعنا. اعتذر له.

واقتربت من أذني فتاة سوداء الشعر.

- سينفكون بكلمات قليلة. والكلمات، يا صديقي، هواء لا ينتهي.

كانت عيونهم تملأ جسدي وهم يتكاثفون.

قلت له:

- اذا كان يرضيك الاعتذار فخذه.
- الآن.. أتركك.

توردت سحنة الرجل وانصرف، وتبعه الحشد. ظلت الفتاة السوداء الشعر واقفة، وقالت:

- هذه هي مدينتك، لا تغفل ذلك.
- لا مدينة لي.
- انها مدينتك القديمة والأبدية، لنذهب الى بيتك، هيا.

كانت ساقاي متخشبتين ومنفصلتين عن بطني، كنت متعباً للنهاية فسقطت مغمىً عليّ بين ذراعي الفتاة.

* * *

الحقائب*

انغرز حذاؤه في الوحل المغطى بالتبن. قاس كتل الأشواك والحشائش البرية المرتفعة، ثم مد قدمه في خط نحيف عار.

انهم هناك خلف النهر ينتظرون في اكواخهم السرية. سأتفحص بنادقهم ثم نشعل النار في غابات القصب.

انه يمضي، كفاه طليقتان دونما حقائب وجمجمته مملوءة بالأشارات.

أنزل من القطار في مدينة (س)

استقل زورقاً الى النقطة ل

(ستجد الطريق الى الأكواخ)

لقد تركه البلام في النقطة المعينة.

ستقودهم.

تعلمهم متى يطلقوا النار ومتى يوقفونها.

(ثم تنشر الثورة)

أصدقاؤه الذين سبقوه كتبوا اليه ان الزيت بانتظار من يسكبه ويشعل النيران، وعليه الآن تحويل كتب الثورة الى يديه ورأسه : الثورة الحارة التي تتناسل في جسده منذ ان تحرك الى غابات القصب.

النار هي الولادة النظيفة.

تكاثف الشوك الأخضر وأصبحت الأرض أكثر ليونة، وامتدت كتلة الطين اللزجة تبقع أطرافه السفلى. بحر القصب ساكن وأيديه ساكنة.

وانتبه الى كوخ مخفي.

- وصلت أخيراً

استعجل خطاه في نشوة عثوره على الكوخ.

- سأستريح قليلاً ثم أجمعهم.

تثبت حذاؤه في كومة الطين ومن خلل القصب تشرعت قبعات صفر.

- انهم ينتظرونك، ولكن ليس هنا. انما في مكان بعيد آخر.

ثقبت جسده رصاصات كثيرة.

*** نشرت هذه القصة اول مرة في مجلة المثقف العربي، آب 1969.**

تقدمت القبعات الصفر والتمت فوق جثته. حملته أيدٍ عديدة وقذفت به في النهر.

كان الرجل مسافراً من جديد، ودونما حقائب أيضاً.

* * *

أصبحت أقدامي
طيوراً

استدعاني مدير الاستقبالات.

- في الغرفة المجاورة ثلاثة ضيوف جاءوا لرؤية مدينتنا .

- حسنا .

- سهلٌ لهم كل شي، فرضاؤهم يعني ان مدينتنا جميلة.

كان الضيوف الثلاثة مستغرقين في أنفسهم.

توقفت قليلاً قبل ان ألقي اليهم بالتحية.

أداروا إليّ وجوهاً جافة وعرفت اثنين.

ايزنهاور وسارتر.

وشزرت الآخر مستفهماً، فأدلى بصوت مخاتل:

- انا النبي ب

أشرت الى الباب

- تستطيعون ايها السادة إلقاء نظرة على مدينتنا.

والتقى الثلاثة على الباب برهة ثم انفكوا مبتعدين.

أشرت الى السيدين ايزنهاور وسارتر.

- انكما لم تزورا مدينتنا من قبل. اما السيد هذا، فهو يعرف بعض الأقدام التي مرت من هنا منذ آلاف السنوات.

- أيها السادة لا أعرف لماذا جئتم، وهذا فضول مني، فمهمتي ان أريكم فقط.

كان الثلاثة منفصلين وانا بينهم أمد يدي أمام عيونهم.

- ايها السادة، مدينتنا لها تاريخ مهيب. كانت مركز العالم في ما مضى، ثم مرت بها عصور من الظلام. كان الناس غائبين في بيوتهم وكانت بيوتهم غائبة، ثم هزتنا مدن بعيدة أخرى: هيه ايها الغائبون اخرجوا. فتسللت الجموع لتبصر الضوء العجيب.

- ايها السادة، أرجو ان تكونوا معي. لقد وصلنا الى الحاضر، انكم تبصرون هذا النهر الأبدي الذي يكوم الثمار أمام العتبات، وهذه الشمس التموزية التي تنفذ الى نهايات العتمة بدفئها البخاري. اما سكان هذه المدينة ايها السادة..

- ما هذا.

قفوا.

قفوا.

الدور اختفت، النهر اختفى.

ملايين الأجساد مطروحة على الرصيف الممدود الى غير نهاية. وثمة كتلة شفافة شاسعة من الغبار تأتي من الجهة المقابلة وتطمر نهايات الأجساد المرمية.

- ايها السادة، ثمة أمر غريب يجري. لنعدْ الى مدير الاستقبالات.

التفت وكانت دائرة الاستقبال قد اختفت ايضاً، وامتدت الأرض الصحراوية الخشنة الى الأبد.

- لنترك هذا المكان.

احتج واحد من الثلاثة.

- هناك منهاج لنا. لقد جئنا الى المدينة ولن نتركها قبل ان نخبرها.

- ولكن يا سادة أرجو ان تلاحظوا ان الأمر قد اختلف.

- الأمر سواء لدينا. اننا لا نعرفكم ولكنكم انتم الذين دعوتمونا.

بدأت خطواتهم تتركني.

قلت بصوت مرتفع:

- هل أبقى وحيداً؟

ونظرت الى الصحراء مغتماً ثم لحقت بهم.

كان الثلاثة يتفحصون الأجساد، وكانت عيون الأجساد المائلة لصيقة بأقدامهم دونما حركة.

وامتزج التجمد لدى الجميع.

عبرنا آلاف الأجساد وظلت في الأفق آلاف غيرها ممتدة.

- كلهم متشابهون ايها السادة، انكم تتعبون هباء.
لم يأبهوا بي. توقفت ونظرت الى الأجساد وصرخت.
- ايها المسحورون انهضوا، ايها المفنيون الأموات.
ابتعد الثلاثة عني وهم متعانقون.
ركضت وأصبحت أقدامي طيوراً.

* * *

100 ذراع

كان السيفان الصدئان معلقين في بهو المنزل الداخلي.

حدقت بهما ملياً.

منذ متى هما في موقعهما؟

كانا قد استلفتاني برغبة غامضة منذ مساء أمس.

(ذكرت والدتي منذ زمن بعيد ان جدى الذي كان ضابطا في الجيش العثماني قد تركهما.)

قفزت فوق كرسي وتناولت واحداً منهما. كان ثقيلاً بعض الشيء.

مسحت طبقة من الغبار الناعم عن نصله بحذر.

(ملمسه يبعث حرارة مفاجئة في الدم)

أمسكته من قبضته، رفعته الى الأعلى ثم طعنت الهواء وأعدته الى مكانه.

البهو خالٍ، غير ان أصواتاً نحاسية قرقعت في المطبخ (انها امي).

(سيدخل أخي الكبير المفتاح ببطء ويدير الباب، ثم يمرر وجهه الممتلىء وقامته المتوسطة، ودون تحية سيدلف الى غرفة الطعام، ثم يرقى الى غرفته في الطابق الأعلى. سأنهي اليوم القضية).

دخل المفتاح ثم طق الباب ودخل أخي الكبير.

واجهني بنظرة فارغة وهو يغلق الباب وراءه.

قلت له – تمهلْ.

نظر باندهاش للهجتي الآمرة.

قلت له – سنسوي مسألة معلقة قبل ان تتناول غداءك. تحفز وجهه ووضع يديه في جيبي بنطلونه.

قلت:

- انت مسؤول عن وضعي الذي انا موجود فيه. ضحك بشغف.
- هل تورطت في قضية ما.

ثم نظر الى فمي باهتمام.

- لقد مسحتني من خارطة الوجود الحقيقية، جعلتني ظلا ًلك ايها المبتز.

قفزت على الكرسي واقتلعت السيفين، مددت واحداً اليه.

- خذ، سنتبارز.

هز حاجبيه واستدار الى غرفة الطعام.
قلت له:
- لن أتركك، سنتبارز بعد الطعام.
أمسكت سيفاً بيدي وأسندت الآخر على الكرسي، وركزت عيني على باب غرفة الطعام.
(منذ ان توفي أبي، وكنت صغيراً جداً، أصبح أخي الكبير حاكم البيت. لم يتفقدني في يوم ما. واذا صدف فيتدخل بفظاظة وقسوة في أتفه الامور، ثم يتركني ملغياً فترات طويلة. كان ينهي هواياتي ويرغمني على الاقتناع بهوايات يخططها ويوفرها هو).
شددت مقبض السيف.
(عندما أقيس موقعي الآن، أحس ان الدنيا مختلفة عني. فلم يدعني هذا الأخ اكتشف شيئاً يلغي غرابة العلاقات والترابطات الكثيفة التي تحرك الحياة. ان فراغاً كاملاً يملأ صدري).
لقد أطال في تناول طعامه.
هتفت
- انني أنتظرك.
انه المسؤول عن ترددي الدائم في النزول الى صميم حركة الحياة. ترددت أصوات أقدامه وهي تتقدم.
أمسكت بالسيف الآخر، وقلت له:
- خذ
توترت عيناه بالغضب، ورفع يده ليصفعني:
- لقد هذرت كثيراً.
وجهت سيفي صوب صدره بثبات، تراجع خطوة مبتعداً عن سيفي.أمرته.
- خذ أحدنا، فقط، سيبقى.
- كن عاقلاً، الأخوة لا يتقاتلون.
- اللعنة عليك وعلى الأخوة، سأقتلك اذا رفضت مبارزتي.
تناول السيف وتراجع الى الحائط.
قلت:
– سأعد حتى الثلاثة ثم نهجم

ورجعت الى الحائط المقابل

تصميم
سأملك حريتي بحياتي
سأملكـــها الى الأبـــــــــد

واحد
اثنان
ثلاثة

وخطوت بسيفي نحوه. انفتح باب جانبي ودخلت أمي منتفضة :
– ماهذه الضجة؟
ثم صرخت بهلع:
– ماذا تفعلان؟
أجابها صوته الملتصق بالحائط:
– يريد أن يقتلني.
تقدمت مني.
صرخت بها:
– ابتعدي
ورفعت يدي.
(سأشطرها الى نصفين)
وكانت سريعة جداً. طوقتني كالوثاق. قالت:
– اشفق على أمك المسكينة. إنها لاتملك في الحياة غيركما.
قرقع السيف الذي بيد أخي ساقطاً على الأرض.
ثم خطا الى الباب الخارجي ليهرب. صرخت به وأنا أتملص من وثاق أمي:
– أيها الجبان. قف، لاتهرب أيها الجبان.
أبعدت أمي ذراعيها
(لقد تحررت منك أيها المبتز. أحس بقوة هائجة تضج في جسدي)
وكانت أمي في مواجهتي تردد نصائح وكلمات كثيرة لم أفهم شيئاً منها.

* * *

رجل له 7 أقدام*

انتفض الوجه المرفه المرتخي الذي يمد ساقيه باستقامة أمامي:
– هل تعرف الفتاة التي كانت برفقتك اليوم في المطعم؟
– طبعاً.إنها تدرس في نفس الكلية، تعرفت عليها قبل عشرة أيام.
– هل تعرف أنها يهودية؟
– لم أسألها.
– لقد أخبرتك لتمنع الأمور السيئة قبل وقوعها.
لم أجبه.
اضطرب الوجه المرتخي ونهض عابراً الى الباب وخرج.

المكان
غرفة في بناية تابعة للجامعة في لندن

كنت أرتبط بالثلج الذي يتساقط نثاراً خفيفا ًويتجمع حتماً على حافات البناية وفي الشوارع، قافزاً من دفء الغرفة الى الطرقات الخالية المغسولة بالمطر. قبعات منحنية قليلاً وأيدٍ مدسوسة في المعاطف تسرع (كانت جالسة وحيدة.. سحبت كرسيً بجانبها. بدأت بالطريقة المألوفة: الغيوم رقيقة. سنرى الشمس. أدارت وجهها وكأنها تنتظر. سألتها – هل تحبين الشمس؟ سألت: أجنبي؟ أكدت لها بهزة من رأسي. وأضافت: إنني أيضاً أجنبية. ثم سألتني إن كنت أدرس هنا. لم أسألها عن وطنها فقد نسيت ذلك في اندفاع الأحاديث الكثيرة.
– كيف عرف هذا اللعين أنها يهودية.

هامش
العلاقة لاتبدأ من جـوازات الســـــفر والدين. إنما تبدأ من التطلعات الإنسانية العامة..

قرع الباب ثلاث مرات. هتف
– ادخل

*** نشرت هذه القصة اول مرة في مجلة الى الأمام ، بيروت، 5 حزيران 1970، عدد 302.**

أغلقت الباب وراءها. وجلسنا سوية على مقعد عريض متباعدين تفصل بيننا فجوة صغيرة. أرخت ظهرها على المسند وأرخيت ظهري. كان رأسها يصل الى جانب كتفي. حدقت الى وجهها الرقيق والى يديها.

(هل هي مسؤولة عن الدمار؟)

أمسكت يديها. كانتا دافئتين وناعمتين. قلت :

– هل تعلمين بأنني عربي؟

بسطت يديها بين يدي وأجابت :

– نعم. عرفت ذلك من اسمك.لماذا تخبرني؟

– أخبرني أحدهم أنك يهودية.

– هناك شيء سري في الداخل أقوى من الكلمتين المتجردتين.

أنا د وأنت ح. إن وطني هنا في الداخل. لم نقدم لبعضنا حين تعارفنا تضاريس وتاريخ جوازات سفرنا. إننا إنسانان في هذا العالم المملوء.

(سحابة من جراد تطير في الصحراء. مدافع لاتنضب)

وأضافت:

– هل تتحول العواطف والأحلام اللامحدودة والشخصية الى عنف دائم. وهل الإنسان آلة حربية ترضخ لزمن محدود؟

– أحبك أنت. لكن دولتك تبدو خلفك.

تركت كرسيها

– لازلت تربطني ببلاد وسيسة وحرب. ذلك مؤسف. قد نلتقي.

ثم خرجت من الغرفة

(بواخرتنفخ صفاراتها في الموانئ ورجال مرهقون يعودون من سلمها الملامس للمرفأ. البواخر تبتعد في البحر وتغيب. والرجال يختفون في الميناء. ثلج لاينقطع ودقات وهمية على الباب. وحروب غير منظورة. كل البشر ينهضون، يتحركون بملايين الأفعال المختلفة في لحظة واحدة)

تحسست المكان الذي كانت تشغله الفتاة وقلت:

– انتظري قليلاً.

الغرفة المجاورة تتوسع وتضحى مترامية لاتبصر جدرانها. رفعت الشباك لأهتف اليها من الطابق السادس أن تعود. كان الشارع لامعاً بالجليد الأبيض، وخالياً تماماً.

* * *

القطار الليلي*

* نشرت هذه المجموعة في عام 1974، مطبعة الحرية ، بيروت.

رجل ما.. دون التقاء*

اشتبه الرجل المنعزل في غرفته بأنه سيموت.. وكان صراخ الأطفال اللاهين يصل اليه من اسفل المنزل.. وتخيل النسوة يتنقلن، مشغولات بأعمالهن اليومية، دون ان يعلم الجميع بان رجلاً، في غرفة عليا، يموت وحيداً.

أراد ان يزحف من سريره الى الباب، فيفتحه، ويهتف طالباً المعونة، ولم يتجرأ على الخروج من فراشه لان الحركة شقت عليه، وتصور انه اذا صرخ فان روحه ستنفصل عنه !

كان النزل الذي يرقد الرجل في غرفة عليا منه واسعاً وقديماً، وجميع غرفه مليئة بعوائل مهاجرة مضنكة.

- ماذا سيقدمون لي؟

التمس الرجل عواطف منقطعة وتذكر زوجته وأطفاله الثلاثة الذين قتلوا في نزاع قبلي منذ سنوات، وود لو بقي أحدهم الى جانبه.. لقد هرب من قريته والتجأ الى المدينة، واشتغل عامل تفريغ في احدى العلاوي، وكانت اجوره زهيدة لم تمكنه من الزواج ثانية.

(انفتح الباب وظهرت امرأة يلتصق بها ثلاثة أطفال.. تسللت ببطء كي لا توقظه، ومشى الأطفال على أصابعهم ووقفوا بجانب السرير ينظرون الى الرجل ويتفحصونه.

ابتسم الرجل ومد يده الى اقرب الأطفال وداعب رأسه.. كانوا جميعاً ساكنين ينظرون اليه بتمعن.

استقام في سريره ولمس المرأة.. نظر في عينيها ومرر يده على جسدها وهمس:

- عدتم أخيراً ايها الاعزاء.

ولم يجبه احد.

- انتم متعبون.. تعالوا وناموا بجانبي.

واندفع الى طرف السرير.

*** نشرت هذه القصة اول مرة مع قصة اشراقات في مجلة الف باء، 6 ايار 1973، عدد 245.**

- تعالوا.

ولم يتحركوا.

– زوجتي العزيزة الا تسمعين؟ وانتم يا أطفالي؟

احتد صارخاً:

- تعالوا وناموا..

استدارت الزوجة الى الباب، وتبعها أطفالها، وخرجوا)

- تعالوا ناموا، انتم متعبون، انتم متعبون.

كانت الغرفة مظلمة، والرجل على سريره يتتبع صدى كلماته الأخيرة.. ومن خلف الباب ارتفعت ضحكة رعناء.

* * *

أفراح

اقترب خادم المستشفى من المريضة الثرية الجميلة، وهي تفقد وعيها في الطابق الثاني من المستشفى، وكانت اية فتاة جميلة حلماً مستحيلاً في حياته... انحنى فوقها وقبلها، انفرجت عيناها وصرخت.

ركض الممرضون والخدم ودخلوا الغرفة .

كانت المريضة قد فقدت وعيها.

وكانت أجساد كثيرة منحنية فوق خادم مستشفى تحطم في الحديقة عندما قفز مذعوراً من نافذة في الطابق الثاني.

* * *

إشراقات

نظر الشاب النحيل المتصلب الى فوهات في الأرض يسيل منها ماء.. وكانت الغرف المتينة التي شاهدها من قبل، مهدمة، وحجارتها مبعثرة على السفح الصغير المقعر.. التحم بصره بالحجارة المتناثرة وانفرج فمه حزناً.

كان يحس بالظمأ يشقق جوف فمه وأراد ان ينحني فوق الفوهات:

- هذه المياه لم تكن تتدفق سابقاً، لا بد انها باردة في هذه الجبال.

توقفت أصابعه فوق المياه والتمت على راحة يده ونهض.. ابتعد عن المياه وراح ينظر الى الغرف التي دخلها سابقاً.. لم يبق منها شيء.. (كانوا احد عشر مقاتلاً يحرسون القاعدة عندما انقضت الفانتوم الاسرائيلية واستشهد الحراس جميعهم) برزت بقع من الدماء تشع في زوايا الحجارة.. اقترب منها ولم يجد شيئاً.. برزت في اماكن مقابلة.. كف عن الذهاب وانحدر قليلا.. (لقد فجرت القنابل المياه من الأرض).

انحسر طير من اعلى السفح ومر فوق القاعدة هابطاً ثم عبر دون ان يقف.. تابعه... ثم وضع يديه في جيبي قمصلته وبدأ يرتجف.

كانت الأرض لينة مبللة بالمطر الجديد في بداية الشتاء.. علقت بحذائيه كومة من الطين وتكاثرت وعندما انحرف الى جانب صخري ضرب حذائيه وتحرر ثقله.

عندما وصل اول مرة الى القاعدة كان الرجال يتحركون وكانت القاعدة تبدو وكأنها تتحرك معهم وكان مقاتلو الدورة الجديدة تفيض عواطفهم وتتوحد مع القاعدة والافق والسلاح.

كانت المدينة بعيدة. وكان السلام الشخصي مضموناً فيها، ولكن هنا، ثمة هواجس وحركة أخرى، كانت المدينة تستيقظ أمام التخيل أشد سطوعاً، وتفاصيل دقيقة، ثم تغيم وتتلاشى أمام الحجارة الحقيقية والغرف المنحوتة في الجبل.. هنا يتكور الرجل على الأرض محدقا في خرائط ومدن مفقودة. مدن بعيدة تصبح نقاطا على الورق. ويتذكر بعض الوجوه ويحس بالحرارة والصدق.

- لم يبق شيء في هذه القاعدة، آلامي تتحرك في كل مكان وتذكر فجأة ان ثمة أشياء تملأ المكان... هناك الدماء الخفية التي تناثرت من أجساد الشهداء... وربما بقيت بعض الايدي تحت هذه الصخور او قطع أخرى من

اجسامهم. ونظر مرة أخرى الى المياه المتدفقة وهي تتحول، ثم تتصلب الأرض.

أحس برأسه ثقيلاً وأمسك جبهته الملتهبة. نزل رويداً بين الصخور مأخوذاً، وغاصت قدمه في المياه المتفجرة.. كانت برودة الماء ترجف قدمه وحرارة الدم تغلي في رأسه.

ترك القاعدة ركضاً، وهوينفض قدمه نفضات متتالية.

* * *

العنكبوت

امتدت كتلة سمراء كثيفة من خلف الزجاج. احس الرجل الراقد أنه يختنق، صرخ:

- أغلقوا الأبواب، الغبار سيقتلني.

هرعت امرأته الحامل الى سريره وهمست:

- انها مغلقة.

تباطأ صوته وهو يعلق نظرته بالبطن المنتفخة:

- عسى ان يكون صبياً.. حافظي عليه ليدوم اسمي.

تشنج الرجل الباحث عن الخلود ومات

لحظت المرأة موته. تحاملت على نفسها وفتحت الباب لتطلب نجدة، ثم سقطت على الأرض.

كانت دماؤها تنزف والغبار المتدفق يتراكم فوقها.

* * *

آه

اتكأ الموظف على منضدته الخشبية القديمة : ثلاثون سنة فقط في الوظيفة! ثلاثون فقط !

الموظفون الشباب يتنقلون في القاعة الواسعة، يتحاشون النظر اليه، وكانت الاوراق المكومة فوق منضدته قد رفعت في الصباح.

- تقاعد، كتاب شكر، مطالعات جديدة، اضابير، رائحة الاوراق العذبة، الصراخ كان ضحكاً، مقهى، مقهى. يقولون ان الراتب سينقص ديناراً واحداً، لماذا تعمل من اجل دينار؟ تكوم الموظفون عليه فجأة وامتدت عشرات الايدي تضغط على يده الرخوة اللاهية.

ولم يجد بداً من الخروج وهو يمسك ورقة إحالته على التقاعد.

كانت مناضد متهرئة تتخلع عن جسده وأوراق صفراء تتطاير من رأسه.

كان يبتعد ويبتعد.. ثم تلاشى .

* * *

نمور من ورق

كان الهاربون مجتمعين حول مائدة في زاوية معتمة ثم أخرجوا دفاتر من جيوبهم وبدأوا يقرأون تواريخهم كانت التواريخ تصطدم مع بعضها وتحدث جلبة، حين فتح الباب وانتصب شرطي أخذ يحدق فيهم.

دس الهاربون دفاترهم خفية تحت المناضد، ثم ادخلوها بهدوء الى جيوبهم.

تقدم الشرطي سائلاً :

- اين دفاتركم؟

تناثرت أجوبتهم :

- ليست لدينا دفاتر.. أية دفاتر تقصد؟

- هاهها. وماذا خبأتم تحت المنضدة عندما دخلت؟ لقد شاهدتكم! مد يده وتلمس جيب احدهم ثم انتزع دفتره واستدار الى الجميع وأخذ دفاترهم.

كانوا يرتجفون وهم ينظرون اليه.

انسحب الشرطي الى منضدة يشع فوقها ضياء مقلباً الدفاتر. كانت الدفاتر ممزقة، بيضاء متسخة لم يكتب فيها اي شيء، رفعها ورماها الى منضدتهم، ثم خرج.

* * *

الاختفاء

فتحت عينيها وهي تبتسم لي بمقت.
ملأتني سخرية مشفقة وانا احدق في وجهها.
ارتفع صوتها ساخطاً:
- اترك هذا المكان.
لم آبه بهتافها وتناولت جريدة وأخذت اقرأ.
(كانت تعتقد انني رمز عذابها، نتيجة ملابسات افقدتها حبيبها، وجسدت لها انني السبب، ادركت هذا الامر، الا انه لم يثرني على توضيح موقفي، فالمسألة لا تعنيني إطلاقا، وبالتالي لا تهمني حالاتها).
- غادر الغرفة والا اثرت حولك فضيحة .
كانت قد تركت كرسيها ووقفت أمامي.
طويت الجريدة ونهضت، حدقت في عينيها بقسوة وقلت :
- لم لا تغادرين انت المكان؟
التقطت حقيبتها اليدوية وهي ترتجف، فأتممت:
- انك تصدعين رأسي وطالما تغاضيت عن الاعيبك الخبيثة. سأعاقبك بشدة اذا تعرضت لي مجدداً.
(لم أدر حقاً كيف اعاقبها، فلم يسبق لي ان عاقبت امرأة، ان ما يهمني هو التخلص منها وحسب). تركت الفتاة الغرفة، ثم الشركة.
(ينبغي ان اتبعها لأبصر ما ستفعل. النساء يستطعن التوازن في النهاية).
بدت من بعيد وهي تستدير الى النهر، فأسرعت خلفها. وقفت على الحافة ثم أسقطت حقيبتها وقفزت، كان الماء سريعاً.
تساءلت وانا انظر اليها وهي تخرج رأسها من المياه :
(اذا تركتها تموت، سأتخلص من تنغيصها لي).
ولم أدر اي دافع أهوج جعلني اقفز نحوها، فقد ازداد كرهي لها عندما أبصرت عينيها الجزعتين.
حاذيتها وضربتها بقبضة يدي على مؤخرة رأسها فأصبحت لينة، سحبتها واستطعت رفعها الى الجرف.
وانتبهت الى رجفة انبعثت من جسدي، كان الهواء يضرب ملابسي المبللة، وكانت الفتاة غائبة عن الوعي.

(يبدو ان ضربتي كانت قوية).
علقت حقيبتها في ذراعي وحملتها الى الطريق العام.
أوقفت سيارة أجرة ونقلتها الى شقتي، وعندما أقفلت الباب غمرني السلام، خلعت ملابسها وأرقدتها على سريري.. تأملت جسدها العاري (أستطيع الانتقام منها الآن انتقاماً شرقياً حاسماً) .
ولم أغتبط لهذا التصور السهل فغطيتها بدثار ثقيل وخرجت، وحين عدت كانت قد فتحت عينها وصرخت :
- ما الذي جاء بك الى هنا؟
قلت: انها شقتي.
انزلقت أصابعها على جسدها من تحت الدثار ثم ولولت دون ان تجرؤ على الخروج من الفراش.
- ماذا فعلت بي؟ اين ملابسي؟
- ستجف، لقد انقذتك من الغرق.
- الغرق؟؟
تساءلت باستغراب ثم انقبض وجهها :
- هات ملابسي.
سألتها بسخرية:
- هل ستنتحرين من جديد؟
لم تجب.
أحضرت لها ملابسها وكانت تقارب الجفاف، رميتها على الفراش وتركت الغرفة.
كنت واقفاً في الممر انظر الى الأرض المتسخة بالبلل. ومرت الفتاة بجانبي ثم صفقت الباب.
دلفت الى غرفة النوم وألقيت نظرة على سريري ثم مسست، محموماً، الدفء الذي خلفه جسدها العاري على فراشي.

* * *

القوس*

السيدة، السيدة

انها تتشبث في الذاكرة، وتهبط وئيدة لتدخل في الأعصاب، لم اعد اميز ما اذا كانت قد ذهبت تماماً، انها تظهر فجأة من الماضي، كأنها ستبقى دائماً، ثم تغيب من جديد.

كنت مسترخياً في الغرفة الظليلة،احدق في ورقة ملتصقة بالأرض.

(ان الحماسة للأفعال تفقد حيويتها عندما نتبين ابتذال هذه الأفعال وبطلانها: الوضع العمومي يدمر أفعالنا اليومية). لم تكن السيدة قد فارقتني الا منذ فترة قصيرة، ورغم إحساسي بنشوة تدخلني، الا ان عذاب علاقتي بها يترسخ، عندما أملتها لي تماماً تفتحت مسؤوليتي ازاء العاطفة، وكنت اهرب من أية مسؤولية، لذا انكرت، وعاقبت العاطفة لكونها تحمل خضوعاً، ان وحدتي وحريتي ينبغي الا تمسا وانا الذي اقرر متى تبدأ علاقتي ومتى تنتهي:

انني اشعر بحبي مترقباً اقترابها مني، وعندما اتأكد من عاطفتها، اثور غاضباً على خيانتي. لانني بلا عواطف) انا والسيدة معاً.

- اخبريني، هل سنلتقي في ما بعد؟
- لا أدري سأرحل.
- سأتبعك اينما ذهبت، سنلتقي هناك.
- لا لن اراك.

(انني أدمر عاطفتها، لهذا تقذفني خارجها).

- ستكون أياماً جديدة لنا.
- سافر اذا تبعتني لن أدعك تراني.
- يا صغيرتي المجنونة .

انها تذهب دون ان تبتسم، كي تؤكد عزمها.

كان الهواء اللافح يتدفق من الشباك المواربة: دفعت الشباك بقدمي وأغلقته.

هذا الهواء الخانق يمدد السيدة في ذهني الى أجزاء منتفخة ثم يغيبها.

*** نشرت هذه القصة اول مرة في مجلة الاقلام، عدد3، السنة الثامنة 1972.**

السيدة لقد ترسبت في الرأس وأصبحت مرأة من الداخل تلوح للعينين بأنفها الدقيق وعينيها السوداوين التركيتين.

- كيف تعوم هذه التفصيلات اللعينة منفردة عن السيدة التي مضت؟ انها أحداث منسية.

السيدة. انني اعشقها بتوجس.

انني أطفو الآن في ذاكرتي، تغيب السيدة (في تلك اللحظة لم اتذكر ان السيدة كانت موجودة) ان قلقي يكمن هنا : لماذا اخشى منح عاطفتي تماماً لامرأة ما وبمسؤولية تامة؟

ان القلق يغلق نفسه بعد انتهاء العلاقة.

السيدة انها تبتعث وجودها من عدم الغرفة وتجلس الى جانب السرير، فأمد يدي : المس كتفها وجانب بطنها، وبطن فخذها ويعوم جسدي في حرارته فأغلق عيني واطرد السيدة بدفعات غاضبة محتدة.. ويغيب جسدها جزءاً جزءاً.. الا انها تبقى مع ذلك في الغرفة فأرضة وجودها على إرادتي الرخوة. وتبقى السيدة الطافية تحضر وتغيب بتصميم كسول بطيء.. انني انخلع من جسدي متصغراً في قمة رأسي وارقب ذلك الشيء الذي تركني ليحيا مع السيدة بوجود تائق وغزير.

- انه سعيد منفصل عن العالم.

لكنني مخنوق بألمي وجسدي يتحطم.

انني مدين لك، فقد علمتني أشياء كثيرة كنت اكتشفها بدون ان احسمها، وأحياناً يملأني الندم لانني تركتك ترحلين غير ان قلع الالم في زمن محدد اجدى من تركه ينتشر في الجسم الى الابد.

الزمن يتركني.

انني اتدلى في صحراء جافة محرقة بالشمس القذرة. (لكي انجو او احافظ على توازني علي ان أفر دائماً من المكان الذي يعتاد).

نهضت واتجهت مسرعاً الى غرفة صديقي. كان راقداً في سريره يقرأ كتاباً.

رقدت على السرير الآخر في الغرفة : سألني بصوته المتعب اللامبالي:

- كيف هي السيدة؟

(نظرت الى وجه السيدة ولم اجرؤ على لمس يدها: أصبحت علاقتنا الآن واضحة).

- نحن نقول النساء متشابهات. ثم نستثني واحدة دائماً.

تقلص جسده النحيف الطويل وجلس فوق الفراش.

- يمكنك ان تركن الى فتاة واحدة؟ ألم تقل اننا نحتاج الى اكثر من عاطفة، الى عدة فتيات لنفقد عاطفتنا كلها.

هنا تكمن حقيقة هربنا من الفتاة الواحدة. وعدم التورط في علاقة نهائية معها، قلت:

- عاطفتنا ليست كبيرة بل صغيرة جداً الى حد نشك في وجودها، لذا نحتاج الى عدة فتيات ليؤكدنها. ان العاطفة عندما تؤكد وجودها تكشف نفسها وتقبل التملك.

- نحن بحاجة الى عواطف تنقذنا من تاريخنا الدموي.

(كانت السيدة قد ذكرت في مرة سابقة انها لم تعد تعرف كيف تواجه حاضرها ومستقبلها وانها يائسة من وضعها ولا تستطيع البقاء متوازنة في وضع اجتماعي وسياسي يناقض تكوينها ويحاصرها).

كانت تتوقع – ربما – ان اتزوجها، لكني كنت مبعداً الزواج عن رأسي، وكنت أؤجل مباهجي وحياتي الى حين خروجي من البلاد، وراقتني فكرة ان نرحل معاً وانتزوجها هناك، لكني لم أقل لها ذلك.

كان يأسي من ضرورة أفعالي قد خفف حماستي ورجائي.

لذا لم أدع عواطفي تلتهب وتلحقها.

كنت أحس بالطمأنينة المطلقة عندما اكون بجانب السيدة، فهي مليئة بالحماسة والامل، كنت اتيقن انها تشبع عمقاً بعيداً ممتازاً في داخلي.

كنا جالسين ذات أمسية في مقهى، قالت:

- ان ما نفقده لا يعود، لكن ينبغي الا نفقد كل شيء.

- اننا خارج الأحداث .

وبختني، وضربتني على كتفي ضربة رقيقة.

- انني أعرف يأسك

كنت أحاول تيقينها من يأسي، ومن ثم اسحبها الى يأس مماثل يفضي بها الى عبثية تقارب عبثيتي.

- لا جدوى من التغيير. ان جديتنا تجعلنا خارج الأشياء.

- اقوى! اقوى!

مطت الكلمات بفمها استهزاءً .

كنت أود لو أحيطها وأقبلها وأقول لها أيتها الصغيرة دعي عنك هذه الحماسات الخاطئة.

- لسنا اغبياء يا صغيرتي، لقد تجاوزنا زمن إغماض العينين والاندفاع الى الهاوية. ان العديد من الاغلاط نرتكبها بحماسة ازاء اقتناعات متمايلة.

انها لا تفقد أملها في الامكانيات المجهولة.

وانتبهت الى انني أخوض معها طريقاً خطراً في الحديث. ان قناعة المرأة جذرية. وعلي ان ابعد هذا الحديث بحديث آخر لكي لا اجعل التناقض يبدو.

نظرت الى وجهها الوادع بشغف.

(إلام ستمضي علاقتنا؟ كان هذا التخوف ينتزع أحلامي جميعها وكنت اطيح به كلما تبادر. وكان رعبي يتأهب لسماعه من الفتاة نفسها).

- في النهاية تكتشف انه لم يتبق لنا شيء. ولم يكن لنا شيء. ان هذه النتيجة تفرغ حماستنا وفرحنا وحاضرنا. وان الشيء الوحيد الذي نحتفظ به في هذا العالم هو نقاؤنا وصفاؤنا .

(أية حيلة مفضوحة نبرر بها هامشيتنا).

- لا يبعث الأمل سوى النضال.

كنت اتوقع ان تلقي علي درساً في وجوب النضال فعاجلتها بسؤال موفق.

- اعتقد انك تأخرت في العودة.

نظرت في ساعتها ثم نهضنا ومشينا بمهل.

- لا أدري لم اخترتك انت من بين كل أولئك الرجال. حقاً تساءلت (لم اختارتني؟).

(انه بؤس مغلق لها ان تختارني انا) .

وأحسست بنذالتي تطعنني بسمها فكيف لا انقذ هذه المرأة العظيمة.

كنت احس بالقنوط حين افكر بالزواج، وكان عذابي يتوسع.

(لم تذكر لي تسلط حبها لي. بل سمعت عنه ما ملأني فخراً).

هل يمكن ان ننفها ونغرب عن بعضنا؟

وأحسست ان وهمي سيتبدد. وانني سألقى من جديد خارج العالم فامتزجت رغباتي مع قنوطي في القبول. قلت لها لأقنعها بوضع لا يفقد طمأنينتي وحضوري الدائم لديها:

- من الخير ألا نفقد الأمل. وسيحدد المستقبل شكله في ما بعد.

- انك تلقي نفسك في الوهم، عليك ان تدرك حاضرك لتكتشف مستقبلك.

انني امقت اللغات التبشيرية، أيتها السيدة، لكنني اصمت على مضض، ماذا يجدي تنويرك في كل شيء، ان معارضتي لكل ما لا يوافقني مع امرأة سيبديني في النهاية كتلة محشوة بالكلمات لا غير.

ان رجلاً يظهر من اتجاه، وتظهر امرأة من اتجاه آخر، فيلتقيان فجأة دون ان يكون تاريخهما مهيئا لهما ذلك. ويشعران انهما يجب ان يرتبطا، ويبدأ تاريخ موحد يسوقهما وينفي تاريخيهما المنفردين.

لقد كان تاريخي معزولاً، او هذا ما كنت ألح على تصوره ويبدو لي كأنه حقيقة وسط الخراب الذي كنت أعيشه وكنت موقناً ان انفرادي كان اختيارياً رغم إحساسي بعبئه وضرورة تبديله.

واذكر ما حدث بعد توثق المعرفة بيننا، انني انتشيت وانا امارس لعبة اغرائها، لقد كانت تتفتح لي انفتاحاً كاملاً، وأخذت ارقب احتواءها لي. كنت مسروراً اذ كشفت لي حقائق كنت اشك بوجودها في اعادة علاقاتي مع العالم بعد ان كنت مقرراً ان عبثاً مطلقاً يحتوي كل فعل نمارسه او نتلقى به فعلاً من الخارج.

كانت الحماسة التي تواجهني بها السيدة تهز يأسي المتعمد. وتوقظني على اسئلة حاسمة.

- انك تقول ان العالم باطل، لأوافقك من خلال شروطه التي تعيشها هنا. الا يتبدل العالم في شروط أخرى. اليست شروطه مختلفة في مكان آخر؟ قد يكون. لكني لا أستطيع رؤيته بكله من هنا الا من خلال شروطه الحالية التي أعيشها.

- عليك ان تنسف حياتك.

- هذا ما لا أستطيعه، انني محكوم، ولذلك انتظر ان تبدل الشروط نفسها لكي اتبدل.

أمسكتني من ذراعي وأحسست بنشوة خائفة.

- لم لا تساهم انت بالتغيير. ان كل تغيير يجيء من خارجك يبقيك في الوهم.

نظرت الى انفها الدقيق وعينيها السوداوين وساقيها البديعتين، وأحسست ان قنوطي يدفعني للاستخفاف من حماستها فصمت.

ان عجز الإرادة يدفع للتبرير. واني ابعد مساهماتي وافترض ادواراً مستحيلة تجعلني اعيش في وهمها زمناً غير محدد.

ملأتني الحماسة وانا ارى السيدة تتحرك نحوي دائماً. ان وجودها يخلص وجودي. كان اهتمامها بي وبأفعالي ومشاريعي محيراً لي. اذ كنت انا شخصياً لا اهتم بها مثلها. وخشيت من ذلك الاهتمام فلم اعتد ان اهتم بمسائلي ولا ان يهتم بها شخص آخر وكنت اقبل اوضاعي الحياتية كما توجد ولا افكر بمستقبلها ولا اسعى الى تبديلها، وان كنت اشعر بالسخط دائما عليها و (اقرر) ضرورة تغييرها.

- لقد أصبحت تمثالها.

وسخرت من تفكيري الذي التوى وأحال الإخلاص الى استعمال.

ان انطباعاتي تتناقض.

(كان قميص السيدة مفتوحاً من الأعلى وكان بامكاني رؤية استدارة ثدييها، وأحسست برغبة لان ادخل يدي وامسهما : ولم اجرؤ).

وتبدل صوتها : أصبح عميقاً مرتجفاً.

- سنذهب سوية.

سألتها بخبث وانا ادرك ما تقصده.

- الى أين نذهب؟

وأشارت عيناها البراقتان الى مكان نذهب اليه وأجبتها بتواطؤ:

- سنذهب، سنذهب.

وفكرت بالحرارة التي ملأتني فضغطت اظافري في راحة يدي لأتماسك، كانت الحرارة تغمر المدينة والطرق خالية من السيارات تقريباً. كنا واقفين تحت مظلة السيارات العمومية، قلت لها:

- لنذهب الى مرسم صديقي، انه هنا قريب .

وأشرت الى نهاية الشارع المقابل، وضغطت المفتاح في جيبي متمثلاً انفرادنا.

- هل صديقك هناك؟

غزتني برودة. لم اكن قد فكرت باقامة علاقة جنسية معها، اذ كانت علاقاتي في حدود العاطفة المجردة.

رطبت الطعم المر الذي صعد الى حلقي. مازحتها :

- هيا

فضحكت بسرور منتشية وأنوثتها تدعو بلهفة (انها تخشى ان يراها).
قلت لها مطمئنا:
- كلا، انه ليس هنا.
ابعدت رأسها وقالت بغضب:
- لم تريد أخذي الى هناك؟
فوجئت بقرارها المضاد, لقد دفعتني هي الى دعوتها، وكانت رغبتها جائشة، الا انها تستوقفني الآن وتلومني على دعوتها :
- كيف تريدني ان ادخل المرسم وليس فيه احد انكم لا تختلفون.
وأحسست باهانة وضعي في تعميمها، وخفت من نتائج رفضها المفاجيء، ربما أحست بذنبها او تكون رغبة المرأة في التعذيب قبل الحب.
- انني اتركك وداعاً.
قلت لها:
- انتظري، ماذا حدث؟
- كيف سوّل لك دعوتي الى هناك؟
انها تمثيلية سخيفة، لكن لن اخرج منها برغمي فكذبت عليها وكانت تعلم انه تبرير ساذج :
- كنت افضل ان نجلس عنده قليلاً، انه موجود هناك.
- كلا. انه ليس هناك.
واقسمت لها انه هناك. وطبعا لم يكن موجوداً في مرسمه، وكانت تعرف ذلك.
وتأملت اضطرابي الحرج وحاولت إدراك ما تفكر به.
الا ان المفاجاة افسدت علي التفكير.
لم اقل لها انها هي التي دعتني وهي التي وضعتني في المفاجأة، ولم اعد أعرف ما اجيب به.
(انها تترك تفكيرها يتوالى بغضبه، ولم استطع الجزم انها تختبرني: انني ابدو لها غراً معدوم التجربة، لا يعرف كيف يخدع الفتيات، بل كل ما يطمح له إمالة عواطفهن نحوه. وأحسست بمرارة من سلوكها، وانفصالاً يقضي على الحماسات التي بثتها في داخلي).
السيدة تستيقظ من غفلتها ووهمها وترى الفراغ يحيق بها. ربما لا تريد تلويث علاقات القلب، فالجنس يخلق ابداناً قرفة من بعضها وعواطف

مستحيلة التواصل، وفسرت لماذا ثارت وهي التي دعتني الى جسدها، لكن أيتها السيدة. العواطف كامنة في الجسد في هواء خارجه لقد نبهتني السيدة الى ضرورة الجسد بدعواتها المتكررة، لكنها رفضت الاذعان في لحظة التحقيق. وثارت علي لانني ساخرجها من طقوسها التي كرست لها وضعها. واكتشفت ان علاقتنا العظيمة انقلبت الى لعبة يخفق احدنا في المضي الى نهأيتها.

سألتني السيدة:

- هل تحبني؟

انتابتني قوة مفاجئة فكذبت بمهل:

- نعم.

ثم انهار تماسكي. لماذا اكذب عليها؟ لكنها أحست ببرودة صوتي، فهتفت بيأس.

- سأسافر.

شعرت بفرح صامت لقرارها، فدفعتها لتوثيقه وتصميمه:

- انه خلاصك الحقيقي.

ووضعت أمامها بتصميم وغد، كافة الامكانيات اليائسة التي تشدها بالأرض والبشر، وكشفت لها بموارية خبيثة انني ذلك الرجل الذي لا يعتمد عليه ولا يمكنه تقرير اي خلاص لإنسان آخر.

لذلك لم أفاجأ حين أعلنت لي انها سترحل. وطلبت منها ان تدون لي عنوانها لاكتب اليها الى ان يمكنني اللحاق بها:

- لن تجدني.

قالت لي صديقتها:

- سافرت اليوم، ذهبت الى المطار لتوديعها وكان آخر ما قالته لي ان أبلغك تحياتها وحبها.

كنت وحيداً، فأحسست بمكانها الفارغ وبوجودها الخفي يلامسني ويدخل الى أعصابي ودمي.

وأحسست بحزن حقيقي يغزوني ببطء. وبتلك الراحة المموهة التي شعرت بها بعد تخلصي منها تحال الى تعذيب لخياناتي ومواقفي الزائفة المدلسة.

اننا نعيش بفظاظة حياة ناقصة متوحشة بزيفها اللائق، فتيات، فتيات، انهن اليأس الذي ينساق اليه أولئك الرجال الذين فقدوا شيئاً من تماسكهم وتنظيمهم.

لقد عاد وجود السيدة يحثني على التماسك.

انني لم أعد أصلح لشيء أيتها العظيمة، لم اعد. عندما كنت فتياً، كانت تهزني بطولات مهووسة وآمال عميقة، لكنني الآن بعيد عن كل شيء.

أيتها السيدة، أيتها السيدة، لا تبتعدي اني اعبدك، السيدة تفر من ذهني، لم استطع إيقافها، وأعود الى وحدتي التي اريد الخروج منها.

انني لا انتمي الى اي شيء، متحرر من وجودي، الصفاء يتوفر لي. لكنه يفقدني الحركة ويسجنني في السكون. السيدة، آه لو كنت هنا، لتبدلت، لقد كدت أجدد انتمائي، لكنك تركتني معلقاً، كنت قد هززت رقادي الطويل. معادلة :

اذا اتجهت العواطف احادياً فجميع العلاقات الآتية ستفرغ من صميميتها، وتصبح الذاكرة آلة لترقيم الفتيات.

كانت حركاتنا محددة ومعلومة تكشف نهأيتها مسبقاً. أيتها السيدة انني اكتشف أفعالي المدمرة وفي اي كهوف خالية نمضي الى مجاهيل مبتذلة. انني اختنق ... اختنق..

لوح ساعي البريد برسالة أمام عيني، ثم وضعها على الطاولة.

(رسالة من الجبهة)

قفزت يدي عليها، قرأتها بعجلة وأعدتها ببطء:

- وصل الى خلاصه.

السيدة انبثقت كلية بقميصها وتنورتها الأبيضين ونفتني من الأشياء، انها صامتة. تستجوبني بعينيها النفاذتين.

انغمرت بالسيدة...

(هل صحيح ما كتبه؟ لا أدري.. ربما غلبته حماسة خلاصه، لكنه وضع جديد لم يمر بنا. لو كان مشابهاً لوضع معلوم لاستطعت كشفه وتقديره).

لقد هبت في الحماسة. وأضيء ارتقابي الممل لعالم جديد.

- سأذهب وسأعرف كل شيء.

ادخلت الرسالة المطوية في جيبي.

حلم يقفز من أغوار سحيقة ليصيب فكرنا: من كوبا والهند الصينية وافريقيا وامريكا الجنوبية: هذا العالم يرتبط ويظهر دفعة واحدة يتحرك نحونا.

بدأت اتحرك نحو مكتب المنظمة في مدينتنا.

قلت للرجل الذي ظهر من بين قامات الشباب.

- وصلت منه رسالة.

كان المسؤول فتياً يميل شعره الى الصفرة.

أشار الي فجلست وانسحب الرجال الى غرف وممرات جانبية.

- اردت معرفة مكانه؟
- انه في عمان.
- ماذا يفعل هناك؟
- نسب الى الجهاز الإعلامي.
- ظننت انه في القواعد مع المقاتلين.
- ليس شرطاً ان يقاتل. كل يؤدي دوره في الثورة.
- وماذا يقدم في الجهاز الإعلامي؟ سألت بريبة خافتة.

كان الشاب يقرأ جرداً حسابياً. لم يجب.

كانت الكلمات الآتية منه تدوخني بأحلام جديدة (انهم رائعون، حياة مغامرة لا تقفل).

حدقت بوجه الفتى المنحني وقلت.

- اطلب الالتحاق.

رفع وجهه ليحدد جدية كلامي فاكدت:

- ينبغي ان اذهب الى الجبهة.
- اذا كنت مصمماً، سندبر لك ذلك.

قلت في لهفة : متى؟

أجاب : متى شئت .

اللهفة الغامضة تترسخ في تصميمي وتجعلني انتشي واغيب من مكاني.

- لطالما حلمنا بخلاصنا، اننا نحققه.

كانت المدينة منفصلة عني. لم اعد اشعر بثقلها، وتلك العلاقات التي طالما جعلتها مخففة، لتأجيلي حياتي، نفضتها جميعا، مرة واحدة، وشعرت

بارتياح لكوني تحررت من ارتباطات كنت مقسوراً على اقامتها. الدائرة تتوضح بعد خروجي منها. ان اللعبة ستستمر، والذين بداخلها يدفعون صراعاتهم الصامتة وغيابهم غير المحسوس. ان اللعبة لا تنتهي.. لكنهم لا يملكون ما يؤكدون به وجودهم الا الصراع. اذن فلعبتهم لن تنتهي وسيضطر كل طرف الى اسقاط الآخر باستمرار داخل الدائرة. ولن يتاح لهم ان يخرجوا منها الى الحرية والحب.

- انها حياة دامية بليدة. فالرغبات المحاذرة في الحياة ستنقلنا الى الفراغ حيث نطفو بلا أفعال ولا مستقبل ولا ثورة، وطالما كان الإنسان صفراً ليس له وجود، فكل شيء باطل.

السيدة. انهم يطاردونها في الطرقات، انها تعرف ما سيصيبها لو أمسكوا بها، آه أيتها السيدة لو نقف معاً وانقذك منهم، سأنسفهم جميعا.

لكن السيدة تطير وتنعم بسلامتها في مدينة أخرى بعيدة.

- سنزودك برسالة وتسافر، انهم يعتمدون على ثقتنا بك.

كان المكتب هادئاً وبارداً.

(يجب ان تأتي).

لقد خلفتنا الصراعات وحيدين، لا نؤمن بالماضي ولا باية رابطة للقناعات، لذا كانت دعوتنا للرحيل.

الحرية تغري.

تركت المكتب هارعاً بلهفة.

- سأترك هذا المكان المسمم، ساذهب الى الجبهة. كنت فرحاً انتقل من مكان الى آخر. وتذكرت الشركة التي اعمل فيها. ان ارتياحي يتضاعف عندما سأترك وظيفتي، تلك الوظيفة القذرة التي ارغمت عليها لا تدبر مصروفاتي، سأتخلص من نظام مدمر يقنن أفعالي وأيامي، وينهي حريتي.

رفعت حقيبتي المغطاة بالغبار، ومسحتها بتأنٍ ثم وضعتها بهدوء فوق كرسي.

كان مسؤول المكتب يضرب على الآلة الطابعة اسماً مستعاراً لي. اخرج البطاقة الخضراء ثم الصق صورتي عليها. كنت احدق من فوق كتفه الى الورقة التي وقعها ثم دفعها نحوي. تأملتها من جديد وأمسكتها بحذر.

- انني أعلن وجودي في الثورة باسم مستعار.

وضعت الورقة في جيبي مع رسالة، اكد علي ان اسلمها الى رجل بالذات في عمان.

كانت السيارة الضخمة متهيئة، رفعت حقيبتي فوق المسند العلوي.

- أصبحت المدينة منفصلة عني تماماً ولا يربطني بها سوى هيكل السيارة الخارجي الذي يتخطى الأرض، ان وطناً جديداً سينتقل معي. ان أرضي هي قدمي.

كانت فتاة صغيرة تبكي إزاء السيارة، رجعت نظري من الخارج وحدقت لاتكهن من هو المسافر الذي تبكي من اجله تلك الفتاة. كان الجميع يحدقون فيها ويحنون لعواطف مفتقدة، وعندما تحركت السيارة أخذ شاب يجلس أمامي مباشرة يلوح لها. وكانت تلوح له من بين دموعها.

- سيعود اليك أيتها الفتاة! سيعود يوماً. ولكن نحن من سينتظرنا، ونكن له عواطف حقيقية؟

كانت السيارة تقطع الشوارع المفضية الى خارج المدينة. وكنت احدق في الأشياء بنظرة أخيرة لا مبالية.

كان الطريق يمضي في الصحراء والشمس المدمرة تضمحل وتغوص في نهاية الأرض السمراء، والهدوء الذي يبعثه الامتداد الممل يدفع تصوراتي للاحتداد. المدينة انها تعود.

كنت محاصرا في غرفة ما. وشعرت بانني يجب ان اخرج من جسدي والا انفجرت. فتحت الباب وخرجت راكضاً، ركضت بجانب النهر ورأيت قارباً مربوطاً بجذع شجرة. قطعت الحبل وتركت القارب يتمايل بي. صرخ رجل واقف على الشاطىء..

- زورقي... اين تذهب به؟

مرت بطة نهرية بيضاء من جهتي الثانية. لم أدفع رأسي نحوه. استدرت وكان يخلع ملابسه ويقذف جسده تجاهي. جذفت الى الجانب الآخر.. تركت القارب على الشاطىء وهبطت راكضاً.

(مدينة بديعة للغاية ! يحاربون فيها بأفواههم!)

لقد مضت المدينة وأصبحت بعيدة جداً وملامحها بدأت تتلاشى من ذاكرتي خلا اشباح غير محددة تطفو من وجوده.ان هذه الصحراء التي يعبرها ظل السيارة تؤكد خروجي. نظرت بنعاس الى الخارج وكان الظلام

يغطي الصحراء. حاولت الا افكر بشيء الا ان حماستي كانت توقظني (سأجده في عمان، سيتفاجأ بمجيئي) وتمثلت اللقاء العاطفي بيننا.

ولاحت أضواء بعيدة في أفق الصحراء.

هتف رجل من مقدمة السيارة:

- وصلنا الحدود الأردنية.

سألت شرطياً بدوياً مشيراً الى أوراقنا:

- أين نختمها؟

أومأ الى كوخ صفيحي مضاء:

- هناك.

كانت الريح الباردة توقظ جسدي المحتر.

ووقفت وسط الطريق الهاديء اتنفس عميقاً.

يا وطن

عندما يغيب الاسم، او تولد الهيئة لاول مرة بينهم، سيكون الاسم: وطن.

قبعة من ضوء، سرية، مرمية بعيداً، على أرض ملتوية سوداء، تلوح.

أرض صحراء دموية في السهل، حزمة هائلة من ضوء مساكن..

نقل مدفعه الرشاش الصغير وأسنده الى الأرض .

- لا أحد، لم يحضر بعد.

لم أر لون الأرض هناك، كانت الأرض تنتهي عند الحواجز ويصبح لونها هواء.

(يتكدس العالم جميعه في اي فعل حقيقي).

امرأتان وصبية تمرق اطرافهم العليا خارج النافذة المطلة على الطريق. بيانات وصور قتلى معلقة على الحائط، غابت الاطراف العليا وأصبحت الفجوة المنورة ساكنة : الفراغ ثابت، والاطراف العليا تتحرك من البداية الى النهاية وتعود من جديد.

مد (الوطن) رأسه وحدق نحوي دون تحديد ثم عاد الى الباب الأمامي.

نهضت. وضعت ذراعي على حافة النافذة وكان مطر خفيف ينسحق على الأرض، والفجر الشتائي يمر خارج الدار ببرده المثلج. توقفت سيارة صغيرة قرب الباب، وهبط رجل.. فعدت الى كرسيي. كانت الخطوات الثقيلة تقترب من الغرفة .

دخل الرجل والحارس فأخرجت الرسالة، قرأها وأشار بود.

- نحن نرحب بك معنا.

التصق كرسيانا.

(قبعة من ضوء، سرية، بعيدة : الهواء الأسود الثلجي يتسرب داخل السيارة المنطلقة).

امتلأت الممرات والغرف خلال دقائق معدودات برجال ناعسين.

سألني:

- هل انت متعب؟

نفيت. فقال لي:

- هل تأتي معي؟ سأزور القواعد.

(مددت لها يدي فنظرت، ولم ترفع يدها فانسحبت بدون حزن).

- سنذهب أولا الى127

وتذكرت الطريق المتعرج المحاذي للمدينة حين تطلعت من اعلى المرتفع: ليس هناك إنسان واضح ولا بيت مكشوف :

أضواء في الهواء.

نظرت اليه : هيا.

وأجاب : هيا.

استدارت السيارة فوق جبال عمان.

- سنهبط الى الغور.

كان الانحدار مستمراً والحرارة التي داهمتنا اضطرتنا الى فتح النوافذ وخلع الجاكتات. كانت الطرق والوديان خالية، أشار الى منزلق بين كتلتين هائلتين من الحجر.

- انهم يقصفون هنا دائماً. ونحن معرضون لمجيء مفاجيء في كل دقيقة.

انه يلقي كلماته بتلقائية تتناقض مع الخوف الذي أحسست به (على المخاطر تعويد نفسه على المفاجأة) انبثقت في الاسفل كتل كثيفة من الاشجار الحمضية:

- سنصل الى اول قاعدة لنا.

انني اندمج في حقيقة محددة.

ابتسم الرجل

- هذه المنازل يسكنها رفاقنا بعدما دمرت سكانها القنابل والطائرات.

استدارت السيارة في طريق ترابي واخفاها الرجل تحت غصون شجرة ضخمة.

- سنذهب الى القاعدة مشياً.

قفز الرجل من فجوة بستان وتبعته واتجهنا نحو منزل مخفي.

- تفرقوا، انها الطائرات.

انتشر المقاتلون بين الاشجار، ومرت الطائرتان، كضوئين، مزمجرتين تبرقان.

همس : أرى من الأفضل ان نذهب.

كنت أتعجل الدخول في السيارة لئلا تصطادني الطائرة برصاصها.

أين هو؟ ربما أجده في اربد.

كان القنوط يلازمني لانني لم التق به عند وصولي، وتلمست الرسالة التي بعثتها اليه خطيبته.

كان الظلام يهبط عندما دخلنا الى مناطق عسكرية نظامية وأحسست براحة متعبة كئيبة.

في اربد.

لم اجد صديقي. قال احدهم: ذهب الى دمشق في عمل عاجل. قلت للقائد– لقد ذهب الى دمشق.

أجاب – لنعد الى عمان.

كانت أنوار السيارات تغمر الطرقات وتتقاطع بسرعة بين المدن.

كانت يقظة شاملة لجسدي وفكري تستيقظ وانا اهبط في شوارع عمان.

- السيدة تظهر شفافيتها فانزلق بهدوء وحنين اليها واحس بخطاي اكثر وقعاً ورسوخاً.

أيتها السيدة. انني أستطيع الآن التصميم والحسم.

القائد والرفاق، انهم يتحركون جميعاً وانا جزء منهم.

- صديقي كنت اتمثلك مفاجأ بي وانا ادخل المقر. لكنك لم تكن هناك. لقد سلمتني خطيبتك هذه الرسالة.

- مسست الرسالة برقة – وقالت بحزن ان احنك على الكتابة.

صديقي بقامته الطويلة ومشيته المهلة المخدرة يفعل شيئاً ما في دمشق.

سألت مسؤول التنظيم : الم يعد؟

- نعم.

- اين هو؟
- في المستشفى.

فر هدوئي وأخذ شيء ما يتفرغ من رأسي:

- ماذا حدث له؟
- لا أدري.

بتر تصوراتي القلقة بجموده.

ثم أوقفني أمام باب وفتحه ببطء. كان صديقي راقداً وبجانبه ممرضة :

- ماذا حدث له؟
- أصابته شظية قطعت ساقه.

كانت الساق ملفوفة وبارزة تحت الغطاء .

لبثت صامتاً محدقاً الى وجهه المخدر. انساب صوت خلفي:

- كانت الطائرات تضرب سيارات المواطنين على الطريق فتوقفوا ليختبئوا فأصابته شظية. القنابل لا تميز.

جلست بجانب صديقي.

(سيارة تطير في الهواء منفتحة على أجساد محترقة ممزقة، تسير ثم تهبط في الوادي وتحترق ساق مبتورة محتفظة بحذائها على جانب الطريق العام. طائرة صغيرة لامعة ترمي سلسلة من القنابل والرصاص على فقراء مهاجرين. موتى، موتى. محترقون على الطرقات. انهم لا يكفون عن القتل).

- ساق مقطوعة. ممرضة.

(وجه أصفر مخدر. صديقي نائم لا يعلم انني قربه. انه لن ينهض لعناقي، خطيبته تسلمني رسالة. انها تنتظره، تحلم ان يعود اليها يوماً. غبار يهب في طرقات مدينة مدمرة، أصوات تدعو وتدعو. خطابات، اعتذارات عن الثورة. شبان صغار يكمنون في مخابئهم. الفتاة المشتاقة سأرسل اليها الساق.

كلا. كلا. انها ستمد يدها وتلمسها، ستصرخ وتوقظ صديقي، صديقي الراقد في المستشفى بساق واحدة. أصابعي تتشنج. صمت. ضجة. لا شيء. رجال يحملون انفسهم ذنوباً لم يقترفوها كأن سيقانهم جميعاً قطعت. السيدة تبكي. من اخبرك أيتها السيدة : انك ترين ساقي وقد قطعت. كيف ستتفاجأ به أمه وأختاه عندما يقرع الباب وعكازته في يده).

- انت هنا.

أخرجني الصوت من جسدي، كان القائد واقفا قرب الباب.

- نحن جميعاً بحاجة الى من يخفف عنا.

- لكنه بساق واحدة.

فتح صديقي عينيه وتصلب وجهه عندما رآني ثم ابتسم، جلست بجانبه أحدق فيه بألم. سألني بمرح.

- أتيت أخيراً.

ابتسمت وانا مرتخ، ثم فاجأني:

- سنعمل سوية.

كان وجهه جادا ومصمما فوق السرير الأبيض.

* * *

- تستطيع الآن ان تتحرك. بل وان تمشي قليلاً. ارتخى جسد الرجل فوق السرير، ونظرت اليه الممرضة بعبوس:

- سنسمح لك بالمشي، ولكن داخل الغرفة فقط! انها تبدي جفاءها كلما التقت عيناه بعينيها. لقد تعود عليها وهي تعوده منذ شهر : منذ أسره. أراد ان يعبر لها عن امتنانه ولكنه يصطدم بتقاطيعها الصارمة. عندما خرج الطبيب العسكري تقدمت منه وسوت فراشه. رفع يده وحطها على يدها وأمسكها برفق. سحبت يدها بعنف ووبخته أعاد يده بحزن ووضعها الى جانبه وتمتم معتذراً.

وتكرر دخولها عليه لعيادته وكانت تلين يوماً بعد آخر وهو يتكىء على يدها ويخطو في الغرفة.

وعندما ضغط على يدها وهي تعيده الى السرير لم تسحب يدها وتركته الى ان فك أصابعه.

أنبأته : انتهى علاجك.

وتذكر لجان التحقيق الكثيرة التي زارته.

حدق في وجهها ودفع الباب. أمسكها من كتفيها وقبلها. واحس بحرارتها وهي تحتضنه.

ابتعدا عندما سمعا خطوات قرب الباب، وظهر ثلاثة جنود قال آمرهم بخشونة : هيا.

تساءل الرجل – الى أين؟

أجابه :

- الى السجن، هل تريد المكوث هنا الى الأبد؟

أدارت الممرضة ظهرها، وأحس الرجل عندما اقتيد انها كانت ترتعد.

* * *

الجدران

ضربته ريح الليل. ارتجف وهو في مكمنه. كانت القرية العربية كتلاً منحنية في الظلام. وكان معزولاً فوقها.

- كادت القرية تتحرر.

ازداد ارتجافه في الريح القارصة. خشي ان يموت من البرد. وكانت ثمة أشباح تترصد في مفارق الطرقات.

زحف فوق المنحدر ملتصقاً بالأرض وأصبح قرب وسط القرية. كانت الأصوات العبرية تمر بين فترة وأخرى في الصمت الشامل.

ادرك الرجل انه محاصر ولن يستطيع النجاة اذا اكتشف. لم يعد يشعر بالخوف، استمر في زحفه واستدار خلف بيت قديم وانصت عبر الباب. وكانت دورية معادية ترن خطواتها قرب الجدران.. (انا وقدري) همس الرجل وقرع الباب بخفوت واستمر يقرع. سأل صوت محاذر – من؟

أجاب الرجل بهمس – افتحوا الباب، انا صديق ثم نهض على ركبتيه وولج الى الداخل.

سأله صاحب المنزل.

- من انت؟
- هل ينفذ الضوء الى الخارج؟
- كلا

أضاء الرجل عود ثقاب، ورأى الرجلان بعضهما، وانطفأ عود الثقاب.

قال الرجل – كنا مجموعة في مهمة خاصة وعدت وحدي.

ســـأختبىء هنا فترة قصيرة. ان قواتنا ستحرر القرية. أجلس الزائر الليلي على كرسي وناوله رجل الداخل رغيفاً وجبناً ثم قال:

- لو اكتشفت، سنموت كلانا.

أجابه الثاني – أعرف ذلك.

زحف صوت نسائي:

- منْ معك؟

أجابها الرجل :

- هس. ثم زحف اليها.

بدأت معالم الفجر تضيء معالم القرية. وكان الرجل غافياً على كرسيه، وعندما سمع أصوات صاحب المنزل استيقظ وتناولا الفطور. وكانت المرأة تختلس النظر اليه.

قال صاحب المنزل:

- لو حدث شيء، اختبيء هنا.

وأشار الى غرفة مليئة بركام من البراميل والقناني والغرارات.

- أقفل الباب وراءك وافتح الباب المؤدي الى الخارج، وقل انك تسللت دون علم احد واختبأت.

قال المحارب:

- لن أعرضك لخطر.

ابتسم صاحب المنزل برضا وحذر زوجته من الإشارة الى الرجل مع الجارات.

راقب الرجل، من خلف الستارة، الجنود الأعداء وهم يمرون في القرية.

عاد صاحب المنزل ظهراً وقال:

- انهم يتحدثون عن إيقاف إطلاق النار، يقولون سيتوقف الليلة في الساعة الثامنة.

كانت أصوات القذائف تشتد وتتكاثر، ابتسم المحارب:

- انهم يقتربون، لن يتوقف القتال.

انقطع جري الأعداء في القرية واقفر الطريق. وتسللت بعض النسوة بجانب الحيطان وهن يحملن ارغفة خبز وحزماً صغيرة من الخضراوات.

فجأة طرق الباب. نظر الرجلان سوية تجاهه ثم التقت عيناهما. قفز المحارب الى الغرفة الصغيرة وأغلق بابها. وسمع المحارب رجلاً يتحدث بسرعة عن إيقاف إطلاق النار، وصوت اغلاق الباب.

هس صاحب المنزل – انه جاري .

قال المحارب:

- انها خدعة... لن تتوقف الحرب.

في الموعد المحدد لم تطلق قذيفة.

في اليوم الثاني أطلقت قذائف قليلة لكنها ليست قذائف حرب.

وعندما حل الليل، قال المحارب:

- لم تتحرر القرية، لقد حوصرت.

أجابه صاحب المنزل:

- لا عليك، امكث هنا ما دمت حياً، لم يدم احتلال الى الأبد.

نظر المحارب بحزن الى البيوت التي انطوت في الظلام. في منتصف الليل، سمع صاحب المنزل صوت انفتاح الباب وانغلاقه، قفز من فراشه وتقدم بحذر الى فراش المحارب. كان خالياً، فتح ستارة النافذة وحدق في الظلام.

كان المحارب يزحف في الليل ويصعد السفح. ظل يتابعه بنظره الى ان اختفى في شعاب الجبل.

* * *

النهوض

كان صاحب المخزن الصغير الذي يقتعد كرسياً على باب مخزنه يغريني بان أمسكه واهز جسده البدين.

تقدمت منه وأومأت اليه، فاستدار الى داخل مخزنه متمتماً بترحيبات عديدة. بادرته :

- بع لي امرأة.

اندهش البدين:

- ماذا؟

- آه...

تقدم البدين غاضباً. فسألته بنعومة:

- أليستْ لديك منها؟

زأر:

- اذهب. سأهشم رأسك.

أكدت له:

- لا تغضب ولا تتحدث بيديك. سأشتري منك بضاعة أخرى.

صمت البدين. اقتربت منه وصرت بجانبه وهمست:

- أريد أن أشتريك أنت.

- أنا؟

وتجدد غضبه:

حدثته بسرعة:

- ما معنى حياتك في هذا الدكان الصغير. تجلس فيه كل يوم وتعود الى امرأتك البدينة والى أطفالك القصار البدناء ثم تنام. انك تهدر حياتك.

لم يغضب، بل رمقني بنظرة، استعملني فيها كمجنون، لكن مظهري العـــام لم يتح له ان يقتنع انه ازاء مجنون.

أجابني:

- انني قانع بحياتي. فلا تتدخل فيما ليس لك شأن به.

- انتبه يا رجل. ماذا أسديت لحياتك طيلة السنوات الماضية. ولدت في مخزن وستموت فيه.

رفع الرجل عصاه خفية، وضربني على ساعدي ثم على صدري. فتراجعت الى الباب قائلاً :

- تمهل.

- لا ترني وجهك ثانية والا قتلتك.

مضيت وألم ينبض في ساعدي. (في هذه المرارة، كلما حاولت خلق منفذ للحرية أدركت فناءه).

ترسخ في ّ، وانا احدق من بعيد الى المخزن، ان التاجر مسؤول مباشر عن تناقضاتي، فتقدمت منه بتصميم وهتفت به:

- اخرج ايها النذل.

رفع عصاه وتقدم مني فثنيت قدمي وركلته على خصيتيه فسقط على الأرض.. وعدت بهدوء مطلق.

* * *

الشاهد

انحدر الصياد وسط الضباب الصباحي الى حافة النهر، وألقى سنارته الصلبة في المياه. وكانت زوارق الصيادين تعبر غائمة.

ثقلت السنارة وأخذ الصياد يسحبها:

- ربما نشبت في صخرة.

ثم ظهر رأس امرأة. أمسكها من شعرها وجرها الى الجرف. كانت امرأة عارية مقتولة وممزقة، تتدلى حلية فوق صدرها.

ارتجف الصياد والتفت. لم ير أحداً، خلص حبل سنارته واقتلع الحلية وفر راكضاً، وراحت الأمواج تضرب الجسد الممدد على الجرف.

أحكم الصياد غلق باب كوخه وأخرج الحلية من جيبه، ضغط عليها فانفتحت وبرزت صورة شاب يبتسم. اقتلع الصورة بأظفره وقرأ خلفها – الى حبيبتي. والى الأبد–. رمى الصورة على الأرض وابتسامتها تتوسع وكانت المياه الطينية تضرب جثة المرأة الممزقة على الجرف.

* * *

العلبة

ضغط على الأكرة ودفع. كان الباب مغلقاً.
قرع الباب بقبضته فآلمته. تراجع وهتف:
- افتحوا. افتحوا. لقد عدت.
كان قد ارتحل منذ سنوات الى الخارج ليعمل ويصبح ثرياً. انتظر انفتاح الباب أو رأساً يطل من نافذة. ثم صاح مجدداً:
- افتحوا، لقد عدت.
ناداه أحد الجيران، عندما سمع صخبه:
- لا يوجد أحد في المنزل. رحلوا منذ سنوات.
انحنى وحمل حقيبته، وسار لا يعرف ماذا سيفعل؟

* * *

العصفور الأسود

صرخ صوت:
- عبد الرحمن.
تلفت الرجل : همم!
أمره الصوت:
- قف.
سأله ببرود – ماذا تريد؟
- تعال هنا. بجانب الجدار هنا.
- همم!!.
هبت نسمة خفيفة عبر الظل.
سأله الصوت – لماذا طلقت أختي؟
- كانت تخونني.
صاح الصوت – أختي لا تطلق.
صرخ عبد الرحمن، ثم هبط يتلوى ببطء الى الأرض والخنجر يدفعه، واستطالت ساقاه فغمرتهما الشمس، ومضى الآخر عابرا الطريق، ثم اختفى.

* * *

الشاحنة

التمعت بقعة من الضوء على كتفه.. كانت تنحدر بخط مستقيم من النافذة الصغيرة المنحوتة في أعلى الجدار، رفع كتفه فنزلت البقعة على صدره.

كان رأسه تجاه الآخرين في القاعة المربعة الرطبة، ينظرهم للمرة المليون ويستشعرهم مترسبين كحصوة في أعماقه، متفرقين بمناماتهم الملونة، منسوجين على الأفراشه الأرضية. كلهم يذوبون في بؤرة صغيرة واحدة تخترقه وتتكثف في أعماق صدره، وتعجزه عن الحركة. استدار اليه جسد طويل ممدد، الى جانبه، قائلاً:

- أعطني سيكارة.

وكان الجسد يوازيه من الجهة الثانية، يداه معقوفتان تحت رأسه، وعيناه يابستان بين جفونه، والأجساد الأخرى خطوط متعاكسة مثبتة بالأرض.

(لا تملك ان تحبهم او تكرههم. هم موجودون وانا موجود دائماً) انه ليدهش في هذه اللحظة بالذات. ان شخصاً آخر يحل في جسده يتعامل مع الآخرين: يتكلم ويتناقش ويتحرك معهم، لكنه هو، في الداخل، بعيد عنهم، في مكان آخر منفصل، لا مسافة بينه وبين هذا المكان.

كانت العينان اليابستان اللتان تجاورانه، تتحركان على جريدة ببعد محدد، لا يتغير، وكان يراقب وجهه، وحين اتصلت عيناه بحدة، في جزء من الجريدة.. سأله:

- هل من جديد؟

استمرت العينان في اتصالهما بالجزء، ثم انفصلتا وتراخت الجريدة بين يديه وهو يواجهه.

ضحك الجسد، وعاد يسأله:

- هل من جديد؟

امتدت الجريدة في يده مستقيمة، لكنه لم يأخذها، وتصلب وهو يراقب بقعة الشمس، تصل الى عنقه، وعناقيد الدخان تتجمع في عمود الضوء الكثيف، تمتد فيه وتتصاعد متسلقة ثم تتلاشى منتشرة في هواء الخارج.

انحسر وعيه، وأصبحت عيناه فجوتين ملامستين لجميع الأجساد المنطرحة مرتبطتين بأنبوبتين في أذنيه اللتين رهفتا للاحاديث الكثيرة:

- لم يعودوا يتكلمون الا لماماً عن السير الطويل في الشوارع، لم يعودوا يفكرون بالحرية.

التمعت عينا جاره وهمس له:

- كف عن أحلامك الثقيلة بالحرية.

حقاً، كان البشر والطرقات والمباني في مدينته خطوطاً مشوشة ولم يعد يقوى على تصور أبعادها.

واضاف: ان يدي ترتجفان كلما تمثلت نفسي ألمس امرأة وزحف الى جانب أذنه – اتبعني عندما تبدأ الزيارة. انتشر الحراس في باحات السجن وفتحت أبواب الزنزانات وأخذ السجناء يبحثون عن أقربائهم وأصدقائهم ويهرعون اليهم ثم ينتحون بهم بجانب أحد الحيطان.

بقي الرجلان جالسين، لم يكونا ينتظران أحداً يزورهما، ودلف ذو العينين المتيبستين الى المرحاض وأشار للثاني ان يلحقه، ثم اشرأب بعنقه الى النافذة الصغيرة ورفع يده اليه ليحذو حذوه.

كان صوت نسائي يتحدث من أسفل النافذة الى أحد السجناء بلهفة، كان صوتاً عذباً وأنثوياً.

قال الثاني – ما الأمر؟

وضع الأول يده على فمه وقال – اسكت. ثم أخذ يرتعش.

خرج وتركه معلقــاً يده في النافذة.

لم تكن لديه رغبة في الخروج الى باحة السجن ورؤية البقع البشرية المتناثرة فيها. ورقد في مكانه، وعندما انتهت الزيارة وأخذ السجناء يعودون وأيديهم محملة بالأكياس المنتفخة والقدور، خرج الرجل الاول من المرحاض وهو يمسح عرقه بكمه، وعاد وتمدد بجانب الرجل الثاني، وقال له– لقد ذهبت المرأة. كان الرجل الثاني مشمئزاً وأراد ان يدير ظهره ويبتعد عن ذلك الرجل، عندما سمعه:

- أليس عظيماً ان تسمع صوت امرأة ليست منتبهة اليك، في الوحدة الجارحة التي نعيشها، انها الحرية.

لم يجبه، كان يائساً للنهاية، والنور راح يشحب في نافذة الزنزانة العليا.

* * *

أضواء

كان يصحو دائماً على فقره، وحين لا يعود ينظر الى شيء معين. ينثني بين الأرقام الضخمة للنقود ومسرات لا تحد.. كان يتوقع أحياناً ان يلتقط حافظة مرمية، محشوة بأوراق نقدية كبيرة، وفي أحيان أكثر يعثر على حقيبة مليئة بأكداس الأوراق النقدية.

(حين تصبح النقود بين يديه ينتهي حاضره، ويطفر الى مستقبل بعيد، في مكان بعيد، لحياة لا يمكن ان يظفر بها في مكانه).

لكنه حين يذهب الى عمله الوظيفي المستتب تأسره العلاقات المحددة وتمحي من ذهنه أكداس النقود ويصبح ضليعاً بالمسائل الصغيرة.

كانت الشمس تنشر أشعتها الصباحية الدافئة عندما انطلق الموظف الى دائرته ماراً بجانب حديقة عامة. أخذ يوجه أنظاره المتفحصة الى كتل النباتات المتكاثفة وانتبه الى شيء أسود بارز بين فسائل نخلة.

تمهل الموظف في مشيته مضطرباً وقلبه يخفق، وكان بعض الموظفين يلوحون من بعيد مسرعين الى دوائرهم، وفيما عداهم لم يمر أحد في الطريق المنعزل بجانب الحديقة. (ستمر بضع دقائق ويبدأ الدوام، سيخلو الطريق من المارة وعندئذ سألتقط الحقيبة، سأقول غداً انني كنت مريضا ولم أستطع الحضور).

استدار الموظف حول الحديقة متباطئاً وهو يرمق موضع الحقيبة لئلا يسبقه أحد اليها.

(كنت أعلم أن حلمي سيتحقق يوماً)

أصبح الطريق خالياً فلم يضع الموظف لحظة. رفع ساقه فوق السور الوطيء. دانت الحقيبة المخفية سوداء صغيرة، انتشلها من بين السعف الصغير واندفع الى جانب السور. كان يود ان يختفي فوراً من المكان وأراد ان يركض ولكن خشي ان يراه أحد فيشك فيه.

تمهل بعد ان قطع أربعة شوارع (سأعود الى المنزل، هناك أستطيع إخفاء النقود ثم أمزق الحقيبة وأتلفها).

استكان رعبه بعد ان أغلق منزله خلفه. ولم يستطع الانتظار وفتح الحقيبة. كان في أعلاها ثياب نسائية قديمة، ابتسم الرجل، وضغط الثياب بكفه ورفعها. وأبصر في قاع الحقيبة رأس امرأة أسمر مقطوعاً، وكانت

عينا الرأس مفتوحتين. اشتدت دقات قلبه وأعجزه رعبه عن الحركة والتفكير.

سقطت الحقيبة من يده وارتطم الرأس بالأرض. خيل اليه أنه يسمع لغطاً أمام باب منزله.. أعاد الثياب بسرعة الى الحقيبة وأغلقها، وأرهف سمعه وذهب الى الشباك مرتجفاً، ودفع بأصبعه جانب الستارة ونظر الى الخارج ولم يبصر أحداً.

تساءل برعب (ماذا سأفعل؟ سيقولون انني القاتــل لو وجدوا الرأس لديّ، لن تصدق الشرطة لو أخبرتها بالحقيقة. ستنتهي حياتي وسأفقد وظيفتي).

توقف الموظف (سأخرج بها ليلاً وأرميها وأتخلص منها) وعاد يحسب الوقت الطويل الذي سيمضي. ربما شاهده أحد وهو يحمل الحقيبة. سيقبض عليه بلا شك. وتساءل (ماذا لو دفنت الرأس في حديقة منزلي؟ كلا سيكتشف يوماً ما ويقبض علي).

(اسمه وعنوان وظيفته ينشران في الصحف. القاتل؟ اللص؟ اللص القاتل).

(انني لم اقتل ولم اسرق، لكن من سيصدق؟ وهل يوجد اكثر اثباتاً من رأس مدمى مخبوءاً في حقيبة داخل المنزل؟ ربما سيعثرون على الجسد في مكان آخر. وما فائدة الجسد؟ لقد قطع الرأس لاخفاء شخصها، إذن الرأس هوالمهم. والرأس هنا في المنزل).

توتر جسد الموظف. رفع الحقيبة وخبأها تحت كومة من الأفرشة والأغطية. ثم خرج الى الطريق ليتأكد من عدم مراقبة منزله. وأبصر ثلاثة أطفال يلعبون بعيداً.

نظر الى حائط جاره (ماذا لو قذفت الرأس الى منزله؟ لكن صوت الارتطام سيجعلهم يقفزون ويكتشفون الأمر). وعند حلول الظلام كان الموظف متعباً وجائعاً وصورة الرأس المخبوء ماثلة أمامه.

(سأعدم في النهاية. لا بد من التخلص من الرأس). خرج الموظف من منزله وسار في الطريق المؤدي الى الحديقة العامة وهو يراقب المنعطفات والزوايا بدقة. ثم عاد الى منزله وأخرج الحقيبة وانتزع الرأس ممسكاً به شعره الطويل ووضعه في كيس ورقي كبير.

- لن يشك بي أحد. سيعتقدون أنني أحمل بعض الأطعمة. توقف الموظف بجانب السور، وتهيأ كما لو كان سيتبول اذا حدث وان سأله أحد ماذا يفعل.

لم يكن هناك اي عابر في الطريق المظلم. فتح الكيس ودفع الرأس الى أرض الحديقة ثم طوى الكيس ووضعه في جيبه.

وصل الى منزله (الحقيبة. لا بد من إزالة البصمات عنها).

أمسكها ومسحها بعناية ثم رفعها وخرج مسرعاً. توجه نحو النهر ونزل بطيئاً، المنحدر الترابي، وصار بجانب الماء .

جلس ووضع الحقيبة أمامه. وبعد أن تلفت دفعها بقدمه حتى غاصت (ستمحو المياه البصمات المتبقية). ولم يستطع الموظف ان ينام. كانت الرؤوس المقطوعة تحدق فيه من حقائب كثيرة مصفوفة حوله.

وفي الصباح جلس الموظف خلف مكتبه وراح يحدق في الأوراق التي بدأت تلتمع في أطرافها بقع الدماء.

* * *

الالتحام

كان المطر كثيفاً وسريعاً والريح تدفعه مدوياً مرتطماً بالطريق. والبيوت مقفلة، وأسترة النوافذ مسدلة. كان الطريق خالياً والمطر يتسطح تضيئه كتل النور المرتجة من الأعمدة الكهـــربائية.

أسرع رجل مبتل بجانب الحيطان راكضاً وانزلقت قدمه في فجوة ترابية وهوى نصفه الأعلى الى الأمام، وأحس بالماء ينفذ الى صدره والمطر ينغرز في شعره وملابسه.

كانت قدمه تؤذيه وأخذ يدفع رجليه متقدماً بصعوبة، وكان بيته ما يزال بعيداً (سأصل بعد قليل وأخلع ملابسي المبتلة ثم أضع فوقي الأغطية الثقيلة).

والتمعت في ذهنه صورة امرأته واقفة خلف الباب تمد رأسها بين دقيقة وأخرى لتلمحه، وعندما ستتأكد من وصوله ستفتح الباب وتخطو الى الخارج وتقول له بصوت قلق – تأخرت كثيراً، فيجيبها باعتياد : أقفلنا المطعم وأتيت مباشرة. لماذا لم تنامي؟ فتقول له: لا أستطيع النوم قبل ان اراك. ثم يدلفان الى المنزل.

احس انه لا يستطيع الخطو وألمه يشتد، وكان المطر قد بل حتى ملابسه الداخلية. توقف تحت شجرة يوكالبتوس ورفع قدمه وفركها، اشتعلت فيها نار من الألم (سأستريح قليلاً ثم أمضي. البرد قاس). طوى رجله الصحيحة ومد ساقه المصابة وجلس.

كانت الريح تسوق المطر على جسده المحمي خلف الجذع وساقه الممددة (انها تقف خلف الباب ترتجف من البرد) يبللها المطر عندما تمد رأسها من الباب. سأصل بعد قليل وكالعادة يكون الأطفال نائمين) ونظر الى ساقه المغمورة بنثيث المطر (ترى هل أستطيع العمل غداً؟ سيقدر صاحب المطعم حالتي ويساعدني. لكنه سيجد بديلاً لي فوراً اذا لم أحضر. ترى هل يعيدني الى العمل اذا شفيت؟) وابتسم بوثوق (طبعاً سيعيدني الى العمل. سبع سنوات وانا اعمل عنده وتعرضت من أجله لشتائم وضرب السكارى والقساة لكنه ليس وفياً. ماذا سيأكل الصغار وأمهم لو انقطعت عن العمـــل؟) انتابته حماسة فقلص ساقه واستقام على الرجل الصحيحة، وأراد ان يتقدم الا انه لم يستطع ان ينقل رجله خطوة واحدة. واحس بالفزع يغمره وتضاعف البرد اللاسع لجسده (ترى ماذا سيحدث)؟ انه لا يستطيع التحرك (سأتجمد في

البرد) عندما وعى انه سيموت، حدق مرتاعاً في الطريق والى الدور المقفلة (سيمر شخص من هنا وينقذني) لكن الطريق كان خالياً والوقت متـــأخراً. وانتظر الرجل طويلاً مرور عابر. وسرى في جسده الاعياء (لن أموت. من يطعم الصغار؟). ونظر الى بيت كبير أمامه مظلل بالظلام (سيدخلونني ويطلبون لي سيارة اسعاف وربما أوصلوني الى منزلي). كان الألم يسحقه وهو ينقل خطواته البطيئة ويغوص في الماء متجهاً الى بوابة المنزل. تمعن في الجدار باحثاً عن زر الجرس، ولمحه فمد يده وضغطه ضغطة خفيفة وانتظر وهو يمسك حديد البوابة المتقاطع ويتشبث به. وشعر انه يتداعى، وزحف يائساً الى الجرس وضغط بيده عليه واستطاع ان يسمع الرنين المتصل في الداخل. وبدا عبر الزجاج نور يضيء، فرفع يده عن الجرس وأمسك الباب بيده الرخوة. صرخ رجل من النافذة:

- من؟

قال الرجل نحو مصدر الصوت بإعياء:

- افتح الباب. سأموت من البرد.

صاح الصوت ساخطاً:

- هذا ليس فندقاً.

هتف الرجل متوسلاً:

- من سيطعم الصغار، أدخلني لوجه الله.

صاح الصوت : انتظر .

قوي الرجل فجأة وتماسكت يداه على الباب، ولم يأبه بالمطر الذي يغمره ولا بالريح التي تثلج جسده، وانتظر صوت الباب وهو ينفتح. لكن الباب لم ينفتح.

(ذهب ليحضر المفاتيح. لا بد انها في غرفته، سيحضر المفاتيح). انطفأ النور وبدأ الوقت الثقيل يفقده توازن جسده، وكانت ساقه الصحيحة مثقلة ومتعبة لا تستطيع الاستقامة. هوى الرجل على ركبتيه وجمع قبضة يده وأخذ يضرب الباب ويصرخ متوسلاً:

- افتح الباب، افتح الباب سأموت.

ولم ينفتح الباب.

وشع فوق المياه ضوءان قويان يبرقان وصوت سيارة سريعة. كان الرجل ممدداً عندما توقفت السيارة، وانفتحت أبوابها وقفز منها أربعة رجال. وجهوا نحوه أسلحتهم، وقرع أحدهم الجرس هاتفاً:

- الشرطة.

أضيئت أنوار عديدة وخرج رجل سمين يرتعد وهو يمسك مسدساً بيده. قال للشرطة :

- كان اللص يقرع الباب عندما خابرتكم.

التمت أعين الشرطة على الرجل الممد، وسأله المفوض.

- هل هو هذا؟

تقدم السمين بحذر ناظراً اليه وقال خائفاً.

- انه هو، انه هو.

رفع رجال الشرطة الرجل الملطخ بالطين، وأدخلوه سيارتهم وكان مغمياً عليه. وضعوه بينهم، وانطلقت السيارة. التفت المفوض الى الشرطة قائلاً:

- سيموت من البرد.

وكان نثار المطر يغمر زجاجات نوافذ السيارة المقفلة الدافئة المسرعة.

* * *

زوجة المحارب

عادت زوجة المحارب من مقر القيادة صامتة، متذكرة وجه ضابط الاستعلامات وهو يستثنيها من صرامته :

- لا أخبار جديدة.

(لا أخبار جديدة)

(لا أخبار جديدة)

(لا أخبار جديدة)

كان منزلها مغلقاً. وعندما فتحته، وجدت طفلها الصغير جالساً بجانب جدته العمياء وهي تقص له حكاية قديمة.

قطعت الجدة حكأيتها وسألتها : ماذا يقولون؟

وضعت الزوجة حقيبتها على المنضدة وأجابت بتنهد.

- لا أخبار جديدة.

تعلق الصغير بها سائلاً : ماذا جلبت لي؟

أخرجت من جيب معطفها كيساً صغيراً من الحلوى ووضعته في يده.

عندما تكون وحدها، وتنجو من عيني الطفل المتعلقتين بها، تبكي بصمت ويمثل زوجها الضابط بين دموعها. انه حاضر باستمرار في الغرفة. كانت ملابسه المعلقة وأحذيته وأدواته وعطوره وكتبه ومنفضة سجائره تجعله يتنقل بينها ثم يوجه لها كلمة بين وقت وآخر وضحكته المرتفعة تهز خمودها.

انه يرتدي ملابسه ثم يضع لمسة من العطور على شاربيه، ويجلس على الكرسي يدخن، يتحدثان معاً. يلتقط الطفل ويضعه على فخذه، يداعبه ويرقصه ثم يهبط ويقدم الطعام لأمه العمياء.

كم كانت تفزع عندما يبتعد ليلة عن منزله؟ فقد اعتادت وجوده الغريب الآسر.

(لا أخبار جديدة)

عاد الضابط قبل أسابيع من عمله وقال لها – سنذهب الى الجبهة.

وكانت حماسته وبهجته قد خففا قلقها وجعلها تنساق خلف حماسته وهو يحدثها عن النصر، وعن الوقت الذي حان للاثبات.

وبدأ يجمع أدوات حلاقته واستبدل ملابسه ثم حمل حقيبة صغيرة وقبلهم جميعاً وهو يضحك.

قالت إحدى جاراتهم: سمعه ابن عم زوجي وهو يتحدث من راديو العدو في مقابلات الأسرى، ويبعث بتحياته لكم. وأخذت امرأة أخرى تطرق الباب مستبشرة: سمعه ابني بأذنه، وقيل لهم انه شوهد وهو يتحدث في تلفزيون العدو وان صورته نشرت مع مجموعة من الاسرى، لكن اسمه لم يرد في قوائم الصليب الأحمر.

كانت المرأة تنصت والأمل يشع على وجهها متذكرة البرقية التي تلقتها قبل أيام كثيرة (وقع أسيراً بيد العدو، وسريته العسكرية على استعداد لأجابة جميع طلباتهم).

ذات مساء حضر أحد الجنود وقال انه كان يعمل تحت إمرته. وفي ذلك الصباح أصيب بشظية صغيرة في كتفه فحملته الى الطبيب العسكري فعالجه وطلب منه الذهاب الى دمشق للاستراحة. فقال للطبيب: هل انتهيت؟ انها لا تؤلمني كثيراً ثم خرجنا، وقلت لسائق سيارة القيادة ان يذهب به الى دمشق. لكنه أمرني بالعودة الى الدبابات، ولم أستطع مخالفة أمره، وعدنا الى الميدان، حيث ركب دبابته من جديد وانطلق الى الأمام. وفي الليل عاد اثنان من طاقم الدبابة وقالا ان الدبابة اصيبت وانهم جميعاً قفزوا منها واضطروا تحت ضغط هجوم العدو الى الانسحاب، وانهما شاهدا الضابط ينقذف الى الجهة اليسرى، لكنهما لا يعلمان ماذا حل به.

ننتظر قدومه طوال الليل، لكن العدو تقدم ووصل الى المنطقة التي أصيبت فيها دبابته. ولم نعلم عنه شيئاً منذ ذلك الحين.

كانت الجدة العمياء جالسة، صامتة تستمع الى رنين الجرس. قالت للزوجة:

- من؟

قالت الزوجة – انه صديقه. يسأل عن آخر أخباره. وكانت المرأتان تهبان عند سماع صوت جرس الباب او التلفون وكانتا تتوقعان عودته في كل لحظة وتحجبان اليأس بالأخبار التي تصلهم وبحب الحياة.

قالت الجدة – سيعود. قلبي يحدثني انه سيعود. وكانت الزوجة مبددة في التناقضات وفي الأيام التي تمضي دون ان يظهر، لكنها تحمي أملها بشجاعتها قالت: أجل سيعود. واستمرت المرأتان تفكران فيه صامتتين، وتنتظران جرساً يرن.

* * *

العيــون*

* نشرت هذه المجموعة في عام 1977، دار الحرية للطباعة، بغداد.

العيون*

شع ضوء مصباح (اللوكس) في باب المقهى الوحيدة على الطريق وكان المطريهطل في الخارج، وانكمش الركاب الخمسة في زوايا التخوت، ووضعوا اقداح الشاي الى جانبهم، عندما دخل السائق وأعلن:

- محرك السيارة لا يشتغل

وهب الرجال الأربعة متسائلين.. واقترح احدهم :

- لندفعها

وايده الآخرون، وخرج السائق راكضاً الى السيارة الجاثمة في الظلام، وانسل الرجال مسرعين خلفه، ودفعوا السيارة عشرات الامتار، ولم تشتغل، وبللهم المطر، ثم عادوا بها دفعاً، وأوقفوها أمام المقهى، ودخلوا الى الرواق الذي اعد لصنع الشاي والطعام ومضوا ينفضون ملابسهم بايديهم، ويمسحون شعرهم بمناديلهم، وتجمعوا حول منقلة الفحم وهم يرتجفون، وغسل السائق يديه من الدهن، واستمرت المرأة الجالسة تنظر اليهم، لتظفر بجواب.

وعاد رجل وجلس على التخت القريب منها، واتخذ الرجال الآخرون اماكنهم متوزعين.

وصاح السائق:

- شاي للجميع

وسأله احدهم:

- ماذا ستفعل؟

وشتم السائق سيارته، واضاف:

- لولا هذا المطر، لفعلت شيئاً... كما انني لا أستطيع ان ارى شيئاً في الظلام.

وسأل احد الرجال:

- يعني سنبقى حتى الصباح؟

وأجابه السائق معتذرا:

- وماذا يمكنني ان افعل؟

*** نشرت هذه القصة اول مرة في جريدة الانباء،1977/6/1، عدد 54.**

ولم يستطيعوا صب سخطهم على السائق، فقد كان حائرا مثلهم، وبادر احدهم صاحب المقهى، بعد ان تفرسوا جميعهم في الزوايا والتخوت:

- هل نستطيع النوم هنا؟

واستعد صاحب المقهى لتجاذب حديث طويل:

- دائما تعطب سيارات، وينامون هنا.

وأشار الى التخوت، واضاف:

- نعم، يمكنكم ان تناموا على هذه.

وعاد الرجل يسأله:

- وهل لديك وسائد وأغطية؟

وأجابه صاحب المقهى:

- لفوا بعض ملابسكم واجعلوها وسائد، ولكن ليس لدي اغطية.

وتحسس الرجل الجالس بجانب المرأة الحصير والتخت الخشبي الصلب، وعلق:

- من الافضل، ان نبقى جلوسا، الى الصباح.

واقترح السائق:

- الا يوجد لديك فراش للاخت؟

واعترضت المرأة:

- سأبقى جالسة مثلكم.

ثم التفت بعباءتها.

وعاد صاحب المقهى الى ركنه، وأخذ الرجال يتحدثون، عن المطر، والسيارات العاطلة، وحوادث وقعت في الماضي.

واصطفق الباب، ودخل رجل بدوي، ملتف بعباءته الثقيلة، وحرك يديه من داخلها ونفض عنها المطر، وبقي مختبئاً فيها، ونظر الى الجالسين، والقى السلام، ثم ذهب الى تخت خال، وجلس، ووافاه صاحب المقهى، ثم جلب له طبقا من الثريد..

وأشار البدوي الى الجالسين وصاح:

- تفضلوا

واعرب الرجال عن اعتذارهم وشكرهم، ورمق البدوي المرأة بنظرة خاطفة، ثم انحنى على طبقه وأخذ يلتهم الثريد بسرعة.

وكف الرجال عن احاديثهم، وأخذوا يراقبون البدوي وهو يلتهم طعامه، وحين جيء له بالشاي، راح يتملى فيهم وهو يرتشفه وازاحوا انظارهم عنه، وتشاغلوا بحركات افتعلوها، واتم البدوي تدخين سيكارة، ثم تمدد على التخت متدثرا بالعباءة، وسمعه الرجال يغط وانتظمت انفاسه.

وسأل رجل باندهاش:

- من اين جاء؟ لا دور قريبة من هنا، كما انه جاء مشياً في الظلام.

وهز السائق رأسه:

- لا احد يعلم.

وظلوا ينظرون اليه فترة، ثم لم يعد يثير اهتمامهم، وانحنى رأس السائق مائلاً للاسفل وراح يشخر، وأغمض الرجال الثلاثة عيونهم، وبقي الرجل الجالس بجانب المرأة يقظا يراقب وجوه الرجال النائمين، وهو يتوق الى التحدث مع المرأة. ثم نهض ورفع قطعة القماش ونظر الى الخارج، وتمتم قائلاً للمرأة:

- ما زال المطر كثيفاً.

والتفتت اليه، ولم تجبه.

وعاد يتحدث:

- من الصعب النوم على هذه التخوت.

وهزت المرأة رأسه.

وفتح رجل، يقابلهما،عينيه، ونظر اليهما برهة، ثم أغمضهما، واستطرد الرجل:

- علي ان اكون غدا، من الصباح، في الوظيفة.

ولم يجرؤ ان يسألها عن اسمها، او المكان الذي تقصده، وصمت قليلاً، ثم اضاف:

- لو تمر سيارة من هنا، فسأذهب، فانا اول من يصل الى ناحية (ح) وهي لا تبعد كثيرا.

وتحدثت المرأة لاول مرة وسألته:

- هل انت موظف في ناحية (ح)؟

واهتز الرجل لاهتمامها المفاجيء، وأجابها برقة:

- نعم

واضافت المرأة بعدما التفتت اليه اكثر:
- زوج اختي موظف في نفس الناحية.
- من هو؟
- انه (ع)... هل تعرفه؟
وأجابها على الفور:
- طبعا أعرفه، انه صديقي.
وتذكر وجه اختها، وقارن بينهما، ووجد ان المرأة التي تجلس الى جانبه اكثر حيوية وجمالاً منها، وقال:
- انها لا تشبهك كثيراً.
وفهمت المرأة انه يقصد أختها، وأجابت:
- صحيح، هذا صحيح
واتته جسارة مفاجئة:
- انت تختلفين عنها...أعني... انك اجمل منها.
ثم ضحك وأشار بسبابته مهدداً:
- اياك ان تذكري لها رأيي، لانها ستحرمني من بعض وجباتها اللذيذة.
وابتسمت المرأة، وهي لا تعرف ما تجيب به، وأثرت الصمت، وشعر الاثنان ان شيئاً مشتركاً يخصهما، ويجعلهما اكثر قرباً من الآخرين الغرباء.
ولم يأبه الاثنان لنظرات الرجل المقابل الذي استيقظ وأخذ يراقبهما.
وتبسط الرجل في حديثه:
- امضيت سنتين في الناحية، اسكن وحدي، وأخذت اجازة قضيتها عند عائلتي في بغداد، فالحياة شاقة في مدينة بعيدة، لرجل وحيد من المدينة.
وكان صوت المطر يسمع واضحاً في الداخل، في فترات الصمت المتقطعة، وكان جو المقهى قد ازداد دفئاً بعد ان دفع صاحبها قطعاً من الحطب في المنقلة.
ومضى الوقت طويلاً، وتبدد إحساسه بالوحدة، فالمرأة تجعل الرجل يقظاً ومتأهباً، واستطاع ان يرى قامتها المتناسقة عندما انفرجت عباءتها وفكر: (لم تذهب هذه الليلة سدى، فلنبق حتى الصباح ما دامت هذه المرأة موجودة، وانا اتحدث معها، فلن تستطيع دائما ان تقضي ليلة تتحدث مع امرأة في

مقهى منعزلة، في الطريق، نحو مدينة مغلقة وصحراوية). وانقطع صوت المطر وتضاعف الصمت في المقهى.

وقال الرجل وهو يتجه صوب الباب:

- توقف المطر

ثم عاد الى مكانه وهو يؤكد:

- توقف المطر

وأراد ان يوقظ السائق، وتذكر الظلام الذي يمنعه من رؤية آلات السيارة.

وحين أضاءت بقعة الصباح الصفراء، استيقظ السائق وكان الجميع نائمين، وخرج الى سيارته وفتح غطاءها الأمامي وانحنى فوق الآلات واكتشف العطب، وابقى المحرك دائراً، وعاد الى المقهى، فوجد الركاب قد استيقظوا بعدما سمعوا ضجة المحرك.

وقال:

- اشتغلت، لنشرب الشاي ونتحرك.

ثم انطلق السائق وهو يعتذر عن تأخيرهم، في الطريق المبلل، واستدار السائق في الشارع الرئيس لناحية (ح) ثم توقف قرب كراج السيارات، وفتح الصندوق الخلفي للسيارة واخرج حقيبتى الرجل والمرأة ثم انطلق.

- سأوصلك الى بيت اختك.

ولم تمانع المرأة.. وتقدما وسط الشارع المبلط، ثم انعطفا الى زقاق تحول الى كتلة لزجة من الطين وحاذر الرجل والمرأة في سيرهما بجانب الجدار، ووصلا الى بيت اختها، وقال وهو يقرع الباب:

- كانت سفرة متعبة.

ولم يجبه احد من الداخل، وعاد يقرع الباب بقوة، وانتظرا.. ثم استنتج :

- لا بد انها نائمة.

ونظر في الطريق الخالي، وعاد الى الشباك، ولم ينفتح الباب.

وسألته المرأة بخشية:

- لماذا لا يفتح الباب؟

وأشار الرجل اليها، بالانتظار في مكانها، وذهب الى البيت المجاور، وسأل الرجل الذي اطل وهو يشير الى الباب:

- لا احد يفتح الباب.

وقال الجار متسائلاً:
- ألم تسمع؟
وانتبه الرجل وطلب منه ان يخفض صوته:
- لم أكن هنا، ماذا حدث؟
وهمس الجار:
- سرق اموال البلدية، واقتادته الشرطة الى السجن.
وسأله الرجل:
- متى؟
- قبل يومين.
وعاد الرجل الى المرأة وهو يخفي انفعالاته، وبادرته المرأة بالسؤال:
- ماذا يقول؟
- انه لا يدري اين ذهبا، فقد خرجا منذ يومين.
وقالت المرأة:
- لكنهما لم يجيئا الى بغداد.
وعلق الرجل:
- ربما سافرا الى مدينة أخرى. وسنعرف الى اين ذهبا من الدائرة.
وعادا يحملان حقيبتهما. وسألها في الطريق:
- الى اين ستذهبين؟
- سأعود الى بغداد.
وعادا صوب الكراج، وأجابهما صاحبه:
- لا تتوفر سيارة قبل العصر.
ونظر الرجل الى المرأة قائلاً:
- هل سمعت؟
ثم قال:
- ساذهب الى الدائرة، وانت تستريحين في بيتي الى ان تتوفر سيارة ما رأيك؟
وترددت المرأة.
فأردف قائلا:
- انت متعبة، وستكونين بمفردك.

ووافقت المرأة، واتجها الى بيته، واحتدمت في ذهن الرجل صورة (ع) وهو منغمر في ليالي القمار في هذه الناحية البعيدة وكان (ع) يبررها بانها وسيلة ترفيهه الوحيدة، في مدينة نائية لا وسيلة ترفيه فيها، لكن خسائر وارباح القمار لا تتناسب مع رواتب الموظفين، وقد لعب هو مرة وخسر عشرة دنانير، وقرر الا يلعب ثانية، ولاحظ ان النقود التي توضع على المائدة اكثر من الرواتب، ولم يغره الحاح مدير الناحية، الموظف القديم في ان يشاركهم اللعب، واستطاع ان ينجو منه، اما (ع) فكان يردد ان اللعب ربح وخسارة، ولكن الموظف الصغير لا يمكنه تحمل خسارة، ولو صغيرة، عندما يكون متزوجا واقتربا من البيت وهو يفكر.

- حسنا فعلت، اذ لم اخبرها بالحقيقة لانها ستحزن، وسافقد سحر الليلة الماضية.

ودخلا المنزل، ووضعا حقيبتيهما في الرواق، ثم ذهب واشترى طبقا من القشطة وارغفة من الخبز، وعاتبها حين وجدها اعدت شايا، ثم خرج الى دائرته، واستقبله زميله في الغرفة مرحبا، ثم نهض زميله من مكانه واقترب منه:

- حدث شيء لا يصدق، في اجازتك. (ع) سرق سبعمائة دينار من البلدية..

وهمهم الرجل مندهشا، واضاف زميله:

- واحيل مدير الناحية على التقاعد، ان الاحداث لا تصدق.

ونظر الرجل اليه وكأنه لا يصدقه، وانساب حديث زميله :

- يقال ان مدير الناحية كان يعلم باختلاسات (ع) لكنه غض النظر عنه، لانه زميله في اللعب، وتسربت انباء الاختلاسات، وسمع بها مسؤول المنظمة الحزبية في الناحية، المعلم (م) انت تعرفه؟

- نعم أعرفه.

- وكتب المعلم تقريرا الى الحزب، وجاءت لجنة تحقيق من المحافظة، ثم وردت الاوامر بتوقيف (ع) واحالة مدير الناحية على التقاعد.

وسهم الرجل ثم سأل زميله:

- واين ذهبت زوجة (ع)؟

وتابع زميله حديثه بنفس الحماسة:

- انها سألت الشرطة الى اين سيذهبون بزوجها، ثم أقفلت دارها، وذهبت خلفه الى سجن المحافظة، لكنني اعتقد انها ستذهب الى بغداد.

وانتقلت افكار الرجل الى منزله، حيث تجلس المرأة، ثم سمع زميله يقول:

- لم يكن لديه مال، ليعيد ما اختلسه.

وضحك ثم استطرد:

- كان مدينا لمدير الناحية ومعاون الشرطة باكثر من ثلثمائة دينار.

ونقر الرجل على منضدته الخشبية وهو يردد:

- انه القمار... القمار.

واقترب منه وهو ينحني الى جانب اذنه:

- يقال، ويشهد الله انني لا اردد سوى ما سمعته، ان مدير الناحية اجبره على تأدية ديونه فاستحال عليه ان يفيها ثم اتفق معه على ان ينال زوجته، ويترك له الديون، ويقال انه نالها.

واهتز الرجل بعنف، وشرست نظراته، وضج رأسه بالصخب وعاد زميله الى مكانه وهو يرفع يديه:

- انهم يهمسون بما قلته، والمدينة كلها تعرف ذلك.

وتلبث الرجل جامدا في كرسيه، ثم سأله:

- هل انت متأكد مما تقول؟

واقسم زميله، انه لم يزد اي حرف على ما سمعه، وردد الرجل بصوت مرتفع:

- اذن كانت عاهرة؟

وأشار اليه زميله ان يتكلم بهدوء وبصوت خافت.

وانبعثت المرأة التي في بيته، في ذهنه، ولم يعلن لزميله عن وجودها، وادرك انه لو اخبره، فان الخبر سينتشر على الفور، ونهض وهو يتأهب للخروج، وقال لزميله:

- السيارة التي اقلتنا من بغداد عطلت في الليل، وسأذهب الى البيت، لانني لم أنم بالامس، وقل لمن يسأل عني، انني سأعود بعد قليل.

وتواطأ زميله معه هازا رأسه مؤيدا، وانحنى على اوراقه. وعاد الرجل الى بيته، وحين فتح الباب، شاهد المرأة منحنية على الأرض تمسحها، واستقامت المرأة حين سمعته، وتراجع هو الى الباب معتذرا وطلب منها ان

تكف عن مسح الأرض، واخبرته بانها اوشكت على الانتهاء، ومررت الكيس القديم المبتل على الأرض، ثم نهضت وقالت:

- يبدو ان الأرض لم تمسح منذ أشهر؟

وأجابها:

- من يمسحها؟ انني لا امسحها مطلقا.

وجففت يديها، ثم جلست، ومكث الرجل في الباب وسألته:

- الم تعرف اين ذهبا؟

وأجابها:

- نعم سافر باجازة الى البصرة، وصحبته اختك.

وتساءلت المرأة:

- هل يجوز انه ذهب الى بيت اخته هناك؟

قال الرجل:

- ربما.

وكان يفكر، لو انه اخبرها بالانباء التي يعرفها، فماذا سيحل بها؟ وردد:

- الموظف يحتاج الى فترة راحة بين حين وآخر.

وتنهدت المرأة:

- لو كنت أعرف انهما سيسافران لما حضرت.

وود الرجل لو يجلس الى جانبها ويداعبها، ولكن خوفه وخجله جعلاه ينحرف الى مقعد منفصل، واختلس الرجل نظرات الى ركبتيها وساقيها، ولاحظته المرأة واندفعت يداها تشدان طرف ثوبها الى اسفل الركبتين.

وثارت صورة (ع) في ذهن الرجل والاقاويل حول زوجته، وحاول انهاء ارتباكه:

- انت جميلة، جميلة جدا.

ثم نهض وجلس الى جانبها، ومد يده الى يدها، وانكمشت في الزاوية وأراد ان يطوقها بذراعيه، وقالت مستاءة:

- انني اخطأت اذ أتيت الى بيتك.

ونهض الرجل وأمسكها، وحاول ان يقبلها، ودفعته:

- اتركني، اتركني.

وضحك الرجل مهتاجا، وقرر أن يدلى لها بالمعلومات التي سمعها، لكنها تناولت عباءتها ولبستها وانحنت ورفعت حقيبتها، وردد:

- انني اعتذر، ارجوك ان تبقي وتتناولي الغداء.

ثم أمسك بيدها:

- ارجوك ان تبقي، اين ستذهبين؟

وسحبت يدها بقوة، وهي تقول:

- اتركني.

وخرجت.

وهدأ اهتياج الرجل، وتجول في الغرفة، مادا يده، فوق المدفأة، في رواحه ومجيئه، ثم خرج الى الشارع وسار صوب الكراج، وشاهد المرأة جالسة، ومر متمهلا، ثم عاد، ولم يحاول ان يقترب منها، وعاد الى بيته منتبها الى انه وغد حقيقي.

* * *

الرجل*

ينحدر مركب الحمل المستطيل قرب شواطيء دجلة، من بغداد الى البصرة، ناقلا الحبوب والتمور، ولايترك إلا دويه البطيء، وتلويح أطفال على الضفاف.

وينتقل سائق المركب بين الاكياس الكبيرة على سطح المركب عندما يمر قرب القرى والمدن، محدقا في النسوة اللائي يغسلن الملابس على الجرف او يملأن جرارهن.

وأسند السائق ظهره على كيس من الحبوب وانطلق يغني بصوت مرتفع عن مسافرلا يتوقف الى ان يموت، وراح غناؤه يتعالى، وارتفعت رؤوس بعض النسوة تتطلع اليه، وصاح مساعده الذي يدير المركب:

– الله، الله.

وأخذ السائق ينمق نغمة صوته ضابطا لحنه، وكانت الاشجار تقترب وتبتعد عن المركب، وانكشفت امتدادات من الأرض الجافة الخالية، وتأمل السائق الجرف الذي يتحرك ببطء وهمس:

– كم هو مرير ان يقضي الرجل نهاية حياته وحيدا.

انه الآن يعيش في المركب ويقضي أيامه متنقلا بين بغداد والبصرة، يحمل اكياسا ويفرغ اكياسا، ولا يتوقف الا قليلا للتزود بالوقود، فقد أصبح المركب بيته:

(كان متزوجا منذ سنوات بعيدة ولكنها هربت بعد ان طالت أيام سفره) ولم يستطع ادراك المكان الذي هربت اليه. وكان كلما عاد يتوقع ان يجدها، لكن بيته ظل خاليا، ثم باع البيت والتجأ الى المركب.

انه يحدق الى الشواطى، في النسوة الكثيرات، لعلها تكون احداهن، لكنه يهجس انها ليست مع نسوة الشواطىء، انما في المدينة، في مكان ما فيها، ويتأمل بحزن فكرته: (البيت الذي فيه امرأة يشع منه دفء خاص وساحر)،

*** نشرت هذه القصة اول مرة مع قصتي الهروب والقفزة في مجلة الاقلام، العدد الاول، السنة العاشرة ، تشرين الاول، 1974.**

ويتحد في هذا المركب مع البرد والمطر والشمس المحرقة وماء النهر واشجار الضفاف ويردد: (لقد شاخت الان، هي الأخرى، لو كانت حية) وآمن بتردد انه لن يعرفها بعد هذه السنوات.

انه يرفع صوته مغنيا في المساءات اللطيفة وينظر الى البيوت المظلمة التي تلوح من ثقوب تتخللها انوار ذابلة ويستمر المركب يهدر وهو ينحدر في الماء الأسود والرجل يغني عاليا.

* * *

القفزة

تقدمت الدبابات وهي تقوس قنابلها وراء القرية العربية، وكانت قنابل الأعداء تنهمر بلا تحديد، وثارت من الأرض المرتفعة كتل الغبار، وشكل الغبارخطا منحنيا كثيفا، واستمر التقدم بطيئا ومتواصلا، وزمجرة الدبابات المرتجة تتناسق متحدة، وشعلات اللهب تضيء وتنطفيء من أعلى المنحدر وحتى امتداد الطريق البعيد، ووصلت الدبابات الى مقدمة القرية وكانت دبابات الأعداء قد تقهقرت على الطريق الجبلي ولم يعد يظهر منها سوى قنابلها التي تنفجر بعيدا.

وتوقفت الدبابات المتقدمة وأخذت التي تتلوها تبطيء تقدمها، وظهر رجل في الشارع يحمل علما عربيا مدعوكا، وهو يفتح ذراعيه، وأخذ يضحك ويرقص وهو يلوح بعلمه للدبابات المتقدمة.

وارتفع برج قيادة دبابة وظهر رأس حدق في الرجل ثم لوح له بيديه.

وصرخ الرجل: لقد هربوا.

وتقدم من الدبابة الاولى وراح يقبلها، وجاوزها محييا الدبابات الأخرى بعلمه، ثم استدار نحو الرأس المطل من برج القيادة وقال له:

– كنا ننتظركم كل يوم.. ولم نصدق ان الحرب ستكون.

وابتسم الرأس وهو ينظر الى الأرض القصية وركز الرجل عصا علمه في الأرض.

وصاح الرأس المرتفع فجأة:

– ابتعد عن الطريق، اختبيء، أتت الطائرات.

وانسحب غطاء البرج واختفى الرأس.

وانزلقت طائرتان صغيرتان وهما ترميان شريطا من الرصاص، وارتفعت من الدبابات فوهات ملتهبة نحو السماء، ثم اختفت الطائرتان.

وارتفع غطاء برج الدبابة الاولى، وامتد الرأس ينظر ملتفتا، وكان رجل العلم منطرحا على الأرض والدم يتفجر من جذعه الاعلى ويده تمسك بعصا العلم المغروسة في الأرض.

* * *

رمال

انهم يمرون وينظرون الى الناس الذين يصفقون لهم، او يحدقون في وجوههم للاحتفاظ بذكرى، وسارت الشاحنات في قافلة طويلة، وعبرت القافلة المدينة القديمة بدون ان تتوقف، وتجمع رواد المقاهي والمارة على جانبي الطريق يلوحون، ومرت القافلة، مسرعة، مسرعة، مسرعة..

ورفع الجنود المتكئون على حواجز الشاحنات اذرعهم، وجلسوا على المقاعد الخشبية الطويلة، عندما تركت قافلتهم المدن، وأخذوا يمدون سيقانهم وايديهم ليشعروا بالخدر، وقد أنزلوا قبعاتهم على جباههم.. والقافلة ترتج.. وترتج.. والشمس حارقة.

وتوقفت الشاحنات، ونهض الجنود يستطلعون عبرالحدود، علهم يبصرون الحرب، وانظارهم ترتفع الى السماء تبحث عن طائرات، وكانت الحدود بعيدة عن مرمى القذائف، وانتقلت الأصوات عبر الشاحنات تتساءل بتوتر وغضب عن سبب التوقف، وتدفقت الشاحنات من جديد، تمر فوق الشريط الممتد في الصحراء.. انهم سيصلون في اي منعطف الى الحرب.. هكذا حدس الجميع.

وانبعث صوت خافت يهتف للثورة، وتصاعدت الأصوات من الشاحنة وسرت الى الشاحنات الأخرى، وامتد الهتاف متسقا قويا في تلك الصحراء ذات التلال الرملية.

وازدادت نقاط التفتيش على الطريق، وكانت الشاحنات تبطيء ثم تنطلق بعد دقائق.

وعند النقطة الأخيرة للتفتيش نزل الجنود من شاحناتهم وهم يحملون رشاشاتهم وبنادقهم وتجمعوا حول ضباطهم.

ولاول مرة سمعوا أصوات القذائف البعيدة، والتفتوا جميعهم نحو افق الجبهة.

وهموا بالمسير نحو ذلك الافق، لكنهم انتظروا التعليمات، وانتهى اللاصمت، ودوى نشيد الثورة قويا.. قويا.. قويا.

* * *

الطيور الجبلية*

رصد الضابط من مكمنه سقوط القنابل المتناثرة، وشاهد جنديا يغني وهو يركب حمارا والقنابل تنفجر متقاربة حوله وهو يتقدم غير آبه.

وصرخ الضابط وهو يرفع رشاشته:

- أنزل.

وقفزالجندي تاركا الحمار، وعاد متمهلاً الى الخنادق.. وصاح به الضابط :

- الا ترى القنابل؟

وقال الجندي بثبات :

- انني لا اخافها.

امتلأ الضابط بالفخر لارتفاع معنويات جنوده، لكنه قطب وقال:

-ان حياتك تهمنا، لا تعد الى هذه الفعلة ثانية.

وحياه الجندي وانسحب.

***

قرع الجندي الباب وفتحته امرأة، شهقت ثم فتحت الباب الى نهايته ورحبت به وقفز ثلاثة أطفال نحوه وتعلقوا به وبحقيبته الصغيرة، وكان الجندي يضحك، واستمر يضحك وهو يلمس المرأة التي ركضت نحو القدر واشعلت ناراً تحته، ثم عادت الى جانبه.

وتمدد الجندي الى جانب زوجته، وكان الأطفال قد ناموا وهمست :

- الا تنام؟ انت تعبان.

وأجابها:

- لا اقدر، الهدوء يجعلني استيقظ.

*** نشرت هذه القصة اول مرة مع قصة رجل الممرات في مجلة صوت الطلبة، السنة الخامسة ،عدد 87.**

وفي أيام اجازته الخمسة لم يشعر بفرح في قريته الهادئة ذات الحياة الثقيلة.

وعندما عاد الى الجبهة، كان يضحك ويغني.

ناداه الضابط :

-لم اسمعك تغني منذ أيام.

صمت الجندي وحيا ضابطه.

وعندما ابتعد راح يغني من جديد.

* * *

مسافات

ثمة حمامة تتحرك على سطح المنزل، على امتداد نظره، وخلف البنايات كانت القمة تلوح، وطيور مسرعة تظهر ثم تختفي.

وارتفق بكوعه على حافة النافذة ثم استدار وتفحص غرفته عندما سمع جرس الباب.

وابتسمت امرأة تحمل طفلا وهي تنتظر.. وفتح الباب بكامله وأشار اليها ان تدخل، ثم أغلقه خلفها، وعاد نحو النافذة، وجلست هي على السرير، ثم انحنت ووضعت طفلها على الأرض وانتظرت.

سألها مشيراً الى الطفل:

– هل هو طفلك؟

وهزت رأسها مؤيدة، وهي ترفع مؤخرتها وتجلس في وسط السرير، واستطرد يسأل:

– هل له أب؟

أجابته:

– ذهب الى الحرب.

وأخذ الطفل يتحرك ويزحف متعلقا بحافة السرير، وكانت المرأة لا تشبه اللواتي يقرعن الأبواب، لكنهن أصبحن كثيرات ولم يعد التمييز بينهن يسيراً.

واستدار الى النافذة، وكان الالم الغزير يتدفق في جسده ونظر الى السطوح العالية للبنايات، والى الطيور المسرعة، واستمر يحدق في الافق الذي استحال الى الاف الجثث، وكانت المرأة تنتظره.

* * *

الجسر الضوئي*

كان الرجل ممددا على الأرض، وفوقه بطانية خارج المستشفى الذي يحترق، ولم يقترب منه احد في بادىء الامر، فقد ظنه المواطن العجوز الذي رآه من بعيد، ميتا.

وتصاعد الدخان عاليا، ثم راح يخبو، وجرفته الريح السريعة، ولم تبق في اليوم التالي، سوى اللطخ السوداء حول الأبواب والشبابيك.

واقترب المواطن العجوز من الرجل، ناويا ان يحفر قبرا له، وحين انحنى فوقه سمعه يتنفس.

وكان العجوز قد شاهد في الأيام الثلاثة السابقة بعض الناس يحضرون الى المستشفى ويحملون مرضاهم ويذهبون بهم، وهرب المسلحون الذين يحتلون المنطقة، بعد ان اخرجوا بقية المرضى، وقذفوا بهم الى الشارع، ثم احرقوا المستشفى، وبقي الرجل وحده.

وعندما وجد العجوز ان عيني الرجل تحدقان به، قال له:

– سأخذك الى بيتي.

ونظر الرجل اليه بامتنان، وازاح العجوز البطانية وظهرت ساق الرجل الملفوفة بغطاء متسخ، ثم رفعه من تحت ابطه، واستند الرجل على ساقه السليمة وراحا يهبطان الشارع.

وعندما أخذ الجنود يتقدمون في المنطقة، سمع العجوز قرعا على باب كوخه، وشاهد ضابطا شابا وخلفه أربعة جنود، وارتبك العجوز، وايقن انهم سيجهزون على المريض الذي سحب البطانية واخفى نفسه تحتها.

ابتسم العسكري وقال:

– انا طبيب، هل لديكم من يحتاج الى علاج؟

*** نشرت هذه القصة مع قصص: الاختناق، خطوات على المنحدر، شمس بعيدة، رجال الثلج في مجلة الف باء، 5 حزيران 1975، العدد 353.**

ولاحظ العجوز ان الجنود يحملون الحقائب بدل البنادق، واطمأن وأشار برأسه نحو المريض، وتقدم العسكري ورفع البطانية، ولمس الغطاء المتسخ، وفكه برفق وهو يسأل المريض المتشنج:

– ماذا بك؟

وحاول المريض ان يتخفف من ذعره وهو يجيبه:

– انها مكسورة.

وعلق الطبيب بصوت واضح:

– ستشفى

وازاح الغطاء وأخذ الجنود يفتحون حقائبهم ويخرجون منها اللفافات والادوية.

وعبر الصمت في تلك الدقائق، سمع جميع من في الكوخ، أصوات السيارات والمدرعات المتدفقة، وهي تتقدم الى الأمام.

* * *

الهروب

كان البيت الأخير في القرية مظلما، اجتزت سوره وانطلقت في الصحراء، كنت منشرحا، اكاد اغني، لولا تذكري المهمة التي اوكلت الي: قيل لي ان شخصا مهما سيقله (لوري) علي ان انقله عبر الحدود، لقد ساقت شهرتي في تخطي الحدود وتهريب اثمن الأشياء سمعة خطرة بين سكان القرية، ورغم نشوتي بأهميتي بينهم، الا انني كنت اهجس خطورة هذه السمعة، وكنت اتوقع ان تكون طرقات الليل على بابي من الشرطة الذين ينزوون في وسط القرية، ثم يقذفون بي الى الابد في سجن المدينة.

أصبحت القرية بعيدة، عندما التفت وانزويت قرب تل، وسمعت هدير سيارة، ثم رأيت هيكلها يقترب، وتقدمت الى وسط الطريق، وانا أتفرس فيه...أبطأت السيارة ثم أضاء وسط الطريق، وأنا أتفرس فيها..أبطأت السيارة ثم أضاء سائقها انوارها علي برهة، واطفأ الانوار ثم المحرك، وفتح الباب وقفز ثم قال لي:

– تبدأ الان مهمتك، انت مسؤول عنه منذ هذه اللحظة.

كنت متلهفا لرؤية الرجل المهم، ولم يسبق لي ان شاهدت شخصا مهما سوى المسؤول الاداري الاول في المنطقة، حدقت الى الفراغ بجانب مقعد السائق وقلت:

– اين هو؟

واستدار السائق الى خلف السيارة وهتف:

– وصلنا ياستاذ نحن في المرحلة الأخيرة.

ودفع الرجل مجموعة من الغرارات ونهض، وكان يرتدي ملابس قديمة ممزقة، ولحيته طويلة، وراح ينظر في الظلام متلفتا..

قال له السائق:

– ستذهب معه، وسينقلك الى الحدود..استودعك.

سأله الرجل وكأنه متعلق به:

– هل تذهب؟

- سيتولى ايصالك، اما انا فعلي ان أعود.

ونظر الي الرجل وسألني:

- هل توجد شرطة في القرية؟
- سأخذك معي الى بيتي، ثم ننطلق في الفجر.

وعاد الرجل يسأل:

- الشرطة؟
- انهم نائمون الان، لا احد يخرج منهم في الليل.

وازداد ارتجاف الرجل:

- لن اذهب الى القرية، يجب ان نرحل الان.

قلت :

- من الافضل ان نسافر في الفجر لكي نرى الطريق.
- يجب ان نرحل، الحكومة تطاردني! قلت بتصميم .
- الطريق محفور، وستتحطم دراجتي النارية.
- سأعطيك ما تشتري به دراجة جديدة.

وفقدت الاهتمام به بعدما رأيت رعبه، ولم يعد بالنسبة لي سوى صفقة وسمعته يردد:

- سأعطيك مائة دينار.

وتدخل السائق :

- ولكنهم أعطوه عشرة دنانير لنقلك.

وأجابه بازدراء :

- هذا ليس من شأنك

وصمت السائق وقلت لاخفف حسده:

- انني عند اتفاقي، وقد استلمت الدنانير العشرة. وهتف الرجل:
- أسرع واجلب دراجتك، سنرحل الان.

ووافقه السائق مستسلما :

- يجب ان تسافر فورا.

أسرعت الى القرية واخرجت دراجتي وأخذت اسحبها كيلا تثير بصوتها انتباه الشرطة، وعندما ابتعدت عن البيت الأخير، ادرت المحرك وانطلقت.

كان الرجلان يدخنان ولمحت التماع الجذوتين، وتوقفت قربهما وأسرع الرجل واعتلى الدراجة خلفي، وصاح السائق:

- مع السلامة.

وراح الرجل يسألني عن الشرطة، وقلت لاشعره بأهميتي :

- انهم في كل مكان، لكنني لا اكترث لهم.

صمت الرجل وأحسست بحرارة سيكارته تمر قرب كتفي.

كان سيرنا حذرا وبطيئا، واردت التحدث معه في تلك الصحراء:

- لماذا تهرب؟

- انني سياسي.

سألته بسذاجة :

- وهل يهرب السياسي؟

وتصلبت يده المرتعدة المتمسكة بي ورمت يده الأخرى السيكارة وقال متضايقا :

- ارجوك ان تسرع.

وعدت اقول :

- حكومتهم تعادينا.

وشعرت بكفيه يرتجفان وقال بصوت مداهن وكأنني ساسلمه للشرطة:

- لا لا.. ابدا، ولكنني لن اسجن، هه؟ اليس ظلما ان يسجن رجل بريء؟

وأخذ يتحدث عن نفسه وخشيته، وتيقنت انه رجل فزع وكدت اقول له ان الرجل الذي يخاف، عليه ان يتجنب السياسة، ولكن انزلاق الدراجة في حفرة وارتطامها بحافتها الحادة، رمانا على التراب، ولمست الرجل:

- هل اصابك اذى؟

ونفض الرجل ثيابه ونظر الى الدراجة :

- انني بخير لنستمر.

ورفعت الدراجة من الحفرة وحاولت تسغيلها ولم تتحرك وقلت له بغضب :

- الم اقل لك ان نسافر في الفجر.

وأجابني وهو يتلفت:

- هل تستطيع اصلاحها؟

- سأحاول.

ورفعت الدراجة على مسندها وبدأت المسها في الظلام، وأصبحت منهكا، ولم تعد لي رغبة باصلاحها، واخبرته :

-انها لا تشتغل.

سألني بخوف :

- وانا، ماذا سافعل؟

واجبته ببرود :

- لا أدري .

وكان هواء الليل المنعش يحرك ثيابنا، واقترحت :

- دعنا نذهب الى القرية لعلنا نعثر على حل.

- هل تستطيع الحصول على دراجة؟

وكنت أعلم انه لا يوجد من يمتلك دراجة في تلك القرية. واوشك الرجل على البكاء وردد يائسا :

- ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟

تعال معي الى القرية لننام ثم نسافر.

- كم تبعد الحدود؟

- حوالي خمسة عشر ميلا، والطريق يمتد مستقيما.

وسألني :

- اذا ذهبت مشيا، هل اصل قبل الصباح؟

- الطريق متعب، وانا مسؤول عن ايصالك.

- لا عليك سأذهب.

وأخذ يبتعد ويصغر في الافق والظلام.

وسحبت الدراجة وتوجهت نحو القرية، وطرقت باب احد اصدقائي وكنت متعبا، لكنني لم استطع النوم.

* * *

رجل الممرات

كان مشلولا ومرتخيا على السرير، وهو ينصت الى أصوات ما، في ممرات المنزل.

منذ سنوات اصيب بشلل في رجليه، واستمرت زوجته تعمل وتنفق عليه، وغمره خجل في البداية، افسد عليه شعوره بالامتنان الخفي، لكنه اعتاد وضعه، وان راح في بعض الأحيان يفكر في حالات مرعبة: كما لو ان زوجته تتركه، او انها تموت، ويبقى هو في البيت الى ان يتعفن وتتحلل جثته، وهو يتوازن في النهاية عندما تحضر زوجته وتحميه برعايتها.

واحس منذ اسابيع، ان زوجته تنصرف عنه تدريجيا، وان بقيت ترعاه بنفس الدأب القديم، وأراد ان يكاشفها بتقلبها، وادرك وهو الملقى على حافة الهاوية، انه وحده الضحية في النهاية، وصمت، وحزنه وكمده يكبران، وبقي غاضبا ومذهولا لا يستطيع ان يفعل شيئا، ولم يستطع، عصر ذلك اليوم ان يقاوم هياجه، عندما ناولته قدح شاي..وقال:

– انك تتغيرين.

وانتبهت الزوجة وحدقت في وجهه:

– لم اتغير.

وأكد بغضب:

– اني احس بانك تتغيرين.

ووضعت قدحها على المائدة التي تفصل كرسيها عن سريره وقالت:

– انك تشك بي، اليس كذلك؟

صمت الرجل منتظرا، مليئا بالارتياح، وانتظرت هي جوابه، لكنه بقي مترقبا بلهفة، وبغتة انفجرت الزوجة:

– لم تعد محتملا، الا تدرك ذلك؟ انني افني حياتي من اجل ميت، ثم ترميني بلؤمك ووساختك.

هلع الرجل من غضبها، وأشار اليها ان تمنحه فرصة للكلام وهو يردد:

– انك مخطئة، لا اعني شيئا..اسمحي لي..

ولكن انفجارها لم يتوقف، وهي تستجمع كل آلام تضحيتها:

– انك تطعنني، لم اعد اطيقك، هل فهمت؟ لم أعد اطيقك.

ونهضت من كرسيها، واختطفت حقيبتها الصغيرة وتركت الغرفة.

وسمع الرجل، الباب الخارجي يغلق بقوة، ونظر الى اقداح الشاي، والى كرسيها الفارغ، وزحف فوق سريره مستديرا واتكأ على مسند كرسيه المتحرك واستطاع ان يحرك عجلاته، وتقدم في ممرات المنزل الى الباب الخارجي.

وعندما فتح الباب واطل في الشارع، كانت زوجته قد اختفت.

* * *

نوافذ مظلمة

قال الرجل – لننهض.

وأجابته – لن اذهب معك.

ومد يده عبر المائدة وضغط على كفها بقوة وحاول جرها وتقلص وجهها من الالم.

وكانت الموائد في الطابق الاعلى من المطعم خالية الا منهما، وقال لها متسائلا وهو يتصنع الهدوء:

– لماذا أتيت اذن؟

ونظرت اليه وقد تحرر كفها:

– هكذا.

ونظر الرجل صوب السلم الخشبي ليتأكد من ان احدا لن يرتقيه، ونهض وانحنى فوق المائدة، متجها بجذعه نحوها، وكاد يتوسل:

– لنذهب معا.

– انك لا تفهم.

– ستذهبين معي، اليس كذلك؟

ورفعت المرأة قدحا زجاجيا وقرعته بالمائدة قرعا متواصلا فعاد الرجل بسرعة الى كرسيه.

وأزّ الدرج الخشبي تحت أقدام النادل.

وكلمته السيدة : الحساب من فضلك.

وأسرع الرجل مضطربا، في اخراج نقوده، وهرعت المرأة تغادر المطعم بدون ان تنتظره، وغذت خطاها صوب اول منعطف.

وسمعت الرجل يقول لها وقد أصبح بجانبها.

– الى اين تذهبين؟

ثم ردد:

– هكذا اذن؟ هكذا اذن؟

ودفعه أمله لان يستمر متابعا لها، لكنها لم تعد تجيب عليه.

* * *

نوافذ مظلمة... مظلمة

بعد ان انتهيا من تناول الطعام.. قال لها:

– ما رأيك في ان نذهب الى غرفة امتلكها؟

وارتعشت، ثم تمالكت هدوءها وأجابته:

– انك تمزح بلا شك.

– انني لا امزح.. وهذا هو المفتاح.

وأراها المفتاح.

كان الرجل زميلها في الوظيفة، ولم تخيب رجاءه عندما دعاها لتناول وجبة طعام.

قالت له:

– الا يمكننا ان نحتفظ بصداقتنا بدون ان نذهب الى الغرفة؟

صمت قليلا، ثم قال:

– لنذهب معا.

.....

.....

قرعت القدح بالمائدة، نهضت، أسرعت مستديرة في المنعطف، ولحقها الرجل، الا انها لم تعد تجيب عليه.

* * *

التصاق

تعبت العجوز من الانتظار، فزوجها لم يعد بعد، وكانت الغرفة الصغيرة بأثاثها القديم المتهالك، مضاءة بمصباح صغير. الأولاد، الأولاد، كانوا حلمها الدائم، فهي لم ترزق بطفل، وسواء كانت هي السبب في العقم، ام زوجها، فان النتيجة التي ناقشاها طويلا، قد أصبحت سواء، لكنها لا تتخلى عن الحلم، كانوا سيصبحون رجالا او نسوة، يتزاحم حول أرجلهم، أطفال عديدون، وكانوا سيزورونها، ويندفعون ضاجين الى تقبيلها، فتخرج لهم من جيوبها، كانت ستخرج لهم من جيوبها، قطع الحلوى الصغيرة وتوزعها عليهم، وستتخذ موقعها الذي حددته منذ سنوات طويلة، في وسط الغرفة، بحيث ترى الجميع، ويستطيع الجميع التحدث والوصول اليها بسهولة، لكنها لم ترزق بطفل، ولم تتخل عن أحلامها، حتى بعد ان ادركت انها أصبحت عجوزا، وهي تملأ وقتها الطويل... الطويل بالأحلام، فلم تكن تملك شيئا جميلا غيرها، فزوجها عامل لا يكسب الا ما يبقيهم أحياء، وهو الان عجوز، ولم يعد قادرا على العمل المتواصل، وهما يجوعان في أيام كثيرة، لكنهما لم يموتا بعد من الجوع، وهو يتجول لعله يقتنص فرصة لتقديم عمل او خدمة.

* * *

التصاق... التصاق

العجوز يائس من حياته، فعليه ان يعمل ويكسب النقود، وهو يتحامل على نفسه، في كثيرمن الأحيان ليخرج باحثاعن عمل، لم يعد يقبلونه، وهم ينظرون اليه، ثم يعتذرون، وتعلم منذ زمن طويل ان الاقوياء وحدهم يستطيعون العيش بشكل افضل، ولو كان لديه أولاد، لكان في هذه الدقيقة نائما في فراشه، وعليه ان يقطع الطريق مشيا، فلم يكن يملك نقودا، وارهقه المشي، وبقيت مسافة طويلة الى بيته، وفكر في النوم على الرصيف والذهاب الى بيته صباحا، لكنهم سيوقظونه ويطلبون منه الذهاب.. او ربما وضعوه في السجن.

وتلاشت قواه، وسقط على جانب الطريق، وتطلع اليه بعض المارة، ثم استمروا في طريقهم.

وكانت زوجته العجوز تغط في نومها.

* * *

شرفة في بيروت*

سمع الاب الباب ينفتح، وقفز من غرفة النوم صارخا:

– من بالباب؟

ووقف الطفل الصغير مسمرا اثر الصرخة، وصاح به الاب:

– ماذا تفعل؟ اين تذهب؟

تلجلج الطفل وهو ينظر صوب الدرج:

– الكرة، سقطت من الشرفة.

وسحبه الاب من يده وأقفل الباب، وردد الطفل:

– الكرة.

وافهمه الاب:

– ستموت ان خرجت الى الشارع.

ولم يفهم الطفل، واتجه الى الشرفة، وشاهد كرته مرمية على الجانب الاخر وبكى.

* * *

*** نشرت هذه القصة اول مرة مع قصتي الوليمة والاقاصي في جريدة الثورة، 1977/2/27، عدد 2629.**

الوليمة

تعثرت المرأة العجوز وهي تضرب الأرض بعصاها الرفيعة. ونقرت على الرصيف وعبرت الى الجهة الثانية، وأسرعت عندما تأكدت ان دوي الانفجارات ليس بعيدا.

وسمعت صوتا ناهرا :

– انت أيتها العمياء؟

وتجمدت العجوز في مكانها وراحت تدمدم، وضحك الصوت الناهر :

– انت فلسطينية؟ هاه؟

واتاها صوت آخر يأمر:

– أتقتلها ! ماذا تفعل؟

وانقلعت العصا من يد العجوز بسحبة سريعة، صاح بها الصوت الناهر:

– هيا اركضي وابتعدي من هنا.

ومدت العجوز يديها في الهواء تتلمس طريقها.

– أركضي والا مت.

وهرولت العجوز، لكنها انكفأت على وجهها، وتمددت قرب الرصيف.

وانطلقت ضحكتان مدويتان في الشارع المهجور.

* * *

نافذة*

تحركت خمس نقاط في انحسار الشمس، وانبعث ضوء باهر باستقامة من الجهة المقابلة، والتصقت النقاط بالأرض، واكتسح الضوء الأرض باحثا عن اية نقطة بلا توقف.

ودوت أصوات الرصاص والقنابل وشعت الأضواء على النقاط الخمس، وأخذت تتراجع أربع نقاط تركض.

ثلاث

اثنتان

واحدة

وأصبحت النقطة رجلا، ومن بعيد كبرت النار.

* * *

*** نشرت هذه القصة اول مرة في مجلة الاذاعة والتلفزيون، 1975/9/14، مع قصص: زوارق، اوتاد ،المزلاج، طاحونة، والصحراء.**

زوارق

جلست الصلعتان الشائبتان على مصطبة في الشريط الأخضر الممتد على الشاطىء، وراحتا تتابعان الفتيات العابرات.

وقالت الصلعة الاكثر التماعا:

- آه.. لو عاد الشباب.

وضحكت الصلعة الأخرى مواسية:

- لا تحلم.. لا تحلم.

- الدنيا تزداد جمالا ونحن نبتعد عنها.

ووجم العجوزان برهة.. ثم استمرا يتابعان الفتيات العابرات بشغف.

* * *

أوتاد

تواثب الأطفال حول المرأة العانس، الجالسة في الحديقة العامة، وكان بعضهم يصرخ وآخرون يتدحرجون.

ابتسمت المرأة برضا وقالت لهم.

– العبوا وأصرخوا يا أولادي.

ثم رددت بخفوت :

(لا بد من الضجة عندما يلعب الأولاد، لن اضيق بهم مهما صنعوا)

وأخذت الشمس تنحسر، وحين نهضت المرأة كان الأطفال قد اختفوا، وسارت وحدها متجهة نحو بيتها الموحش.

* * *

المزلاج

اختفت المرأة في الرواق عندما دخل الضيفان خلف زوجها وتنحنح احدهما بصوت مرتفع:

- احم

وحملت لهم صينية الشاي، ووقفت خلف الباب وقرعته، وخرج زوجها وتناول الصينية، وتقهقرت المرأة، وحين اطمأنت الى ان زوجها يتحدث مع الضيفين، دلفت الى المطبخ وراحت تراقب حديقة الجيران، حيث جلس الزوجان الشابان في الارجوحة وهو يمسك يدها.

وتنهدت المرأة وتمنت لو أن زوجها لمس يدها يوما، واخبرها بانه يحبها.

* * *

العكازة

أمسك صاحب معمل الطابوق بالحمار ولمسه من رقبته، ثم شدها برفق وقبله على رأسه وخاطبه:

– انت الوحيد الذي بقيت مخلصا لي، لانك لا تطالب بزيادة الاجور ولا بالضمان الاجتماعي اوالتقاعد، ولست منتميا الى نقابة.

وتوقف العمال المكدودون عن العمل، وشاهدوا جميعهم، دموع صاحب المعمل الذي اخفق في ابتزازهم، وللحظة ايقنوا انه جن، وفجأة قهقهوا من اعماقهم.

* * *

السكة

تخلت عنه وداعته عندما أصبح موظفا.. انه يمشي بين البدلات الانيقة والنساء الجميلات والبيوت الواسعة، ويعود الى بيته المتداعي في اخر المدينة ناضبا متوحشا، ولا يجد سوى زوجته فيوسعها ضربا.

وقالت له زوجته يوما بعد ان تحطمت العصا على جسدها:

– سأموت.

وأبيض وجهها وهي تنهار على الأرض، وتجمد لحظة. هل يرفسها ويخرج؟ او ينتظر الى ان تموت؟ لكنه جثا الى جانبها وبكى.

* * *

عزيزتي سميرة

حمل الفتى حقيبته وغادر الزقاق الى بيت عمه في الجانب البعيد من المدينة، وسمع بعض الاسئلة تتعقبه :

- هل تسافر عزيزتي سميرة؟

وود لو ينقض على مطلقي الاسئلة ويهشمهم لكنه لم يلتفت.

وكان الفتى قد كتب رسالة، منذ زمن، الى جارته سميرة التي يحبها بدأها بـــ(عزيزتي سميرة)، وحملت الفتاة الرسالة الى صديقاتها وانتشر الخبر، وطفق سكان الزقاق ينادونه (عزيزتي سميرة) وظل الاسم يطارده، فحزم حقيبته وترك الزقاق.

وتوقف على الجسر، وراح ينظر الى الطيور البيض التي تعلو وتهبط على الماء، وسمع بغتة صوتا هادرا :

- عزيزتي سميرة

والتفت بسرعة، ولم يشاهد احدا.

* * *

المنحنى

صرخ بأعلى صوته حاثا حصانه على الاسراع، لكنه لمح بعينيه المدربتين ان حصانه انغمر في الوسط، ولم يتلاش أمله الا عندما اجتازت الأفراس الأخرى خطوط النهاية، وطفق يشتم، وشق طريقا بين الرجال المتلاصقين وراح ينظر الى الأرض عله يعثر على ورقة نقدية ليعود الى اللعب، واجتاز الباب الرئيسي وعادت الصرخات تعلو من ساحة السباق.. وود لو يصل الى بيته بسرعة ليوسع أطفاله الجياع ضربا.

* * *

نجمة الظهيرة

هبت الطيور على صفحة النهر، والقى الطفل حصوة مدورة، وراقب ارتفاع الطيور وتبعثرها وتابعها وهي تتجمع وسط النهر.

وقال لوالده :

- لم اصطد واحدا منها.

وسحبه والده من اذنه وهو يقول :

- تعال ايها الكلب.

ونفرت الدموع من عيني الطفل وهو يحاول ان يفتح قبضة والده بكفيه الصغيرتين.

واضاف الاب :

- كن عاقلا والا رميتك في النهر.

ثم ارتخت أصابع الاب عن اذن الطفل، وحمل ولده بين ذراعيه، وكان مديره كالموجة في ذهنه وهو يبصق عليه ويطرده.

واعتصر ولده بذراعيه وهو يرتعد.

* * *

الجزيرة

استفاقت المرأة مذعورة على صوت طائرة تحوم فوق سطح المنزل حيث تنام، وكانت الطائرة الهليوكوبتر قد استدارت ثم عادت، وبدت قريبة من سريرها واسرة أطفالها الثلاثة، وخيل اليها انها ستسقط عليهم، وأرادت ان تنهض وتحمل أطفالها الذين استيقظوا وراحوا يتفرجون على الطائرة، لكنها شعرت بالخدر والعجز.

ومضت الطائرة بعيدا، واستيقظت في ذهن المرأة، وبهلع صورة زوجها الضابط في الجبهة، وأصبحت دقات قلبها سريعة جدا.

* * *

شمس بعيدة

نظر الى الحلقات الحديدية المثبتة على جدار الحمام، ومس الحبل المتدلي منها، وتذكر صرخات السجناء الذين ادخلوا قبله، واحس بالاختناق. لقد قال لهم (لا) عندما طلبوا منه ان يصعد الى الجبل ويحمل السلاح، ثم اقتادوه وادرك انه في السجن حين افاق من غيبوبته.

واخرج الفتى قطعة معدنية من جيبه وحفر صورة شاب يقدم زهرة لفتاة، وتراجع ثلاث خطوات وتملى في الصورة.

وانفتح الباب ودخل الحارسان، وأمسك احدهما يده اليسرى ورفعها وربطها بالحبل، ثم علق يده اليمنى، وتهيأ للبدء بتعذيبه، والتفت الفتى الى الصورة التي حفرها..ولم يعد يراها.

* * *

الوهج

رفع سائق الشاحنة صوته مغنيا عندما شعر بالنعاس في الطريق الطويل وود لو يتوقف ويغفو قليلا.

وشاهد بعيدا، وعلى انحناء الأرض المغبرة فارسين يطارد احدهما الاخر، ورأى الفارس الاول يلتفت نحو مطارده ويطلق عليه رصاصة، وسقط الفارس الثاني هو وحصانه، وشكل الاثنان بقعة سوداء، واستمر حصان الفارس الاول يعدو، واختفى في الافق.

وكف السائق عن الغناء، وضغط على البانزين وردد مع نفسه:

- انني لم ار اي شيء.

* * *

السلالم

صرخ الفتى المدلل في دهليز المنزل :

– اين انت يا بنت الحمار؟

وكانت أمه راقدة على فراشها ورددت بوهن :

– انني أموت.

ومد رأسه وحدق فيها، وقاس قوتها، ثم أمرها:

– انهضي واغسلي ملابسي.

ولم تجبه.

وفكر في انها ستموت، واسف لانها لن تغسل ملابسه. وسمعها تئن قائلة:

– لا أستطيع.

وجذب الباب وصفقه بقوة وخرج. وكان مهموماً يفكر في ملابسه المتسخة.

* * *

السواحل المظلمة

سمع الرجل صوت هدير بعيد، واستيقظ تماما، وخرج ونظر في الظلام، وتأكد ان السيل يقترب، واندفع الى الداخل صارخا بزوجته ان تستيقظ وتهرب، ثم ركض الى باب جاره وقرعه بقوة وهو يهتف محذرا، ووثب الى بيته وحمل طفلته الصغيرة واخاها الاعضب، وطلب من زوجته ان تساعد ابنيها الاعرجين في الصعود الى المرتفع، والهرب الى جهة المستشفى. وانطلق الرجل وهو يحث زوجته، التي كانت تنظر الى الأثاث وتفكر في استنقاذها، وحين استدار الرجل صاعدا في المطر، شاهد كتلة ماء ارتفاعها أربعة امتار، تنقذف نحو بيته، وحين أصبح في اعلى الوادي، استدار وهو يستحث زوجته بصوت مدو.

لقد قال لجاره عندما هطل المطر بكثرة، ان السيل سيجيء، وأجابه الجار:

– عندما يجيء السيل، سنسمعه ونراه، قبل ان يصل الينا.

ثم أقفل بابه ونام هو وزوجته وبناته الست.

وبقي الرجل يقظا، واستمر يخرج بين حين وآخر، ويلقي نظرة الى مصب الوادي في المرتفع، ولم يقترب من فراشه. وكان قد اطمأن حين اقام بيته الصغير، على جانب الوادي، خلف كتلة كبيرة من الصخر، وايقن انها ستصد المياه المندفعة لو حدث سيل، ولكن بيت جاره كان مكشوفا للمياه وكانا قد بنيا على جانب الوادي لأن أرضه رخيصة.

وارتطمت كتلة الماء بالصخور، واستدارت سريعة نحو المنزل، وأمسكت الام بطفليها الاعرجين، وتعثر احدهما وسقط، وعجزعن التقدم، وأمسكت الام بالطفل الآخر، وانحنت تساعد ابنها على النهوض، وارتفعت الامواج الضخمة الهادرة، وافلت من يدها الطفل المطروح على الأرض وحاولت امساكه حين تحرك مع الماء، وغمرتها موجة جديدة، وكانت قد افلحت في مسك ثوب ابنها، وجرفتها الامواج الهائلة وهي تحتضن طفليها وقد غاصا، وحاولت الوقوف، لكنها سقطت.. وحاول الرجل من مرتفعه ان يحدد مكانها، لكن الامواج كانت سريعة.

وانتبه الرجل الى دوي انبعث من منزل جاره، الذي هوى وأصبح كتلا صغيرة في المياه.. وصمتت الصرخات الصغيرة اليائسة، وشاهد قامة جاره، الذي افلح في الخروج من بيته، وهي تنحني، ويجرفها الماء.. وانسحب الرجل مبتعدا تجاه المستشفى، وأخذ الماء يملأ مجرى الوادي.

وفي اسفل الوادي، كانت البساتين المثمرة، تنتظر من يقتطفها، ومكث اصحابها فيها، خشية ان تسرق في الليل، وردد الرجل:

– وصلهم السيل.

وآمل الرجل ان تلقي المياه بزوجته وولديه على جانب الوادي فيستطيعوا النجاة.

وارتجف الطفلان اللذان يحملهما، وغسلهما المطر، وغمرته الشفقة عليهما، واستعجل الوصول الى المستشفى، واستقبلته الممرضة الخفر، وسألته بهلع عما يحدث. واندفع الى الداخل متخلصا من المطر واتجه نحو المدفأة :

– السيل.. السيل.. لم نشاهد مثل هذا السيل ابدا.

وتناولت الممرضة الطفلين، واختفت في رواق المستشفى، ودخل ثلاثة مرضى وانهالوا عليه بالاسئلة.

وعادت الممرضة، وقد لفت الطفلين بمفرشي سرير، وقربتهما من النار وهي تدعك شعرهما بمنشفة، وتعلق المرضى بالشبابيك المطلة على الوادي، وهم يقدرون الخسائر.

ونظر الرجل الى المدينة، وسمع هتافات الناس الذين ايقظهم هدير السيل وشاهد الأضواء تضيء متتابعة في البيوت، وخرج من المستشفى وهبط بحذر نحو مجرى الوادي الذي ينتهي الى البساتين. وتحركت سيارات من الجهة الأخرى ثم توقفت. واقترب جمع من الناس، وفجأة انقطع التيار الكهربائي بعد ان جرفت المياه العمود الذي يوصل بين المحولة الموجودة قرب المستشفى وبين المدينة، وعم الظلام الجهة الأخرى.

وعلت أصوات اصحاب البساتين من اسفل الوادي، تطلب النجدة، ولم يعد الرجل يرى أي شي، وانبثق ضوء مصباح يدوي، توجه نحو البساتين، وتلاشى الضوء بين الاشجار، والتمعت وهجة المصباح في المرتفع، ثم

أضاءت سيارة انوارها التي لم تنش سوى نهايات الاشجار العالية، ثم انطفأت، وساد صوت المطر المنهمر والماء الهادر الكثيف، وكانت صرخة تعلو بين حين وآخر موجهة نحو المدينة.

واستمر الرجل يتفرس في كتلة المياه وجوانب الوادي ثم صرخ مناديا:

– نجيبة، نجيبة.

وأجابه رجل من الجهة الثانية:

– من؟ محمود؟

وصاح محمود نحوه:

– هل شاهدتم زوجتي وولدي؟

وعاد الصوت مدويا في الصمت:

– اليسوا معك؟

وتقدم الرجل خطوات نحو حافة الوادي وحدق في الصخور وهو يرد:

– اذن لا زالت في الوادي.

وهتف رجل من اسفل الوادي:

– انقذونا.

والتفت الجميع صوب الصوت، وكان الرجل يجلس فوق شجرة ضخمة، وأشار بيده، وارتفعت ست أيد تلوح، وهي تنادي مجتمعة:

– انقذونا.

وكان الرجال متوزعين فوق الاشجار، والمياه تحيط بهم، وهي تندفع، منحدرة، ثم تستدير نصف استدارة حول كتلة صخرية، ثم تنغمر في النهر.

وناداهم رجل من فوق:

– كلكم أحياء؟

واتاه صوت من الوادي:

– كلنا أحياء.

وازداد المطر كثافة، واقبلت سيارة المسؤول الاداري وتوقفت خلف الرجال المتجمعين، وتطلع صوب الرجال الذين يجلسون فوق الاشجار، ونحو الرجل الوحيد الواقف في الجانب الثاني من الوادي.

وأوعز الى رجل، فصاح:
- ستصل طائرات الهليوكوبتر، وتنقذكم.
ثم تحول الى الرجل:
- محمود، من معك؟
- ولد وبنت.
وقال الرجل للقائممقام:
- فقد زوجته وولديه.
ثم صاح الرجل من جديد:
- وجارك؟
وأجابه محمود:
- لا أعرف عنه شيئا.
- اليسوا في المستشفى؟
- لا.
واوضح الرجل للقائممقام:
- جاره لديه زوجة وست بنات.

وراحت عيون الرجال تتفحص كتل وجوانب الوادي، ومشى اثنان منهم متجهين فوق كتلة الوادي الصخرية الملتفة حول البساتين، وكانا يسيران ببطء، وهما يدققان في الكتل البارزة والمتحركة، التي جرفها السيل، وفي الاشجار المقتلعة الطافية، والغاطسة، والمتكسرة، ثم عادا بنفس البطء، وتجمعت نسوة الرجال المتسلقين وأطفالهم واقاربهم وكبر تجمع الناس وأصبح خطا طويلا فوق الوادي، ومضت نسوة الرجال يصرخن واحدة بعد الأخرى:
- ابو محمد "اشلونك"؟
ويجيبها زوجها باقتضاب :
- كما ترين.

وتبارى الأطفال في مناداة آبائهم واسماعهم أصواتهم، وعاد البعض الى المدينة بعد ان تبلل بالمطر، ومكثت عوائل الرجال المتعلقين وهم يرمقونهم

وينظرون الى القائممقام ليتحرك بسرعة ويعمل اي شيء لانقاذهم، وركب المسؤول الاداري سيارته وعاد الى المدينة، واقبل عدد من رجال الشرطة والامن والموظفين، وراحوا يبحثون عن طريقة لانقاذ الرجال، وبقيت المياه المرتفعة حائلا أمام اقتراحاتهم، ثم نصح احد الموظفين الشرطة:

– اركبوا زورقا وانقذوا الرجال.

وهب مفوض الشرطة، الذي ادرك بحذره، مدى الورطة التي يحاول ذلك الموظف زجهم فيها:

– وهل تأتي معنا؟

وصمت الموظف وهو يراقب الجذوع الضخمة الطافية وهي تتقذف مستقيمة وسط المياه، ثم ترتطم بجانب الوادي وتستدير سريعة ثم تظل تدور وهي تهبط نحو المصب.

واحاط أناس خرجوا من خلف المستشفى بالرجل الوحيد، وارتفعت صرخة قريبة من زوجته، ثم تعالت صرخات من نساء اخريات، واستفز الصراخ جميع النساء، حتى نسوة الرجال المعلقين، رحن يولولن ويندبن، وأشار الرجال اليهن بالصمت والابتعاد، فما زال رجال أحياء ينتظرون فوق الاشجار، وابتعدت امرأة صوب البيتين وهي تلطم رأسها وتنوح.

وعاد المسؤول الاداري من جديد وقال لاحد رجال الشرطة :

– اتصلت بالعاصمة، وستجيء الطائرات.

وردد شرطي بصوت مرتفع.

– ستجيء الطائرات.

وارتفعت جميع الرؤوس الى السماء وهي تبحث عن الطائرات.. واستمر اناس يحضرون. رجال وأولاد يركبون الدراجات، ورجال ونساء وعباءاتهن تتطاير في الريح والمطر، وانصرف آخرون الى المدينة او غابوا خلف المستشفى البيضاء.

وتراجع محمود ودخل المستشفى، وكان طفلاه يجلسان في غرفة الممرضة وهما يلتهمان قطعا من الحلوى ويضحكان لمداعباتها.

وناداه الطباخ :

- تعال وكل شيئا.

وأجابه بفتور :

- لا اشتهي.

وتقدم الطباخ منه وسحبه من ذراعه قائلا :

- لا بد ان تأكل.. انت جائع.

ورضخ الرجل ومشى خلفه ودخلا المطبخ...

وشيعه الرجال بنظرة رثاء.

ورقد محمود مع ولديه في غرفة بالمستشفى، وهو يتأملهما، ويفكر في زوجته وولديه الاعرجين الذين غرقوا، ثم يتوقف ويعود الى مسألة تقلقه، فاين سيذهب بعد ان يتوقف السيل، فهو لن يبقى في المستشفى، كما انهم لن يسمحوا له بذلك، والتمعت في ذهنه فكرة وهي ان يذهب الى بيت شقيقته في المدينة، ثم يبدأ حياته من جديد، ولم يستطع ان يقرر كيف سيبدأ حياته الجديدة.

وومض ولداه الاعرجان في ذهنه، وقرر انهما نجيا من حياة بائسة تنتظرهما في المستقبل، وتخلص هو من عبئهما عليه، وطلب توبة ربه في لحظات المه الهائجة، وتشبثت فكرة تخلصه منهما بعقله، وتخفف شعوره بالاثم تدريجيا.

وانبعث تعليق الممرضة الذي سمعه صدفة سريعا :

- الرجال لا يحزنون.

ولم الحزن على حياة قاسية؟ ولا سيما بالنسبة للفقراء الذين يقضون حياتهم المريرة بكد متصل واقصى امنياتهم ان يشبعوا؟ وهمس:

- ليتني مت، وليتني لم أولد.

وحرك الابن الاعضب يده.

- هذا المسكين.

وتذكر الولدين الاعرجين.

- انه افضل منهما، فماذا سينتظر صبي اعرج، لأسند له في هذا العالم من الحياة؟

وزحف نحوه الطفلان واستكانا قرب قدميه، وانحنى عليهما وقد انفجرت عواطف دامية في داخله، وخاطبهما.

– ماذا كان سيحل بكما لو مت؟

ونظرا اليه بدون ان يفهماه، وصمت واشاح ببصره، ثم اضاف:

– لن اترككما، سأتزوج امرأة تعنى بكما.

وكانت فكرة الزواج قد لاحت له منذ ان تيقن ان امرأته ماتت وأصبح وحيدا. واطمأن وشعر بالتعب يملأ جسده، وود لو ينام، وأخذ جسده يتراخى.

وواصل الرجال المعلقون صراخهم برجال الشرطة :

– اين الطائرات؟ متنا من الجوع والبرد.

وكانت الاشجار الضخمة يهزها الماء، وهم ينظرون الى كتل الثمار الطافية بأسى، وكانوا قد انتزعوها من الاشجار في النهار، وكدسوها في زوايا الاكواخ، لكن السيل داهمهم، ونجوا عندما سمعوا صرخات الرجل في اعلى الوادي وهدير السيل، ولم يستطيعوا الهرب الى خارج الوادي الواسع والمرتفع، واختاروا الاشجار الصلبة واعتلوها، وتأكدوا من نجاتهم جميعا عندما تنادوا. واستمر الهدير الصاخب يصدم اسماعهم، ويفكرون في مصيرهم لو ان الاشجار لانت للسيل وانجرفت. واستمرت ايديهم تشد بقوة على الاغصان، ويحاولون الجلوس بشكل يتفادون فيه السقوط.

وبحثت أصابعهم، وعلى متناول ايديهم، عن الثمار اليابسة والمعطوبة، وحاول احدهم ان يبث فيهم الصبر، وقرأ لهم آية قرآنية، ولم يجيبوا عليه، ولبث خوفهم في اعماقهم وراحوا يتضرعون يائسي, واستمر الرجال المعلقون يرتجفون من البرد، وهم يتمسكون باغصان، وانصرف الجمع في اعلى الوادي تباعا، وثبت شرطي في مكانه، وبقي القائممقام وحده يجيء بين حين وآخر، ثم يعود الى دائرة البريد، ينتظر برقية او تلفونا او إشارة تخبره بوصول الطائرات.

وبدا الوادي الفسيح الذي توسع، من اعلى، مغرقا في الظلام، عندما مرت غيوم ثقيلة.

ثم انقطع المطر وهبت الريح المثلجة من الصحراء، وبدأ الهدير يتلاشى وانتبه الرجال المعلقون، وصاح احدهم:

- توقف السيل.

وانصت الآخرون، وعلق احدهم.

- يبدو انه توقف.

واعترض آخر:

- ربما هدر من جديد.

واضاف :

-هذه الصحراء كبيرة، لا تعرف اين تتجمع فيها الامطار وتسير، وقد يجيء السيل من مكانات أخرى، فالمطر كان كثيرا.

- لكن المطر توقف.

واستهجن رجل التعليق:

- يجوز ان المطر توقف هنا، لكنها ربما تمطر في مكان آخر في الصحراء.

وصمت الرجال، وهم موقنون بان السيل توقف، ولكن احدا منهم لم يجرؤ على الهبوط والخوض في المياه.

ونظروا الى المياه السوداء، التي تمور حول أشجارهم، وراقبوا السماء الملبدة بالغيوم والتي ينفذ من فجواتها نور القمر ويضيء كتلة الماء الكبيرة والوادي الأسود الذي يحيط بهم، ثم يختفي الضوء وتغرق الأشياء في السواد.

وظل انتباههم موجها الى الصوت المنحدر من الاعلى، وعلق احدهم مؤكداً:

- انقطع السيل.

وتشكى واحد متوجعاً :

- انني مريض.

وأجابه آخر بصوت أعلى :

- وانا أكثر مرضاً منك.

وعلق ثالث :

- كلنا مرضى.

وارتفع صوت من اعلى الوادي:

- توقف السيل.

ورد الشرطي مؤيداً.

وعلق رجل طالبا تأييد الآخرين لفراسته:

- ألم أقل لكم؟

لكن الرجال لم ينزلوا في المياه المتحركة، واشتد تعلقهم ببيوتهم وبالدفء والطعام، وأخذ اناس يفدون، وانارت السيارات الوادي باضوائها الوهاجة.

وفي الفجر زحف الكثيرون الى الوادي، وكانت المياه قد توقفت عن الجريان، ونزل الرجال من فوق الاشجار وأمسكوا جذوع الاشجار وتمطوا وحركوا أرجلهم، وغمرهم الماء الطيني الى افخاذهم، وأخذوا يسيرون حذرين وبطيئين وهم يخوضون ووصلوا الى منحدر الوادي، ثم مضوا يتسلقون واحداً بعد الآخر، وحين أصبحوا في اعلى الوادي، تمددوا على الأرض، منهكين وجائعين، وحمل الناس الرجال الى السيارات، وانطلقت بهم، وركضت نسوتهم صوب المدينة، ليكن بجانبهم.

وبقي اقارب اصحاب البيتين اللذين محيا، ومجموعة من رجال الشرطة.. ومن الجهة الأخرى هبط محمود، وأخذ الجميع يبحثون عن الجثث التي جرفتها المياه، وكانوا كلما عثروا على جثة رفعوها ووضعوها في الاعلى. واستمر الرجال يخوضون متجهين نحو الاسفل، ووجدوا آخر جثة مطمورة قرب الشاطىء.

ونقلت الجثث الى المدينة، ومن ثم الى المقبرة، وما ان سوي التراب عليها، حتى اختلطت في ذهن محمود صورة المرأة التي سيتزوجها.

واشرقت الشمس في الظهيرة، وبدت الصحراء الممتدة غامقة ومروية. ومن الافق البعيد ظهرت طائرتا هليوكوبتر قادمتين، وحلقتا عاليا، ثم هبطتا في ساحة واسعة وسط المدينة

العربة

دفع عربته الحديدية الصغيرة، وشمس الصباح الحامية تغرق جسده بالعرق، وكان يحس بخيوط باردة على رقبته التي يلامسها الهواء.

توقف أمام بيت كبير، وتقدم من الباب وهو يشعر بدقات قلبه الصاخبة، انفتح الباب وظهرت امرأة شقراء..نظرت الى عربته، ثم اليه، وهزت رأسها داخلة.

كانت هذه المرأة الشقراء حلمه الدائم. لقد رأى نساء الحي كلهن، لكن هذه المرأة وحدها، استطاعت ان تترسخ في ذاكرته، وطالما نظر اليها بتضرع علها تفهم نظراته، لكنها كانت لا تعيره اهتماماً.

انه منذ ثلاث سنوات يعمل جامعا للقمامة في الحي، وهي مهنة احقر من ان تحتقرها، وقد شزرته في باديء الامر بنظرات متفحصة، لتحفظ ملامح وجهه، كرجل مشبوه، يمكن تقديم اوصافه.

انه لا يعرف كيف بدأ ولعه بها، ثم سيطر عليه، لكنه يعلم ان لهفة حياته هي رؤيتها صباح كل يوم.

وأمام الباب الداخلي، سمع صوت ارتطام ثقيل على الأرض وأنها متوجعة. نظر من فوق الحائط، وشاهد القمامة منثورة من فوهة البرميل الصغير والمرأة تستند على الحائط وهي تمسك بأسفل ظهرها. حدق في وجهها المتقلص من الألم، ولم يتجرأ على دفع الباب والتقدم اليها.

وزحفت عجوز من داخل البيت وسألتها :

- ماذا حدث؟

أشارت المرأة الممسكة بأسفل ظهرها، برأسها، وهمست:

- ظهري.

وأرادت ان تعود الى الداخل، ولم تستطع التحرك. وهرعت العجوز الى الباب الأمامي لتطلب نجدة، فتراجع جامع القمامة والتصق بعربته.. مدت العجوز رأسها وشاهدته، لكنها تخطته لتبحث عن رجل آخر، وأحس

جامع القمامة بخدر، اذ ان الطريق كان خالياً، وعادت العجوز تنظر اليه.. ثم نادته.

تساءل مترددا – انا –؟ انا..؟

– تعال ساعدنا.

ترك عربته ودخل خلفها، ونظر الى المرأة الشقراء المتألمة وشاهدها تنظر الى يديه، واحس بوساختهما، فرفعهما ودعكهما بقميصه. ثم سأل العجوز – ماذا افعل؟

قالت العجوز – ساعدها على الدخول الى البيت.

انتظرت المرأة، الرجل، ان يساعدها. ومد جامع القمامة يده بحذر، ولم يستطع ان يحدد اي مكان يسمح له بلمسها منه، ليساعدها. ثم أمسك يدها برقة، وانتظر ان تتحرك، لكنها تأوهت ولم تستطع ان تنقل قدمها خطوة. وقالت:

– لا أستطيع المشي.

واجهته العجوز :

– أسندها بقوة.

ترك يدها، وبتردد، مد يده الى خصرها، ورفع يدها وادارها فوق رقبته وتمسك بها.

تقدمت خطوة، وأحس بنهدها يلامس كتفه، وبعطرها الخفيف ينفذ فيه. كان دائخا، وود لو يدخلها بسرعة. وتقدمتهما العجوز وفتحت باب غرفة النوم، وببطء، دخلا. وكانت أصابعه تلتصق على بطنها، من فوق ثوبها.. وعندما وصلا الى حافة السرير كان عليه ان يفلتها.. ولم تستطع التمدد لوحدها، فأمرته العجوز ان يرفعها..

أحنى جذعه ووضع يداً تحت فخذيها ووضع الأخرى على ظهرها، واستطاع ان يرقدها، وبقي واقفا بجانب السرير يتأملها.

انحنت العجوز عليها، وسحبت ثوبها الذي ارتفع الى ركبتها، ومسحت بكفها المكان الذي كان يمسكها منه، ثم تراجعت ومدت يدها الى جيبها واخرجت درهماً، ناولته له وهي تأمره:

– خذ.

نظر الى الدرهم، ثم الى المرأة التي كانت تراقبهما... تراجع الى الوراء وهو مباغت:

– لا.. لا.

وانطلق مسرعاً الى الخارج.. وأمسك بعربته ودفعها باستقامة. وكانت ضجة عنيفة في رأسه.. المرأة الحلم بين يديه، لقد لمسها وضغط على جسدها، وربما لن يتحقق له ان يلمسها من جديد، الى الأبد.. وهو يدور في وضعه المهان.

وعاد مسرعاً الى مركز تجمع العربات الخالي في ذلك الصباح، دفع عربته وأوقفها في الزاوية، ولم يجب على تساؤلات الموظف، وخرج.

كانت الشمس المحرقة والهواء الساخن، يلفحان كل شيء، ولم يبد على الرجل الذي كان يمشي وسط الطريق انه يحس بأي شيء.

* * *

قصص*

* معظم القصص الآتية تم نشرها في جرائد ومجلات عراقية وعربية وبعضها يمثل البدايات التي ميزت أسلوب خالد الراوي. ويذكر ان قصاصات القصص موجودة في مكتبة القاص، لكن هنالك البعض منها مفقودا. على سبيل المثال، أرسل خالد الراوي ثلاثة قصص من بينها قصة "الموت الأبيض" التي لم يمكن ايجادها الى الأديب العربي ادونيس. ففي رسالة مرسلة الى خالد الراوي من ادونيس، ذكر فيها الآتي: "الأخ خالد الراوي، أعتذر أولا عن تأخري في الكتابة اليك. قصتك "الموت الأبيض" أعجبتني. أتمنى أن ترسل لي قصتين أخريين قصيرتين مثلها لنشر القصص الثلاث معا. تقدير ومودة. أدونيس. 21 آب 1969".

وشهيد يمضي*

دق القصاب بعنف على المنضدة ليخمد الجلبة التي اعتورت جو الغرفة حين دخلها احد الشبان وهو مصفد اليدين، يمسك به اثنان من افراد المقاومة الشعبية. وكان الشاب طويل القامة نبيل التقاطيع رغم تمزق ملابسه ورغم الدماء المتجمدة على صفحتي وجهه. .

أدار الشاب وجهه في الغرفة الواسعة فشاهد زمرة من المقاومة الشعبية يقفون وهم يحملون المدافع الرشاشة في ايديهم وعيونهم تكاد تفترسه.. اما في صدرالغرفة فقد جلس على منضدة صغيرة رجل متجهم الوجه عرفه الشاب حالاً..

انه القصاب. .

اذن فالقصاب سيحاكمه. ثم هز رأسه بلامبالاة..

ودق القصاب ثانية على المنضدة.. فران الصمت الثقيل على الغرفة. ولم يك هنالك الا بصيص من نار يشع من عيون الواقفين. .

وانبعث صوت أجش من القصاب وهو يوجه حديثه الى المسكين الشاب: ما خطب هذا؟.

فبادره أحدهما: انه متآمر يا سيدي..لقد اشترك في الثورة ضدنا.

فقال القصاب للشاب: أصحيح ما يقوله؟.

فلم يجب الشاب، بل انه تطلع الى أفراد المقاومة الشعبية بازدراء.. والذين كانوا بدورهم ينظرون اليه بقسوة ... وصرخ القصاب بغضب: تكلم. ألم تشترك بالثورة؟.

فنكس الشاب رأسه ولم يتكلم. فعاجله احد الواقفين بلطمة شديدة على أم رأسه. .

وشعر الشاب بقواه تتلاشى، واستدار وهو يحاول تخليص يديه من الاغلال وهو ينظر بضراوة الى ضاربه. ولما يئس من عقم محاولته تكلم وقال بصوت عميق: انك جبان يا هذا. .

*** نشرت هذه القصة في جريدة الثورة، 8 آذار 1963، عدد 14.**

وبين لحظة وضحاها تكوم الحاضرون في الغرفة على الشاب وأخذوا يوسعونه ضربا وشتائم مقذعة.. وبسط الشاب راحتي يديه على وجهه ليحميه. .

فهتف القصاب: كفوا ايها الرفاق.. ولنعد الى محاكمة هذا الشخص.. قل لي.. هل انت عربي؟ .

فمسح الشاب خيطاً من الدماء انساب من جانب فمه، ونظر الى القصاب نظرة ثاقبة وقال: نعم.. انا عربي.. وسأظل عربياً..

فدوى المكان بالضحك..

وصاح احدهم يقول:إنني عربي.. ها.. ها.. ها..

فصرخ الشاب: اخرس ايها الكلب. .

فتقدموا اليه، بيد ان القصاب أشار اليهم فتراجعوا. .

ثم قال للشاب: وتؤمن بالقومية؟.

فهتف الشاب: نعم أؤمن بالقومية.. فما تسمية العربي بالعربي اذا لم يؤمن بقوميته؟.

فقال القصاب: حسنا وهل اشتركت بالثورة؟ .

فأجاب الشاب بعد ان هز رأسه: انظر إليّ لاخبرك.. إني أرى مصيري مكشوفا أمام ناظري.. وأعرفه جيدا.. وما دمت قد عرفته فلأقل ما يجيش في خاطري وليكن ما يكون.. نعم انا اشتركت في الثورة ضدكم وضد قاسم ايها المناجيس انكم دنستم ربوعنا.. وملأتموها بشعارات الشعوبية والتحلل والضياع.. ولهذا ثرنا عليكم.. ان عروبتنا أبت علينا ان نظل مكممي الافواه والايادي تجاه أعمالكم.. ونحن نراكم تعيثون في البلاد فساداً.. ولولا الانتكاسة الرهيبة التي منيت بها الثورة لكنتم الآن في خبر كان.. ولكن القدر، ويا لسخريته المريعة، أدار الدوائر علينا في الختام.. فأخذنا نقدم القوافل الطوال من الشهداء.. ولم نفتأ نقدمهم.. ولن نكف عن تقديمهم حتى نراكم ترقدون تحت الأديم بين أحضان الشياطين.

فجأر القصاب وفار كالثور: صه أيها الخائن.

فقال الشاب.. انا لست خائنا. أنا عربي أذب عن حياض امتي.. ومن كانت شيمته هذه فليس هو بخائن.. إنما الخائن من يستوحي مبادئه من تربة غير تربة وطنه. .

فتعالت الضجة بين جوانب الغرفة وهي تنادي بإعدامه. .

فأصمهم القصاب بإشارة من يده ثم قال بتؤدة: ان هذا الشخص خطر علينا.. اصدرت المحكمة حكمها بالاعدام رميا بالرصاص حتى الموت على هذا الشخص.. اخرجوه.. وهاتوا غيره..

واخرجوا الشاب وهو يسير بهدوء ورأسه مرفوع الى الأعلى ينظر الى السماء..

وبعد لحظات شق السكون صوت إطلاقات نارية.. خر على اثرها جسد فتى يتخبط بدمائه..

* * *

أرض الموت*

فتل شاربه..ثم مسح عليه برفق ومسده بأناة... وانبعث صوته بارداً يدل على السأم الممض.

إن رأسي يكاد ينفجر من الألم.. فهل تعرفون أيها الرفاق وسيلة أسري بها عن نفسي. .

وانبرت الزمرة تبدي اقتراحاتها. .

بيد انه قال لهم.. كل هذه المقترحات لا تجدي فتيلاً لما يدور في داخلي من سأم..

فبادره شاب قميء زري المنظر. .

أنا أعرف طريقة تدخل المرح والسرور الى قلبك. .

فقال له: هاتها.. كيف؟

فأجابه القميء: لن أتحدث اليك بالتفاصيل.. هيا قم معي.. وأنتم يا رفاق اتبعونا ...

وخرجوا جميعاً من الغرفة..

وانعطف القميء في احد دهاليز السجن.. وتوقف أمام أحد الزنزانات ومد رأسه يتطلع من الكوة الصغيرة.. ثم التفت الى رفاقه وقال لهم..

قيدوا الشاب الموجود في هذه الزنزانة واجلبوه لي..

فأولج احدهم مفتاحا في الباب.. وصر الباب وهو ينفتح..

وما هي الا لحظات حتى خرج الجميع وبينهم شاب مربوع القامة قوي العضلات مصفد اليدين..

وهنا التفت الرئيس الى القميء وقال له: وماذا بعد هذا..

فرد القميء: لا عليك..اتبعوني..

وخرج بهم من السجن الى الطريق.. ثم فتح باب سيارة شحن مكشوفة ودلف وتبعه الرئيس ثم السائق.. بينما دفع الآخرون بالشاب المقيد الى ظهر

*** نشرت هذه القصة اول مرة في جريدة العرب، 20 آذار 1963.**

السيارة وصعدوا معه..وأشارالقميء الى السائق ان يذهب بهم الى (الدملماجة..).

وانطلقت بهم السيارة وهي تصدر القرقعات والضجيج.. ثم خفت الضجة وتوقف المحرك.. فنزل الجميع من السيارة.. وانصبت نظراتهم جميعا على القميء. .

فقال لهم: اراكم في لهفة.. حسنا لا تتعجلوا.. هل لديكم معول..

فأجابه احدهم: وأي شيء تفعل بالمعول.. أتنوي ان تقتل به؟.. هذه طريقة غير مجدية.. دعني اضربه بالرصاص. .

فصرخ به القميء: كلا.. لا تضربه بالرصاص، وكل ما عليك هو ان تأتي الي بمعول..

وانسل الشاب من الجمع وذهب الى السيارة فاخرج منها معولا أعطاه للقميء. .

وقال القميء: فكوا وثاقه. .

وتحررت يد المربوع.. ثم ناوله القميء المعول وقال له. .

احفر..هيا احفر بسرعة..وارتفعت يد المربوع بالمعول وضربه بالأرض ضربة يائسة ... وضربة تتلو ضربة حتى اكتملت الحفرة.. وتقدم إليه القميء غاضبا.. بيد ان الشاب أخذ يقاومهم بيديه الواهنتين.. وسرعان ما أصبح ورقة هابة في الريح بين ايادي الرفاق.. ثم تناقلوه بينهم وقذفوا به الى الحفرة، وأخذوا يهيلون عليه التراب بسرعة.. حتى لم يبق سوى رأسه فوق الثرى. .

وقال له احدهم: هه أيها المتآمر.. ما هو شعورك الآن؟ .

فقال لهم: إني آمنت بالله وتوكلت عليه. فتعالت ضحكاتهم تقطر بالسموم وابتدره القميء مقهقهاً:.. هه.. ومن هو الله.. ها.. ها ... ها...

فأجابه: من الطبيعي ان تستهزىء بالله.. وليس هذا غريباً ما دمت شيوعياً دنساً لا تؤمن بالدين ولا بالعروبة...

فتقدم منهم رئيسهم وركله بقسوة على رأسه..

ثم قال له: إن لسانك يا هذا لطويل.. تعال يا كاظم واقطعه..

فتقدم كاظم وجثا على ركبتيه ثم اخرج سكينا حادة.. فحدق به المدفون برعب. .

بيد انه لما رأى العزم والتصميم في وجه الرفاق صرخ قائلا: لا.. لا تقطع لساني قبل ان اقول كلمة.. انكم ستذبحونني لكنكم لن تقدروا على ذبح الشعب كله.. انكم ستذبحونني وسيضيع دمي هدراً في هذا الوقت.. لكن لا تنسوا ان هناك يوما ستنالون فيه العقاب على ما فعلتم..

فانقض الجميع على الرأس الخارج من الأرض وأخذوا يكيلون له الضربات.. حتى ارتخى الرأس..

فصاح أحدهم: لقد فقد وعيه.. هيا لنقطع لسانه..

ثم فتحوا فكيه واخرجوا لسانه..

وفي هذه اللحظة فتح المدفون عينيه بقوة..

بيد ان كاظم حز اللسان بسرعة.. وانبثق الدم ينفجر من فم المدفون ..

وقال الرئيس للمدفون: ان لسانك هو الذي اوصلك الى هذا المصير.. وكان من الخير لك ولنا قطعه. .

ثم تقدم القميء وقال: لننهِ المسرحية.. وتناول السكين من كاظم.. واقترب من الرأس الذي تحوطه الدماء.. وبحركة مباغتة ادخل السكين في العين اليسرى للمدفون فاقتلعها وتفجر ينبوع آخر من الدماء.. ثم أنزل السكين الى تحت العين وحز بسرعة لحم الخد الايسر.. ثم تحول الى الخد الايمن وكشط لحمه.. ثم رفع السكين وأهوى بها على رأس المدفون.. فأخذ الجميع يقهقهون بفرح جنوني وهم يشاهدون خيطاً أبيض ينساب من رأس المدفون..

وقال القميء: هذا يكفي فلنذهب الآن نترك الرأس للغربان تنهشها.. ثم مسح السكين بشعر المدفون. .

ومضى الجميع والسرور الوحشي يدغدغ أعماقهم.

* * *

عربدة الجروح*

كان كل شيء ينذر وينبيء بالتمرد.. فالسماء ملبدة بالغيوم الداكنة.. والغبار يئز في عواصفه على المدينة.. ووجوه الناس تغدو وتجيء وهي عابسة مكفهرة ولا تبدو فيها حركة خلا التماع الأعين. .

وفي احدى المقاهي الصغيرة كان يجلس شابان يتحدثان عن الأمور السريعة المفاجئة التي حدثت أخيراً..

فقال الاول: حقا ان رفع اسعار البنزين ليعد لطمة لسائقي السيارات..

فقال الثاني: هذا أمر لا ريب فيه.. فأنت تعلم ان هؤلاء السواق جلهم من الفقراء المدقعين الذين لا يملكون شيئا والذين يقع على عاتقهم اعاشة عوائل كبيرة.. فاذا ما رفع سعر البنزين ستقل مواردهم حتماً.. وبهذا تسيطر الحكومة عليهم وتسيرهم وفق رغائبها.. لان الفقر يجعل المرء ذليلاً ان لم يؤمن بمبدأ او عقيدة..

فهز الأول رأسه وقال بصوت خافت: إيه.. إيه إني أرى بعين خيالي العواصف تهب، وأرى الغليان قد وصل الى أقصى مراحله.. فالانفجار لا بدّ آتٍ.. والله وحده يعلم ما سيحدث واين سترسو السفينة. .

ثم انهمكا في حديثهما.. وعلى حين غرة باغتهما صوت عميق: السلام عليكم..

فقالا: وعليكم السلام.

كان القادم شابا مربوع القامة مهيب المنظر.. وسرعان ما قال: هلم يا مؤيد فلدي كلمة أود ان اقولها لك.. ونظر الى الشاب الآخر مستأذنا. فنهض مؤيد وسار معه الى زاوية المقهى. .

وهمس الشاب المربوع في اذن مؤيد: غداً صباحاً.. عليك ان تذهب الى الساحة المقابلة لجامع الأمام الاعظم، فهنالك ستجري مظاهرة لقسر الحكومة الخائنة على ان تتراجع عن رفع اسعار البنزين وستكون المظاهرة قوية.. لان الغبن الذي لقيه الشعب منذ امد طويل آن له ان يزول ويندثر. .

*** نشرت هذه القصة في جريدة الثورة، 27 آذار 1963.**

فقال مؤيد: حسنا سأكون هناك وسأجلب مسدسي معي. .

فأجابه المربوع: حسنا اني ذاهب لأبلغ الآخرين.. لا أرى حاجة لتوصيتك بان تبلغ كل من تراه من الصحاب.. مع السلامة.

فأجابه مؤيد: مع السلامة..

ورجع مؤيد الى صاحبه وهو يفكر فيما سيحدث غدا.. وأشار الى صاحبه وقال له: هيا نخرج من هنا علنا نستطيع مساعدتهم في لصق المناشير او ما اشبه..

وخرجا من المقهى الصغيرة، وكانت الشمس قد بدأت تتكون وتتضاءل، والظلام الأسود بدأ يزحف الهوينا.. وحين أخذا يذرعان الشوارع شاهدا مجاميع متعددة من الشباب تقف في منعطفات الشوارع هنا وهناك.. وكانوا متحفزين تطل العزيمة من عيونهم.. وكانت أعمدة النور وحيطان الدور مليئة بالمناشير التي تحرض الناس على الاضراب العام..

ثم انصرف الاثنان وتعاهدا على اللقاء في الغد..

انصرف مؤيد يسير الهوينا الى منزله وهو يحس قرعا في اعماقه ويحس بكيانه يختلج، عندما تراءت له في مخيلته صورة المظاهرة..

وحين رقد في فراشه كانت الهواجس تنتابه والأحلام تتراءى له.. فقد حلم بانهم سوف يكتسحون قوات الانضباط العسكري والامن حين يحاولون صدهم ومنعهم من تقدمهم.. وانهم سوف يمضون قدما الى الدفاع ويسمعون أصواتهم لقاسم. .

وأخذ مؤيد يتقلب في فراشه والكرى لا يدنو منه..

وحين انبلج الصباح هب مؤيد من فراشه تنتفض في بدنه القوة ويشيع في كيانه النشاط..

التقط ملابسه من المشجب وارتداها بسرعة.. واخرج المسدس من تحت الوسادة ووضع فيه الرصاص ثم خبأه تحت ثوبه يسنده الحزام.. وخرج بمهل من غرفته.

وتطلع الى الممر فلم يجد احداً من اهله فيه.. فتنفس الصعداء ودرج بخفة وخرج من الباب.. وفاجأه نور الشمس الوهاج.. وحين خطا في

الشارع رأى عددا من الشباب يغذون الخطى مسرعين الى جهة الجامع.. فتبعهم وهو ينظر الى الشوارع وقد أغلقت مخارجها بسدود واطئة من الحجارة لتمنع تقدم السيارات وسيرانها حتى يعم الاضراب ويجتاح المدينة بكافة مرافقها. .

ثم انعطف الى الشارع العام.. كانت المحال مغلقة والشارع الطويل صامتا من حركة السيارات خلا بضع سيارات تابعة للجيش تمر بسرعة هائلة. .

ومن بعيد شاهد عشرات الشباب وكل منهم يقف في جهة ويتشاغل مع زميل له بحديث وكلام.. وصل اليهم وانضم الى أحد اصدقائه وأخذ ينظر الى مركز الشرطة الذي يواجه الساحة التي يقفون فيها.. ورأى على سطح البناية عددا من افراد الشرطة والأمن ينظرون اليهم. .

واستمر تقاطر الشباب من جميع الانحاء..

وبغتة هتف احد الشباب بأعلى صوته منددا بالسلطات.. فتحرك الواقفون والتحموا وعلا هتافهم ... وتقدم ضابط وبضعة جنود وأمسكوا بالهاتف المحرض.. بيد ان الشباب انتزعوه من ايديهم وراحوا يهتفون بملء حناجرهم. وأشار الضابط الى جنوده فهجموا على المتظاهرين يوسعونهم ضربا بالهراوات.. فرد عليهم المتظاهرون الضرب بالمثل.. فانسحب الضابط يحف به جنوده الى داخل المركز وأمسكوا في طريقهم بعدة شباب. .

وفي لحظات معدودة دوى الرصاص من اعلى بناية مركز الشرطة ... فتناثر كثير من الشباب يلوذون باذيال الفرار.. وانسحب الآخرون الى اماكن ترد عنهم غائلة الرصاص.. واخرجوا اسلحتهم وأخذوا يبادلون الشرطة الرصاص. .

كان افراد الشرطة يختبئون خلف الحائط ويخرجون بنادقهم مخصوصة فيه.. والمتظاهرون يقفون في اماكن شبه مكشوفة.. وسقط بضعة شباب والدماء تتطاير من جراحهم. .

وتسلل شاب من المتظاهرين الى سيارة عسكرية واشعل فيها النيران.. فتعالى اللهب في الفضاء.. وحمى سعير المعركة.. واشتدت أصوات الرصاص. .

وفجأة صرخ احد الواقفين: مؤيد.. مؤيد.. ارجع بسرعة.. ارجع.

وكان مؤيد قد اندفع الى جهة المركز وجثا خلف قطعة حديدية كبيرة وأخذ يطلق رصاصه على المركز. وفي هذه الأونة.. حجبت الشمس غمامة داكنة كبيرة.. وتعالت في الفضاء صرخات امرأة متوجعة. .

كان مؤيد راقداً على الثرى وجرح كبير في عنقه تتدفق منه الدماء وتسيل على الأرض فتصبغها باللون الأحمر..

* * *

عندما تنطفىء الأنوار*

كوريقات صفر اقتطفها بفظاظة عصفة ريح في نهار خريفي ممض ... نفخ الحارس الليلي في صفارته.. تعالى الصفير الاجش من تلك الصفارة الحديدية الصغيرة.. وحين ابتلع الصدى الرنين المتتابع.. اتت الى اسماع الرجل الهرم أصوات صفارات تنطلق من مناطق بعيدة ... حينذاك زم شفتيه برضا.. ومضى يجوب الحي على دراجته الهوائية... وعجلات دراجته تدور ببطء.. ولا يسمع لها في الشوارع المظلمة الساكنة اي صوت...

ان نظراته لم تفقد حدتها.. رغم انه لا يعرف سني عمره.. انها تنطلق كوخزات ابرة الماكنة.. تكتسح البيوت.. ولا تقف عند شيء.. فالاشجار التي تهزها الريح فتجعل ظلالها ترتعش، لم تعد تثير اهتمامه.. هو خبر كل الامور المتعلقة بعمله.. لذلك يعرف حركات اللصوص.. وقد نال شكر المسؤولين في دائرة الشرطة ورفعت رتبته الى رئيس عرفاء. ومع ان البندقية التي يحرص على ان يضعها على ظهره بشكل خاص من مخلفات الحرب العالمية الاولى الا انها كثيرا ما اصابت.. وافضل مكان لديه هو الساق.. لم يخطىء ابدا الاصابة في الساق .. كلا ... فمن العار عليه وقد اقسم منذ امد بعيد على الا يقتل إنسانا ولو كان لصا.. ولكنه كان يكره اللصوص.. ابناء الليل.. لذلك لم يترك واحدا منهم يهرب بغنيمته الا نادرا.

كان الحارس قد وصل الى نهاية الشارع، وحين رجع ثانية، كان البيت الوحيد المضاء قد انطفأت انواره.. ان عمله يتضاعف حين تنطفىء انوار كل المنازل.. والمسؤولية تثقل عليه.. ويحس مع كل خطوة جديدة ان أصابعه.. والزناد.. والمنازل.. واللصوص.. هي محوره ...انه يحيا في الليل وينام في النهار.. فهو ابدا يتحرق الى لص.. اجل.. قد مر عليه مئات اللصوص.. أمسك بعضهم واصاب بعضا..

*** نشرت هذه القصة في جريدة الجامعة ، 1964/10/24، عدد 6.**

وشاهد بعضهم في دائرة الشرطة.. الذي يعيش في الظلام يرى جيدا ذلك الذي يعيش في النور. لذا فهو يعرفهم من اول نظرة. وغالبا ما أمسك بعضهم وهم يجوبون الحي.. ومن كانت هذه اوصافه فلا بد ان ينتشر خبره في المجتمع الذي يعيش فيه.. وكثيرا ما سمع اللصوص يحدثون بعضهم في السجون عن حكاياته الفذة..وقد حدث أربع اوخمس مرات ان حاول اللصوص قتله...الا انه نجا بأعاجيب ولم يصب الا بجروح ظلت اثارها الى هذا الوقت.. وهويكشف موضعها حين ينغمس في الحديث عن ذكرياته ويتحدث عن الأيام المرة التي قضاها في المستشفى بعيدا عن الشوارع التي الفها واحبها من اعماقه.. ولا ينسى مطلقا ان يعقب على حديثه.. ان اللصوص حين فشلوا في مساعيهم تلك.. حاولوا اغراءه بالمال ليغض عنهم النظر وعرضوا عليه مبلغا كبيرا.. الا انه أمسك رسولهم وقاده الى دائرة الشرطة..

ومن بعيد سمع ساعة الجامع الكبيرة.. تقرع اجراسها لمولد الساعة الرابعة.. وانفجرت في الجهة الشمالية الشرقية رقعة باهتة من الضوء.. وكمولد عالم جديد.. يأتي الضجيج وئيدا.. فتثقل حركات الحارس.. وحين تبدأ السيارات تترى والناس يفتحون أبواب بيوتهم وشبابيكهم.. ويكون الضوء وضاحا قويا.. يلقي الحارس نظرته الأخيرة.. ويستدير راجعا الى دائرة الشرطة.. ليعطيهم بندقيته ... ويوقع في السجل ان لا حادث وقع.. ليذهب الى بيته وينام.. وهو على موعد مع الغروب.. كيما يعود..

* * *

القلعة*

كان الهدوء المخيم على تلك القرية الصغيرة الهاجعة على سفح جبل.. ومن جبال عمان.. هدوءا غريبا.. صمتا عميقا.. ومن اعلى.. كان بيت كبير ... قلعة.. تنتصب فوق البيوت بناها الانكليز لرجلهم الموكل بمراقبة الطرق.. للابلاغ عما يحدث ويريب ...

كان العميل القصير واقفا على سطح داره وبيده المنظار المكبر يجوس بانظاره البيوت.. والطرق البعيدة. .

اين الناس.. همس العميل.. ما بال القرية هاجعة بصمت..هذي الديار لم يمسها الخراب بعد.. فأين الناس.. يا ترى هل يتكتمون امرا لا اريد ان أعرفه.. حسنا.. ساهبط بنفسي.. لاسترق النظر من وراء الأبواب..

وحين شرع يهبط السلالم ... صاحت زوجته.. اين انت ذاهب. .

فقال – سأعود عما قريب – دعي انتباهك متحفزا..

وحين فتح باب القلعة.. لفحه الهواء السريع.. فلم عباءته جيدا على جسده المترهل.. وشرع يخطو بتمهل.. نحو القرية.. وحين اضحى في دروبها الضيقة.. ترك خطاه تتحرك ببطء.. ومن فتحة باب رمق رجالا كثيرين.. جلوسا.. متقاربين.. يهمسون.. فحاذى الباب.. واصاغ سمعه.. كانت الصيحات المتمردة.. تنفثيء من صدورهم.. ترمي كل شرارتهم المتقدة.

وصرخ العميل.. يا الله.. انهم يتآمرون. .

وجمع قوته ليخطو بسرعة فرمقه احدهم.. وصاح. .

*** نشرت هذه القصة في جريدة الجامعة ، 1964/10/24، عدد 6.**

لقد افتضح امرنا.. سيعطي أشارات للأنكليز باللاسلكي..

وصرخ اخر.. المجرم.. الجبان.. وقفز راكضا عبر الباب..

وحين التفت العميل.. وشاهد الرجل راكضا نحوه.. أطلق ساقيه للرياح.. بيد ان الرجل كان أسرع عدوا منه.. فقاربه وصرخ..

ايها السافل.. اتبيع اخوانك للانكليز..

فصرخ العميل.. صه.. ايها الراعي.. فلطمه الرجل بجمع يده..

ترنح العميل.. فاعقبه الرجل بضربة اشد منها ... فتدحرج العميل على الصخور الناتئة ... ونهض العميل ينفض ثيابه وهو يتوعد الرجل العماني..

حسنا.. ستلقى مصيرك ايها التعس...

فقال له صمتا ايها.. ولم يكمل كلامه.. اذ طرقت اسماعه صرخات زوجة العميل.. فالتفت فالفاها واقفة على سطح القلعة.. وسمعها تهيب بزوجها..

هيا هلم.. لقد أعطيت إشارة الى الانكليز ليبعثوا قواتهم..

فالتفت الرجل ناحيتها وبصق في الهواء تجاهها.... ثم اقترب من الزوج ... وطوق عنقه بكفيه.. وهو يقول ...

ستلقى مصير الخونة.. وان شئت فأعلم ان الرجال هنا اجتمعوا.. ولن ترهبهم كل قوات بريطانيا.. ولكنك لن تنعم بايصال الخبر الى اسيادك.. ايها الخائن..

واستل خنجره .... وبلحظة غامرة اغمد النصل كله في صدرالعميل... وانطلقت صرخة مبحوحة من العميل.. وتداعى الى الأرض..

وخرج الرجال على أصوات الصراخ والضجيج.. وشاهدوا صاحبهم يمسح خنجره.. ويدخله الى غمده.. فالتفوا حوله.. وصاح رئيسهم..

حسنا فعلت.. فقد قررنا التخلص منه منذ وقت بعيد..

فقال لهم الرجل.. احذروا فان القوات الانكليزية تتقدم الينا..

فصاح واحد.. ها قد جاءت الساعة.. وابتدأ الجهاد.. ارجعوا الى المنازل.. وليأخذ كل منكم ما يلزمه من طعام.. وذخائر.. الى اعلى الجبل.

واندفع الرجال كل من دربه.. مسرعا.. ثم عادوا ثانية.. يصعدون الجبل. .

حين وصلوا الى الشعاب المتفق عليها.. اتخذ كل منهم مكمنه.. ومن بعيد.. تناهت الى اسماعهم.. السيارات الهادرة ... تنحو اتجاههم.. فصرخ احدهم. .

سنجعلهم يعرفون جيدا.. اي شعب عربي نحن..

* * *

الفرسان*

الرمال تتوهج وتتطاير.. الريح تعصف.. والخيام تهتز.. وخارج خيمة ترابية اللون وقف رجل طويل أسمر البشرة يلبس عقالاً رفيعاً وغترته ملفوفة على فمه.. وقصيرته تتطاير في الهواء.. شاهد فتاة خارجة من خيمة أخرى.. فتقدم منها.. كان اسمه محمد.. واسمها نسمة.. هي ابنة عمه.. يحبها وتحبه.. أراد أن يتزوجها.. فلم يعطها أبوها وأخوتها.. أجفلت وقالت في فزع: ماذا تريد يا محمد؟. أسرع وإلا شاهدنا أخوتي.. فقال محمد.. (أنشد الرحال من هذا المكان.. ونذهب إلى حيث الطمأنينة والأمان.. وشعت في عينيها نظرة.. مادام أخوتها يأبون زواجهما.. لماذا لا تهرب معه فينعمان بحبهما بعيداً عن العشيرة؟. وارتسمت خناجر في فكرها فهزت رأسها بيأس بينما عاد محمد يهمس من جديد ماذا ترين؟. فقالت بحزن وتسليم.. الرأي رأيك.. فقال محمد.. سنهرب عند انتصاف الليل.. فكوني على أهبة.. وتركها الشوق يضوع من عينيه لايلوي على شيء.. ونسمة أمام خيمتها تنظر إليه بشغف وحنان..

انعطف محمد إلى طريق جانبي ودخل خيمة واسعة.. وصاح.. أماه.. أين أنت يا أماه.. فأجابته.. أي بني.. ماذا تريد؟. فقال: أعدي طعاماً فسأسافر الليلة.. إلى مكان أقصى.. وحين صمتت أمه تمدد على أحد الأبسطة وراح يفكر.. ونهض فجأة من مكانه.. فأخرج سيفه من غمده.. وأخذ يمر طرف إبهامه على حده.. وهز رأسه قائلاً: إنه والنار سواء.. وأرجعه إلى غمده.. وحين حلت الساعة خرج محمد من الخيمة فحل رباط الجمل ووضع عليه خرجه الذي يحوي متاعه.. ومشى قائداً الجمل، وحصانه ينتقل خلفه.. وشاهد محمد شبحاً أسود.. فدق قلبه.. وحين دنا من الشبح قال بهمس.. إنها هي.. وهتفت نسمة بقلق: هيا أسرع.. فركب على الجمل وأردفها خلفه..

*** نشرت هذه القصة في جريدة الثورة العربية، 1964/10/28. يذكر القاص بأن هذه القصة هي من الحكايات الحقيقية التي يتداولها العرب البدو في مسامراتهم والتي تتناول موضوع الحب والغدر والولاء للقبيلة. (المحرر)**

كانت النجوم تتلألأ في السماء.. والريح تهب باردة تبعث النشوة في الأوصال.. والقمر يرسل أشعته الفضية..

والتفت محمد إلى الوراء.. فشاهد خيام العشيرة تغوص في الأفق فقال: في أمان الله يا عشيرتي.. الحياة قصيرة وحبنا كبير.. فلماذا يريدون إطفاء وهج حبنا لماذا..

كان السكون مخيماً على الصحراء الواسعة.. وكان الجمل يرفع رجله ويهوي بالأخرى.. واشتد البرد.. فالتصقت نسمة بمحمد..وقطعت رحلة الصمت نسمة.. وماذا لو طاردنا اخوتي؟. أنت تعلم أنهم فرسان شجعان.. فغماس أشهر فارس في ربوعنا..و.. فقال محمد.. بالله عليك.. دعينا من هذه الأفكار الموجعة.. فأنا فارس وهم فرسان.. وعلى كل حال.. سأطلب الحماية من الشيخ حردان.. ورفع رأسه إلى السماء وقال.. إننا في منتصف الليل.. وعلى وجه الصباح نكون وصلنا إلى عشيرة الشيخ حردان.. وسمع محمد أصوات ركض بعيدة فأشرقت عيناه.. وجمد مكانه ساحباً سيفه من غمده.. واقترب منه الفارس.. وقفز من حصانه.. كان القادم طويل القامة عريض الكتفين أسود البشرة.. إنني فداء لك يا سيدي.. هتف العبد شعلان.. فقال محمد.. ما الذي أتى بك؟. فأجابه.. خشيت أن يصيبك مكروه فتبعتك.. فقال محمد.. هلمّ بنا.. وقفزا إلى جمليهما.. وغمزا الجملين فأسرعا.. وبدأ الظلام ينجلي.. وخيوط ذهبية تلتمع في الأفق.. ومن بعيد جداً لاحت بيوت عشيرة الشيخ حردان.. وازدادوا اقتراباً.. وحين وصلوا دخلوا راجلين في المنطقة.. وشاهدوا الشيخ حردان واقفاً.. فذهب إليه محمد وحياه.. فرد تحيته.. وبعد تفرس خاطف من الشيخ قال.. ماذا تريد يا ولدي؟. فقال محمد.. مستجير بكم.. أطلب حماية.. فهتف الشيخ.. حللتم أهلاً.. ووطأتم سهلاً.. أنتم في حمايتي.. وصاح على رجل.. أعطهم البيت الذي يقع جانب بيتي.. فشكره محمد.. وتبع الرجل هو وعبده وخلفهما نسمة.. وجلس الثلاثة في الداخل يتكلمون.. ويمضغون الطعام الذي وافاهم به رجال الشيخ..

ومرت الأيام.. كومضات البرق.. وانقضت ثلاث سنين ونسمة لم تنجب.. كان هذا يحز في نفسها.. وهي تتمنى لزوجها ولداً.. فأخذت تنصح زوجها بالزواج من إحدى فتيات عشيرة الشيخ حردان.. بيد أن محمد رفض

طلبها.. ألحفت عليه بالرجاء.. فتزوج محمد إحدى الفتيات الجميلات.. كانت هذه الفتاة أجمل من نسمة.. بيد أن حب نسمة كان راسخاً في قلب محمد..

وحملت الفتاة.. وبعد تسعة أشهر وضعت طفلاً جميلاً أسماه والده- بلال- وبعد ولادة بلال بشهرين.. همس محمد بأذن نسمة أثيري منازعة مع تلك الفتاة.. وسأقسم أن أفرقكما في منزلين.. فقالت له: حسناً.. وفي ليلة ارتفع الصراخ.. وتدخل محمد مقسماً.. كان الشيخ قد حضر على أثر الصراخ.. فقال وهو يبتسم بمكر: أجل.. ارم تلك الكلبة في منزل وحدها.. مشيراً إلى نسمة..

وحملت نسمة أمتعتها ومضت إلى بيت آخر.. وحدث أن ترك محمد العشيرة ماضياً إلى إحدى العشائر لأعمال تخصه..

وفي منتصف الليل تقدم شبح أسود ملتفاً بعباءة إلى كوخ نسمة.. ودق الباب.. فخرجت إليه امرأة عجوز أسكنها محمد مع نسمة.. ولما شاهدت الطارق قالت: أهلاً بك يا سيدي الشيخ.. ماذا تأمر؟. فقال الشيخ مدّ رأيت نسمة.. وأحشائي تثور.. والآن أريد أن أجامعها.. فارتعشت أهداب العجوز.. وقالت: ولكن اليوم محيضها.. فقال الشيخ.. ذلك من سوء الحظ.. وانصرف يلوم المحيض.. واندفعت العجوز إلى فراش نسمة تهزها.. فاستفاقت من نومها فحكت لها العجوز عن مجيء الشيخ.. فتمرغ الذعر في عينيها.. ومضت إلى جانب من البيت وجمعت كمية من الرماد ووضعتها في كيس وناولته للعبد بعد أن أنهضته من نومه.. وقالت له: اذهب بها في التو إلى محمد.. وبكل سرعة.. وركب العبد واختفى عن ناظري نسمة.. وغذ العبد في المسير.. حتى وصل منازل العشيرة التي قصدها محمد.. ووجد بدوياً دله على مكان محمد.. طرق العبد الباب.. فانفتح نصف انفتاحة وصوت يقول: من أنت.. وماذا تريد؟. فقال: أنا شعلان عبد محمد.. أريد رؤيته الآن.. فقال الصوت: إنه نائم.. فهتف شعلان: أيقظه.. وأتى محمد.. فأعطاه عبده الكيس.. ولما فتحه شاهد الرماد.. وأخذ ينظر إلى وجه عبده متفكراً.. وبغتة كر إلى الداخل مودعاً القوم.. وفك جواده من المعلف وركبه.. لكز محمد جواده بقوة.. فانطلق يسابق الريح.. والعبد وراءه يحاول اللحاق به..

ومع إشعاعات الشمس الأول.. دخل محمد بيوت العشيرة.. وربط الجواد قرب باب نسمة.. ودخل عليها.. فحكت له الحكاية.. فوجم محمد وصرخ: يا للخائن.. أطبق فاه.. ثم خرج وذهب إلى منزل أم بلال.. فألفاها نائمة وبجانبها بلال.. وانحنى محمد على بلال وحمله بين يديه وخرج إلى منزل نسمة وقال لها: أسرعي واحملي الحاجيات الغاليات.. وبعد دقائق أردفها خلفه.. وخرجا من بيوت العشيرة يتبعهما العبد..

طوحت أم بلال يدها حولها فوجدت فراش بلال خالياً فهبت جزعة صارخة.. وركضت إلى بيت نسمة فوجدته فارغاً.. فوقفت في الطريق تصرخ.. وتجمع على صوت صراخها كل من سمعه وفي مقدمتهم الشيخ.. وقالت لهم أم بلال وهي تضرب رأسها إن نسمة وزوجها محمد سرقا ابنها بلال وهربا.. فأمر الشيخ رجاله أن يجلبوا أسلحتهم.. فتفرق الجمع وعادوا بعد قليل.. وابتدأت عملية المطاردة.. محمد وزوجته والعبد لا يبدون في الأفق.. والشيخ ورجاله ابتدأوا المطاردة.. قال الشيخ لأعوانه: لنتفرق في الأرجاء وكل يبحث في رجاء.. وانفرد الشيخ بعشرة من أعوانه.. وبدا بعد إجهاد لأعينهم محمد ورفيقاه في الأفق البعيد.. فساورهم الأمل في اللحاق به.. فأهمزوا حصنهم فركضت كالشهب المارقة.. والتفت محمد فرآهم فقال لأمراته:هاك بلال احفظيه.. وقال لعبده.. هيا يا شعلان لننتظى سيفينا.. وما هي إلا برهة حتى أطبق الشيخ برجاله على محمد وعبده.. ودارت معركة طاحنة.. صال فيها محمد وأسقط من رجال الشيخ ستة وعبده أسقط ثلاثة.. وعندما رأى الشيخ ذلك استدار وولى الأدبار وهو يصرخ.. سآتيك بجيش جرار.. ففقهقه محمد ضاحكاً.. وعاد للمسير قائلاً لزوجته: لقد ابتلينا بهذا الشيخ الأحمق.. ولا أرى خلاصاً لنا إلا الرجوع إلى عشيرتنا.. فتفكرت نسمة قليلاً وقالت: الإنسان يموت مرة واحدة.. هيا لنذهب.. فهمس محمد بأذن نسمة: لكل شيء نهاية.. فإنْ أراد الله موتنا فسنموت.. وإنْ لم يردْ فسنحيا " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".. ولم يتبق على منازل العشيرة إلا ثلاثة أميال.. شاهدوا خربة على جانب الطريق.. فقال محمد: هيا ندخل هذه الخربة.. عسى الله يفرج الأمر.. فنزل ثلاثتهم ودخلوا إلى الخربة وشدوا رواحلهم في الداخل.. وعندما جلسوا التقط محمد من خرجه طعاماً

جعلوا يبلعونه بنهم وشراهة.. وأردف محمد يده في الخرج وتناول ربابة جعل يمرر يده عليها.

وفي الخارج تسللت أشباح تروم الخربة.. كانوا أخوة نسمة قد علموا بقدومهم من بعض الرعاة.. وكانوا يتأبطون سيوفهم يريدون قتلهم.. وجمدوا في أماكنهم عندما تناهى صوت محمد مع أنغام الربابة من الداخل يحكى قصة ظلمه من أبناء عمه وهربه مع محبوبته نسمة والتجائهم إلى الشيخ حردان.. وزواجهم هناك.. ثم بيان نية الشيخ الرديئة.. فهربهم ولحاق الشيخ لهم.. كان الصوت متهدجاً مثقلاً بالأسى.. وترقرقت الدمعات في مآقي أعين أولاد عمه.. وصاح كبيرهم وهو يرتجف انفعالاً.. أنا معك يا محمد.. وردد أخوته نداءه فكف محمد عن العزف.. وخيل إليه أنه يسمع أوهاماً.. وارتعدت الفتاة وقالت: إنهم أخوتي يا محمد.. أخوتي.. وبرز على الباب أخوتها وأعينهم كسيرة.. وسادت سكينة مؤثرة على المكان.. وطرق أسماعهم وقع حوافر جياد.. فانتفض محمد واقفاً وقال.. لقد أتوا.. فضحك ابن عمه الكبير وقال: أهلاً بهم.. ستريهم سيوفنا أنواع الترحيب.. وأنت يا نسمة اركبي دابتك واذهبي إلى أمك ثم أخبري القوم بما يجري.. واشتبك الفرسان.. فرسان الشيخ الذي يربو عددهم على الخمسين فارساً وفرسان العشيرة وهم أحد عشر فارساً.. وعلا الغبار.. وارتفعت الصرخات.. وانجلى عن نصف فرسان الشيخ على من هو بين ميت وجريح.. ومن تبقى منهم هرب.. وتفقد محمد جماعته فشاهد ثلاثة من أبناء عمه جرحى، فحملوهم.. وعادوا إلى القبيلة.. يتحدثون بمجامع قلوبهم عما جرى لهم في السنين الثلاث الماضية..

* * *

الطين*

الوهم المحشو بالرجفة ينزلق في الجمجمة.. القدمان تعدوان صوب الضفة الطينية بوله.. كانت الفتاة ترفع ساقيها بسعادة بوهيمية وهي تمسك بالحبل الليفي المجدول بكف وتلمم شظايا بالكف المتحرر.. تلكأ على باب حديقتها.. مد رقبته الحمراء.. تركت نظرها ينحدر صوب الباب. .

هتف.. من هناك.

دفع جثته متقدما.. كالاسير الجبان.. دفن وجهه في الأرض.. نزلت بغطرسة تهز سوطا بيدها.. الهبت جسده.. لم ينبس بلفظة ولم تلد لحنجرته آهة.. قذفت السوط..

صاحت.. الآن هيا.. رفع نظرة.. كانت فاتحة يديها مهيئة شفتيها.. انقض عليها. سقطا في التراب.

انحدر زنبور أسود كان واقفا على عشبة صفراء طويلة.. لدغ الرجل.. ارتفع في الجو وانغرز في الطين.

جاء ابو الفتاة يحمل طبقا لابنته المعززة.. كان ظهرها ملطخا بالطين.. والرجل يجرف الوحل من فوق فخذه..فغر فاه.. أنزل الطبق بروية فوق قطعة حجر.

سأل ابنته.. ما هذا.

أجابت لا شأن لك.. املأ فمك جمرا..

تحول الى الرجل مشمرا عن ذراعه.. ماذا تفعل هنا. .

لا جواب.. رفع الرجل المقعي على الأرض.. سكينة عملاقة.. تدحرج الرجل المقعي على الأرض.. انبطح ليقبل انامل قدم الاب متضرعا..

اصفح عني.. ركله في رأسه بحذاءه الخشبي.. ثم قطع اذنه واجتز قطعة من لحمه.. طرده. .

اخرج ايها البرغوث الاحول. .

كان الدم يلطخ الرجل الراكض. صوب نظرة الى االمنزل المتكور نحو ابنته متسائلا

*** نشرت هذه القصة في جريدة انباء النور، 1965/1/19.**

- وانت. .

همست له.. احملني يا ابي وضعني على الارجوحة. .

أجابها سأحملك بين ذراعي الحريريتين وانامليَ النسيمية.. ها اني افعل....

وقف الرجل المدمى فوق التلة.... صوب نظرة على المنزل المتكور في بطن الوادي.... كانت الفتاة تهتز في ارجوحتها.. وثمة كلب متقوس يزدرد..

صعدت الفتاة نظرها الى رأس التلة. كان الرجل يمسك جراحه راقدا عليها.. التقت اعينهما.. كان ابوها يدير ظهره اليها منشغلا بمص عود قصب سكر.... تناولت رمحا منغرزا في الأرض.. بقوتها ثقبت الظهر.. انبثق الرمح من الصدر.. تنفست.. هوى الاب..

نزل الرجل من التلة راكضا.. خرجت الى باب المنزل.. تعانقا وسقطا على الأرض. .

قال لها.. هيا نضع المسافة في جيبنا ونرحل عن هذه المدينة المعبأة بالإنسانية البليدة ... وافقته انطلقا بعد ان وضعا عود ثقاب ملتهب في البيت صوب الجهة المتالقة.. وحين انتهيا الى الحدود.. التفتا.

كان المنزل زهرة نار مهجورة.

الى البحر.. قال الرجل وهو يشد غطاء الرحلة على جبينه. .

أجابته – الى البحر. وجدا ربان باخرة سوداء. سألاه ان يقلهما الى بلاد اللذات.. ابتسم لهما برفق.. شقت الباخرة دربها البحري..

وذات امسية كانت الفتاة تستند بمرفقيها على الحاجز.. اقترب منها القبطان ولم تفزع.. واتفقا على أمر...

جاء الرجل يحمل كأساً من الشراب لفتاته.. وضعاه في المنتصف.. انحنيا وقذفاه في البحر.. أخذ الرجل يصرخ مستنجداً.. صعد البحارة يركضون. .

قال القبطان.. لا تأبهوا.. انه صوت الاسد البحري الاصلع.

رفع الرجل الطائف في البحر رأسه.. أبصر القبطان وفتاته متعانقين.. ثم غرق..

* * *

نخلة الدم*

ابتلع رعبه.. قهقه بخوف.. لا.. لا.. صرخ به الرجل الآخر- ستلتهمه، حتى الحوافر. مسح مسدسه الضخم بقميصه.. مشيراً بقدمه نحو كومة منتفخة مصبوغة بتراب.. لا تمزح. بحق متضرع فرش جبهته محدقاً بصمت غاضب وذليل.. كح الرجل القوي كلماته- أنا أمزح؟ هل سمعت يوماً بذلك.. تضرع الآخر- كلا.. اقتان من غضب طوح بهما الرجل الأقوى- ستجثو لصوتي مديداً يا شقوتي. في الدهليز الأسفل ارتعدت حروفه- كذابون. زرعوني في بؤبؤيك. لم أمد لك يوماً إصبعاً سيئة.. بضحكة متصلبة أجابه الرجل القوي في ذلك التيه.. الشمس تمدد الخراب الترابي.. لم يكن هناك غير الشخصين وسيارة صفراء.. عجوز وحمار منتفخ والمسدس.. دخلت في ثقوب الرجل الأسفل أفاع ثلجية- أنت لا تريد الصدق.. تكلست على الكذب فبت تخشى من الحقيقة، بسوط نبرة، نهره- صمتاً. الحقيقة هي – حقيقتي- التي عشتها.. عليها تسمرت مئات الأيام تشنجت قبضة الرجل الأسفل.. بنفاذ ثاقب أعدم الرجل القوي عزيمة الآخر فهوت على التربة.. غسلت تكشيرته عنجهية الكآبة الخائبة السائلة.. ضحك ضحكات فأسية متلاطمة.

وفي فاصلة مباغتة جف وجهه.. ارتفعت جبهته- غايتي- كانت قتلك.. لم أعود أصابعي على صنعة في السجن.. دربتها على الفتك المؤكد.. انتشل الرجل الأسفل كلماته بمشقة من جوفه.. رماها إلى خلفية الرجل القوي- ستسجن حين تقتلني.. يفرغون جمجمتك.. امتلأت أظفار الرجل بدهن أسود

*** نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب، 1965/11/1. يلاحظ إن القاص يستخدم في هذه القصة لغة مكثفة جدا ذات مفردات صعبه نوعا ما. وتشكل الأنفعالات الحادة التركيز الأساسي في القصة بدلا من الأعتماد على الحبكه وهذا نموذج للبدايات القصصيه لخالد الراوي، حيث تختلف قصصه اللاحقة التي تتصف بسلاسه اللغة وبساطتها. بالأضافة الى ذلك، تمتاز هذه القصة بالعنف المفرط والذي يعكس رعب القاص من ممارسات السلطة في السجون وتشير بالوقت نفسه نحو قدرة الأنسان على التدمير والقتل. ويتكرر موضوع التعذيب في السجون والمعاناة فيها ومشاهد الدماء في الكثير من القصص اللاحقة. (المحرر)**

حين غرز يده في شعره- تدبرت أمري. رفع الرجل الأسفل حمالة بنطلونه.. ما زالت عيناه ناعورية الدوران- أتعود بمحضك تجرك أكذوبة وضيعة.. بيد سأمة أوقفه.

لا تعترضني بزيفك، تيبس رأسي على الثأر منذ اللحظة التي التصقت بها يداي في قيد. ابتلع الرجل الأسفل لسانه.. أتم- الأول- أحد عشر عاماً.. ضحكاتك تصل بين جبهتي وقفاي. اثقب كوة في الماضي واضطر إلى مقتل ذلك السكير. كنت أيها الخائن تلهث وراء الأصابع الممتدة علي.. مد الرجل الأسفل كفه ليعترض هدر به- صه لا تتكلم.. لم يصطبر. صرخ، واهم أنت واهم.. تقاتلت والمستحيل من أجلك.. إلا أنى خويت فالتقطك المحققون وعاثوا بك.. بصوت ميت أجابه الرجل القوي- عندما أقول سأنتقم أعني قولي ستأكل الجثة هذا هو الانتقام.. ضحك الآخر ببكاء متيبس، أنت مجنون.. أفرغ الرجل القوي جوابه الحدي- تقدم، ذاب نصف الرجل الأسفل عرقاً وتضاءل حتى انكمشت رقبته. كان محشوراً بين الآفاق المشمسة المغلقة.. المسدس ينعض في جوفه الانهيار.

شم حفنة من أمل حين انحدرت من فمه حفنة كلمات بسلاسة- سأقدم براهين تنفي عنك ظنونك. ردعه قد تكون طيباً وأنت بلا لسان.. آه ليتني أطرق رأسك على هذه الصخور لأنثر مخك الآسن.. وبفم المسدس رمى إشارة إلى الجثة. رجع خطوات إلى الوراء قاذفاً سكيناً – مزق البطن. ضع رأسك فيها حتى يمتلئ جوفك الخسيس. تكثفت في عيني الرجل الأسفل بقاياه- لن أفعل.. لن أفعل.. بصوت متهكم قدمه الرجل القوي- بل تفعل.. رفع المسدس بصورة أفقية تجاه الرجل الأسفل التقط السكين.. انحنى ببطء ملتقطاً السكين البالية- تقدم.. هز الرجل الأسفل رأسه- هل تفضل القتل.. سالت من عينيه أشرطة غضب. أقام كوعه.. في السماء ضاعت رصاصة.. نظر الرجل الأسفل إلى السكين.. قلبها في يده.. انبطحت فوقها دمعة.. تعجله-لا تزرع قدمك في الأرض لحظة.. بفتور انكفأ قرب الجثة.. زحفت الشمس حتى التصقت بحنجرة السماء.. ومن الأفق الجنوبي الغربي عبر طائر رمادي..

* * *

النخلة اليابسة*

أغلق الأستاذ الباب خلفه... عبر الرؤوس المشرئبة.. أزاح كرسي المنضدة وأسند حقيبته بأناة..

وضعت رأسي على الحائط راصداً بروية سعد الذي أسند كوعه على الرحلة ومد رأسه بحياء هامساً لهالة:

- هل تسمحين بدفتر المحاضرات.

بصمت وباتزان ناولته الدفتر دون أن تبدل جلستها المتصلبة. قلب سعد الأوراق بسرعة.. نظر إلى جانبيه ثم مد يده في جيب سترته واختلس ورقة دسها في الدفتر.. وأعاده بهدوء.. وقبل أن تحطه قلبت جلد الدفتر واعتدلت بقوة.. ورقة متمددة وغريبة!!. التفتت إليه فوراً.. كان غارقاً في وجه الأستاذ.. وعادت تنظر إلى الورقة تسحب الكلمات بعينيها.. ثم تقافزت أصابعها الرفيعة على ظهر الورقة ترصها بعنف وتكورها.. ثم وضعتها في راحة يدها وهدأت.. وحين قرع جرس الخروج.. تدلت يد هالة فوق سلة في الممر وسقطت الورقة المكورة فيها.رصدت الممر حتى تفرغ.. انحنيت مختطفاً الورقة.. مغوصاً إياها في جيبي.. وفي زاوية من نادي الكلية نشرتها بين أوراق الكتاب.. هالة..

حين وقعت عيناي عليك لأول مرة هتفت.. ها هي خاتمة الإبحار تلوح على الشاطئ المأمول.. كنت أراقبك تمضين من وراء الزجاج تخرجين من الباب ولا تعرفين إن فارسا يذوب من الانتظار.. فارس تاه في ندى عينيك.. ثلاث سنوات مصلوب في صحراء قلبي.. هالة.. عندما يصل اليأس إلى الهاوية.. لن يأبه بشيء وها إني أهتف.. أليس لديك قلب..

*** نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب، 1966/1/19. يعد موضوع القتل من أجل الثأر أحد الأمور التي يتنقدها القاص على الدوام في قصصه، لأنها عادة قبلية قديمة لا تجلب سوى الدمار. في نفس الوقت، يشير القاص بشكل غير مباشر الى أهمية تطبيق القانون في المجتمع والذي يجب أن يكون الحكم الفصل في المنازعات كافة. (المحرر)**

رفعت عيني عن الورقة.. وكانت هالة تجلس مع صديقتها على مقربة مني.. كانت تحدثها بإنهاك.

- إنه لا يدري أن عمه قتل خالي.. إن صوت الدم يحول بين سمعي وهمسه.. صككت علبة الثقاب بعود كبريت.. وحين نهضت كانت تتهشم على المنضدة قطعة رماد حدباء..

* * *

الجسر*

نتف من الغيوم البيض تبحر في السماء، على مدى الافاق.. وثمة يد مرتعشة، لاحت من فرجة باب موارب تقتلع ورقة تقويم.. وصوت منطفىء، ينسل الليل الآتي هو الليل الفائت ولا جديد.. شبك كفيه تحت فخذه الايسر ورفع ساقه... مددها على التخت.. علق عكازه على المسند

- هذا الشلل الملعون.. يلصقه بالمنزل ليل نهار.. يلصقه بالتخت وبالعكازتين.. ما عاد بمقدوره الخروج خشية سقوط الرثاءات التي تغسله من قمة رأسه الى أخمص قدميه.. انها الضريبة يدفعها لهذه المدينة المداهنة..

تناثر رنين الجرس.. يبس وجهه، لعله زائر آخر.. ما بالهم يأتون واجمين.. يحكون وجهي بنظراتهم اللئيمة المتفحصة.. يسألون عن الحادث.. وبعدئذ يلقون كلمات سريعة ومبللة ويخرجون. .

لم تقترب أقدام من غرفته.. اذن فليس هو المقصود.. ابعد العكازة عنه.. تحسس ساقه.. سأشفى.. لا بد ان يكون ذلك.. فمن الجنون ان ابقى على هذه الحال.. ساشفى.. حرك ساقه الايسر لينزله.. لم يتململ.. رويدا.. تخثر وجهه، كانت هدى ملقاة في الطين وقبضات ضخمة من دم أسود متعفن متجمدة حول رقبتها.. عيناها مصلوبتان فوق شعرها المدفون في الوحل.. مسح الصورة حين فتح نظره...الاحوال ساءت كثيرا. .

في يوم الخميس تملكه قنوط متوحش.. كان عليه ان يحسم الامر بعد ان اخبرته هدى بأنهما وصلا الى حد الزواج.. والا فستغرب عنه نهائيا.. لم يجبها.. وبعد انتهاء المحاضرات في يوم السبت جرته الى خلوة.. سألته الى اين وصل. انه يرقب لعبتها التي تمارسها بنات المدن المعتمة اللائي يعجلن فتياتهن بتخويفهم من الرجال الآخرين.. لم يفزع.. انها تتقن اللعب.. وكان جوابه الأخير:

*** نشرت هذه القصة في جريدة المنار ، 1966/2/17.**

- لا تمزحي.. فلن أستطيع هضم هذه الدعابات، ولسنا على عجلة من امرنا.. لنحيا الى زمن قادم ثم نحسم.. انصرفت بوجه جديد وهي تقطف دمعها من عينيها.. وفي يوم الاثنين وجدها في الممر يلفح وجهها طالب اخر بهمساته.. راقبهما حتى انفصلا.. أسرع اليها.. اهاب بها:

- الا تعرفين هذا العربيد؟؟

أجابته وهي تلج القاعة – قال سيخطبني.. تجمد على الباب.. انحنت على كتبها ورفعتها وعادت. .

هتف بها – انه يضحك عليك.. أنسيت سميرة وفخرية ونهى !!. اشاحت بوجهها .

- انه لا يريد ان يعللني بالوعود فنحيا معا أيام الدراسة ثم يهرب.. سيخطبني بعد أيام.

- وهل تصدقين؟. انتزع كلماته الصلبة .

ومن القاعة الأخرى انفلت الرجل الجديد وابتسامة مواربة.. تملأ وجهه.. توارى بعنف في ظل عمود.. وكان جسدان يهبطان السلم متجهين الى خلفية البناية الخارجية.. استدار منطلقا اثرهما.. هدى تسحب جسدها الى الجوف والفتى يعالج الباب الاخر..

سيحسم الان... انها تتلفت... انقض باتجاه السيارة... جر قبضة الباب.. انه مغلق من الداخل.. قرع زجاجة النافذة.. هدى.. هدى... صمت.. يد تجره من كتفه بعنف.. انها لن تكون لغيري – هدى.. أنزلي.. قبضات ثقيلة تصك جمجمته.. مطر من القبضات.. لفه هدوء فتداعى الى الأرض وعبارة الآخر تغور في جوفه.. انها لي.. كان ممددا في فراشه.. وبياض كثيف يصر في ذهنه ونقطة دم متجمدة على جبهته.

* * *

الصرير*

دفع الرجل المعروق عربته في الشارع المعتم.. راميا بعنف صوته:

- شلغم.. شلغم

فيجاوبه صوت اخر من وراء شوارع عديدة.. شلغم..

أوقف عربته الخشبية المفككة.. ورفع الغطاء عن القدر فانفجرت زوبعة من بخار مندى.. اعاد الغطاء.. لملم المواعين الصغيرة ورصها.. وجر قنينة الملح الى الزاوية.. انها تبرد.. تبرد كثيراً.. ولا بد انهم مقرفصون الان خلف النوافذ المغلقة.. ينهمكون بمسح جلودهم بالدفء.الحالة ستسوء اذا وقع المطر، فمن ذا الذي يتجرأ على الخروج ليأكل الشلغم.

سيبات ويبهت طعمه وتلفحني نظرات الاستهجان في اليوم التالي.. انه شغل بائس.. لكن هل اموت جوعا.. سبعة أشهر دست الطين حتى تشقق جلدي واشتغلت عاملا في البناء حتى تثقبت من السباب.

وارتميت أخيرا على هذه العربة اجلب منها رزقي.. والله وحده يعلم متى سابقى خلفها – ما دامت المدينة لا تمنح.. وما دامت لا تعرف منانا.

- ابو الشلغم.. صاح صبي صغير يقف على باب بيت مضاء .

- تعال هنا.. كان البيت خلفه على عدة خطوات.. سحب العربة ورصها أمام الباب. تقدم منه الصبي.

- بع لي بعشرة فلوس ... النقط القطعة المعدنية ودسها في جيبه وراح يقطع الشلغم.. كانت عينا ام الصبي الواقفة في الممر ترصدان يد البائع وهي تناول لابنها الماعون.. انحنى ودفع العربة.. جحظت عيناه.. اذا مر الوقت فلن ابيع بدرهمين والباقي سيتكدس على قلبي وأعود بساقين يابستين وذراعين متعوبتين .

*** نشرت هذه القصة في مجلة جمعية الطيران العراقية ، آذار 1966.**

العجوز مرمية بوجهها الممصوص على الحصير أمام الباب.. عيناها مفتوحتان، وعلى سبع خطوات – الحرمة – مع الصغير الدامي العينين.. تتسمعان الخطوات في الخارج. ماذا سيحل بهم اذا لم اعد لهم في يوم ما.. يا رب امنحني القوة..

أز صفير الحارس الثاقب البعيد في الظلمة.. هبت دفقات ريح واطئة.. صاح ليسحب الدفء الى قلبه المرتجف:

شلغم.. شلغم ... وعبر فسحة خالية وابتعدت صفوف البيوت، امتدت أمامه خطوط من اشجار التوت.. أسرع في دفع عربته. لفحه صوت سريع ناهر.

- ابوالشلغم ... تيبس في مكانه.. لم يلتفت وحط عينه في آخر محجرها.. ولج رأسه ذات الصوت.

- لا تتعجل.. برز رجل أسمر الوجه.. يلف رأسه بغترة بيضاء متسخة ويرتدي دشداشة داكنة اللون مهروسة شدها الى جسده بحزام جلدي عريض.. رفع الاعجف يده اليمنى مبرزا نصل الخنجر منها.. ثم بسط يده اليسرى وفتح أصابعها مشيراً اليه:

- هات ما عندك من فلوس.

رجع بائع الشلغم خطوة.

- خاف من الله – انا فقير..

أجابه الاعجف

- وانا ايضا فقير...

أجابه بائع الشلغم

- اذن لم تسرقني؟

أجابه ببرود :

- لا تزد... هات...

رد البائع.. منذ خمس ساعات أصرخ ولم ابع بمائة فلس..

أجابه الاعجف – هاتها..

بصوت يائس راوده – وامي.. وزوجتي.. وابني الدامي العينين.. والشلغم سينام على قلبي.. من اين استدين لاشتري شلغما جديدا..

قرب نصل الخنجر من وجهه

- اخرجها. ..

لم يأبه بامره.. انما هتف

- خاف الله ودعني امضي. .

لامس النصل وجهه – ستموت. .

تهاوت إرادته تحت العزيمة الدموية ... مد يده بتخاذل الى جيبه واخرج عدة قطع من ذوات العشرة فلوس، وضعها الاعجف في جيبه وانصرف مستديرا في الطريق وغاب في فرع جانبي.. تدلت يدا البائع ونظر الى عربته والنار تخبو في الموقد الموضوع تحت قدر الشلغلم.. لم يتحرك.. ومرت من جانبه سيارة بيضاء طويلة تنفر منها اغنية مرفهة.. ظل ينظر اليها حتى غابت.

* * *

الوقوف*

كم أنت بائسة أيتها الوجوه المزمومة، التي تعبر بصمت دروب المدينة.. في عيونك تحترق الأيام.. وعلى جبهاتك يتداعى الحاضر.. وأنت يا ذا العنق المنتفخ ارم يأسك على الآخرين فجسدك المكدود يلتهب إلى الفيء.. أين يمضون.. من أين جاءوا وأين التقيت بهم- إنك لا تعرف..

كانوا يتدفقون من أزقة وحواري ذات ممرات عفنة معتمة وهمس يتعرف منهم- نريد حقوقنا المهدورة.. مئات الرجال.. آلاف.. خرجوا مع الصباح لينتزعوا حقوقهم.. فشاهدتهم وصحت ما دام هؤلاء البشر ضائعة حقوقهم فلابد أن تكون حقوقي مهدورة.. انتظر هنيهة قرب الجدار.. واسال رأسك.. ها ها.. أي سحابة مخزية كنت ستنفخ عليها ريحك المثلجة لتمطرها.. الناس ينصبون من الأزقة باستماتة.. وذاك الشروقي ما زال منحنياً يعلق شمعة تحت باب- أبي شيبة- لايأبه.. جر الرجل الذي أكلت أخوات بغداد وجهه حتى انصرف الشروقي فسحق الشمعة ومضى منصرفاً.. ارم عينيك الخاويتين.. فلا ينفعك أن توقد فيهما الالتماع فقد التحمت خطوتك مع الدرب في لحظة لاهبة لم تدرما وراءها.. ولم تجشم قدميك عناء الاستدارة.. فلأنك سرت فلتمض.. فكثيراً ما يكلف الالتفات خسارة الماضي وليذهب الحق الى العدم.. الحق.. أي لبانة باهتة سقط طعمها يمضغها هؤلاء السائرون بانتصاب ويبوسة (الى فتاة حسناء) حسناء.. وتأكد من حذاءيك.. هل هما صالحان؟.

فالجسر طويل لا يعبره الحفاة ولا الحمقى.. سيعودون إلى الأزقة.. يخبئون وجهوهم في الظلمة والعفونة وتأكل عيونهم القمل.. وأصواتهم المهرأة وريح يسيرة تحملهم تطوحهم في برية النهاية.. وحفنة من مطر تمحو طبعات أقدامهم.. وسيهدأ هذا النصف المتأرجح من المدينة.. ويمتد الليل الصافي على المنازل فتتساوى جميعاً... ولن تنزلق في آذانهم إلا

*** نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب، 1966/7/6.**

صيحة الدرب المشقوق برمية سهم– لن تعود لكم المدينة – فماذا ستقدمون لها.. ماذا.. ستذبحون الحراس وتغلقون الأبواب.. لتفتحوا أبوابهم.. لقد تعبت المدينة.. شلها الترحال.. فاصمتوا وخبئوا خناجركم.. لعل الخير يسعى إلى بيوتنا المنكودة.. فقد ضجر منكم حتى الرب. كان شروقي آخر يعلق شمعة لأبي شيبة.. نظر إلى الباب المخضب بالحناء.. ثم رفع رأسه إلى أعلى البناية.. وكانت السحب تعبر مسرعة..

* * *

الانتظار*

- 1944 رزق بالامس السيد لبيب ولي ولدا ذكرا اسماه سرمد... خبر صغير نشر في صحيفتين يوميتين وعلى الصفحة الخامسة منهما.

- 1949 حدق معاون المدرسة الابتدائية بالصبي الصغير... ثم مد بصره الى الرجل الذي يقف الى جانبه واقتلع غطاء القلم قائلا:

- انه يبدو اصغر من السن القانونية... لكن لا بأس... سنسجله...

لم ينبس الرجل الواقف، بل فتح فمه وأغلقه ثم دفع اليه بصورتين شمسيتين ودفتر النفوس.. اطبق عليهما المعاون بأصابعه الملبدة وطرحهما بين اوراق الدفتر الكبير. وحين أصبح الرجل خارج المدرسة هز الصبي قائلا:

- ستجيء كل يوم الى هنا...

وبمضض انسحب الصغير في منتصف ظل الرجل.

بعد تأميم قناة السويس

المدرس يخط على اللوح الأسود كلمات علمية ... وتثاقلت أصابعه.. كانت أصوات مجمعة تتساق اليهم، نزلت عيناه الى الأرض وقال :

- كان هذا محتوما. .

واستمرت الأصوات المجمعة تخطو اليهم مقتربة.. ومن الجهة الأخرى قدمت موجة ثانية..

صمت الصف جميعه والمدرس تصلب في وقفته.. اندفع الباب الخارجي بشراسة ولم ينفتح.. كان مقفولا بسلسلة حديدية متينة.. وارتفعت الأصوات الغاضبة المجنونة تقرع ممرات المدرسة.

- افتحوا الأبواب ودعوهم يأتون معنا.

نظر المدير البدين الى وجه معاونه برهبة صامتة منتظرا الجواب..

---

* نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب ، 1966/7/13.

بادره معاون اخر – هل نفتح لهم. .

أجابه المعاون العجوز – سنتعرض للمسؤولية..

هتف مدرس رفيع – اية مسؤولية.. افتحوا الأبواب ودعوا الطلاب يعملون. .

تنفس المدير بارتياح وأشار للفراش المتربص.

- افتح الباب.

كان الطلاب يتسللون من الصفوف رغم مدرسيهم. وحين انفتح الباب انطلقوا لا يلوون.. وتناحرت الأصوات.. متفتتة بحنق في الهواء.. وطاب للصبي ان يغوص بين الرجال الكبار ويهتف بصوت اعلى من أصواتهم.. وان يقفز أمامهم مخرجا منديلا من جيبه ملوحا به في تصميم وغضب.

بعد تلك الحوادث في يوم غير معلوم بالتمام.

صب الفتى حروفا من دمه في طريقه.. كان يهبط في درج يضيق.. وابتدأ الصراع.

- 1960 بعد سنتين من السير المدمى... وقف الفتى يلقي بوعيه الى المدينة ذات الرائحة العتيقة.. كانت مئات الاذرع تنبت من الأرض تلوح له ان يسير ومئات تدفعه.. استيقظ جبنه في قلبه، لكن لسانه استشاط غضبا كالافواه الأخرى.. وحين مضى يعدو.. سقط جأشه وتوقف ملتهبا بذعره.

- 1964 في ليلة غير متوقعة كان يعمل ذهنه ليغطي مصروفات جيبه.. وفي لحظة امحت النقود. كانت عيناه هادئتين تشقان جدار غيبوبته.. اندفع فاتحا صدره بهمة ثم استرخى يحلم ويحيا. وكان يتزحلق على خط جليدي من الخيبة طوله سبع سنين.. يبتدىء ثم يلتفت ولا شيء خلفه..

- 1966 الامور تسوء كثيرا رغم انعكاسات الامل الملتمعة.. فتح وعيه باكمله.. فمنذ ان بدأ يمشي بثبات لم تتفرغ في قلبه كلمات هادئة ولم تمسح وجهه بسمة حقيقية.. وراح ينفصل عن المدينة وجرس يهزه.

- الصمت يأكل الخطوات والمفر محظور.

* * *

الدم المرتعد*

ارتحل كفي على جبيني يحصد ما عام عليه من عرق. .
السابلة يعبرون مسرعين. .
العجلات تحفر وجهها في الاسفلت اللدن. .
رجعت الى الوراء فظللتني غلالة ظل..
– السيارة تأخرت -
تنفست بضيق وبهدوء مرير رصدت جسد الطريق الأسود وزحفت كف متقعرة مضمومة الأصابع متصلبة أمامي.
– لله فلس واحد..
وارتددت منكمشا من الأصابع المحدبة.. لم أبصر وجهه، وعبرت بنظري الى الجانب الآخر وقلت:
– ليس لدي نقود.
– فلس واحد. .
عادت نبرته بالحاف.. يا له من سائل.. صرمت محجري مطلقا رصاص نظري. .
الوجه هذا ليس بغريب...آه.. هتفت.
– انت. .
أجابني:
اجل. تلمست عينيه... ملامحه هو هو بلا ريب.. قلت:
– لم تمت وقد غاصت السكين الى عنقها في بطنك.
اومأ برأسه ايجابا.. نظرت اليه ونظر الي.. دسست يدي في جيبي لا عطيه، وابتعد مسرعا وثقب عريض في اسفل دشداشته يتماوج مع خطاه. .

*** نشرت هذه القصة في جريدة صوت العرب، 1966/8/29.**

امتلأت حنجرتي بالنداء وكدت اقذف صيحة لكن السيارة قبعت أمامي وكان سلمها ممهدا ورماح الشمس الساخنة تنغرز في اعلى رأسي.. قفزت واندسست في أحد المقاعد الأخيرة، وأخذت أصابعي تزحف على ملابسي ثم ترتفع تتلمس ذقني الكثة.. وغرزت اظافري بين شعري حارثا الجلدة الرطبة..

كانت صفوف المخازن تركض الى الوراء.المدينة.الفتيات الحسناوات.. الناس ذوو الخطى الواسعة المتحررة.. وحولت عيني الى مؤخرة محجرها فأبصرت جاري يرقبني بطرف عينه.. كورت جسدي في طرف المقعد..

بعد قليل سأكون في بيت اختي في مدينة الثورة.. اغسل كل اثقال الأيام المسجونة وامزق بعنف بطاقة القيد لامشي في الطرق كالآخرين.. ومن زجاج السيارة أبصرت وجه المتسول فوق الحيطان وعلى مقدمات الازقة..

قبل تسع سنين طعنت هذا المتسول عندما كان فلاحا في مزرعة الشيخ حمد، عندما قفز واقفا أمام السركال الذي كان يراود زوجتي.. اقسمت في ذلك الحين على قتله.. وعندما واجهته يحاول الدخول الى كوخي بعد ذهابي للعمل.. لم يحاول النكوص فقفزت عليه بخنجري، الا ان ذلك التعيس تلقى الطعنةواستطاع السركال السيطرة علي بمسدسه وسلمني للسجن.

انغرز وجه السائل في جبهة الرجل الراقد في بيت اخته.. رفع الرجل رأسه الى فوق.. وكان عنكبوت صغير يركض في زاوية الغرفة العليا، مر بذبابة ميتة في شراكه ثم اختفى.

* * *

الطريق*

انحدر الراعي باغنامه مسرعا من جوف البرية، وقد خبأ نايه وخنجره تحت حزامه.. كان المطر ينهمر بشدة وادرك ان لا مكان له في تلك الأرض المنسحقة الجرداء، وكان القطيع يندفع في خط مستقيم والماء يشق صوفه متكسرا الى الأرض.

رجع الراعي خلف القطيع وصرخ بصوت قوي صرخات متتالية حاثا على الاسراع، فالقرية ما زالت على مبعدة خمسة اميال. واندفعت الاغنام في صفوف متراصة مسرعة، ولحظ الراعي تخلف حمل صغير فانحنى ورفعه بين ذراعية ومضى به.. والتفت الى اليمين ثم توقف وصاح بخرافه يأمرها بالسكون وأشار اليها ان تتبعه. كانت تلة صغيرة على مسافة مائتي متر تنبجس من بطنها مغارة.

وقال– انها تتسع لها جميعا رغم ما يشاع عنها انها مأوى للصوص.

وتحسس خنجره، وتسللت الخراف في عتمة المغارة الطويلة. وحين دخل داس بقدمه على سعفة نخل يابسة فالتقطها وحطمها ست قطع. ورقدت الخراف جميعا على الأرض محركة ظهورها تنفض عنها الماء وامتلأت ذرات الهواء برائحة الصوف المبلل. وقدح الراعي عود ثقاب واشعل السعفة. وأمام عينيه على حائط المغارة التصقت فتاة نحيفة طويلة القامة ترتدي ثوباً أخضر ملطخاً بقطع طينية صغيرة ... ووجهها شاحب مرتعد. رفع يده ليكلمها ثم خفضها وتلاشى صوته في حنجرته. كانت عيناها تهوي في اعماقه.

وعاد بعد هنيهات قائلا – لا تخافي – ثم هتف – ما الذي اتى بك الى هنا.

ومن بين شعرها المنسدل على وجهها الخجول تسللت كلماتها

– لم احتمل البقاء في المدينة، كانت أصابع ابي تتسلل الى ذرات جسدي تعبث بها، تريد ان تدق المسامير، ولم اقو على السكوت حين

*** نشرت هذه القصة في جريدة الفجر الجديد ، 5 أيلول 1966.**

أحسست بلذغة المسمار، فتخفيت بعباءة واستطعت ان اتسلل الى خارج المنزل في ليلة خرج فيها الى المقهى وخلا البيت الارمل الا مني، وركضت في الازقة وتخطيت القرية خارجة منها. كانت البرية سوداء، ولم أدر اين اذهب وبقيت اعدو وأبصرت هذا التل ولم ارهب الموت فهو اعذب لي من تلك الأصابع الشرهة ...

نهض الراعي والتقط خروفا صغيرا ومضى به الى الخارج وحين عاد كان يمسح عن يديه الدم.

قال لها – عندما يتوقف المطر سارجع بك الى القرية الموجودة في هذه الجهة – وأشار الى الجهة المعاكسة لقريتها– حيث يوجد اخوالي، ستسرين أيتها الفتاة.

وارتعشت الدموع في عينيها عرفانا. وحين خرجا كانت الخراف قد توقفت عن نفض الماء عن ظهورها.

* * *

الانحسار*

القصابون يمسحون دم البارحة عن سكاكينهم.. والمزارعون يكومون محصولاتهم فوق السدة الترابية بانتظار العربات لتحملها الى السادة في المدينة. .

أيتها السموم هلمي مع الريح وامسحي الوجوه المتصنعة.. ادفعي أبواب بيوت هذه المدينة واصلبي الابدان المتعفنة.. انتبه.. انتبه.. السيارة ذات الضوء الموضوع على مقدمة السقف تلوح من بعيد

– قف يا سائق الأجرة.. دعني اضع جسدي المتعب فوق المقعد ثم انطلق بي.

البارحة كانت الشرطة تطارد السماسرة في ساحة التحرير بعد الساعة السابعة مساء، واختبأ احدهم تحت جدار مظلم.. كنت مسرعا وصوت الشرطي يتناهى صارخا بواحد منهم يهرب.

– وين تروح؟ وتلكأت أمام السمسير وقلت له مستخفا:

– أأناديه؟.. زمجرت عيناه في الظلمة، ثم ارتخى رعبا عندما استدرت الى جهة الشرطي الذي كان واقفا تحت الضوء... وقال بتضرع يائس

– ليش؟؟

كانت تنطلق في رأسي سيقان شيقة تقفز خفيفة.. خفيفة، ثم تلتهب وتشتد وامواج من الرغبات تحلم وتتمزق. والتفت وتسلطت أمامي فتاة صغيرة ترتدي ثوبا ناريا تقف أمام ظلين منكسرين مع فتى انيق.

قلت لعبد اللطيف صديقي – اليست هذه منى؟

حدق بها وقال – لا أدري يبدو انها متبدلة كثيرا.

قلت له.. انها مشدودة الى هذين الرجلين من هما؟

– احدهما صاحب الجريدة التي تشتغل فيها والآخر لا أعرفه.

– لدي رغبة لان اتعرف عليها .

---

* نشرت هذه القصة في جريدة الفجر الجديد، 1966/10/17.

حنق وجهه – لا تفكر بهذا الامر.. ابتعد عنها..

- لماذا؟
- هكذا اقول لك، فلا تسأل.

ولم اقتنع.. وحين جاءت السيدة البدينة تحمل اقداح الشراب تناولت واحدا، واذا بالشاب المرافق للفتاة والذي أعرفه منذ زمن قديم ينحدر الينا.. شد على يدي وهو يرفع كأس الفودكا، وانسلت منى خلفه.

قالت لي ونحن نتصافح:

- متى تصدر مجلتكم؟
- عندما تمنحنا الوزارة الأذن.

ونظرت في أغوار عينيها، كانت عيناها تتراجعان وأحسست ان فيها شيئا أعرفه.. الجسر المحدودب يلوح غامضا عندما تنطفىء الانوار.. انتظرت سيارة لا عبره ولم تمر، وحملت الحقيبة التي جئت بها من المزرعة، وعندما وصلت الى المنتصف اتكأت على الحاجز وأبصرت من بعيد الأضواء تنطفىء على شاطىء دجلة.. وعندما وصلت نهاية الجسر حدقت تحته، رأيت رجلين منحنيين يطبعان ظلا واحدا.

البستان حيوان صغير اذا لم تعتن به فانه يموت.. هكذا كان جارنا يقول لنا. وكنت أعرف ذلك حق المعرفة، فاظل فيه عندما تقبل العطلة وتتوقف الدراسة، اراقب الفلاحين وهم يعملون واستحثهم أحيانا عندما يقعدون في الظل يلفون السيكاير ويثرثرون. لكني عندما جاءت الدراسة تركتهم، وعندما وصلت الى المدينة شاهدت القصابين يمسحون دم الأمس عن سكاكينهم.. ولم تستقر خطواتي. كانت تستعد لتعبر مطافا غامضا..

* * *

صرير في الباب المغلق*

شهقت على صدري وانا اتفحص عينيها الباردتين.. وتمتمت هي:

لن ادعك تقفز داخلي، الفارس في هز الانشوطة يريد الاقتناص. .

همست في عينيها: لا يهم الثمرة من يأكلها.. الثمرة مرغوب فيها منذ زمن طويل.

وانا الهث.. مددت يدي، أوقفتني وقالت بتهرب يسير:

لا.. اني اقشعر من الخجل..

كان الفراش يرتجف ... انسربت حبة عرق من جبهتي وتزحلقت الى جانب عيني.

الباب مقفول من الداخل بالرتاج.. وعلى جانب الغرفة امتد سرير حديدي أسود فوقه علقت آية – لئن شكرتم لأزيدنكم – وفي زاوية الغرفة ممر ينفتح على غرفة صغيرة فيها مرحاض، ويتدلى من السقف دش حمام، وعلى مسافة متر باب يوصل الى غرفة تطل على الزقاق المقابل لمصنع تعبئة الاوكسجين. .

هي ترقد على الفراش بمنامتها الزرقاء الشفافة فوق فراش على الأرض... وانا منحن فوق السرير، اختلس اليها النظر.. ونظرت في كسرة المرأة المعلقة أمام الممر، وأبصرت عيني (مجهد) تومئان لي واصبعه يمتد اليها مشيرا.. تقدمت اليه وفتحت الباب المؤدي الى الشرفة فخرج وأغلقت الضوء ونسيته.

اننا ننسى أيامنا الثلجية بنسمة دافئة تلمسنا.. هذه هي الغلطة.. لم يعد بوسعي ابصار شيئين متعاكسين ينتهيان الى نقطة منتهية.. كل انطلاقة تنتهي الى مطاف غريب – لكن لماذا ننكر التوافق في المسير.. بودي ان اسمع الصوت الغافي الذي ينساب في عروقي مجددا، اسمعه يهز ذراتي منذرا: ليست الهزيمة ان نمضي منفردين، النصر تاج المنتهين، هذه هي الآية التي يجب ان تسجد لها عقولنا، لماذا نرغب في النصر وليست هناك

*** نشرت هذه القصة في جريدة المنار، 1966/11/1.**

معركة. ان قلوبنا لا تمتلىء بالحب رغما.. هذه الأصوات عليها ان تنقرض، فما دمت رجلا عصريا فينبغي ان تكون الى جانبي فتاة.. نجلس منفردين اهمس لها عن الحب وانصت الى قلبها.

انصفق الباب الخارجي منغلقا وكان الهدوء شاقا عندما افلحت في فتحه والتسلل الى الزقاق.

تقابلنا..

قالت: كل من يحيق بي ضرا سيضر مهما طال الزمن..

مزحت معها بكلمات جدية: لا لا تقولي مثل هذا الكلام القاسي، اخشى ان يصيبني.

وانشغلت هي بقياس العباءة.

فتحت الضوء الاخر وصحت من وراء الجدار.

تمددت هي على الفراش الأرضي وجلسنا على السرير.

قال لي: اذا نزلت فجيء بقليل من الثلج. وأشار الى زجاجتي نبيذ ..

أومأت برأسي وكنت اعقد رباط حذائي – لا تنسَ. قال مؤكدا.

نظرت الى الساعة، انها العاشرة والنصف.

قلت: لا زال هناك وسعة من الوقت. سأبقى ساعة أخرى وانصرف، وعندها لا تتعجل اشربا ببطء.. فالصحو ممتد الى الصباح.

انزلق مفتاح من الخارج في ثقب الباب.

قال (مجهد):انه لطيف، وأشار الى حقيبته المفتوحة عمدا فوق المنضدة..

قال لها: هل نفتح له، انه مغلق بالرتاج.

لم تجب. نهضت وفتحت. كانا اثنين. تراجعت هي وجلست فوق الحقيبة الجلدية الطويلة، وانطرحت انا على الفراش الأرضي، بينما جلس الثلاثة على السرير.(مجهد) ينحسر ويتراجع.. وكانت هي منحنية ورأسها الى الأرض.. ونحن نحدق في بعضنا صامتين.

لم احتمل هذا البؤس. وقفت معلنا انصرافي. كان الأربعة يسلكون خطا ممتدا.. والفراش الأرضي خال. والعمارة لا تتنفس.

رجفة في ظل السكين*

انقطع المطر.. لكن ظلت تتهدل من بطن السماء الكبيرة غيوم سوداء مضطربة، تزحف نحو الشرق ببطء.

وقرب باب مسجد تسمر شخص ناتيء العظام، انحنى ظهره قليلاً للأمام وتشابكت كفاه واختبأتا في بطنه.

الريح الباردة سريعة في الدرب.. والسيارات المقفلة النوافذ تمر بسرعة تتناثر من عجلاتها رشاشات من ماء طيني.. لفت الرجل عنقه من فوق سور المسجد المظلم وقرع الباب الخارجي.. الريح تجرف رنات طرقاته.. اهتز جسده وازداد التصاقاً بالحائط.

لقد طرده صاحب الخان الذي يسكن فيه بعد أن استولى على تختته الخشبية وأصباغ الأحذية التي تعود إليه قال له(ما دمت لا تملك أجرة منام الشهر الفائت فهذه الأصباغ والمقعد رهن عندي حتى تجيئني بالدينارين التي أطلبها) وخرج من الخان لا يملك إلا ذراعيه.

مر لوري يدوي مملوء بشرطة مقرفصين وعندما ابتعد مرقت في الجهة الأخرى من الشارع سيارة صغيرة.

- ما بال بيت الله مغلقاً!

حك كفيه بسرعة ثم نفخ فيهما نفخات متصلة وطويلة. عندما جرده صاحب الخان العجوز، الحاد العينين من أدواته.. لم يستمع إلى تضرعاته.. كان يريد إمهاله يومين يسدد بعدها دينه.. لكن العجوز اعتبرها كمماطلات الآخرين التي لم يعد يصدقها ولم ينصت إليه.. البرد يدخل فاتحاً ذرات جسده متوغلاً إلى العظام.. أراد أن يجد له مكاناً آخر.. حك أذنيه وأرنبة أنفه ودس يديه في جيبي سترته المتآكلة.

ترى لماذا لم يتمهل في إرسال النقود إلى أمه.. لو تمهل يومين لكان قد سدد أجرة الخان ثم أرسل لها ما تبقى..

*** نشرت هذه القصة في جريدة النصر، 1967/5/22، العدد 40.**

كان متعجلاً ومضطرباً.. فبعد أن غمر الفيضان قريتهم التجأت أمه وأختاه إلى القرية المجاورة.. وهناك كان كثيرون مثلهم.. جاءوا من قرى متعددة اكتسحها الفيضان.. الطعام قليل ونادر.. وثمنه مرتفع للغاية.. وسمعوا من جار لهم هناك أنهم اضطروا إلى مد أيديهم للآخرين.

فار الدم في رأسه وأرسل كل ما تجمع عنده من نقود.. البرد يتضخم ويتوالد أضعافاً..

حين عاد في المساء إلى الخان تسلل من جانب الحائط مبتعداً عن غرفة العجوز المضاءة بفانوس قوي والمفتوحة الباب دائماً.. وفتح باب غرفته الخشبي الغليظ وأبصر في الظلمة الخفيفة الرجال الثلاثة نائمين فتسلل إلى فراشه بسكون وارتد الباب مطقطقاً ثم صمت.. كان يحس بفرح كبير لأن صاحب الخان لم يشاهده. اندفع الباب بعد دقائق بعنف وظهر صاحب الخان العجوز الحاد العينين وبيده فانوسه القوي.. أغمض الصباغ عينيه فوراً.. لكن العجوز لم تفته انطباقة الجفنين الخاطفة.. قال له:

- ها كاكا حسن.. وين الإيجار؟

لم يجبه حسن بل سحب نفساً طويلاً.. تقدم إليه صاحب الخان وركله بقدمه

–ميفيدك النوم.. جيب الإيجار..

- فتح حسن عينيه باندهاش زائف وتملى بالعجوز باستفهام، احتد العجوز

- الإيجار.. وينه؟

اعتدل حسن في جلسته وهو يلم أصابع كفه يده اليمنى

- بس انطيني مهلة يومين وآني أعطيك الإيجار

أجابه العجوز:

- يومين.. لا.. هسه جيبها

قال حسن:

- هسه ما عندي

قال العجوز:

- كوم افتشك

نهض حسن فوق فراشه المفتق وفتح الرجال النائمون عيونهم.. مد العجوز يده في جيوب حسن ولم يعثر إلا على تسعين فلساً وضعها في جيبه ثم التقط التخت الخشبي والأصباغ وقال له:

- هاي عندي رهن.. اطلع جيب الإيجار وتعال أخذه.. أراد وبيأس أن يستوقفه.. من أين سيجيء بدينارين في هذا الليل.. رفاقه في الغرفة مفلسون دوماً.. وخرج يجر خطاه مرغماً..

اصطكت أسنانه.. لقد توقفت الحركة في الشارع تماماً.. رفع عينيه المرتجفتين مرة أخرى من فوق الحائط.. ثم أمسك الحافة واستطاع أن ينقلب إلى الفناء الخارجي للمسجد.. واقترب من الباب الداخلي وقرعه بعنف.. لا جواب..

رعود تنغمر في السماء وبروق تلتمع في نثيث المطر الذي أخذ ينحدر إلى الأرض.

تكور حسن قرب الباب وانكفأ على جانبه وركبتاه تلتصقان بصدره، ورجفة حادة تهتز في جسده.

تكاثرت الرعود والمطر أخذ يشتد.. وعندما تسلل المؤذن في الفجر.. وجد جسداً متصلباً قرب الباب.. قلبه بيده وهو يتلو آية قرآنية..

ظل الجسد متكوراً.. وعيناه متوقفتان ومذعورتان جداً.

* * *

الأجراس*

-1-

إنك تزرع شارتك دوماً في القمة أيها الموت.. وتختار الأقاصي حينما تنحسر من منعطفات خبيئة.. تتوقف ثم تترك أثرك وتغيب..

-2-

امتد وجهه السمين يحدق بعينين خاليتين.. وأرتج عرق بارز في رقبته حينما قال:

- لا تنس أبداً.. عندما ينقطع المطر تتيبس الجذور.. شاحنة اللحم تقترب مني أكثر وهمست هي أخيراً.. فأكثر، وتدس لهثة الكلمات في عظامي.. واستأنفت الشاحنة.

- وستحترق العروق الظمآنة.. إذن.. فليبق المطر معلقاً فوق جسد الأرض.. ولأبق منتظراً الصباح من وراء الباب المغلق..

-3-

كانت مؤجرتي تدفع الفحم في المنقلة وأنا مقرفص على حصيرة ملونة أغمس عيني في باب المنزل المسود.

- كان أصحاب المنزل قد تكرموا بالسماح لي بالجلوس معهم على دفء النار قبل يومين.. وأبصرت قدم مؤجرتي التي تكاد تصيب الأربعين عاماً.. بيضاء يرمي عليها اللهب لمعاناً مشهياً.. كان زوجها يجلس في طرف الغرفة مسترخياً واضعاً قدميه تحت بطانية عتيقة ويسحب أنفاس نركيلة..

رفعت رجلي قليلاً.. من جانبي ألقى علي نظرات سريعة وخاطفة.. وغامضة.. كان الصمت يزيدني جفوة ويهرب الطمأنينة من رأسي.. طويت زوجها بنظرة فارغة..

---

* نشرت هذه القصة في مجلة البريد الأدبي، 1968/1/28، العدد14.

- لا نعرف أين تشتغل.. فأنت لا توضح شيئاً يذكر.. لم أهتم كثيراً بسؤالها- فقد دفعت لها الإيجار مقدماً- لكن أجبتها ببطء:

- آه.. وأتمت بتراخ- السيكاير.

سوت ثوبها وأنزلته الى حافة كعبها ثم أدخلت كفها في فتحة ثوبها وحكت كتفها وهي تحدق عبري.. غرباء متجافون..

هكذا وجدت جسدي يضغط هذه الحقيقة إلى الأرض..

وعندما قمت إلى غرفتي تبعتني أربع عيون جافة.. حقاً عندما ينقطع المطر تتيبس الجذور.

-4-

تلاحقت ساعات ضئيلة ولم أسو مسألة ديون الآخرين علي.. جمجمتي مكدودة.. منذ أشهر فصلت من عملي بدون سبب ولم يعطوني مكافأة على خدماتي السابقة ولا أي مبلغ آخر.. كانوا يتهربون مني خشية، فتتجه إليهم الشكوك.. وكانوا ينشغلون بأعمال لم أبصر واحداً منهم يؤديها طيلة سنتين وأربعة أشهر- مدة اشتغالي معهم-.

- نظرت إلى النافذة.. لا زالت كتلة الظلام تتسطح.. وسمعت كرة الباب تتحرك.. أدرت عيني وشاهدت مؤجرتي تدخل وتغلقه بهدوء.

جررت جسدي من الفراش وجلست.. قالت: تركته ينام وجئتك.. أفسحت لها مكاناً فالتصقت بجانبي..

-5-

انحدر من خلف الباب سعال متصل.. قالت: إنه هو.. لم يكنْ نائماً إذن!!. لم أدر ماذا أعمل فقد تغلغل يأس جاف في مخي.. المطر ينقطع.. ستحترق البراعم حتماً.. هبت مؤجرتي وأسندت الباب بكتفها.. دفع زوجها كلماته:

أين تفرين.. لقد رأيتك تدخلين هنا.. سيرى عشيقك أية نهاية سيلقاها.. أشارت بيدها أن أساعدها.. قمت إليها ووضعت كفي على الباب.. كنا ندفع.. وأنا أضحك من سخافة موقفي.. وكان هو يضغط من الجهة الأخرى.. ومن أفنية بيوت بعيدة.. ارتفعت أصوات الديكة بينما الفجر ينزل.

صفير الرحلة*

لقد كبرت الرحلة يا عباس.. كبرت.. وصار الجار لا يعرف جاره.. والرضيع ينكر أمه إذا فطمته.. و(تتكتك) هذه المرماة في الزاوية الموحلة لا يقترب منها الناس.. إنهم يذهبون الى المخازن المضاءة حيث يضعون لهم الحلويات في علب.. قم إلى الطرق الواسعة وبع هناك.. انهض فعظامك تهرأت في هذه الأزقة الرطبة..

- لا..لا.. لن أنحني لازدراء أولئك الناس الجدد الذين يرمقون بأعين نصف مغمضة..

- سنلتصق بالجدار صباح مساء، وتجر قدميك اليابستين الى كوخك الطيني خارج المدينة كل يوم.. وتلعن أجداد–كريرة– امرأتك.. ألم تمل من الخبز والكراث والقمل؟. لقد آلمتك نقمتك يا عباس يوم وقفت تتشاجر مع أخيك الكبير وأبناء خؤولتك على تزويج أختك من ابن عمك السارق.. أكلتك نقمتك وأنت تتبرأ منهم وتلعنهم ثم تهرب.. وها هي رياح المدينة تطيرك ورقة ذابلة من أزقتها المهجورة.. يا عباس بعد تسع سنين تبصر الزقاق الضيق المعتم وقاعه منقوع بالطين، ورائحة زنكة تثقب رأسك..

- أين كنت يا عباس وأين صرت.. طردت نفسك من ضفة الفرات.. من الناس الطيبين الذين يقضون أوقاتهم في دواوين أكواخهم يشربون الشاي ويتحدثون عن الزرع والحج والزواج.. وحيث كل واحد ينادي الآخر باسمه. إنك الآن مدين بنصف دينار لجارك.. وامرأتك عاقر محبوسة ليل نهار في الظلام..

لقد بددت فتوتك في الأزقة.. ورفضت المصنع الصارم.. بل رفضك هو، فالقرويون لا مكان لهم مهم داخل المصانع الكبيرة.. ورغم فقرك أبيت أن تكون خادماً.. وحملت كبرياءك مالئاً بها صدرك النحيل.. ماذا حصلت بعد تسع سنين..

*** نشرت هذه القصة في مجلة الشباب، كانون الاول 1968، العدد 6.**

- أين فلوس هذا الطفل- ألا تستحي- تضحك عليه وتسرقها منه؟

رشاش من صوت خشن تفجر من فم امرأة بدينة مخبأة في ملابس سود ووجهها حفرته أخوات بغداد..

أرتج عباس- ماذا يقول هذا البرميل من اللحم؟. سألها بهوادة:

- تقصدين أنا؟

مدت يديها ضربت بظهر يدها اليمنى على باطن يدها اليسرى ضربات متتالية وسريعة.. وبصوت سافر قالت له:

- لا.. غيرك.. ثم احتقن وجهها المأكول

- لو كنت رجلاً شريفاً- ما سرقت فلوسه.. أنت تتسرب إلى جوف الأرض يا عباس وتغوص.. دماؤك تنضب.. ووجهك يتيبس.. وذل السنين السبع يطمرك ويصيرك جثة منبوذة.. تشرب هذه الأفاعي وأرشف سمها باستكانة.. محا عباس صوته المرتعد في جوفه.. ثار:

- اذهبي من أمام وجهي وإلا هشمت رأسك..

شحب برميل اللحم.. ساق الدرب أناساً كثيرين، صغاراً وكباراً و- حاصروهما في الزاوية.. صرخ برميل اللحم..

- تجسر علي وأنت أوسخ من الزبل!

لحظات جافة يا عباس لن تتخلص منها بيسر وفيها مصيرك يتذبذب..

- لم أجسر عليك.. أستغفر الله.. أنت سببتني واتهمتني بالسرقة.. كانت عيون الواقفين مشدودة إليهما بضيق.. والتمت عيونهم جميعاً على فم المرأة حين انفتح..

- لن أكف عنك.. ولن تبقى في هذا الدرب.

تحولت العيون إلى الرجل.. ها هي لحظة الانفجار تفتح بابها فجاهد لتغلقه وإلا سترمى منه كالنفاية.. لا تتخاذل يا عباس ولا تنتبه إلى هؤلاء الناس الذين يقفون وراءه..

-اسمعي، إنك لن تخيفيني بصراخك.. اذهبي فأنت البادئة بالاعتداء..

شق الوقوف شرطي متكلماً بخشونة:

-ماذا يحدث؟

بادرته المرأة:

- سبني وأراد أن يضربني..

صمت الواقفون.. والتقط الشرطي زند عباس وضغط عليه:

–هل من الرجولة شتم النساء!!

وقال عباس محاولاً الانتصار:

- لم أقلْ لها حرفاً واحداً.. اسأل الحاضرين.

تفرس الشرطي بوجوههم فلم يجيبوا.. غلظ صوت الشرطي:

- لا نريد المشاكل.. اذهب من هذا المحل ولا تعدْ إليه.. التقط عباس التنكة وخطا بموازاة الحائط.. أنت تقوم أخيراً ومخالب العيون تمزق ظهرك.. ارفع التنكة إلى أعلى قليلاً.. واحمل الرزء ياعباس فالمدينة لا ترحم الضعفاء ولا تجاملهم.. اعبر هذا الضجيج وتخطّ شريط الحديد الى (كريرة)..

حول عباس التنكة من حضن يده اليمنى إلى اليسرى.. ألقى نظرة واهية على الطريق وكان القطار في المحطة المجاورة يطلق صفارته إيذاناً بالابتداء...

* * *

في ماضٍ ما.. في الحاضر*

أكره صوت القطار لأنه يذكرني بك. لكنني مرغمة على الاستماع إليه. إنه يمر أمام بيتنا في الساعة السادسة. وسيعبر بعد قليل إلى الغرب.

كانت تتكلم..

- إنك لا تتحرك. جامد عندما تجيء إلى بيتنا تكلمهم جميعاً وتغرب عينيك عني. لماذا؟

كنت أحس أنني طفلة صغيرة لا تثير اهتمامك. وحين تكلمنا أخيرا اندفعت إليك لنتوثق أكثر.. لكنك لا تتحرك.

وكانت تتكلم...

– لا أريد أن أفارقك إلى الأبد.

قلت لها – إنني مطوق.

- أعرف ذلك. ولكن لابد أن أراك.

- سآتي غداً.

- سنطفئ المصعد ونبقى معلقين بين الأدوار– وحدنا. ساعات كاملة هل توافق؟

- آه أيتها الصبية المبتردة. إنك مجنونة.

- اصمت القطار يعبر. ألا تسمعه.. وكانت تتكلم:

- أود لو أعلقك في صليب هائل ثم أحمل سوطاً وأنهال عليك ضرباً ثم أنزلك ونجلس سوية نبكي. وكانت تتكلم:

- إنك عملاق تسد علي الدنيا كلها.. وأنا ضئيلة بجانبك.. إن عينيك لامرأة عرفت رجالاً كثيرين. وما أريده – صدقك الكامل.. قلت ذات يوم.. إنك لم تعرف غيري من الرجال كيف أصدق امرأة متحررة ومشاكسة لم تعرف رجلاً قبلي. لم أطلب منك إيضاحات حول هذه المسألة. إلا أن الكذب

*** نشرت هذه القصة في مجلة الف باء، 12 آذار 1969، العدد 36. يبدو ان القاص يشير هنا الى شخوص حقيقية مثل عبد الرحمن مجيد الربيعي ومؤيد الراوي...الخ من الذين كان يرافقهم في المقاهي الأدبية في بغداد الستينيات. (المحرر)**

هو الجدار النهائي الذي لا أغفره. وها أنت تميلين في صدقك، تطرحين ازدواجاً قاتلاً وتتسطحين في النهاية مع قدمي.

- هل تحبني؟ كم أنت مضحكة يا منال. إن لعبتنا صارت مملة..

في المقهى كنا نتمدد فوق الكراسي اللينة. إنها يومنا الأبدي.. سامي بصلعته المبكرة يشتم محمود درويش وكل خونة فلسطين.

شريف يطارد المزيفين بصخبه وفكاهاته.

عبد الرحمن يهمس لمن يجاوره بحبه الأخير.

أحمد يحصى أرقام الملاعق والأشواك التي سرقها من البارات.

مؤيد مازال عاطلاً.. وكثيرون.. إنهم المدينة.. ونظل في المقهى.. نناضل فوق المقاعد اللينة..

إننا ملتصقون.. ومنفيون..

- منال: أنت طارئة ودخولك لم يكن موثوقاً به.

منال كم أود لو تفهميننى.. صديقي قتل في المظاهرة.. وآخرون سجنوا..

الفقراء يموتون على الأرصفة وأقدام الشرطة تدفعهم لتغيبهم في الأزقة.. والمحتكرون يملكون المدينة.

الدماء ملء الأفواه.. الدماء ملء العيون. كم أود لو تفهميننى. وأقول لها – لا أستطيع الخروج برفقتك.. لو تفهميننى..

- لا أريد أن أفهم شيئاً. أنما أريدك. أنت تقسم علي. أنا أحرص عليك أكثر من نفسي. الأشياء فقدت شرفها. ولم أعد أحرص على شيء.. ما أكثر وأسهل طرق الموت في هذه المدينة.

لكنك تقدسين جسدك في قسري وحنيني.. وأهتف بها..

- " سنخرج معاً. انتظري بعض الوقت. وسنلتقي كثيراً. وتمدين جسدك عبر أسلاك التلفون لأتحسسه وأغمره.. انتظري بعض الوقت."

كل منا يعرف على طريقته كما يبدو.. كان بإمكاني أن أغمر جسدك الى مكتبي وأغلق الباب.. لكني لن أفعل ذلك. وإنْ كنت أشتهي أن أفعله.

كنت أسرع لأراك.. منذ أسبوع لم أسمع صوتك. وقد قررت أخيراً أن نتوثق معاً وكلياً. وجعلتك من اهتماماتي النهائية. ووقفت في المحطة أنتظر خروجك. وعبرت أمامي مع رجل آخر.

- منال. لماذا كنت معه؟

- لم أكن. إنما هو الذي مشى الى جانبي.

- وكيف ارتضيت؟.

- لم لا.. كان.. لا أدري.

- منال، لا تكذبي.. لو لم تريدي ذلك، لما كان يستطيع. وعرفت أنك كررت عليه أحاديثك لي.

المرأة التي تتوثق مع رجلين عاهرة. وأيامنا الفائتة تجعلني أحرص عليك رغم أنك انتهيت.

–احذري أن يعبث بجسدك ذلك الرجل، فتسقطين الى الأبد. المدينة صغيرة وآلاف الذكور ينتظرون من تعهر ليزحفوا اليها. لا تقسمي بأنك تحبينني وما زلت حبك. لم أعد أصدقك فقد رأيتك مع رجل آخر.

وبغضب نهائي مزقتها

- إنك سهلة.. سهلة.. تدعين جسدك لمن يلتقطه..

- (وجع: وجع: وجع)

إنك تبكين.. لا تبكي أيتها الخائنة.. لن نلتقي بعد الآن.. ولكنك في دوماً.. المدينة صغيرة وآلاف الذكور ينتظرون..

ملايين الذكور ينتظرون

وأنا انتظر.

* * *

الضوء والغبار*

-1-

كانوا يتقاطرون: من الواحات، وضفاف الفرات، والقرى الصحراوية، لوريات مملوءة بالبدو والفلاحين والتجار والمهربين تزحف الى المدينة. تطلع من رمل الصحراء المحيطة بها.

الغتر البيض والحمر والزرق تتسدل من الرؤوس على الظهور، والبنادق في الأكتاف.. الخيام طويت، والجمال المضيئة تزحف، كانوا كثيرين، وجوههم شاحبة متوترة وينطوون في الظلام – ثمة أمر مبيت وخطير.

اندلع الكلام بين عدة رجال يحتلون سطح احدى المقاهي:

الجميع بالانذار.

نهضوا وتفرقوا في الطرقات، وانطووا مع الغتر البيض والحمر والزرق في الليل.

- 2 -

مكبرات الصوت تغمر المدينة بالصوت المتسق الذي يهوي من فوق المآذن الثلاث.

– ايها المؤمنون، هل ترضون لله ان يسقط.

البنادق بجانب الأجساد المتربعة على الأرض والممتدة كالامواج في الباحة الضخمة .

ارتفعت الرؤوس الى القاضي والعيون تهدر بالفيضانات.

– كلا

امتدت يدا القاضي مفتوحة الكفين منفرجة الى الاعلى، وكمه الفضفاض منزلق عن ساعده

*** نشرت هذه القصة في جريدة العمل الشعبي، 1 حزيران 1969.**

من يقتل احدهم يدخل الجنة.

قطعت الامواج وارتطمت الوجوه الغريبة بآلاف غيرها. الايدي تشد البنادق والخناجر.

صرخة القاضي جمعتهم من قراهم البعيدة: وها هو يختتم خطبته ويترك المنبر فتنفرج الامواج ويتقدم بينها.

خلع عمامته على باب الجامع ونشرها على كتفيه.

تحفزت الامواج وصرخت أصوات: سنعيد العمامة الى رأس القاضي.

استطالت الامواج.

توقف القاضي، وتوقف برجوازيو المدينة الكبار على جانبيه، وانتظمت الامواج خلفهم.

- 3 -

كانت مقرات المنظمات المهنية في منطقة واحدة متقاربة ممتدة في الشارع الرئيسي، وثمة مقاه صيفية بجانبها.

تباحث رجال المنظمات القلائل في الليلة الماضية عن الزحف الذي جاءهم من الصحراء.

– هؤلاء الذين لا يملكون شيئا في هذا العالم خدعوهم وجاؤا بهم ليقتلونا. اما كان الاجدر بهم ان يقتلوا الذين يسلبونهم حتى أجسادهم؟ الفقراء يقتل بعضهم بعضا وكبار المدينة وتجارها لهم كل شيء.

المقرات أقفلت أبوابها، والمقاهي تحفز فيها الرجال.

زحف القاضي وخلفه الامواج ترفع سكاكينها وبنادقها الى السماء.

التمت الرؤوس على سطح المقهى تحدق بالغتر.

انهم كثيرون.

– اذا وصلوا سيحطمون المقرات ويضرمون النار في الكتب والأثاث وسيتصيدوننا في الطرقات برصاصهم.

كان الشارع متحركا بالغتر الغزيرة. رفع احد الواقفين في المقهى الصيفي يده وأطلق عيارا ناريا.

– تركز القاضي والغتر.

- حمل الهواء طلقين آخرين، ثم أربعة ثم ستة.
- ضحك رجل في المقهى.
- القاضي ينقلب راكضا متدحرجا في نهاية الحشود.
- استدارت الحشود وانطوت في الازقة وفي دروب الصحراء .
- اين بنادقهم، اين بنادقكم ايها الجبناء.
- انمسحت الغتر والبنادق من الشارع الرئيسي.

ومن مقهى اخر في نهاية الشارع مزقت الهواء الجاف الراكد رصاصات قليلة فاستدار حشد صغير فارا الى الخلف. نزل الرجال من المقاهي واتجهوا نحو الحشد الذي انحصر. كانت الغتر مبللة بالعرق والغبار، وتفرقوا في الاتجاهات والايدي سقطت منها بنادقها وسكاكينها وهي تحمل ارتجافات متصلة.

* * *

ارتفاع رابع للحركة الحجرية في الجمجمة*

حرك الهواء الباب الخشبي ودفعه بعنف فدوى وهو ينغلق، وارتج الزجاج الخشن الضخم الذي يفصل بين الغرفتين، وتذبذب الظهر الأخضر خلف الزجاج ثم سكن..

الأوراق البيضاء المستطيلة فوق المنضدة. وفتحة الهواء في السقف تقذف من جهات سرية عواءات غامضة.. وعشر عيون تصعد من رقبتي إلى ذقني وصدري..

في الطابق الثالث كانت غرف أيامنا الصباحية تمتد الواحدة في الأخرى، مملوءة برجال ونساء ملونين. كانوا يتلامسون ويربطون رؤوسهم، يغنون ويرقصون ويحزنون ثم يذهبون إلى بيوتهم ليعودوا في اليوم التالي:

- بالأمس اشتريت من السوق قماشاً..
- تذبذب الآخر خلف الزجاج والتوى جسده على المنضدة الغامضة:
- كان غداء البارحة غير ناضج..

تحرك جسد آخر من الزاوية وصار بالجانب الملاصق للزجاج.انحنى ثم انسحب بعيداً واختفى.. وقعت الأوراق المتراكمة دون أن أهتم بها.. فقد وقعت آلاف الأوراق في هذه الغرفة من قبل.. وستأتي آلاف غيرها.. فواجبي أن أكتب وأكتب ثم يأخذون الأوراق مني.

كانت رؤوس عديدة تمتد فوق منضدتي وهي تهمس:

- شد قوتك. يجب أن تملأ الأوراق. وأمسكت بأحد الرؤوس
- يجب أن أفرغ يوماً من هذه الأوراق.
- عليك ألا تفرغ منها.
- سأمزقها.

*** نشرت هذه القصة في مجلة العاملون في النفط ، اذار 1970. يستخدم القاص هنا أسلوب تيار الوعي حيث يدون كل الأنطباعات والأفكار الواردة بدون الرجوع اليها خالقا جوا سرياليا للقصة بالأستعانة ايضا بالتشبيهات والأساليب اللغوية. (المحرر)**

وتقاطعت خلف الزجاج أجساد سرية متحركة، تتوضح ثم تتلاشى، وتعود سريعة في فتحة الضوء المتعلق في زاوية الزجاج المضلع الخشن. جمعت الأوراق البيضاء ووضعتها أمامي ورفعت عيني إلى عشرات الأذرع المشعرة.

كان رسغي يلتهب فوق المنضدة.

في الخارج يتساوى البشر.. كلهم متشابهون.. ارتفعت ذراع مبهمة في الغرفة الأخرى وامتدت ضوضاءات الأصوات.

- الشاي.
- السرير.
- الحذاء.
- الحصان.
- دينار.
- التلفون.
- الحب.

العرق يغطي جمجمتي.. ونهضت لأفر.. وفكرت.. سيمنعني الحارس من الخروج لأن الدوام لم ينته. وسيقول:

إذا كان لي أن أخرج فعلي ألا أعود أبداً.

انسحب شبح في الزجاج وأمسك بقبضة الباب وفتحه واتصلت الغرفتان وامتزجت الأصوات.

جلس الرأس الجميل بجانبي

- ماذا ستفعل
- سافر. ستقتلني هذه الأجساد المغزوة.
- عليك أن تموت من أجل هذه الغرف.
- كلهم ضحايا.. الجلاد وألقتيل.. ضحايا وهمهم الأجوف.

وطردت الرأس الجميل من الغرفة. وانتبهت إلى عواءات الفتحة الهوائية. وحين أغلق الباب، امتزجت الأجساد الغامضة في حركات متقاطعة.. تلتحم وتنفك.. ثم تلاشت جميعها.

خطوات على المنحدر*

ارتج لوري نازلاً في الطريق المنحدر، أمام نقطة الحدود، وهبط من بابه الخلفي رجال ونساء وأطفال، وتجمعوا متلاصقين ببعضهم وهم يحدقون في الضابط الذي اقترب منهم وأخذ يصافحهم.

وتقدمت امرأة فتية، وانحنت والتقطت حفنة من التراب وقبلتها وهي تبكي:

- قيل لي ستقتلين عندما تعودين الى العراق. لأمت الف مرة في العراق ولا احيا خارجه.

وكانت الريح الباردة تهب، فيما التمعت الثلوج على قمم الجبال. وأشار الضابط بيده، وراح الجميع يتقدمون صوب المدينة المهجورة.

* * *

*** نشرت هذه القصة في مجلة الف باء، 1975/6/5، العدد 353 ، مع قصص: اختناق، شمس بعيدة ، رجال الثلج، والجسر الضوئي.**

الأقاصي*

ظلت تحدق من زاوية النافذة الى جثة زوجها المرمية وسط الشارع العريض، وايقنت ان الجميع هبطوا الى الملجأ، وارتعدت عندما شاهدت الزاوية العليا من قميص زوجها تتحرك.

ونظرت الى البناية البعيدة وحاولت ان تعرف النافذة التي يغرز منها القناص الرصاص في جسد زوجها الميت. وانبثق في ذهنها جارها الذي ركض لسحب جثة زوجها، لكنه اصيب في فخذه واختفى في البناية المقابلة.. وهزت رأسها لكنها لم تستطع البكاء.

* * *

*** نشرت هذه القصة في جريدة الثورة، 1977/2/27، عدد 2629، مع قصتي الوليمة وشرفة في بيروت.**

المخيم - 1 -*

تعالى صراخ طفله في المخبأ من بين صرخات أطفال عطاشى عديدين، ونظر الى صنابير الماء التي خربها الأعداء من الخارج، ولمس الاناء الزجاجي الذي جمع فيه النقاط الأخيرة من الماء عندما هز الصنبور بيده واستطاع ان يرقب ست او سبع نقاط تراشقت على زاوية الاناء ولم تسقط اية نقطة فيما بعد.

وركز انظاره على البئر البعيدة وجثة رفيقه المنطرحة بجانبها منذ ساعات ودلوه المتدحرج. ولم يعد يسمع صراخ طفله، وسقط الاناء من يده.

المخيم - 2-

انهمر الرصاص قربه وانفجرت ثلاث قنابل في الزاوية البعيدة من المخيم، وأتاه صوت الرجل الممدد خافتاً:

- آه

وضغط بيده على مسند بندقيته الرشاشة وهو يسمع رفيقه الذي اصيب بشظية في بطنه عندما أراد العبور والوقوف الى جانبه. وصرخ رفيقه من الألم عندما اشتد الدوي. ونظر الرجل الى طريق المخيم الذي يغمره صفير الرصاص وردد:

- انه يموت

ورفع بندقيته غاضباً ووجه ناره صوب جهة الأعداء، واستمرت يده تهتز الى ان نفد رصاصه.

وغمره الاعياء وهو يرى جسد رفيقه يتقلص ثم يسترخي.

---

*نشرت " قصص من المخيم" في مجلة الأديب المعاصر، العددان 22-23، السنة الخامسة، آذار وأيار 1977.

المخيم - 3-

ضغط على عصاه وهو ينتقل بين بنايات المخيم ويتأمل الجدران التي هدمتها القنابل، وهمهم وهو يميل الى جانب فتى:

- انهم يقتلون الجميع

وأراد ان يتوقف ويتحدث عن صورة القتلة المتشابهة ولكن زخات من الرصاص انهمرت على المخيم، ورأى الفتى عصا تطير في الهواء، والعجوز يهتز ثم يهوي على الأرض.

وحدق الفتى في وجه العجوز وارتجف من نظرته الثابتة الحزينة الموجهة اليه.

* * *

الزهور الضوئية*

خفتت كافة الأصوات وتلاشت الضجة التي لاحقته منذ ساعات، وتأمل السرير الذي نقله صديقه ووضعه في غرفته، ونظر الى الكتب المكومة في الزاوية والى زهور الستارة المسدلة، وانتظر ان يعود صديقه الذي هبط الى باحة الدار ليجلب له العشاء، وسمع صوت أقدامه ترتقي السلم، ثم دلف وهو يحمل طبقين ويضغط تحت ابطه رغيف خبز، واعتذر احمد:

- لا اشتهي.

ووضع سلمان الطبقين على المنضدة وامره برفق:

- هيا، لا اقبل اعتذارك. ونهض احمد.

ومع ارتفاع الملعقة البطيء والتصاقها الطويل بالطبق، تذكر المطاردة التي جرت منذ ساعات.

كان جالسا في غرفته عندما سمع رنين الجرس المتواصل، متأهبا وهو يستمع الى صوت ابيه يسأل القادم. وايقن من الضجة المنبعثة عند الباب الخارجي انهم آتون ليقبضوا عليه. وتسلل وخرج من الباب الخلفي الى الحديقة.

وسمع صوت تدفق الرجال الى البيت وصوت يصرخ:

- انه هنا كنا نراقبه.

وحين اعتلى السياج الخلفي أصبحت غرف البيت جميعها مضاءة، وركض في الطريق المظلم واستدار الى منعطف، ثم واصل ركضه، وشاهد ثلاثة اشباح تقبل من اقصى الشارع، فتوقف وراح يمشي وئيداً، وحين مروا به وابتعدوا، عاد يركض من جديد. وأصبح قريبا من بيت سلمان ونظر في امتداد الشارع ولم يشاهد احداً. والتصق بالباب وهو يفكر ان هذا البيت هو ملاذه الوحيد في وقته العصيب ... وقرع الباب.. وامتد رأس امرأة عجوز وعرفت احمد. وخرج سلمان مسرعا ودخلا الى ممر المنزل. وروى احمد حادثته ثم اضاف:

*** نشرت هذه القصة في جريدة الجمهورية ، 14 تموز 1977، عدد 3009 .**

- هل انت مستعد لايوائي؟

وسحبه سلمان من ذراعه وادخله المنزل. واعادت الام الترحيب وانكمشت اخت سلمان في كرسيها وراحت تراقبه.

وحاول احمد في تلك الامسية ان يراقب مدى الذعر الذي يخلفه وجوده بينهم، لكنهم تعاونوا على تهيئة ظروف مريحة له.

واستدار الى سلمان:

- ليس بوسعي بعد ان اتناول لقمة واحدة.

وفي الصباح هبطا الى الصالون وتناولا الافطار. وذهب سلمان الى الكلية وعاد احمد الى الغرفة، وأخذ يقرأ كتابا، ولم ينزل الى الصالون الا حينما عاد سلمان.

ومضت الأيام متعاقبة، متماثلة، واحمد ينتظر الظهيرة ليقرأ الصحيفة التي يجلبها سلمان. وفي الامسيات يكون الجميع في الصالون، يستمعون الى الراديو، ويتبادلون الاحاديث. وبين فترات متباعدة كانت ام احمد تزوره وتجلب له شيئا تحت عباءتها. ولاحظت ام سلمان ان احمد يخفض بصره دائما عندما يتحدث مع ابنتها او حين تصبح أمامه، وكانت الفتاة هالة مقدسة، يستطيع ان يراها بدون ان ينظر نحوها، ولكنه يحجب صورتها ويحميها، وحين يصل صوتها أحيانا اليه في الغرفة، يمعن في القراءة ويحس ان دفقا من الامان يحوطه.

وفي صباح مبكر، أسرع احمد وسلمان بالخروج من المنزل، ثم سمعت الفتاة تصيح وهي قرب الراديو:

- الثورة... انها الثورة.

ونظرت الام الى ابنتها، وازاء الفرح، تملكتهما معا لحظة هلع. وفكرتا بالرجلين اللذين خرجا للمشاركة بالثورة، وعاد سلمان وحده في المساء وهو يحمل بندقية، وسألته أمه:

- اين احمد؟

وانتظرت الفتاة جوابه، وضحك سلمان:

- مر على منزله، انه لم ير أسرته منذ ثلاثة أشهر.

وفاجأت ام سلمان ابنها بعد أيام:

- اليوم جاءت ام احمد خاطبة لاحمد.

وخفض سلمان رأسه وأجاب:

- أعلم ذلك.
- ما هو رأيك؟

ورفع سلمان رأسه ونظر الى أمه والى أخته التي اختفت:

- انني موافق.

وانبثقت افراح عديدة..

* * *

أشنات*

ابتسم الاقطاعي لبنات الفلاح الثلاث، الذي مات منذ شهرين، وكانت مساومته معهن قد نجحت، واتين راضخات لشروطه وقبلن ان يكن خادمات في بيته مقابل ان يعشن في أرضه.

وتأملهن برضا وتخيل اشكال أطفال سيكونون بعد شهور.

* * *

* نشرت هذه القصة في مجلة الف باء، 24 آب 1977، العدد 466، مع قصص: الوهج، الأعمدة الخشبية، الاقتحام، دروع، بيت بعيد، وثقوب.

الأعمدة الخشبية

جلس في الشرفة المرتفعة وكان البحر يمتد متقوساً، وبدا من بعيد أعلـــى من الساحل، ورمق الشارع الجميل ثم عاد ينظر الى البحر.

وتذكر صديقه في مدينته البعيدة الذي حاول ان يثنيه عن الانتماء الـــى منظمة فدائية، وذكره بالبيت والأسرة و الأصدقاء، لكنه سافر وبقي صـــديقه في يقينه بأنه لن يعود حياً، و لن يفترق جسده عن التابوت.

وابتسم بسرور.

* * *

الاقتحام

تحرك شبح أمام النافذة، ولم تواته شجاعته على النهوض والتفرس في الظلام. واقترب الشبح من النافذة ووضع يديه على الزجاج ونقر باصبعه. ولاح له ان للشبح شعراً طويلاً، واتضحت الصورة تدريجياً، لكنها ظلت مختلطة فلم يصدق وهو في خوفه، ان يكون الشبح امرأة.

واستمرت الإشارة تدعوه، ونهض مرتعداً واقترب من النافذة، وشاهد جارته التي تيقنت من نوم زوجها.

وقفزت من فوق الجدار الذي يفصل بين منزليهما.

كبر حقده نحوها، وسحب الستارة وهو يرتعد وحجب تماماً. وعندما تمدد على فراشه، لم يزاوله خوفه، رغم انقطاع النقرعلى النافذة منذ وقت طويل.

* * *

دروع

فتح الرجل العجوز عينيه وشاهد اقاربه المحيطين بسريره بعيدين جداً.

وأغمض عينيه، ثم مات.

* * *

بيت بعيد

لم يكن الرجل يحمل ضغينة لزوجته عندما ضربها بالمطرقة، لكنه ثـار فجأة عندما شتمته، وها هي ذي راقدة في المستشفى حيث اقتادته الشـرطة. ووقف الطبيب في الجانب الثاني من السرير يراقب وجه الزوج.

ولم يقل الزوج شيئا، وانتظر مع الآخرين تعليق الزوجـة علـى سـؤال المحقق:

– لماذا شتمته؟

وأجابت بوهن:

– أكرهه

وعاد المحقق يسألها عن سبب كرهها له، ولم يظهر عليها أنهـا تأبـه للزوج وأجابت:

– لانه يحبني

وتراجعت الانصاف العليا المنحنية للرجال الى الوراء ثم انحنـت تتبـع صوتها:

– انني أكرهه لأنه يحبني، لهذا شتمته.

صمت الجميع وهم ينظرون الى المرأة التي تهشم رأسها وهـي تطبـق علينا.

وأشار الطبيب اليهم ان ينسحبوا لأنها أصبحت متعبة لا تستطيع الكلام. خرج الجميع وأغفت المرأة.

* * *

ثقوب

في المرة الاولى التي ذهبت فيها الى حفل، هلعت عندما راقص زوجها ابنتهما، ورضخت في المرة الخامسة لإلحاح الاصدقاء عندما طالبوها ان تشرب قدح بيرة وهي تتذكر بمرح كيف ضربها ابوها قبل ان تتزوج حين رفضت ان تلبس النقاب واكتفت بالعباءة.

ومالت نحو زوجها وهمست:

- سأسكر.

وكان الزوج لاهياً يراقب الشباب الراقصين ويبدو حريصاً على الا تفوته متعة فيما بعد، وأجابها:

- اسكري

وكان الرجل ينظر الى الفتيات، وكانت هي تنظر الى الرجال، ولولا ابنتهما التي تجلس بينهما، لاعتقد من يراهما انهما لا يعرفان بعضهما.

* * *

القفص

انت تتذكر ايها الرجل، امرأة، كنت حميم العلاقة بها قبل سنوات ولم ترها بعد ذلك أبداً. آه. انك تختبىء بين أطفالك وامرأتك سليطة اللسان. انك تختبىء كالقنبلة، لكنك لا تدري ماذا تفعل ايها الذئب الوديع.

وينظر الرجل الى امرأته وأطفاله الصاخبين ويعجب من تورطه في آلامه.

آه ايها السادة والسيدات، كم منكم انقلب الى ذئب وديع بعد زواجه؟

ويبقى يحلم وسط غابة الذئاب الوديعة.

* * *

أبواب مضاءة.. أبواب مغلقة

عندما فتحت باب السيارة أخيراً، وقبلت ان تمضي مع الرجل، لم تأبه بنظرات صديقتها التي رمقتها وراحت تصفر .

ومضت ترتب اجوبة عن الاسئلة التي تطرح عليها وهي تختصر في ذهنها الرجل الذي لاحقها بسيارته حتى أصبحت معه

ونظرت الى جانب وجهه المبتسم، وارتعشت. وانبثق ندم عميق في داخلها لمجيئها معه، وأرادت ان تهرب، لكن السيارة أصبحت بعيدة عن المدينة.

* * *

طاحونة

تثاءب الحارس وهو يحمل بندقيته، وينظر الى الحدائق السوداء ويتسمع. وتوقفت سيارة أمامه، وفتح سائقها الضوء الداخلي وشاهد امرأة جميلة. ناداه السائق وهو يشير الى المرأة:

- خذها

وفتح الباب ثم دفعها وتحركت السيارة وصرخ الحارس:

- قف، قف

ورفع بندقيته ولكنه تذكر الاوامر فخفضها ونظر الى المرأة حائراً. وسمع صوت السيارة تدوي بعيداً.

* * *

رجال الثلج*

كان الجنود معزولين في القمة، بين الثلوج منذ أربعة أيام، ومضى الضابط يتسلق الجبل زاحفاً ويدوس الثلج برفق، وأصبح بين جنوده الذين جاؤا من الجنوب المغلي بالشمس الحارقة.

وتذكر مدينته الفراتية التي زارها قبل أيام والنهر الأخضر الغامق العفن واسراب الدود الأصفر على سطحه الراكد وزهوره اليابسة في حديقة منزله الصغير.

وعبر مرح جنوده المعزولين في القمة، سمع بغتة الماء المتدفق ورأى الزهور الملونة تتفتح في كل الامتدادات.

ولمس العراق.

* * *

*** يذكر ان القاص خالد الراوي اراد ان يسمي مجموعته الرابعة رجال الثلج بدلا من العيون.**

صدى

هدرت الاغاني الحماسية في مكبرات الصوت ووصلت صاخبة الى العجوز الذي ابتسم ساخراً والتفت الى زوجته قائلاً:

- الى اين سنصل؟

وهزت زوجته رأسها مؤيدة، وان لم تسمع ما قاله بوضوح.

وكان العجوز لا يخرج من منزله ولا يزوره سوى بعض اصدقائه القدامى ويدور حديثهم عن ذكرياتهم في العهد القديم ويقارنون بها كل احداث العالم التي تخطر ببالهم.

وعاد يصيح بصوت اعلى:

- اين نذهب؟

وبادلته زوجته نظرات القلق والانزعاج. وحملق العجوز في زوجته ثم سد اذنيه بسبابتيه وفعلت هي مثله.

* * *

توهجات

انحنى القاضي منصتاً الى الفتاة وهو يسألها ان كانت تقبل بالسيد ب. ع. ع زوجاً لها، وسمعها تردد بخفوت وحياء:

- نعم. واستدار عائداً الى الغرفة ومضى يوقع في دفتره، وتبادل الجميع التهاني.

ورن جرس الباب ونادى والد الفتاة ابنه الكبير:

- انظر من بالباب؟

وعاد الابن الكبير هلعاً:

- انهم الشرطة

وقفز والد الفتاة منذهلاً وهو يتساءل:

- ماذا يريدون؟

وردد ابنه:

- لديهم امر بالقاء قبض.

وارتسم الذعر على الجميع وشحب وجه العريس. ووقف ضابط الشرطة في باب الغرفة ثم اتجه صوب السيد ب. ع. ع وقال له:

- انت مقبوض عليك.

ونهض الشاب محاولاً ان يجد منفذاً له، لكنه أذعن أمام العيون المحدقة به. وسأل والد الفتاة الضابط:

- ماذا فعل؟ ماذا فعل؟

وضحك ضابط الشرطة:

- ألا تدري ماذا فعل؟ يبدو عليك انك تحاول ان تسخر مني.. انه...إنه امة عربية واحدة!

ثم أمرالسيد ب. ع. ع:

- تقدم

وابتسم ب. ع. وخرج من الغرفة وسمع صوتاً نسائياً يتعقب رجال الشرطة:

- يا قتلة الافراح

وجمع القاضي اوراقه، وهو يتمتم، بفزع، آية قرآنية.

* * *

الفرن

اتسعت حدقتا السائق في الاصطدام المباغت للحظة واحدة ثم انطفأتا، واخرجوا جسده من سيارة الأجرة التي يسوقها.

وحام صاحب السيارة حولها وراح يحسب ما سيكبده اصلاحها ولعن سائقه الميت.

وفي منزل مهدم، وقفت امرأة السائق وأطفاله يبكون حول الجثة.

واستمرت الحياة في بغداد.

* * *

الشبكة

حاولت الفتاة ان تروغ من ابيها، لكنه ارغمها بنظرته الصامتة الصارمة:

- ادخلي وحييه.

ودلفت الفتاة الى الغرفة وجلست بجانب الرجل الذي وافق عليه الاب زوجاً لها، وإنشا الاب يرقبها متوعداً.. وسمعت الرجل:

- ما شاء الله.

ووضعت اصبعها في فمها، وضحك الرجل:

- تحدثي يا امرأتي.

واستدارت وأصبح وجهها قريباً من الرجل، وبغتة تقيأت على وجهه واندفعت هاربة.

ووقف الاب يعوي وسط الغرفة..

* * *

دوائر

حاول السائق العثور على الطريق الذي اضاعه في الصحراء الشاسعة ثم أعلن عن نفاد الوقود، واطفأ المحرك. واتفق الركاب الخمسة على السير في اتجاهات مختلفة، وعند عثور احدهم على علامة تدل على الطريق يعود الى السيارة. وانطلق الركاب واختفوا جميعاً في الآفاق، ثم عادوا تباعاً، بعد ساعات، وهم يلهثون من العطش، وارتموا واحداً بعد الآخر على ظل السيارة ثم ازدادوا التصاقا والشمس النارية تحوطهم.

وراح سراب كل واحد منهم يخترق سرابات الآخرين.

* * *

المدخنة

تفحص الشاب الآتي من القرية الصغيرة النائية فتيات العاصمة بأسى، وتذكر فتيات قريته اللائي لا يمكن مقارنتهن بهن.

وآمن الشاب المعدم انه لن يعرف فتاة جميلة وانيقة او يتزوجها في يوم ما.

وانعطف الى درب خال وخلع حذاءه وراح يضرب به رأسه بقوة.

* * *

شرارة

فتش الهارب عن مخبأ يتوارى فيه، وأصوات ونداءات تطارده في الازقة المتشابكة وهي تعلو خلفه كلما ابتعد عنها، ووجد باباً مواربا فدلف عبره وأقفله، وتوقف في الممر المعتم يستجمع انفاسه اللاهثة، وارتاعت امرأة لمحته من باحة المنزل وهتفت:

- من بالباب؟

وتقدم الرجل خطوات ثم توقف وأعلن:

- انا.

ونادت المرأة زوجها الراقد في الغرفة، وسأله بريبة:

- ماذا تريد؟

- انهم يطاردونني.

وتقدم منه الزوج

- انت هارب؟ هيا اخرج.

وهز الهارب رأسه يائساً، وطوقه الزوج واندفع به صوب الباب وقذفه الى الخارج.

وتعالت الصيحات المنتصرة قرب الباب وعاد الزوج الى سريره ضاحكاً.

* * *

الغرق

كان مجده في الحياة انه أصبح مديراً قبل ان يحال على التقاعد، ولا يني عن ثناء جهوده في تلك الأيام الصعبة ويردد دائماً انه وضع اسس مديرية ما زالت تعمل حتى اليوم.

- عشرون سنة.

كم هي طويلة تلك السنوات التي جلسها في بيته وكم راودته فيها الاضابير والتواقيع والاوامر والنصائح.

وتاق قبل ثلاث سنوات الى زيارة (مديريته) لكنه تاه في اروقتها، ولم يعرفه احد سوى فراش عجوز، ولم يبح لنفسه ان يتوقف ويتبادل معه الذكريات.

وخابت امانيه في ان يسمع يوماً بابه يطرق ويستشار في معاملات الدائرة. لقد نسيه الجميع.

* * *

رياح ليلية

تمر الأجساد بطيئة متلفتة عبر الجدار، لتبصر شيئاً وتتلكأ متعذرة بسقوط شيء، او اختلال يسير في الثياب، ثم تمضي، وتود لو يتاح لها ان تضع مرافقها على الحائط وتراقب المنزل الى الابد، ولكن هناك انظمة واعرافا، تجعلها تتحرك مبتعدة، ثم تعود مرات أخرى.

في الدار امرأة حسناء وحيدة، يقال انها ممكنة بالرغم من ان احداً لم يصل اليها. وهي تبدو أحيانا في الحديقة بثوب شفاف. وعندما تخرج الى الشارع تتجمع الاعين على فتحة صدرها، وأجساد تتحرق الى ان تنقض عليها، وأحيانا يقرع بابها، ويسأل جسد سؤالاً باهتاً، فتجيب عليه ببرود فيمضي. وأحيانا يقرع في الليل ويتلقى الجسد بصقة على وجهه فينصرف مذلاً.

* * *

رياح ليلية ، رياح ليلية

المرأة في المنزل، تتحرك بين الغرف، او تتفرج على مجلة، ثم تستمع الى الصمت الذي يملأ المنزل، فتلقي نظرة من الشباك الى الشارع، وتبصر أحد المتلكئين قرب الجدار، وهي تعرفهم جميعهم، فقد مروا مئات المرات، مئات المرات، مئات المرات..

وأصبح مرورهم عادة. وهي تنتشي عندما يطيل احدهم الترصد، لكنها تكره أجسادهم، ولعلها تكره اي شيء مألوف لديها ويتقصدها.

وهي تعرف بدقة، الاوقات التي تمر فيها أجساد كثيرة، فتخرج الى الحديقة بثيابها الشفافة، ولا تنظر أبداً الى جهة الجدار. وعندما تتأكد ان العيون تملت بها، تدخل الى الدار وتختبيء خلف النافذة وتراقب بشغف، الأجساد الهائجة المتوثبة وراء الجدار.

* * *

رحلة فوق التلال

رأيت عبر باب التلفون الزجاجي، امرأة ، في نصف عمرها تبتسم بعد ان كانت تنصت الى الحديث المتسرب من فتحة الباب العاطل، وسحبت هي الباب وقالت متسائلة بعبث:

– كنت تتغازل؟

وفاجأتني عبارة المرأة التي لم اكن أعرفها سابقا، وتحول احتجاجي الى يدي فقرصتها في فخذها وتراجعت خطوة الى الوراء، وقالت:

– ما هذا؟

ولم يكن غضبها صادقا كما انني لم اخف... وتراجعت المرأة، وغادرت مبنى البريد بدون ان تستعمل التلفون. ولبثت انظر الى الموظفين المنهكين وراء المناضد العالية والستارات الزجاجية وتيقنت ان احداً لم ينتبه الى فعلتي، وغادرت المبنى.

فتماسكت وانا اتوقف بجانبها وبادرتني:

– كيف جرؤت على ذلك؟

– انت اثرتني

وتلفتت ثم سألت بعجلة:

– هل لديك مكان نذهب اليه؟

وتحركنا، وانا أتأمل ملامح وجهها، لأكتشف ذلك الملمح المشترك الذي يرتسم على وجوه العاهرات.

وانتبهت وحذرتني:

– انني امرأة محترمة

فكانت هي سيدة فعلا بمشيتها المتئدة ووجهها الوقور، ولكن فضيحتها في صوتها الأبح.

وصعدنا سلم العمارة، ووقفت خلفي عندما قرعت الجرس.

وقلت لصديقي:

– معي امرأة
وأدخلتها غرفة النوم، وعدت الى صديقي المرتبك وبادرته:
– انها صديقتي
وضحك ساخرا:
– من اين لك هذه الصديقة، لم أشاهدها من قبل ولم تتحدث عنها يوما وهي أكبر سناً منك.
ورجوته:
– انها صديقتي
وأذعن بخيبة وعدم تصديق.

******

وذات يوم، ونحن نمشي في الطريق قلت لها:
– تعالي هنا، هذا بيت صديق.
وتبعتني. وحين أصبحنا في البهو، وجدنا مجموعة من الرجال الريفيين متكورين بعباءاتهم، ولم نستطع التراجع. وسمعت صديقي يهمس:
– انهم أقاربي.. هل هي..
وعاجلته:
– انها صديقتي
وخفت صوته:
– احذر منهم، فهم يبحثون عن امرأة.
ونهض أحدهم وأمسكها من ذراعها ، ودفعها نحو غرفة النوم فتعلقت بعباءته:
– الى أين؟
وأجاب ببرود:
– المسألة واضحة.
فأجبته بحدة:
– انها صديقتي، ولن أسمح لك بلمسها

ونظر الي ثم الى جماعته، وأطبق عليّ وأخذ بدفعي.

وتلفت مستنجداً بصديقي الذي اختفى.

وفتح الرجل الباب ودفعني الى الخارج. ولمحت من خلال الباب قبل ان يقفل، الرجال الخمسة ينهضون وينقضون على المرأة.. وتناهى صوتها المتراخي يستنجد بي. وآمنت ان الباب لن يفتح مهما قرعته. وابتعدت دائما بالهوان والغضب.

ثمة حياة جديدة، غير مألوفة، تنبثق في المدينة، والأخلاق الزائفة المستهترة تعلن عن تحديها، ومن يستطيع وقف الانفجار داخل الإنسان؟

وحين ذهبت اليها، معتذراً، ابتسمت وقالت أن لابد لي في الأمر.

وكانت قد لاحظت النظرات المختلسة بيني وبين الصغيرة المعذبة، ودفعتني لتوثيق علاقتي آملة ان أتزوجها.

وهجست، فيما بعد، ان الفتاة ترتاب بعلاقتي مع أمها، رغم أنها لم تشاهدها في وضع يتعدى جلسة الجيران الأليفة.

وذات يوم منحتني الفتاة فرصتي في اتخاذ موقف حين عادت عصراً من مدرستها. كنت جالساً مع أمها في الصالة، وبعد ان دخلت تلبثت قليلا معنا ثم أعلنت انها ذاهبة الى الحمام.

وسمعنا باب الحمام ينقفل، وهرعت الأم الى باب الصالة وأوصدته ثم تمددت الى جانبي.

وفجأة، اندفع باب الصالة، ووقفت الفتاة منذهلة، تحدق الينا ثم صرخت بهستيرية:

– ماما، ماما

وهوت مغمياً عليها.

وتخطيت جسد الفتاة وصممت على قطع علاقتي بهذا المنزل الى الأبد.. وعندما ابتعدت أحسست اني أتحرر من قرفي المستجد.

* * *

انـهماكات

تدلى الفتى في أساس المجاري المحفورة حديثا، وهبط الى القاع وســـوى كمية من التراب وجعلها وسادة ثم فرش فوقها جريدة، وتمدد. وشعر ببروده أرخت جسده. وكانت المجاري ملاذا بعد ان خرج من أسرته.

وتوقف حارس ليلي بجانب الأساس وراح يتبول فوقه، وانـــتفض الفتـــى وانزوى مبتعدا.

وعندما انصرف الحارس بقي الفتى متصلباً في جلسته.

* * *

الغرق... الغرق

أقفل الموظف القديم باب داره، وتشدد مع أفراد عائلته في الخروج عندما سمع نبأ تأميم شركة النفط التي يعمل فيها.

وتناهت اليه أصوات المظاهرات التي تطـــوف فـــي المدينـــة ولعلعـــة الرصاص الذي يطلقه المتظاهرون ، غزيراً لا يتوقف.

وانبثق خوف ارتج من أعماقه عندما تذكر التقارير التي كتبها حول عمال عديدين، فصلوا وسجنوا إثرها.

وعندما انتبهت زوجته في الصباح الى أنه لم يصح في موعده، حاولـــت إيقاظه، ولم يستيقظ، وكان قد مات قبل ساعات بالسكتة القلبية.

* * *

مصرع...

فتح الراكب باب الباص الأمامي ونزل وانحنى انحناءة خفيفة لرجل الدين وطلب منه ان يأخذ محله، واعتذر رجل الدين وهو يلتفت في رحبة السيارات، ووافق عندما وجدها خالية.

وتراجع الراكب الى الظل ينتظر سيارة أخرى الى الجنوب. وانطلق الباص وركابه.

وأرجع رجل الدين عمامته قليلاً الى خلف رأسه، وارتفعت دعاءات الركاب.

وانسرب الهواء اللافح داخل الباص المتموج في سيره. وحين مرت السيارات فيما بعد ، وجدت الباص منسحقاً ومقلوباً على الجهة الأخرى، وثمة لوري تهشمت مقدمته على جانب الطريق.

وقال رجل شرح للعابرين أن سائق الباص أصيب بنوبة قلبية قبل الاصطدام.

وحدق الراكب الذي تخلى عن مكانه، في الجثث المهشمة، ورأى جثة رجل الدين.. وغمره حزن وفرح هستيريان.

* * *

سحب

وضع حقيبة السفرعلى الأرض ونظر الى المدينة:
الى المحلات والشوارع والسيارات والعابرين وبحث عن وجوه النساء.
كان متعباً وعرقاً. ورفع حقيبته ومضى يبحث عن فندق، ثم دفع باباً وصعد.
وحين دخل الغرفة ارتمى على الفراش بملابسه.
وتطلع من خلال النافذة الى العمارة التي تواجهه والى شبابيكها المفتوحة والمغلقة.. وبدأ يتذكر وطنه الذي تركه وهو لا يعرف ما سيفعله.
وانتبه الى نافذة انفتحت وأطل منها وجه طفل نظر الى أسفل ثم تراجع وأقفل الشباك.
وانقلب الرجل الى الجهة الثانية وحدق في الجدار، وغمره إحساس عنيف بأنه تائه.

* * *

اختناق

جلس العجوزان، الرجل وزوجته، صامتين على الدكة العليـــا. وحـــدق الرجل مكدوداً في الوجوه التي تمر أمامه، ثم خفض رأســـه عنـــدما خـــلا الطريق في الليل، والتفت الى زوجته وقال لها برقة:

– لندخل.

وتوجهت المرأة الى غرفة طينية ملحقة بالمقهى هيئـــت كغرفـــة نـــوم. وجلس الرجل على تخت يقابل الباب الأمامي ينتظـــر عـــودة أولاده الـــذين انجرفوا مع آخرين واخترقوا الحدود الى الخارج.

وعندما أقفل المقهى نهض العجوز وتلمس طريقه،

ثم تمدد الى جانب زوجته، وظل يقظاً يتسمع الأصوات في الظلام.

* * *

دوت مكبرات الصوت بالأغاني الحماسية ووصلت صاخبة الى العجــوز الرجعي الذي ابتسم ساخراً والتفت الى زوجته قائلاً:

– انهم يهدمون البلد.

وهزت زوجته رأسها مؤيدة وإن لم تسمع ما قاله بوضوح.

وكان العجوز ينفر من الصحف المحلية والتلفزيون وينصت الى محطات الإذاعات البعيدة، ولا يزوره سوى بعض أصدقائه القدامى ويدور حــديثهم عن ذكرياتهم في العهد الملكي ويقارنون بها كل أحداث العالم التي تخطــر ببالهم.

وعاد يصيح بصوت أعلى:

انهم يؤذوننا.. اين نذهب؟

وبادلته زوجته نظرات القلق والانزعاج.

وحملق العجوز في زوجته ثم سد أذنيه بسبابتيه.

* * *

انحناءات*

تمشى في الممر مترقباً انطفاء الضوء الأحمر الذي طال اشتعاله فوق باب صالة العمليات وتذكر انه سمع مرة ان حذاء الإنسان اذا كان مقلوبا فمعناه انه سيسافر، فهل ستسافر زوجته؟..وكان قد شاهد احد نعلي زوجته مقلوبا قبل اجراء العملية، وعجز عن السخرية من فكرة الحذاء المقلوب، وأسرع يقطع الممر جيئة وذهاباً، وود لو ينحني ويقلب الحذاء، ثم ردد:

- لن يتغير شيء.

وظلت طفلته التي وضعها في بيت اخته، ماثلة في ذهنه، تنتظر تيتمها.

وانفتح باب الصالة أخيراً، وخرجت ممرضة تحمل شيئاً ملفوفاً، واندفع يتفرس في اللفة وبادرته الممرضة وهي تسرع:

- ولد... مبروك... والام بصحة جيدة.

واتسع فرحه وهو يراقب اختفاء الممرضة بالطفل. ونظر الى الممر الخالي والى الحذاء المقلوب وتمنى ان يرفعه ويقبله.

* * *

*** نشرت هذه القصة في مجلة الف باء، 9 كانون الثاني 1985، العدد 850.**

طيور*

أزت الريح وهي تعبر من فوق مكمنه المرتفع على رأس جبل، وازداد التفافا ببطانيته وهو يرهف سمعه، ونظر الى الغيوم المتقطعة التي بدت وكأنها تقترب منه. وتذكر ابنته الصغيرة التي تشبثت به وتوسلت اليه ان يأخذها معه، ولم يستطع ان يتملص من قبضتها الصغيرة التي تمسكت بسترته. والحفت الصغيرة في توسلها به، واستنجد بأمها لكي تأخذها بعيداً، فقد أزف موعد الرحيل. لكن الام اختفت في غرفة أخرى.

قال لها – سأخذك في مرة قادمة.

ورفضت الصغيرة، وذكرته بانه وعدها بذلك في المرة السابقة. ولم يكن بمقدوره ان يقتلع قبضتها من سترته او ان يؤدبها، وجاءت الام واحتضنتها وانطلق الرجل الى السيارة التي تنتظره.

نظر مرة أخرى الى الغيم الذي يقترب من مكمنه ولمس طرف سترته وودد لو يقبل طفلته.

ارتطامات

نظر الى الافق البعيد. كان الصمت عميقا في تلك اللحظات، وحتى الهواء والشمس والأرض كانت تبدو صامتة.

ونظر الى الأرض. وكانت آليات ما زالت تحترق: دبابات ولوريات وعجلات صغيرة، ومئات من الجثث مسطرة وممتدة الى نهاية الافق. وكان رفاقه يحدقون صامتين سويا وباتجاه واحد، وكان الرجال متعبين.. متعبين.

*** تتناول القصص الثلاث التالية موضوع الحرب العراقية–الأيرانية ونشرت في جريدة الثورة، 1985/1/12.**

اقمار

عادت المرأة وهي تحمل لعبة صغيرة لابنتها، وتلقفتها الصبية الصغيرة وراحت تستعجل فتح العلبة. وقالت لها أمها:

- سأجيء لك كل يوم بلعبة.

ولمست شعر الصغيرة وأحست بدمعات تتدحرج على خدها.

- لقد رحل الأب: استشهد قبل أشهر.

واحتضنت طفلتها، وكانت الطفلة منشغلة بلعبتها الجديدة ولم ترفع رأسها اليها.

ودلفت الام ونظرت في المرأة ومسحت دمعاتها، وانتظرت ان يطفو بياض عينيها.

لكنها بكت من جديد.

* * *

قصص عن المعركة*

1. النابض

مضت ارتال الشاحنات العسكرية تدوي وتثير زوبعة من التراب على الطريق الممتد في آفاق الأرض المتموجة، وهي تحمل دباباب الى الجبهة. وحاول سائق الشاحنة الاولى ان يحدد استقامة الشاحنات التي تتبع شاحنته، وكان يرى حزما من التراب المتفجر يعلو ويعلو، ثم يعود ينظر الى السيارة (الجيب) التي تقودهم وراح يدندن باغنية يحبها ونقر عدة مرات على مقود السيارة، وتحسس جيب قميصه ولمس صورة أطفاله الثلاثة، وكف عن الغناء برهة حين انبثقوا في ذهنه وسرعان ما انتبه الى انه اقترب كثيرا من السيارة (الجيب). وعاد يغني من جديد وببطء ومضى يرمق الشاحنات التي تسير خلفه.

واستدارت السيارة الصغيرة في منعطف طويل وتبعتها الشاحنات ووجد الرجل نفسه أمام ارتال من الشاحنات والدبابات والسيارات المصفحة. وسمع دوي الانفجارات يأتي من بعيد ومضى يبحث عن مكان يقف فيه، وعاد يغني من جديد.

2. الرفاق

لم يتمكن من تجنب المرور في ذلك الطريق الذي يضم بيت رفيقه الذي استشهد منذ اسابيع. اجتاز الطريق لكنه عاد والتف من الطريق التالي ودخل من الجهة الأخرى، وكانت خطواته تقوده.

لقد عاشا سوية في نفس الوحدة العسكرية، وكانا صديقين متلازمين وقاتلا سوية وكان احدهما يرعى الاخر.

*** نشرت القصص الثلاث التالية عن الحرب العراقية–الأيرانية في جريدة الجمهورية، 1985/9/7، العدد 5846.**

اشتدت دقات قلبه وهو يقترب ورأى ابن صديقه الوحيد يقف عند الباب ولم يستطع التحرك. وأشار الى الصغير ان يقترب وقال له:

- احمد، تعال.

ارتجف الرجل وهو يلتقط الطفل بين ذراعيه وفجأة اجهش بالبكاء وهو يجلس على الأرض والطفل بين يديه.

ومرت سيارة ضخمة يعلو منها الغناء وهي تتابع فتاة وحيدة في الطريق.

وظل المقاتل ينسج.

3. أمسيات أخرى

أقفلت الباب وكانت متعبة لا تكاد تقوى على الوقوف فقد امضت وقتا طويلا تنتظرأمام الباب ابنها الذي حان موعد عودته الشهرية من الجبهة لكنه لم يظهر بعد.

قالت بصوت مرتفع:

- سيجيء، سيجيء.

ولم تقتنع بما تقول. وشعرت بشيء من القلق، وصاحت ابنتها من غرفة جانبية :

- هل ناديتني؟

ولم تحفل بالرد عليها، فقد كانت مشغولة تترصد الطريق من جديد.

- ربما لم يجد سيارة، سيأتي غداً حتما. ولم يتخفف قلقها.

- بل سيجيء الليلة.

وجاءت ابنتها وقالت لها :

- انك تفعلين نفس الشيء كل شهر. انت تعلمين انه سيجيء.

وأرادت الام ان تبهرها، لكنها لن تقوى على ان تكون قاسية. وسحبتها ابنتها من يدها واجلستها على كرسي في الصالة .

وسمعتا صوت سيارة تتوقف في الشارع. وهرعت المرأتان الى الباب، كانت جارتهم تهبط من تلك السيارة.

وعادت المرأتان الى الصالة، وكان الوقت يمضي بطيئا وهما تتسمعان أصوات السيارات.

* * *

شطط*

وأخيرا وجد نفسه يمشي تاركا المدينة المضيئة وهو يحمل حقيبته الصغيرة التي وضع فيها كل ما يمتلكه في الدنيا، ووصل النزل القصي الذي كان يعرفه منذ أمد بعيد، واستأجر آخر غرفة في الممشى. أقفل الباب ووضع حقيبته على الأرض. واستمتع بالمتعة والهدوء وهما يملأن الغرفة، وكاد يغني لانه اطمأن لاول مرة بعد ان ابتعد عن الناس الذين يعرفهم والذين تحولوا مع الوقت الى مطاردين له ليل نهار، كانوا ينظرون الى ساعته ليعرفوا الوقت ويمدون ايديهم في جيوبه ليحصوا نقوده ومنهم من كان يقلب ملابسه وآخر اوراقه واحس ان الكثيرين منهم يتمنون لو كان نفق يكفيهم ليدخلوه ويروا ما في عقله ومعدته واحشائه وتجاويف عظامه واعماقه..

واقترب من الستارة ورفعها لكي ينعم بنظرة الى أيامه الجديدة، ورأى جميع من يعرفهم يتكدسون تحت النافذة وبعضهم يؤشر بيديه والآخر يتحدث ومنهم من يضع السلالم لكي يصل الى النافذة.

اسدل الستارة، وأقفل الباب، وارتمى على السرير.

*** نشرت هذه القصة والأثنتان اللاحقتان في مجلة الف باء ، 1990/2/28 ، العدد 1118.**

افق مستطيل قد يشبه التابوت

قال لصديقه وهو ينظر الى ساعته حاسبا الثواني والمسافة المتبقية الى بيته، يجب ان اكون هناك بعد سبع دقائق، فهي لا تفهم اي تبرير للتأخر.

ضحك صديقه ومازحه: لقد انتهت أيامك الجميلة، وافترقا، وابتسم الرجل وكلمات صديقه تنبعث في رأسه وتملأ حنجرته: انتهت أيامك الجميلة، لقد انتهت منذ زمن طويل. واقترب ببطء من المنزل واعتقد للحظة ان المنزل يبتعد عنه، ودمدم بمرارة.

اخشى ان تقضم اذني ذات ليلة وانا نائم او تنهش كتفي.. متى كانت لي أيام جميلة؟

ونظر الى ساعته، وتبقت أمامه دقيقة واحدة. وأصبحت امرأته أمامه، ولم تعره اهتماما واتسعت شفاهه بابتسامة، وكان يتمنى في اعماقه ان تمحى.

غابات بعيدة

احس انه متعب الى الحد الذي تمنى فيه ان تنتهي حياته فجأة. وكان جالسا على مصطبة حجرية يتأمل السيارات الفارهة والمارة والبيوت.. وكانت الشمس تتوهج في السماء. كانت السيارات تعبر وفيها نسوة جميلات. ولم يستطع ان يتكهن اين ستتوقف تلك السيارات واين سيذهب ركابها؟ وكان المارة يعبرون متقاطعين من جهتي الشارع، ولم يتمكن ان يعرف اين سيذهب كل هؤلاء الناس؟ وكانت البيوت تبدو هادئة لا حياة فيها.

وشعر ان رأسه يحترق. وأسف لانه لم تكن لديه مظلة في يوم من الأيام.

* * *

قصص بلا عنوان*

* معظم هذه القصص كتبت في التسعينات ولم تنشر على الأطلاق، ربما لخشية القاص من أساءت تفسيرها خاصة وأنه تعمد الأشارة في بعض منها بشكل غير مباشر الى الممارسات الخاطئة في وقته.

(1)

كان الرجل الذي يعتقد بأنه حكيم يخطط لأن يستمتع بحياته أكثر من الآخرين، فترك القراءة لكي لا يضمحل بصره قبل الأوان ولكي يرى أجمل ما في الحياة، ولم يعد يعبأ بأن يسمع الأشياء التي لا تعنيه حقاً لكي يحافظ على قوة سمعه، وحاول قدر الإمكان أن يأكل ما يلزمه ولا يتعب معدته وهكذا بنى منهجه في الحياة.

وفجأة تغير كل شيء، فحين كان يسوق سيارته عبرت سيارة من الجهة الثانية وضربت سيارته، وحين أفاق في المستشفى وجد أنه فقد أصابع يديه وكسر ظهره ولم يعد يقوى على إمساك شيء أو يتحرك.

وحين فكر في مستقبله، أيقن أن كل شيء قد ضاع. وتمنى لو عادت له أصابع يد واحدة.

* * *

(2)

لم يكن يحب أن يؤذي الآخرين لكنه كان مولعاً بالضحك عليهم حين يربكهم ويرتب لهم مصائب صغيرة. وكان يبالغ أحياناً فيؤذيهم من حيث لا يريد لهم ذلك.

وتبرع أحدهم ذات يوم ناصحاً له أن يكف عن مزاحه الثقيل، وفوجئ بكلمة (مزاح) إذ لم تخطر له على بال، وغضب كثيراً على صديقه وأراد أن يضربه لكنه خشي أن يفسر الضربة على أنها مزاح.

وتركه، ثم ذهب الى منزله في منتصف الليل وناداه. وحين خرج، أطلق خلفه عشرة كلاب هائجة راحت تطارده في المدينة الخالية.

* * *

(3)

كانت القرية برمتها ترمق ذلك المنزل الهائل على التل البعيد، وتحاول أن تصل الى أجوبة واضحة عن الرجل الغامض صاحب ذلك المنزل والذي لم يره إلا قلة من أهل القرية مرة أو مرتين عندما جاء قبل سنواتوشرع ببناء ذلك المنزل المسور والمعزول والذي لم يسمح لأحد أن يدخله.

ومما يثير استغرابهم أن العمال الذين جيء بهم من مكان آخر لم يدخلوا القرية ورحلوا جميعاً واختفوا بعد إكمال البيت. وتناقضت التكهنات بشأن صاحب البيت الغامض الذي كان يخرج بسيارته ويذهب بها في الاتجاه المعاكس ثم يعود في آخر الليل. وفقد أهل القرية صبرهم من كثرة الأسئلة والتكهنات التي ملأت حياتهم واتفقوا على أن يذهب ثلاثة من أكابر القرية لزيارة الرجل واستكناه أمره، وحبست القرية أنفاسها وهي تتابع الرجال الثلاثة وهم يتقدمون صوب البيت الكبير، ويطرقون الباب وذهل السكان حين انقلب الرجال المتزينين راكضين بأقصى سرعتهم. وتدحرج أحدهم وهم يتجهون صوب القرية وكانت صدورهم تكاد تنفجر حين هب اليهم أهل القرية. وبعد أن استطاع أحدهم أن يلتقط أنفاسه ليجيب عن أسئلة الجميع عما حدث.

التفت مذعوراً صوب البيت الكبير وهو يقول – عندما قرعنا الباب، فتحه حيوان مرعب الشكل لم نر شبيهاً له، وفتح فمه وأراد أن يقضم رأسي. وهز قبضته غاضباً ولعن أولئك الذين ورطوه بالذهاب.

* * *

(4)

كان الجمع المتشابه في ملابسه وسحناته يربت على كتفي الرجل، وبعضهم يضغط على عضلاته ويشدها بحنو، وراح اثنان يربطان تحت قدميه حذاء تزحلق.

امتلأ الرجل من كلمات الاطراء التي كيلت له، وصار ينظر الى الأمام، في الطريق المنحدر الذي يستدير خلف صخرة شاهقة ثم يختفي.

كان لا يعرف ماذا يكمن خلف الصخرة، وسمع البعض يقول له: مع السلامة.

وقبل أن يرد عليهم، دفعه الجمع بقوة، وانطلق الرجل في الطريق، والتفت ليودعهم، لكنهم كانوا قد اختفوا.

استدار الرجل خلف الصخرة، ولم يكن ثمة طريق، بل هاوية سحيقة.

والتأم الجمع من جديد فوق الصخرة، وراحوا يتراهنون حول المكان الذي تلاشى فيه الرجل.

* * *

(5)

ارتج وهو يتلقى صفعة لم يعرف لها مثيلاً طيلة حياته، وظل مسمر العينين على الجدار، قال له الصافع: انظر اليه.

وأشار الى رجل مكوم مرعوب، وحاول أن يدير رأسه بالقوة نحوه، وعاد الرأس ينظر إلى الجدار.

وابتسم الصافع وقال له: من المناسب أن تنظر داخل رأس ذلك المكوم.

وتناول من زاوية الغرفة مطرقة ومسماراً كبيراً. وضع المطرقة في الكف اليمنى للرجل والمسمار في كفه اليسرى، وسحبه نحو الرجل المرعوب الذي تكور.

وضع المسمار على رأس المرعوب وأمر:

اثقب رأسه.

ورفع الرجل المطرقة وهوى بها، واندفع المسمار وكسر قحف الجمجمة واندلقت سوائل.

وكان الرجل يحدق في عيني المرعوب الجاحظتين، وصرخته تتكسر، ولم يجد ثمة ما يمكن رؤيته داخل رأسه.*

* * *

(6)

نهض الرجل من سريره وسط الظلام، وهرع الى المرأة بعد أن ضغط على زر الضوء، قرّب وجهه من المرأة ووجد أن عيناً جديدة قد ظهرت في جبهته، ولم يعد عقله يعمل، بل راح يراقب ظهور أنف في خده الأيسر واذن في خده الأيمن.

ورأى عدة أيد تنبت من صدره وظهره وصار يتسع.

واستدار ليذهب الى الباب ويطلب نجدة، ولكنه لم يقو على الحركة.

وانطفأ الضوء ولم يعد يرى أي شيء.

* * *

(7)

جلس الرجل الذي يشبه المستطيل الصغير البدين ناظراً الى الرجل الآخر الذي يتحدث من بعيد.

وكان الرجل يحاضر عن فرصة استثمار أراضي الكواكب الأخرى في توفير غذاء كثير للجياع، وتململ الرجل الذي يشبه قطعة (الدومينو) وراح يتصور نفسه بأنه خروف وسط المراعي الخضراء في الكواكب الأخرى.

وشعر بخدر يسري في جسده ولم يستطع أن يسحب نفسه من أيدي الذين سحبوه ولم يترك البدين في القاعة سوى (معمعة) متلاشية.

* * *

(8)

علق حقيبته الصغيرة على كتفه، وانطلق يمشي تاركاً القرية، عازماً على المضي الى أمام لكي يكتشف الأراضي البعيدة التي لم يسبقه اليها أحد من تلك القرية، وكان منتشياً مليئاً بالعزم للتقدم، وتحسس حقيبته ولمس زجاجة الماء والغذاء، ولمس مسدسه الذي وضعه تحت حزامه.

واستمر يلتفت خلفه كلما ابتعد، وكانت معالم القرية تتضاءل وتتضاءل.

وأصبحت الأرض أكثر انبساطاً أمامه، وأخيراً اختفت معالم القرية واستطالت الأرض وانتهت في الآفاق البعيدة.

وكان طير ضخم يطير ويحط بعيداً عنه، وتذكر قصته عن طير مفترس انقض على مسافر وصعد، وتلمس مسدسه وراح قلبه يخفق بقوة وهو يمضي الى أمام والطير الضخم يطير ويحط بعيداً عنه.

* * *

(9)

الذي لم يعد يمتلك أي شيء سوى كرامته انتفض الرجل غاضباً وصاح:

لن أسمح لك ان تهينني.

وحدق اليه الرجل المقابل صاحب النفوذ بنظرة باردة وأجابه:

وماذا ستفعل لو مسحت بك الأرض؟

أجابه الرجل:

سترى ماذا سأفعل.

ولم يصدقه المقابل، ومد يده ليمسكه من أذنه ويسحبه، لكن الرجل هجم على سبابته وعضها وأدار رأسه حتى قطعها.

وأمام صراخ المقابل، دخل الغرفة رجال كثيرون، بعضهم انحنى ليخفف ألمه والبعض الآخر ليجمع أشلاء الرجل الذي كان معتزاً بكرامته.

* * *

(10)

أراد الرجل المتنفذ القاسي أن يزيد من متعته، بعد أن استمع في صبيحة، كان مزاجه فيها رائقاً، الى بلبل يغرد من حديقة الجيران، فأسر الى سكرتيره المؤتمن برغبته في الحصول على بلبل. ودبر له السكرتير بلبلاً في قفص، وحدق المدير في البلبل وسأل سكرتيره:

هل يغرد البلبل داخل القفص كما يغرد في الحدائق؟

ولم يجرؤ السكرتير أن يجزم وأجاب بتردد:

اعتقد.

ومضت أيام والرجل المتنفذ ينتظر أن يملأ البلبل البيت بصوته لكنه ظل صامتاً. واقترب من القفص وهو ضجر وحدق في عيني البلبل بشزر وسأله بصوت غاضب هامس:

لماذا لا تغني؟

ولم يبد على البلبل اكتراث.

وازداد غضب الرجل المتنفذ وتمنى لو كان البلبل أحد مرؤوسيه لعاقبه عقاباً لا ينساه طيلة حياته. وشزر البلبل ثانية، وحين وجده لا يكترث، قلص قبضته ودمدم:

أيها البلبل الحقير.*

* * *

*** أذكر أن القاص أعتمد في فكرة قصته هذه من حكاية حقيقية رواها له حميد المطبعي في التسعينات. وتروي الحكاية طبيعة مدير الأمن العامة في السبعينات، ناظم كزار، الذي كان يتلذذ بقتل المحتجزين بسبب شعوره بالنقص لعدم قدرته على الأنجاب. ويذكر أن كزار كان معتادا على رقة تمسيده للقطط، لكنه يلوي بعدها رقابها ويدقها بيده مما يولد له شعورا بالأرتياح. وقد عمد القاص على إبدال القطه بالبلبل لكي لا يثير الشكوك نحو الشخص الذي ينتقده. (المحرر)**

(11)*

ضغطت على جبهتها وهي تعاني من ألم في مقدمة رأسها، ولم يبرحها الألم رغم ذهابها الى عدة أطباء وتناولها أنواعاً عديدة من الأدوية. وكأن الألم يكاد يندلق من عينيها.

تذكرت نصيحة إحدى صديقاتها بأن تترك غرفتها المعتمة وبيتها المنعزل وتخرج. واتجهت الى حديقة واسعة، وبينما هي تمشي بين الأشجار سمعت لغطاً، والتفتت فوجدت جمعاً من الرجال يخرجون من الأرض ويهجمون عليها. فركضت. وكادت تطير من الركض. وحين عادت الى غرفتها اختفت أوجاعها.

* * *

*** نشرت القصص الثلاث الآتية في جريدة بابل، 13 تشرين الثاني 1993.**

(12)

كان بوده أن يتعلم السباحة منذ سنوات لكنه لم يفعل، وفجأة وجد نفسه في زورق صغير بلا مجذاف في وسط نهر واسع والماء محيط بزورقه المتأرجح.

وهبت عاصفة من بعيد وصارت تقترب من زورقه الذي ازداد تأرجحاً. وراح يصرخ بأعلى صوته طالباً النجدة من أناس ربما يكونون على الشاطئين.

وكانت العاصفة شديدة تميد بزورقه ولم يعد هو نفسه يسمع صراخه.

* * *

(13)

ارتفق بكاحله على سياج سطح العمارة العالية، وكانت الأنوار تتلألأ في المدينة، وأضواء السيارات تتقاطع هنا وهناك، ولم يستطع أن يرى أحداً تحت.

وقال إن المدينة تبدو في الليل جميلة وهي بلا بشر، وأحس بيد تجتذبه بقوة وصوت يسأل:

– ماذا تفعل؟ وكيف وصلت الى هنا؟ وحاول أن يتملص منه وهو يجيبه:

– جئت لأتفرج على المدينة الجميلة.

وفاجأه الصوت:

- هل تحاول أن تخدعني.

ورفعه من وسطه وقذفه من أعلى العمارة ولم يعد أحد بعد ذلك الرجل يستمتع بجمال المدينة من سطح العمارة في الليل.

* * *

(14)

انزعج الشاب المنتفخ وهو يكبح موقف سيارته الفارهة، بعد ان ارتجت فجأة، واصطدمت بشيء لم يره.

وولولت امرأة عجوز: ولدي الوحيد.

فتح الشاب المنتفخ باب السيارة، وراح الناس يسحبون جثة الفتى.

قال احدهم مؤكدا:

– مات.

وارتفعت أصوات النساء صارخات بقوة. ونظر الشاب المنتفخ الى مقدمة السيارة ليرى اضرارها، ولم تكن واضحة، وعاد راضيا خلف المقود.

انطلقت السيارة وبقي الفقراء يصرخون في الطريق.

* * *

(15)

انفجارات، انفجارات. بروق من لهب ضيائي. أصوات طائرات تتقاطع وتمضي. هدير متصل، دوي، دوي، حزم من انوار تنفجر. ويحل الظلام الدامس، ولا تعود الانوار تبدو سوى في اعالي السماء، مصحوبة بانفجارات متعددة.

يهب الرجل من فراشه، وينظر عبر النافذة الى السماء، ولا يسمع هدير الطائرات، ويرى آلاف الإطلاقات المتوهجة ترتفع عاليا.*

* * *

* أستوحى خالد الراوي هذه القصة من ذكرياته عن حرب الخليج عام 1991.

(16)

كان الرجل الثري يهلع عندما يمد يده الى محفظته ويستخرج قطعة من النقود لتذهب الى الآخرين.

في ليلة، شعر بألم في صدره ولم يقاوم هذا المرض فذهب الى الطبيب. وحين فحصه الطبيب امره ان يأخذ سيارة أجرة ويذهب فوراً الى غرفة الانعاش في المستشفى العام.

وآلمته فكرة ان يصرف نقودا، وقدر ان المسافة الى المستشفى العام ليست طويلة، فقرر ان يذهب مشياً. وحين وصل الى مدخل المستشفى لم يعد يقوى ان يتقدم خطوة واحدة. فسقط ومات.

* * *

(17)

شعرت الفتاة المحاصرة بأن انفاسها تضيق وهي تنقل نظرها الى افراد اسرتها وهم يتفحصونها وكأنها ستختفي فجأة او تذهب بعيدا الى الابد.

وهمهمت مع نفسها لا تخافوا علي.

ونهضت لتأخذ نفسا منعشا في الحديقة، وتبعها افراد عائلتها وتحلقوا خلفها وهم يبدون ملاحظاتهم.

- لا تضعي قدمك فهناك حفرة صغيرة.
- اياك ان تلمسي الوردة ففيها شوك.
- يبدو ان الهواء ابرد مما يجب، سيؤثر ذلك عليك.

وراحت الكلمات تلطمها، وعادت الى الغرفة لتحاصر نفسها من جديد.

* * *

(18)

كان الطالب قد انجز كتابة اطروحته وجلس في قاعة المناقشة لينال الشهادة العالية. واتخذ استاذه مقعده قربه. وكان الاستاذ يستمع الى لجنة المناقشة وهم يبدون ملاحظاتهم على الاطروحة. والتفت الى تلميذه ورأى ان اذنين طويلتين تشبهان اذني الحمار قد بدأتا تنموان بدلا من اذنيه. وأغمض عينيه وعاد ليتأكد مما رآه، فوجد الاذنين قد استطالتا وأصبحتا بحجم اذني الحمار. وحدق طويلا في تلميذه وأراد ان يفر من القاعة هاربا، لكنه تهالك على الكرسي ولم يعد يسمع سوى نهيق تلميذه.

* * *

مسرحيات

الـرائي*

(أصوات قديمة وحديثة، علنية وخفية تتحدث دائماً)

(المسرح مليء بالضوء ، وعلى جانبه الأيسر سلات زهور ، وجذع شجرة ضخم.. وثمة رجل وحيد يتكلم ببطء)

الرجل: أطوف في فراغي الواسع
وأدور بلاتوقف
وفي قبضتي أزهار متيبسة
صمت –
أطوف حول نوافذكم المغلقة
وأهتف يا حبيبتي
وتسيل حماساتي في الظلام
صمت –
أصيح يا امرأتي المحزونة
ضيئي نوراً
فقد أضعتك.
صمت –
الذاكرة تمتلئ بالعشب
وتكون الصحراء طيوراً مهاجرة تحلق حولي
وتدعوني لأسفار عميقة
صمت –
آه.. أيتها الحبيبة

*** يستخدم الكاتب في هذه المسرحية، التي هي أشبه بمسرح العبث، طريقة الإلقاء المنفرد حيث تناجي الشخصية شبح الحبيبة التي تخلت عنه، بسبب حبه الذي لا يستطيع التحكم به. (المحرر)**

إنني أتناثر
اجمعيني بأفراحك العذبة
فربما أمسك شيئاً
(تمر فتاة من الزاوية مع حبيبها، وتشير الى الرجل ثم تتساءل)
الفتاة: مع من يتكلم هذا الرجل؟ لا أحد هنا
حبيبها: لا أعلم ، وليس مهماً أن نعلم، فله أذنان تستطيعان سماع صوته في النهاية.
(يختفيان)
الرجل (يتكلم من جديد) :
الليلة تتبعث الذكريات المحطمة تأريخها المتقطع
فترتجف عاطفتي من برودتها.
ــ صمت ــ
كانت تلقي يأسها الى يأسي
بعرس منتحل
لحب دامٍ لا يرى
ــ صمت ــ
حبنا شمس في الريح
لا يلمس منه القلب
سوى الدفء المضطرب.
ــ صمت ــ
إنني أختنق
أتكرس لفرح ناء يغطيني بعريه
ويقفلني في عدمي
(يقطع الرجل المدرج ويمشي صوب الجذع وينظر الى بعيد ثم يعود)
الرجل: حبك يفتح حبي
مرجعاً فيه
يقظات خطرة
وأتعلق خارج جسدي

بين الذاكرة والضوء
وأتوه تماماً
ـــ صمت ـــ
إنني القاتل الآتي
من صبوات متناقضة
أحمل براءتي
(يصرخ صوت بعيد)
الصوت: قاتل .. قاتل ..
(ينظر الرجل صوب الصوت .. ثم يقول)
الرجل: أعود الى البحر
بأعراسي التائقة
المنفردة بويلاتها
صمت –
وأنت تهبطين معي
من حلم الأسرة
الى البحر
صمت ـــ ـــ
نهبط معاً من السقف
الى أفراسنا الهائجة
فتركضين أمامي
في صحرائي
وفي عطشي الفتاك
صمت ـــ ـــ
إنني أهبط الى شهوتك
الى البحر
وأغرق في حبي القاتل
(يصرخ الصوت البعيد مجدداً)
الصوت: القاتل .. القاتل ..

(ويشير الرجل بيده الى اتجاه الصوت منذراً.. ثم يقول)

الرجل: قاتل؟ من هو القاتل؟ أنا قاتل؟
آه أيتها الأقنعة الفاجرة، لنخلعك واحدة، واحدة.
أيتها القوانين الفخمة الغليظة
أيها القلب المنتفخ بأكاذيبك
إنني لست وحيداً
(يمر عجوز يبدو عليه الثراء، فيستوقفه الرجل سائلاً)

الرجل: هل يبدو علي انني اقاتل ؟
(يجفل العجوز ويسرع خطواته بدون أن يلتفت الى الرجل أو يجيبه، ثم يختفي)

الرجل: شتاء للحياة
وصيف للموت
شتاء للموت
وصيف للحياة
لا شتاء. لا صيف. لا حياة. ولا موت.
ـــ صمت ـــ
نكبر متوسعين في الهواء ثم نغيب
ـــ صمت ـــ
أنا في الدائرة
وأنت خارجها
أخاطب ذنوبك اليقظة
(يقرع الرجل الأرض بقدمه، ويشرق نور بعيد من زاوية المسرح).

الرجل: إنني أستيقظ على حلم شامل وأنحصر في ثلج أسود ينغمر من مجهولات
أكون في الريح. في الغبار. في الضياء
وأغتسل في مياه الآخرين
أكون في الدم. في الخط المتوازي في الدائرة. في الربح والخســـارة.
في الثورة

في الخيانة . في الحرية .
في الطلقة. في الدمعة. في الخوف والهزائم.
إنني أتقسم. أهرب أجسادي.
(تعود الفتاة مع حبيبها. ويجدان الرجل في مكانه، فتسحب الفتى الى خلف الجذع وينصتان)

الرجل: العالم ينفتح لي في حرارتي لك
أتخطى أوهامي المتلاحقة المتجددة وأغوص في بحرك الدامي الأبدي
ـــ صمت ـــ
كل النساء باطلات إلا أنت
كلهن افراح محرفة
وأشباح تبتعد. تبتعد.
الى عدمها المؤكد
ـــ صمت ـــ
أنت حقيقتي. حلمي. قدرتي
وبعدي الذي يمتد الى فنائي.
آه. انت تملئين لي العالم بحبي الذي لا ينتهي.
صمت ـــ ـــ
تنتشرين في الضوء الأزلي
وتختلطين في دمي
(تهمس الفتاة لحبيبها)

الفتاة: إنه مجنون. ألا يبدو عليه ذلك.

حبيبها: من يعرف؟ عندما يكون الإنسان حقيقياً
يعده الآخرون مجنوناً.

الرجل: آه هذا التمزق
ضوء يكبر ويتباعد في أعماقي
وتنكسر حدته بألفاظي
صمت ـــ
إنني أسمع نظرتك

وأشم نبضك المطرد
وألمس رقتك المتمهلة
إنها تلتقي بحرارتي
فتتعزل الى الأبد بفرحتنا الدامية

الفتاة (لحبيبها) :
إنه يكلم امرأة ما. حبيبته؟ أم امرأة وهمية؟
(تضحك)
(الرجل ينتفض ويحدق الى الأمام)

الرجل: ها هو سحرك ينبئ
يتقدمك معلنا
عن وجودك
صمت– –
أتقدم مضطرباً
وانزلق عبر زجاجك الكثيف الوهاج
الى حبك المنطفئ.
–صمت –
في الغرفة المضلعة
المغلقة بعيون الأوغاد
كنا نختلس نظرة لحبنا
نظرة صغيرة محطمة
ثم نخشاها ونفترق
ــ صمت–
هل أصبحت عاطفتي مستحيلة؟
إن حزني يكبر بيأسه المطلق
ماحياً كل اللذات
ويقيني يتناثر .
ــ صمت–
كتبت ورقتي ورميتها في الهواء

ـــ صمت–
وحدتي تقتسمين
تتسمع امرأة سرية
ترن خطواتها الغامضة في غاباتي
امرأة لا لون لها. لا تحفل. لا تمسك.
لا تجيء ولا تروح.
ـــ صمت–
ماذا ألتمس من امرأة مفصولة
أية حرارة مزورة يمكن أن تملأني
ـــ صمت–
أنحني على زمني
ضاماً حالاتي الضاجة
ملوحاً لامرأة تأخرت
(تظهر امرأة وتصل الى جانب الرجل)

الرجل (يهتف) : أتيت أخيراً
(تتوقف المرأة وتنظر اليه)

الرجل: أغمض عيني لحظة هادئة وأقول
أيتها الفرحة العظيمة. اقتربي رويداً
واحميني.
احمي وحدتي من التكرار.
(يقترب الرجل منها أكثر)

الرجل: انتظرتك طويلاً

المرأة: لماذا تطاردني؟ ألم نفترق؟ إنني لا أعرفك الآن
(وتمضي ويقفز الرجل خلفها ويمسكها من ذراعها
يطبق الرجل بأصابعه على عنقها ويقول):

الرجل: ليمتزج الحب بالموت
(تصرخ المرأة وتخرج الفتاة، يتبعها حبيبها من وراء الجذع
ويركضان نحوهما. ويمسك الفتى بالرجل وينتزع أصابعه، وتتحرر

المرأة وتتلمس عنقها. ويسأله الشاب وهو متمسك به):

الشاب: هل أنت مجنون؟ كدت تقتلها.

(يضحك الرجل ضحكاً طويلاً وعميقاً ويقول له)

الرجل: أنت لازلت صبياً. كيف أقتلها؟ إن العواطف الخطرة يقظـــة دائمـــاً عندما تكون حقيقية.

الفتاة (تكلم المرأة):

عودي اليه فهو مغرم بك

إنه يرفضني أحياناً. وهذا ما يدفعني لأن أهرب منه.

الرجل: تعالي أيتها المرأة . فسنحترق كلانا في النهاية

وإذا كان سيحدث شيء. فسنحترق كلانا في النهاية.

(تذعن المرأة لعاطفته وتبتسم له .. وينحني الشاب والفتاة ويحملان سلسلتين من الزهور الى الرجل والمرأة ..وتتلاشى الأنوار ثم يسود الظلام.)

* * *

رجلان في الشمس*

المشهد الأول

المكان: سفينة تغرق..
المرئيون: رجلان ليس لهما وجوه

الأول – الشمس سحابة مختلفة تمطر جمرا..
الثاني – والبحر انهكه الغضب.
الاول – بالأمس لم أنم.. كانت الامواج تتفجر تحت نافذتي..
الثاني – وانا كنت امحو الملح المقذوف على الزجاج..
الاول – ثم تذكرت رسالة لم افضها..
الثاني – من اين اتتك؟
الاول – من خطيبتي المنتظرة في قريبتنا النائية..
الثاني – علها وضعت قلبها فيها ليحرسك.
الاول – كانت الدموع تنحدر من الكلمات..
الثاني – السفينة تبحر الى القرار.. ناولني الرسالة..
(يعطيه الرسالة).
الثاني – يقرأ – هواي المغترب.. تذكرت عينيك حين كنت امرح فيهما بالامس، وانا واقفة تحت الناعور.. وكان الفرات يحمل بسمتك الي.. وغسلت دم الفراق المتجمد على جبهتي حين سمعت جدي العجوز يقول:
لا بد للجذر ان يغوص ويحيا.. ولا بد للبرعم ان يتفتح يوما.. ولا بد للقلب ان يسعد بلقاء المحبين. .
والمغتربين –.. انك ستجد دما على الورقة.. انها بعض دم قلبي الذي سانتظرك به.

---

* نشرت هذه المسرحية في جريدة صوت العرب، 1966/1/25.

(صمت موجز، الماء يرتفع الى أقدامهم)
الثاني – خذ هذا القلم واكتب اليها.. بينما اهيىء قنينة..
الاول – وما يفيدها قلب غريق؟
الثاني – ينبغي ان نتعجل.. فالماء يتسلقنا الى الاضلاع.
الاول – ماذا اقول لها.
الثاني – اكتب – سأعود-
(يكتب الاول.. ثم يجاهدان للبقاء على سطح السفينة ريثما يسدان فوهة القنينة.. ثم تختفي السفينة بكاملها).

المشهد الثاني
صفحة الماء تلتمع.. وليس عليها سوى قنينة مترنحة تائهة.

* * *

الحقيقة تصفو في ظل الرصاصة*

(أشعة القمر الخافتة تمسح بقعة منزوية انتصب عليها قبران.. الصمت داج.. تخفت الأشعة وتغدو ظلالاً.. ترتفع جمجمة مرتكزة على عظم هو رقبة من القبر الأول.. تتنحنح كأصوات المطرقة المرهقة.. ثم تهتف..)

- إنني أهبط الى الأسفل بازدياد.. وكلما قاومت تدليت بشراسة.. إنني أبذل منتهاي لأرتفع.. ولكن مفاصلي ستتفكك حتماً ويسقط نصفي الأسفل. إن محاولة الارتفاع تفقدني بقائي الرخو..

(تبرز جمجمة من القبر الثاني.. تفتح شدقها متثائبة بصوت مجروش متكسر.. ثم ترد)

- إنك تتألم دوماً. ألا تراني فقدت القدرة على استيعاب تنهداتك المضجرة..

الجمجمة الأولى: المسألة تختلف.. إنها تختلف.. إن فراغاً يتمطى تحت أقدامي.. يتمدد وينتفخ.

الجمجمة الثانية: إنها توهماتك التي تتوسدها.. فها قد مضى علينا ألف عام وكنت كل ليلة تخرج وجهك الغباري لتجأر.. ثم تدسه قبل أن تصل الي حروفك.. وحين أنظر إليك ولا أجدك أقفل أذني فتتشرد كلماتك تائهة بائسة.

الجمجمة الأولى: لا ترسم لي صورة سيئة.. فصنعي لم يكن متقناً.

الجمجمة الثانية: إذن لأدرْ ظهري إليك فما وجدت لأحمل تأرجحاتك ولأرهن ارتكازي الصافي الىالدعة.

الجمجمة الأولى: إنك تتملص من الواجب المجرد لتنفلت بلا جواز.

الجمجمة الثانية: يكن فهذا ما أشق اليه سبيلي.. فقد سقط المنطق.. وما عادت النتائج إلا أوتاداً يخرجها الرجال الخوص من

---

* **نشرت هذه المسرحية في جريدة الفجر الجديد، 1966/3/11.**

جيوبهم ويثبتونها متى شاءوا.. وهي متوافرة لهم كوجودهم..

الجمجمة الأولى: لا تهرب وتدعني أسقط.. فلا بد من مساعدتي.. إنني أضرع إليك أن تمد لي ولو همسة دافئة أتمسك بها.

الجمجمة الثانية: إنك انتهيت فما عاد يفيدك الترقيع ولا الطلاء.. وستلقى نهايتك الأخيرة..

الجمجمة الأولى: إنها المعركة التي هربت منها.. وها إني مقود إليها..

الجمجمة الثانية: إنه العقاب على عويلك الإعجف..

الجمجمة الأولى: إنها غلطة.. سأصلحها إذا ساعدتني..

الجمجمة الثانية: (يضحك بغضب فيضاني) – إنه المفتاح الذي ضاع وتركك في سجن لا منفذ فيه..

الجمجمة الأولى: إذن ما العمل.. أكاد أنفصل..

الجمجمة الثانية: ستتفكك مفاصلك وتسقط.. وتكف عن تأرجحاتك فأستطيع أن أهدأ.. الوداع..

(تدخل الجمجمة الثانية في قبرها.. تبقى الجمجمة الأولى مرتفعة.. ثم تختفي بغتة تاركة صرخة مدوية في الفضاء.. تمحي ظلال القمر وتحلولك الظلمة).

* * *

الصيحة*

المسرح رومانسي الأضاءة. في المنتصف وقرب الجدار كرسي انتصب فوقه الرجل المرقوم بـــ (1). يضع فوق ساقيه عصا ضخمة. منهمك بقراءة جريدة. أمامه وبالضبط وضع مقعد مرتفع المسند يخفي امرأة غارقة في جوف عباءة. ترقم بـــ (2). هناك شباك على بعد متر من الرجل.

– صمت لمدة نصف دقيقة بعد ان تنفتح الستارة-

2. الساعة، خبرني، كم مضى من الوقت ونحن نضع ايدينا اليمنى على ايدينا اليسرى.

.....1

2. اثنتا عشرة ساعة تقرأ في نفس الصفحة، هل تسمرت عيناك وتيبس نظرك؟ ام هناك أشياء تبهج غيرالصالحين.

اني أرى عروق رأسك تلهث، دعني أرى المخازي (لا تجشم نفسها عناء الوقوف، تظل جالسة) دعني اراها.

.....1

2. لن ترنيها اذن – بلهجة باكية – منذ ردح من السنين لمست قلبك وانت نائم فوجدته بارداً. في تلك اللحظة نزعت خفي وسرت حافية القدمين حتى الشاطىء، اطفأت رأسي المحموم فيه وما زلت في كل ليلة اذهب لأتثلق، لكن حارس الغابة الابرص رماني بتينة من بين الصخور فاخافني، استحلفك بالله ان تفتته.

1. ...

2. الن تفعل، استمع اذن ايها الخنزير المطلي.

---

* **نشرت هذه المسرحية اول مرة في مجلة العاملون في النفط ، شباط 1966، واعيد نشرها في مجموعة الجسد والأبواب، 1969.**

بالأمس رأيت عينيه داخل ملابسي، وحين صرخت نهض الاف الرجال من وراء التلال يتمطون ويحلمون بي، وكان الابرص يمتص قصب السكر بجنون.

1. هل افرط:

2. في امتصاص قصب السكر؟ لم انتبه، انما كان يحشو الرجال بالفتك، يقول لهم سأخدمكم حتى تبيض عظامي فتجفل منها الكلاب، فقط اغرقوا هذه الملتهبة عجرفة في هوة العجائز الدميمات.

1. الوغد، نسي كلبنا الذي التقطه من المزبلة فحمله الينا بعد ان التهمت البكتريا ساقاً ونصف ذراع منه (صمت ضئيل) انك تروقين لي حين اراك بسبعة اعشار وربع العشر من بصري، اكاد اغدو مسماراً في الكرسي.

2. (تتنهد) انك تبهجني حتى اطرافي.

1. اذن فلنرقص، أعرف رقصة كنا نرقصها على دقات الصفيح اسمها، اسمها.

2. لنتعلق باطراف الشيطان.

1.(بعصبية) انسيت ان الذي تقاطعينه هو سيف الكون (صمت ضئيل). حقاً ان خميرة الأرض بدأ يدب فيها الفساد .

2. يبدو انك نسيت حلمك يا سيدي في قارورة الهدوء بغرفة التفكير. هل اذهب لآتيك به؟

1. انت اليوم شديدة الطراوة، تنزلقين من اذني بانسيابة ارجو الا تكون مفتعلة، اصمتي، بدأ قلبي يشحن بالحرارة وما اظنني الا سابكي.

2. يا زوجي، ضع الجريدة جانباً، لأرى وجهك الناقوسي الحزين.

1. هل اعددت الاغطية، الليلة تمطر وفراً كما تقول هذه الاخبار.

2. انهم كذابون بالامس قالوا عجولاً وفراخاً، فصفعتنا ذيول التراب حينما خرجنا نعد الاقفاص والمخازن.

1. ما هذا السيل الكثيف من الضياء، يا للعنة، اقذفي بعضه خارجا ً، افتحي الشباك، سأتمزق حالاً. سأتمزق حالاً.

2. انتظر لحظة (تنهض من المقعد وعباءة سوداء تلفها باحكام تذهب الى النافذة فتفتحها، يرتفع صوت متشنج يردد).

الصوت – يا أم العباءة، حلوة عباءتك.

2. (تتقهقر الى كرسيها دون ان يرى منها لمحة) – انه هو يغني لي.

1. (بعصبية) من يكون هذا الاحمق؟

2. جارنا، بائع الصراصر.

1. عليه اللعنة، ساقذفه بالمقعد (يظل جالسا لا يتحرك).

2. انه يرصد الشباك منذ اعوام كثيرة، لن احملك على الغيرة فأنا امقت رأسه العصفوري.

(صفير يرتفع من النافذة، ذات الصوت يعود).

الصوت – أطلي ثانية يا حليتي النادرة، لا ترتعدي من زوجك الملطخ بالهوان.

1. الأفاق المجدوع الانف، ساقتله (لا يتحرك).

الصوت – اركليه في رأسه، صبي جردلاً من الماء في انفه .

صمت ضئيل – قفي في النافذة لاختطفك.

1. يختطفك ! اسمعي؟

2. انهض، اجلب البندقية، واثقب جسده مائة ثقب.

1. حسناً سأقتله تواً (لايتحرك).

الصوت – يافاتنتى المتلألئة، يا قمري الصوفي، هلا سمعت؟

1. دعيه يعوي في الظلمة، سأجعل جمجمته قيثاراً.

الصوت – انبذي هذا الجدي المصبوغ اللحية، هلمي الي.

2. (تنهض) انظر، ساجلده بتقريعاتي القاسية (تصل الى الشباك وتطل من).

الصوت – مبهج، مبهج، لم يخب ظني هاتي يدك.

كنت متيقناً انك مغرمة بي.

2. اذهب بعيداً ايها الحشرة الصلعاء .

الصوت – ياللنبرة البديعة التي اشاعت في قلبي الاطمئنان وفي جسدي المكدود الراحة، انطقي ثانية يا حسنائي، لتمتلىء اعماقي بالفرحة.

2. قلت كفى، احمل وجهك المسخ وضعه في صفيحة.

الصوت – لا تكوني مكابرة ان عينيك رائعتان حين تلتمعان في فضة القمر، اقفزي على حصاني الاشهل، انه لا يصهل حين يعدو في الوديان المقفرة وفوق الجبال المثلوجة.

سيعبر بنا الغابة قبل ان يطرف رمش وحش من وحوشها.

1. انه يدعو حماره المجذوم فرساً، ان القملة لتدب أسرع منه.

الصوت – من هذا المكابر الذي لا يعرف كلامه .

2. انه زوجي المفدى، انت لا تعرف اي الرجال هو.

الصوت – هيع، هيع هاع (ضحك متشنج) .

2. الا تصدق انه يحشو البندقية.

الصوت – هيع، هيع هاع (ضحك متشنج).

2. اننا نشفق على أرضية الممر البلورية من ان تتلوث بدمائك القانية، فاذهب الى حيث يعسكر صيادو الرؤى فيشفون امانيك المتوهجة.

الصوت – ليس بمقدوري، فانت معطفي الابدي.

2. سأغلق النافذة.

الصوت – سأرغمك على فتحها.

2. لن تستطيع.

الصوت – لا تكوني مغفلة، فعود ثقاب يندس تحت الباب يحرق المنزل الا يجعلك تفتحين؟

1. نيرون.

الصوت – اراك تتباطئين، هل ترهبينه.

2.....

الصوت – خذي هذا الخنجر واذبحيه.

1. لا تأخذيه.

الصوت – ليصفو لنا البقاء، ونحيا كما نهوى، خذي.

1. القاتل : لا تنصتي اليه.

تبدأ الأضواء بالخفوت والتلاشي وتحل الظلمة التامة.

تعلو صرخة، ثم تبدأ الأضواء ثانية بالأئتلاق. الرجل رقم (1) ما زال ممسكاً بجريدته في نفس الوضع السابق.

اختفت المرأة ولم يبق من آثارها سوى العباءة ممتطية النافذة.

2. (من اسفل النافذة) النجدة.

الصوت – قلت لك اهدأي لن أمسكك الا بيد من حرير.

2. عباءتي.

الصوت – دعيها.

2. (تصرخ ثانية) زوجي.

1. (بتساؤل) اجل.

2. اليّ، انني اساق الى الغموض، انجدني.

1. لا تجهشي بالبكاء ساقتله (لا يتحرك).

2. الصوت – انا القشر الذي سيحميك أيتها الخلية الطاهرة.

تضحك بصوت مرتفع.

الصوت (مبتعداً)– وداعاً يا ظل النسر الهرم.

* * *

الهارب أمام المرآة*

المسرح مظلم.

صرخة – لا توغل كفك في جمجمتي، انك تمزق يقيني.

أصوات بعيدة– حين يعود الغريب مشلولة دماؤه في عروقه من اللوعة، ستصرعه الافعى المختبئة في فراشه منذ ان رحل.

(تندفع النافذة، تمتد منها يد مشرعة سيفاً طويلاً.

ترتطم عليها سحابة نور موجزة، تنسحب اليد ببطء وتختفي.

ثم تمتلىء الغرفة بالنور. في جانب منها رجل يجلس على منضدة يحدق في النافذة وعلى مقربة منه اتكأ قارب مزخرف له جناحان، يستمر في النظر باندهاش ثم ينهض الى النافذة).

(في همس)

– الموت يغسل اغنام القرية. ودموع الراعي تثقب بياض عينيه، وهذه الريح الغادرة تدفع طواحين النهاية لتجرشنا.

يغلق النافذة – الموت هو اللعبة التي ينبغي الا يمارسها المرء.

يعود الى مجلسه خلف المنضدة، دقات واهية على الباب يرفع رأسه قائلاً:

– ادخل.

انفتح الباب ودخل رجل ملثم يلبس ملابس الجيل السابق. ينظر متفحصاً ثم يقول:

– اراك لا تزال حياً. اليس هذا مدعاة للفخر.

– ماذا تقول ايها الرجل الملثم – من انت؟

– أنا، يخلع لثامه.

– أبي.

الاب – لا تصرخ بصوت مرتفع لئلا أتداعى متهدماً

الابن –ألم تمت منذ عشرين سنة.

---

* **نشرت هذه المسرحية اول مرة في مجلة العاملون في النفط ، آيار 1966، عدد 51، السنة السادسة. ثم اعيد نشرها في مجموعة الجسد والأبواب، 1969.**

الاب – دعنا الآن، قم وانظر من النافذة، هل من(ما) تحتها.
ينهض الابن.
الابن – بعض الفرسان يعبرون محملين بالاسلاب التي اغتصبوها من القرى التي اقتلعت رجالها الزوابع.
صوت يصرخ من خارج الباب.
– أدركني، البرد يصفر بين اضلاعي.
الاب – هذا حارسي، هل تأذن له بالدخول؟
الابن يهتف مناديا – هلم ادخل ايها الحارس.
يدخل هيكل عظمي مجلو العظام مادا كفه الى الابن ليصافحه.
الابن – بانكماش – : يكفي ان نهز رأسينا بالتحية، يمكنك الارتخاء.
ينسحب الهيكل العظمي ويرتكز في زاوية.
الاب – أرى سؤالاً يتمخض في عينيك منذ قدومي.
الابن – حقاً فبأناملي المرتجفة اسبلت جفنيك، وبعيني رأيت الحجارة والتراب تغيب تابوتك، وحفرتا اذني امتلأتا من الكلمات المحزونة.
الأب – عبرت انهر الزمن المتيبسة، وقناطر السحر المخدرة علني أصل الى الغد الذي بلا نهار ولا ليل. وما زالت أقدامي التائهة راحلة بي، وعندك ارتميت لاخبرك بـــ.
الابن – ليمطر فمك القدسي الكلمات مهما كانت.
الاب – كنت استجمع قواي ذات امسية فسمعت أصواتاً تذكر اسمك في قرار باتٍّ لها بانهاء وجودك.
الابن – عجباً ألم يذكروا علة سقوطهم علي.
الاب – يبدو انه أمر محتوم عليهم ومجهول.
الابن – بعد صمت – لن يهمني امرهم وسأفني كل من يتجرأ على التقدم مني.
الاب – لكنهم مخلوقون من أجساد لا تعرف الموت ولا يعرفها.
الابن – حسنا. ليأتوا فأغسلهم بالتجربة.
الاب – ثبت رأسك على عنقك جيداً وبالتالي اجزم.

الابن – انني واثق.
الاب – حين يخلو المرء بفكره يثق ويبني أمثل ما يريد، وعندما يصل الى الواقع يفقد القدرة على التقدم.
الناس يرون السماء بعيونهم، لكن السماء لا تحتاج الى عيون.
الابن – ان باطني هو خارجي، وخارجي باطني، انني واثق.
الاب – بحنان – انت بذرتي الميمونة التي لا تقدم للانواء اي مجاملة. واي رجل انت يتفصد العزم من جبينك، انك تملأ قلبي.
الابن – وانت العباءة المباركة التي تقيني، وان اليدين اللتين فتحتا اجفاني ستسبلانها بفخر.
(الشباك يقرع، يفزع الحضور، الهيكل العظمي يلتصق باقصى المكان)
صوت أجش من الخارج – افتح.
لا ينتظر بل يدفع الشباك بعنف ويفتحه، يدخل رجل ضخم قوي يرتدي ملابس الجيل الاسبق.
الاب – يا للغرابة، اي تدبير غامض قذفك الينا؟
انه جدك يا عزيزي، انكما لم تتعارفا من قبل.
يتصافح الاثنان بدبلوماسية فائقة واحترام كامل، ثم صمت.
الجد – لابنه – هل انت متأكد منه، بصيغته الكاملة.
الاب –أجل.
الجد – اذن لا بد اني وقعت في غلطة ما.
الاب – ما هي؟
الجد – لا شأن لك بها.
الاب – لا بد لي ان أعرف.
الجد – حسناً – سأنزل عند اصرارك : كلفت بانتزاع روحه.
– يوميء الى حفيده المرتجف.
الحفيد – هلا اخبرتني عن هذا الاصرار اللافح عليّ.
الجد – نحن اجدادك، نبقى في الزمن : كل منا يملك أرضه ولن نرضى للآخرين، شرقيين ام غربيين بالدخول فينا.

رغم اننا نحب الملاك.
لنا سماؤنا الخاصة، كنا قديماً ونبقى، اننا منتشرون مثل الأرض.
اما انت فكنت تعطي دمك لفكر يمزق الأرض المستوية. لذا قرورا طمس وجهك عن ضوء العالم.
الاب – بتخشب – انك لن تنصاع لهم.
الجد – (تحديق).
الابن – لن تغسل يديك بدمك.
الحفيد – لن تغرز اظافرك في قلبك.
الاب – لن تسلخ جلدك. استحلفك.
الجد – وماذا سيقولون، انهم واقفون وراء الاشجار ينتظرون .
الاب – دعهم يبلعون انتظارهم المر، فالعاصفة تلوح وسيغيبون فيها.
الجد – اذن فلنصل عليهم أولاً، ثم أقرر.
الاب – ماذا تقول؟
الجد – سأخذكم الى دار لن يقرع بابها، ولا يصلها نداء وليس فيها نوافذ كي ننجو أتأتيان.
يهزان رأسيهما بالايجاب.
أصوات بعيدة – ذو الوجهين يهرب في المرأة، ثم يسقط في البئر، وجوه كثيرة تهرب في طرق مختلفة لكنها أخيراً
تسقط في البئر ويظل القارب واقفا.
آه. لا تموتوا ايها المسافرون سيحضر البحارة غداً.

* * *

سهرة تحت غيوم الصباح*

المشهد..

ساحل على بحر ممتد. الساحل والبحر عاريان بصفاء. وثمة رجل مغطى جسده بالرمل ورأسه منتصب تجاه البحر عكس المشاهدين.

الرجل المغطى – تكون سعيداً، ايها السامع، وغير الموجود في الوقت نفسه، اذا انتبهت فجأة وأبصرت نفسك وحيداً صافياً الى ما لا نهاية.. نقياً كمجنون. ومسست المسافة التي تفصلك عن الآخرين. .وأحسست بطول السنتمتر الهائل الذي يبعدك.. (صمت قصير)

أيها السامع غير المرئي.. يا من تمتلك كتلة تماثل كتلتي وتمتلك وعياً وإحساساً يضارعانني.. انت غريب عني وانا غريب عنك ولن يعرف أحدنا الآخر أبداً مهما أفصحنا عن أفكارنا وأسقطناها في مرأة الوضوح.. ومهما فتحنا أبواب قلاعنا لندخلكم منها، فهناك أبواب سرية تظل مغلقة: شئنا ام أبينا. (صمت)

إذن، ما بقيت تلك الأبواب محرمة فلن يعرف أحدنا الآخر .ونبقى غرباء ايها السيد السامع، غير المرئي. (صمت). كل منا يقاتل كي لا ينتهك.. الافراح والهموم نطويها في أعماقنا ونحرسها لانها متاعنا الـــروحي ايها المتاع العفن، بك يقيد الإنسان ويفقد حركته.. (صمت)

يدك هي القيد.. مدها الى أحدهم فاذا استلمها فقد سقطتما معا.. التـــفصيلات هي الدوامة التي تجمع في مقرها كل أجساد الأرض. الأجساد المؤهلة للنار.

ايها السامع، غير المرئي.. ان مؤامراتك القذرة الصغيرة التي تخلقها مع الآخرين تبقيك جسداً حقيراً، معدوداً برقم.. في هذا المنزل ستة.. في الشارع مئة.. في المدينة مليون.. في الدولة عشرة ملايين. اذن فرقمك قد يكون526ر101ر7..(صمت)

*** نشرت هذه المسرحية اول مرة تحت اسم "سهرة تحت الغيوم" في ملحق جريدة النور، 14 تشرين الثاني 1969، ثم اعيد نشرها في مجموعة القناع، 1970.**

لقد تجردت تطلعاتك وإنسانيتك ووجودك واضحيت جسداً وجلداً غير مميز : الأجساد تتساوى في الظلام.(صمت)

ايها السامع : نحن بعيدان.. قد نحدق ببعضنا في منعطف او في سيارة عامة.. لكننا سنغيب، وبينما اكون رافعاً رأيتي تكون انت بلا راية، بلا تأريخ يؤهلك لان تكون مواجهاً لي.. ايها السامع غير المرئي : ربما اشفقت عليك حيناً من الدقائق.. فهل يجدي؟؟

انك تفكر بان ظلك الذي تجره خلفك تصنعه الانواء الجوية ولا تفكر بانك انت الذي يصنعه.. انه انت وليس النوء.. هكذا يجب ان تكون والا فلن نلتقي.. (يشق نهاية البحر زورق مملوء بحشد من الأجساد.. يقترب من الرجل المغطى، يصل الى الساحل ويقفز منه رجال ونساء كثيرون يواجهون الرجل المدفون).

واحد من الحشد – أبصرنا هذا الرأس النابت من الأرض .

هل انت حي ايها الرأس؟

المدفون – (سكوت)

امرأة – هل لك أطراف؟

المدفون.(...)

امرأة – لنقلعه من الأرض، ربما كان له جسده.

رجل – قد يكون بلا اطراف فخجل من وضعه بين الناس فجاء الى هنا ودفن نفسه.

امرأة – ربما

رجل – كنت أعرف رجلاً سحقت أطرافه عربة.. ضجرت منه زوجته فحملته في حقيبة ضخمة وطوحت به في النهر.. ربما كانت زوجة هذا رقيقة فدفنته ليتأمل البحر قبل ان يموت.

هل تحب البحر كثيرا؟

- ضحك -

- تنحني امرأة وتزلق أصابعها في شعره -

المرأة – انه جميل، عيناه جميلتان وعميقتان.. ليتني أعرف حياً مثله لكنت أحببته. هل انت أخرس ايها الرفيق المثبت.

رجل – انك تكلمين حجراً يابساً. انا أعرف هؤلاء.ان عاهاتهم تخولهم امتيازاً خرافياً بايذائنا. ايها الشقي التعيس يا حثالة افراح البشر، انني لن اشفق عليك. لكنني اخاطبك بألفة معينة وان كانت ضئيلة.. هل تريد ان تأتي معنا. لن تثقل علينا، واذا ضجرت فاطلب منا ان نرميك في البحر وسنفعل.

المدفون – (سكوت)

الرجل – سيخلق ألمنا لموت إنسان وحيد على ساحل بحري مهجور. هل اخترت موتك ام أجبرت عليه؟

امرأة – انه ينظر الينا بازدراء.. ويخيل إلي انه قد فهمنا.. هو يستطيع الكلام، لماذا لا يتكلم؟

- تنحني عليه وتقرصه من شفتيه وخده -

المدفون (يصرخ) : ارفعي يدك أيتها العاهرة .

المرأة – بفرح –: انه يتكلم، يتكلم.

امرأة ثانية – لنعمل على انقاذه..سأرتعب اذا كانت له رقبة فقط تحت التراب. هيا ايها الرفاق أنقذوه.

(ينحني الرجال عليه)

المدفون – أبعدوا أيديكم الملوثة ... أبعدوها ايها الخونة. لا اريد ان تلمسوا ما يخصني.

رجل – لكنك تدفن نفسك... ستموت ببطء.

المدفون – ماذا يهمك من أمري.. انا وضعت خصوصياتي فلا تلمسها.. هب أنك لم ترني، فهل كنت ستشفق علي وتنقذني، اذا اردتم مساعدتي فدعوني وانصرفوا.

رجل – انا واثق من جنونه.. لننصرف.

رجل آخر – ما دام الأمر قد كشف نهاية سيئة وما دام قد رفض معونتنا وطلب منا تركه على حاله، فلننصرف.

رجل اخر – هيا ايها الرفاق، ان البحر يدعونا وثمة متع عديدة في مرافىء كثيرة تنتظر.

- يتحول الجميع الى المركب.. تتخلف امرأة -

رجل – يناديها – هيا يا فتاة، أسرعي.

الفتاة – سأمكث هنا.

الرجل – هذا شأنك. تذكري انك ستندمين فلن يعرج أحد الى هذا الساحل المعزول، ستنقطعين عن حركة العالم.

الفتاة – وداعاً

(يشق الزورق البحر متضائلاً)

الفتاة (تنادي الرأس) – ما يدهشني أنجذب فيه، وانت ملأتني بالدهشة : الأشياء الممكنة التفكك الى رموز تجعلني أحني رأسي وأدخل فيها وألغي كل اللافتات المانعة والحواجز الجاهزة لصدنا من تحقيق تقدمنا في شيء الى نهايته..

المدفون – يبدو بامكاننا ان نتكلم سوية.

المرأة – ذلك ما تدفق فيّ عندما شاهدتك.

المدفون – من هم هؤلاء الذين جئت معهم ثم مضوا؟

المرأة – انهم فتيان يعيشون بتنفسهم وعضلاتهم أسقطوا تاريخهم وعوائلهم القديمة ومدنهم، رفضوا انتظارالمستقبل. انهم يعيشون حاضراً خالداً، يعملون ما يستهويهم ويتركونه بنزق اذا ما ضجروا منه، غرباء يجمعهم الزورق، اذا ابحر كانوا فيه، واذا غرق غاصوا جميعهم. يا لها من وحدة قاسية غير اختيارية كنا نعيشها. هل انت بخير؟

المدفون – طبعاً

الفتاة – هل وضعت نفسك بنفسك تحت التراب؟

المدفون – يقيناً

الفتاة – لماذا؟

المدفون – الخطأ. اعتقادهم اني سأقتل تحت التراب. فحتى في هذا لم يعرفني احد. لقد دفنت نفسي اختياراً اختبر قدرتي على فحص قوتي. قررت أنا حبس نفسي أسبوعا في التراب لأكتشف قوة جوعي وعطشي وجنسي. لم افكر أبداً بالانتحار. (صمت).عندما ينتحر الإنسان يفقد نفسه ويبقى العالم كما

كان، لن يتغير شيء، فلماذا ندمر أنفسنا هباءاً، ولسنا نملك غير أنفسنا: الأغبياء هم وحدهم الذين يقدمون انفسهم بتفاهة الى الموت.(صمت). ان التفصيلات التي نعيش في حركتها وما تخلق من متاعب لهي اصغر من وجودنا، اننا نستطيع طرحها ونستمر. (صمت). نحن الذين نخلق ونحن الذين نفرز الوقائع ونلهبها بخيالاتنا.

الفتاة – هل وجدت شيئا؟

المدفون – أحاول ان ابعث لحيويتي قوى جديدة في هذا العالم الذي تتشبث الأجساد فيه لبناء امجادها الزائفة : رغم انني امقت الجوع والعطش والحرمان.. أحيا لكوني لا أجد ما أفعله سوى الاستمرار في الحياة.

الفتاة – ستضطر الى السير في الازقة العتمة التي يخشى الاعتيادي المرور فيها وتعيش في غرف تمنع الأصوات والمقابلات ستنحسر منعزلاً تحمل أثقالك وحيداً.

المدفون– آن لك ان تصمتي سأضطر لرميك في البحر.

الفتاة – لماذا؟

المدفون – لانك بدأت تخرجين لسانك من الدستور!

(صمت) في الوحدة المقدسة يكتشف الإنسان كيانه برمته ويكتشف موضعه ويكشف العالم الموجود فيه.. حينئذ ستتهاوى المؤامرات والطموحات البائسة. (صمت). سينفرد راقياً ممتلئاً بألوهية جامحة.

(دودة ضخمة تثب من ثقب، وتمر ببطء فوق وجه المدفون ثم تنحدر الى الجهة الأخرى وتمضي في التراب)

الفتاة – ألم تر.انك لم تستطع الدفاع عن نفسك حتى تجاه دودة.

المدفون – هذا ما أردت أنا قوله، انها لا تختلف عن معظم أجساد هذي الأرض، تمر بك وتكاد تسحقك لكنك لا تملك الا ان تبعدها برفق لئلا تلتصق بك بأذاها الأبدي.ان عذابي يكمن في ان اعيش في مستقبل الحاضر، لا في الحاضر.

الفتاة – هل تأذن لي بازالة التراب عنك.

المدفون – لا بأس.

(تخلع التراب عن ذراعيه ويأخذان سوية بخلع الكتلة عنه – ينهض بملابسه الكاملة المتسخة)

الفتاة (مع نفسها) – كما كنت أحلم به.

المدفون – ماذا قلت؟

الفتاة – سأجعل لك كياني غرفة سرية تنتشر فيها، تصخب، تغني، تمرح، تحزن بصفاء، وتنام فيها.

المدفون – لماذا أمانع؟ الأمور كلها سواء.

الفتاة – انها تختلف وستجد ذلك.

– المدفون يضحك مستخفا ثم يقول –

– انك جدية وهذا ما يزيد المسألة بلبلة. لن أقع في التباس.

الفتاة – هل نعود الى المدينة؟

المدفون – هيا

(يطبقان كفيهما ويسيران ببطء، يهبطان من المسرح ثم يمران بين المشاهدين بتؤدة وهما مشغولان لا يحسان بأحد ثم يختلطان بالجميع)

(صمت)

* * *

الجدار وزهور البحر*

دائرة ضخمة من الماء راكدة، ابعادها الآفاق. مركب خشبي صغير ساكن، ورجلان شاحبان يتكئان على الحاجز ينظران في البحر الخامد.

الاول ــ لا تدع قلبك ينتظر ريح الخلاص..

الثاني ــ صمتاً يا رفيقي، لا تخلع عني الامل، فالشمس مهما رمت أشعتها فستصطدم وتقف.

الاول ــ انك لم تطل على حل المسألة ياعزيزي، المركب ثقيل والريح واقفة، لا خلجان، لا مرافىء نحن في البحر، هذا السرداب المظلم الذي تتزحلق فيه الى حتفك رغم مشيئتك.

الثاني ــ لا تكتم أنفاسك بأصابعك الوجلة، قد تنشط الريح وتقذفنا الى شاطيء مغيب عن اعيننا.

الاول – ارتو من هذه الخيالات الفتية واحش جمجمتك التعبى بها (يغضب فجأة). قم الى سطح المركب دعه ينتفض ويسير الى بر النجاة.

الثاني ــ (يتململ) ستسقط عيناك المتعبتان من محجريهما ان ظللت تصرخ، لمّ قواك واحفظها.(صمت).

صوتك الصحراوي يسربني مع ارتخاء الريح المتلاشية:

ليكن صدرك المرتعش مملوءاً بالعزيمة وعامراً بالفتوة.

اننا سنبقى ما دمنا ساكتين مسخرين لإرادة البحر،البحر الذي لا يعرف لهفة الفرحة ولا نشوة الخطوة الواثقة.

الاول ــ حسناً سأنتقل اليك خطوة واحدة وأضع بين كفيك هذا السؤال، أين نحن؟

لقد خرجنا متجهيــن الى وطننا، ومنذ أيام هاج البحر وحطم اتجاهنا وأصبحنا معلقين في دائرة ضخمة من عيون الصمت المتربصة:

هيا افعل شيئاً

---

* **نشرت هذه المسرحية في مجموعة الجسد والأبواب، 1969.**

مد ذراعيك في البحر وجذف الى شاطىء ما، والا هل تترك أجسادنا تضمر وتلفها كلماتها؟

الثاني ــ اليأس يهدر في وحشتك

ايها التائه : ايها التائه.

لا تقذف صوتك المحنو من الالم، فانه يتبدد في غربة لا اذن فيها.

الاول ــ امنح حروفك لكلاب البحر ايها الرفيق فستدهن بها عيونها المتعطشة الينا، هيا لنغن. (في حنق موغل في اليأس).

هيا:

ايها الموت المنتظر خلف الامواج

أعطني زورقا لأجيء به اليك كي لا اجشمك عناء الانتقال، فلــن ندع الزمن يتعبك من اجلنا لحظات عاقرة تلتقط بها ارواحنا وتمضي.

الثاني ــ ستزول ذرات وجهك الراسخ من التساقط يا رفيقي الجائع الى الخلاص.

انصت الا تسمع شيئاً ينحدر الينا، خفيفاً وسريعاً.

مرتعداً كرفيف خفاش اطار صوابه نور متوهج

الاول ــ لا اسمع شيئاً سوى صوت قلبي

الثاني ــ قلبك!

الاول ــ انه يجأر:

أيتها الريح لا تسقطي على شاطىء البحر ميتة.

انني انحب اليك، هلمي الى كياننا المتعب، ضميه وانطلقي به الى اي شاطىء حتى ولو كان صخرة عارية يتملكها غراب، الى أرض يابسة متشققة، لا تدعينا واقفين تتصادم أجسادنا لنبدد مطامحنا الأخيرة وامنحي هذا الرفيق الغريب بركتك القاسية، لانه بلا قلب.

- يلتفت اليه ويحدق فيه ويقول-

اتعتقد ان تلك اللحظة التي جمعتنا تولدت طبيعياً، ام ان المدن الساحلية تقذف معرفة البعض على البعض بلا مقدمات.

الثاني ــ لا افهمك جيداً

الاول ــ كنت مديناً بنصف هذه السفينة الى مرآب في المدينة وكان يريد بيعها، لماذا أتيت واشتريت حصته؟

الثاني ــ لاني كنت اريد الرحيل عن مدينة مللت طرقها وأبوابها القديمة ويئست من أسوارها وشعر بناتها المجدول ورجالها المزيفين : مدينة الافواه الزجاجية التي تنخر الغبار، انها تعشق أسوارها التي تصد زهور البحار الزاحفة : انها تخاف من الشمس.
تباً للمدن التي تخاف من الشمس.
انني ابحث عن مدينة حقيقية في هذا العالم، ولهذا أتيت معك.

الاول – بدأت تلتصق بقلبي ايها الرفيق، انك الظل الذي يتقهقر في جانبي الخفي، والذي تنحسر اليه نفسي المنهكة.

الثاني – وانت ايها الرجل المرهق، ما مطافك؟

الاول – لم اعصر عمري كما ينبغي، بل تركته يتسرب دونما رجعة. كنت اتتبع رنين الدراهم تقودني الى كنز، كان الكنز وجودي، ولم أنل أخيراً الا سنوات يابسة تكلست على وجهي، وسنارة دين مفرغة نشبت في المركب ومزقت نصفه. والآن نجوت من وهم رجوعي ثرياً. انتفخ بين قومي البسطاء سأمضي لأحيا، ولا اجر هموماً زائفة.

الثاني– اخالك ألقيت الخوذة الثقيلة عن رأسك ان بعض الناس يجهدون رؤوسهم لان تصنع طبقات من الجد يطلون بها هياكلهم بلا احتياج او مبرر، يمرون في طرقات المدينة بوقار وتؤدة، وجوههم صلدة، عيونهم حجارة. وحينما يدلفون الى منعطف ينحون القشرة فتظهر أجسادهم الحقيقية، انها الغلطة التي لا اغتفرها ان يملك الإنسان جسدين، واحد يتعامل به مع الناس والآخر يتعامل به مع نفسه.

الاول – لا تقذفني معهم، انا صنعت نمطي باختياري التام، كنت أؤمن ان الفرد ذو اندفاعة وعليه ان يبدأها باتقان ونهجت تحديدي حتى افقدني البحر إرادة الماضي.

الثاني – إذن سنبدأ سوية، نجعل هذا الجسم الخشبي طائرنا ونكون نحن جناحيه.
الاول – ألا تعتقد أننا تأخرنا كثيـــراً، ألا تحس الجناحين يتهشمان.
الثاني – لا أدري ماذا تخبىء الدقيقة القادمة، ولكني أؤمن بان هذا الوقوف المريع يخلع العزيمة والاصطبار.
الاول – انظر الى الاقداح والاواني، انها جافة تبعث رائحة هجر الطعام والشراب.
(يدير رأسه في الافق الاحدب مالئاً عينيه المهمومتين من السماء المطبقة على البحر والمكونة زرقة لا مطاف لها)
الثاني – انظر أليس هذا طائراً، انه يجيء من بعيد، يرتفع ويهوي على جلد البحر، انه يقترب من مركبنا انظر : انظر : انه يحط على المؤخرة : هذا الطائر الأسود.
(يجلس الرجلان وهما ينظران الى الطائر الذي بدوره ينظر اليهما).
الاول ـــ ان صدره يكاد يتمزق من التنفس، انه يحدق فينا مرتعباً ايها الطير العزيز من اين أتيت، اخبرنا، ماذا وراء هذا الافق؟
(ينهض ليمسك الطير فيقعده صاحبه).
الثاني ـــ لا تذهب اليه فتفزعه.
الاول ـــ كلا سيمنحني الجواب الذي اتمناه، ايها الطير دلنا على الطريق.
(يفلت من أصابع صاحبه وينطلق الى مؤخرة المركب حيث الطير وينحني ليمسك به فينقلب الطير مضطربا ويحرك جناحيه لكنه يسقط في البحر)
(الاول ينحني من فوق ويحدق في الطير الذي مات).
الثاني ـــ لا بد انه وافانا من مكان ناء فهو مرهق جداً.
الاول ـــ لا تلمني ان دفعته الى هلاكه، اريد مرفأ ينساق الينا يكشف لنا وراء ذلك الافق الراكد في أغوار البحر.
الثاني ـــ لا تشغل فكرك بهذا الامر، انه لو بقي يختلج لمات.
فالنضال التائه يورث الحسرة.

(يقترب الرجل الاول من الثاني).

الاول ــ انك نزعت عني جلداً غليظاً، ألقيته عني بسرعة لم اكن اتوقعها.

الثاني ــ الحقيقة غالباً ما تفسد ما يبنيه الإنسان في خلوته من امان بهيجة وأحلام رخية، الحقيقة دائما صلفة لا تقيم وزناً لأية سلطة.

الاول ــ أخذت ارى الهواء الذي اتنفسه، آه، وصلت عيني الى آخر نقطة في عري الأشياء.

الثاني ــ يولد أولئك الناس ليقفزوا من فوق الأسوارعراة ويلبسون احذيتهم في رؤوسهم اذا طلب منهم: من اجل بقعة ضئيلة لا يأبه بها الآخرون، انما يدوسون عليها بعد أيام وربما يبصقون عليها.

الاول ــ أوقف جدول حديثك هنيهة، وانظر : اما زال الطائر طائفاً

الثاني ــ (يجرجر خطواته) : اجل، انه مقلوب على ظهره. منقاره يأبى الغرق.

الاول ــ انتشله، فقد ينفعنا هذا البائس في ركدتنا المميتة هذه ويؤجل نهش احدنا للآخر.

الثاني ــ يأبى ظلنا الا ان يتشبث خلف الأسوار صامداً في وجه عدو موهوم يحارب بالف سيف، ظل وجهه يكره قفاه، ظل وجهه يقاتل قفاه، اذهب بعيداً واغرب عن عيوننا ايها الطير الأسود، اذهب، فعندما تفتحت عيني وأبصرت الشمس وقال لي صاحبي – ها قد وصلنا الآن.

تيقظت وأبصرت جسدي الظمآن موثقا في البحر ينتظر الموت : الآن اسفرت الرحمة عن وجهها المرائي.

(ينحني منقباً عن آلة يلتقط بها الطير الأسود فلا يجد شيئاً ويعود).

لم اجد شيئاً ما ارفع به جثمان صديقنا الغريب.

((ينظر ثانية ثم يصيح)).

الأول ــ تعال انظر،انه يبتعد عن مركبنا، ينزلق على رعشة الامواج.

((يقف الرجل الاول ويسحب جسده الى الحاجز)).

– انه ينجاب كثيراً.

الثاني– (بفرح) : البحر يتحرك

الاول : انه يضطرب فيهز مركبنا النائم ويدفعه، يندفع، يتمايل، البحر يتشنج والشمس التي تغلق الافق على البحر تفك القيود عن مركبنا، يا الهي دعني اسجد لك سجدة تليق بتحنانك.

الثاني ــ لم فرحك ايها المتهالك : ايها الشقي، البحر يسحبنا الى رغبته السرية.

الاول ــ ماذا تقول ايها الغافل.

الثاني ــ اين نمضي ايها البحار الماهر !! ان رغبة البحر المجهولة تسيرنا.

الاول ــ لا تأبه، فهذه الامواج التي لا عقال لها قد تدفعنا في غسق صاف الى جزيرة او شاطىء ما، وقد تدفعنا الى أرض متوحشة.
آه لتقذفنا الى اي مكان غير البحر، فعلى الأرض نستطيع ان نقاتل ونحيا، ولكن هنا في البحر، تلطمنا الموجة فننحني لها ونتضرع.
لطالما جال بفكري سؤال هو – ماذا بعد وصولنا الى نتيجة عبقرية مذهلة؟ نفرح، نتفاخر، نكتئب، ماذا؟
هل تستطيع أجابتي؟

الثاني ــ لماذا يولد الإنسان ليموت؟ هذا هو الجواب الثمرة.

الاول ــ ان الكلمات لتتحشرج وهي تخرج من فم ميبس، افضل لو نرقد قليلا حتى نتدبر أمرنا عندما يلوح لنا سبيل نجاة.يتمدد الاثنان على ظهر المركب ويأخذان مقطعاً طويلاً من النوم، وبعد ساعات يرفع الاول رأسه ويهز الثاني فيجلسان.

الاول ــ لا شارة تؤملنا بالنجاة، لكننا سنجدها... سنجدها. هكذا تحدثني هذه الدقات المتلهفة.
–يقرع اضلاعه–

الثاني ــ .....

الاول ــ سأبيع حصتي في هذا المركب وانطلق في البر مبتعداً عن هذا الوحش، فهل تشتري؟

الثاني ــ انا؟ كلا بالطبع، فقد تورطت وأعطيتك رقبتي.
يظهر في ختام الافق صار بحجم الاصبع ثم يكبر ويكبر حتى تظهر باخرة كبيرة، يفتح الرجلان صنبور حنجرتيهما بصرخات

الى الباخرة التي يقف على ظهرها جمع من البحارة ينظرون اليهما، ينزل تجاههما زورق انقاذ كبير، يلتصق الزورق بمركبهما، ويقول الاول لرئيس البحارة، اين هي وجهتكم؟

رئيس البحارة ــ سنعبر البحر الى الجنوب.

الاول ــ خذانا معكم واتركونا في اول مرفأ.

- ينهمك البحارة بربط المركب الى زورقهم ليوصلوه الى الباخرة.

رئيس البحارة – أقرب مرفأ يبعد مائتين وسبعين ميلاً.

ــ يلتفت الرجلان احدهما الى الآخر ثم يتصافحان ويقول الاول : وداعاً أيتها الأيام الكدرة.

يلتفت الثاني الى البحر ويقول:

لنا وحدنا الحق في ان نكتب ما نشاء عن حياتنا، فنحن الذين خلقناها وهي لنا بحذافيرها.

* * *

الرصيف*

كانت الغرفة نظيفة وخالية، لها باب رفيع ينحشر فيه الداخل ليتمكن من العبور، وكان رجلان أولهما يحمل عصا، والثاني يترنح وكأن يداً خفية ترفعه وتمنعه من السقوط قال الاول– سنبدأ من جديد، دوماً نبدأ من جديد، ويبدو اننا لن ننتهي هه؟

– الثاني لا يجيب –

الاول – افتح هاتين الشفتين، أعلن صوتاً واحداً!

– ينتقل الى مقدمة الغرفة ثم يعود الى مكانه: -

– ماذا تجد في الصمت؟

– الثاني لا يجيب –

الاول – لن يكسرني صمتك. ليس الصمت دائماً قوة المغلوب. (يتوقف ويقول بسخرية) : مغلوب!

– يمسه بالعصا– :

– كلمة واحدة من فضلك!

– صمت –

الاول – لن تتكلم. هاه؟ سأحولك الى تيار من الكلام. (متحدثاً مع نفسه: سؤال صغير ينزلق الى ذلك المكان السري الذي تختبىء فيه المعلومات ويرفع الحاجز فتنحدر الاجوبة متدفقة. جواب السؤال الاول هو المفتاح الأساسي، ثم تبقى أضاءات صغيرة تتكشف تلقائياً. ان قيمته تكمن بالمعلومات التي ستظهر حتماً، ستحل المعلومات في الاوراق وتختفي قيمته). صدى لجوقة يرجع – تختفي، تختفي، تختفي.

الاول – هل تسمع النداء؟ أصوات تنفجر من صوتي.

الجوفة – انه لا يتكلم، انه لا يتكلم.

– يضيء الاول نوراً اقوى على المقيد ثم يمسكه من شعره ويرفع سوطه الى الاعلى ويضربه فيترنح ويسقط على الأرض.

---

* **نشرت هذه المسرحية في مجموعة القطار الليلي، 1974.**

الاول – اللعبة غير المجدية تتكرر. يسقط ثم ارفعه، يسقط ثم ارفعه.
– يدخل ظل الى الغرفة –
الظل – إلام ستضربه؟ انه لا يتكلم .
(لا يلتفت اليه، يجيبه وظهره نحوه، بتقرير) :
الاول – كلهم يتكلمون في النهاية ويغالبون تاريخاً فات.
(يستدير ببطء ويضيف) :
– التاريخ : عين مزورة غير موجودة في الحاضر .
الظل – لكنه سيموت.
الاول – لن يموت. انهم يمسكون اللحظة البارقة بين الحياة والموت، فتضيء لهم مستقبلهم. انهم بحاجة الى هذه اللحظة ولذا ندفعهم، وندفعهم، فيسقطون بين أيدينا.
– ينسحب الظل-
الاول – بين ايدينا تتفتح حياتك ايها الرجل، تتفتح أياماً جديدة.
– يذهب الى جانب آخر ويحضر دلواً من الماء يصب على الرجل الملقى، فيرفع رأسه:
الثاني – اين أنا؟ آه. آه.
(يصب عليه من جديد).
الثاني – اين سأذهب؟ كيف جرى ذلك؟
(يحدق في الغرفة ويتذكر).
الثاني – لا جديد، لا جديد أيها الرجل.
(ينهض ويواجه الأول متضرعاً):
– لا أعلم شيئاً، لا أعلم شيئاً.
الاول – لا تقل لا أعلم شيئاً، من يصدق؟ (الى جمهور ما:) هل تصدقون ان رجلاً مثل هذا لا يعلم شيئاً بالمرة .
(يتحول الى الثاني) انك تعلم شيئاً. ولنقل شيئاً ما على الاقل، فحدثنا عنه.

(قبل ان يكمل حديثه، يتداعى الثاني على الأرض، فيسرع الى الدلو ويصب عليه فيفيق).

الاول – هل تصعب عليك البداية؟ ابدأ من اي موضع وسأربط الحديث.

الجوفة – انه يجيد ربط الكلام، يجيد ربط الكلام، ربط الكلام، الربط.

الاول – وانا أمين، سأطلعك على حديثك ثم تصدق عليه (يتطلع اليه الثاني، ويقول بهدوء) :

– لا شيء لدي.

الاول – اذن ما زلنا مختلفين.

(صمت)

الاول – لن تموت، اطمئن، لكنك ستتوسل الى الموت.

(يرفع سوطه ويضرب بقسوة، يسقط الثاني على الأرض)

– يطفأ النور لحظة –

-2 -

– تنار الأضواء قليلاً، الرجل الثاني وحده.

يرفع رأسه:

– الجدران تتقدم نحوي وتستدير (يغطي عينيه ويدفع يده تجاه الجدران:– ستتكوم علي (يصرخ): قفي. يفتح عينيه): أم تراني انا الذي أدور؟ اننا جميعا ندور، آخ. عشت مليون سنة. انني اخرج من عتمة العصور محطماً، يدي في بطني، وأصابعي في رقبتي، وعيني في كفي.

– يدخل الظل-

الظل – لقد اختصرت العالم الى جروحك، لا شيء داخل الغرفة وخارجها يتحرك سوى جروحك. والنتيجة انت ستوجد مع جروحك ولا شيء خارجك، اين رحل العالم. الى اية نقطة ابتعد عن نظرك؟

الثاني – العالم في جروحي .

الظل (بحميمية) – بالتأكيد لأنه هو الذي اوجدها، العالم الرديء طبعاً.

الثاني – انك جاسوس.

الظل – لست جاسوساً، لكنني صوتك الخفي الثاني – انت تهذي.
الظل – اين تكمن الحقيقة؟ وهل تأخذ شكي نهائياً؟
وكيف يسقط الإنسان ويقف ازاء نفسه والآخرين؟ واية مبادىء على الإنسان ان يتحدد بموجبها ليكون واقفاً او ساقطاً في زمنه؟ الأرض واسعة فيها آلاف المدن وملايين الأفكار. ولكل إنسان مدنه. لقد تهدم التاريخ ولم يبق الا حطامه. ستقف وحدك فوق الاطلال المحرقة، ولن تفلت ابداً. التاريخ انتهى واذا اردت فابدأ من جديد فقد نفضوا الحطام عنك واخرجوك.
الثاني – هناك كثيرون. سنجتمع ونبني من جديد.
الظل – انت احمق، تصرخ في الفراغ، تمزقك خطيئتك.
الثاني – سنبني من جديد.
الظل – لكنك لن تنجو من هنا.
(يصمت الثاني)
الظل – اذن كيف ستبني من جديد؟
الثاني – لن تنتقيني الهزائم.
الظل – انت مهووس بالتاريخ المجرد، التاريخ المتكون وفق قناعاتك.
الجوقة (تردد) – قناعاتك، قناعاتك، قناعاتك، قناعاتك.
الظل – ماضيك لن يتلوث لانه انتهى.
وسيحولك الحاضر الى اتجاه آخر، الى فعل آخر.
الثاني – وضميري؟
الظل – هنا الاشكال الأخير!
الثاني – لن اخون مواقفي.
الظل – تستطيع ان تنغلق على ماضيك لكنك ستفقد حاضرك، واذا اردت العمل فتستطيعه. تستطيع العمل بطرق مختلفة.
الثاني – أرسلوك لتزليقي سهلاً اليهم ايها الجاسوس (يبصق تجاهه): اخرج
(يدخل الاول).

الاول – ما بين اللحظتين يكون الفراغ، لكنه فراغ متحرك، ايها الغرير. تهيأ للوقوف بين اللحظتين، بين الحياة والموت. بين الموت والموت.

– تطفأ الانوار قليلاً-

يدخل شخص معلناً للرجل الثاني:

– بعد ان عدت الى صوابك !! انت مطلق السراح.(كان الرجل الثاني يستند بظهره على الحائط فيعتدل وتضاء الغرفة مجدداً ويصبح في مكان واسع).

– يمر شيخ عجوز –

العجوز (يتمتم): انتهى، انتهى، لم يعد الا القطار يلألىء وحده وانا احوم. من هنا؟ من انت؟

الثاني (متباغتاً): انا عابر.

العجوز – وهل تحوم مثلي حول القطار؟

الثاني – اي قطار؟

العجوز – ذاك الذي يعبر مثل الريح، قطار من ضوء يشق الهواء انني اتبعه، اسافر خلفه منذ زمن طويل، هل تجيء معي؟

الثاني – انصرف خلف قطارك ايها الرجل قبل ان يبتعد.

العجوز – انه يقف عندما اقف.

الثاني – اذن ابتعد.

(ينصرف العجوز وهو يحملق في قطاره غير المرئي).

(تمر امرأة زاهية، تتوقف أمامه ثم تسأله)

المرأة – هل انت هنا منذ فترة طويلة؟

الثاني – آه. اي.

المرأة – ماذا تفعل هنا؟

الثاني – انني ابحث عن مدينة جديدة.

المرأة – مدينة جديدة؟ لا بد ان تكون بعيدة.

الثاني – الا تعرفين طريقاً الى أقرب مدينة؟

المرأة – الطريق الذي جئت منه.

(وتقترب منه وتهمس)

تعال معي، سنجوب غابات الجمال الكثيفة ونطفو في هدوء الذهن ولن تقف أمامنا جدران المدن.

- تصمت ثم تضيف:
- ستصعد درجاً أخاذاً ويحل بك دفء الأمل.

الثاني- انني اركز اتعابي على الأرض، انها وحدها تتحملنا الى النهاية، انصرفي.

(تبتعد المرأة بعد ان يؤكد اصراره على البقاء - أضاءات وانطفاءات، ثم يظهر طفل صغير جميل).

الثاني (ينادي) - ايها الطفل، ايها الطفل.

الطفل (متلفتاً) - نعم، ماذا تريد؟

الثاني - ألا تراني؟

الطفل - لا أراك.

الثاني - انا هنا، أبصر وجهي، وهاتان كفاي وهذا جسدي.

الطفل - لا اراك، انت بعيد جداً بين أوراق شجرة كثيفة تطفو على الماء، لك قدمان مثل نهايات الجزر.

الثاني - تعال الي، أنقذني.

الطفل - المسافة بعيدة لا أستطيع، لا أستطيع.

الثاني - اكاد اغرق، أمسكني من يدي، خذها.

الطفل - ان يدك تطفو وحدها.

الثاني - (يتوسل) : انقذني.

الطفل - لقد تأخرت، سأذهب الى المنزل (ثم يبتعد).

الثاني (وحده، الضوء يتوسع ويكبر، الأرض الجرداء. يهتف الرجل:(

- كل إنسان ينتمي الى أوهامه وشجاعات أحلامه. وبين الأوهام والأحلام يأخذ العـــالم شكله. والإنسان لا يأخذ شكلاً واحداً. ولا يمكن ان يجمد ضمن تخطيط يضعه إنسان يجيد صياغة النصائح.

(يصمت قليلاً ثم يضيف) :

أناس يرتحلون الى عدمهم، عليه. والآخرون يفرون من العـــدم بطرق مختلفة، لكنهم يلتقون فوق الهاوية ويحدقون على فزعهم الذي لا ينتهي. ليس للإنسان قانون حقيقي الا الثورة، أو لايبقى للإنسان الا انهياراته التي تفترس أفراحه.

- يطفأ الضوء نهائياً -.

* * *

خواطر*

* نشرت هذه الخواطر في جرائد ومجلات أدبية مختلفة في الستينات وتم تصنيفها حسب عام النشر وبشكل تسلسلي. أول خاطرة أستطعت إيجادها نشرت والكاتب عمره 18 عاما. ومن أهم المواضيع التي تتناولها هي مسألة الشرق ونظرة المجتمع الى المرأة العربية والمعيار المزدوج الذي يستخدمه الرجل الشرقي في تقييده للمرأه وأعطاء الحرية المطلقة لنفسه في ممارسة كل الأمور الممنوعة. بالأضافة الى ذلك، يتطرق الكاتب الى صراعات الحب الجسدي محاولا تارة إنكارة وتارة أخرى الأستعلاء عليه للوصول الى الحب الروحي. و يلاحظ الروح الثورية الجامحة التي ترفض قيود الماضي محاولة كسر الجمود والتبعية والنهوض بالواقع الرجعي للشرق عموما وللعرب خصوصا، وحظيت المسألة الفلسطينية بجل أهتمام الكاتب حتى في لحظة مناجاته لحب [illegible])

خاطرة

مرت على الإنسان فترات يحس بالوحدة المرة تطبق عليه مع أن لديه العديد من الصحاب.. هذه حالاتي.. كثيراً ما أشعر بالوحدة تكتنفني فأحس بوطأتها القاسية تخيم علي.. فلا أستطيع لها دفعاً سوى أن أفزع الى قلمي أبثه لواعجي.. بيد أنه طالما نحيته عني لأغرق في التأمل والتفكير.

وطالما هام بي فكري فأعيش لحظات تنبو بي عن هذا العالم المليء بالأدران والرزايا.. ورفاقي أين هم؟.

بعيدون عني.. لا يحسون بقدسية الخيال والتأمل وأحياناً تقع أبصاري على شخص أظنه جديراً بسماع همسات ذاتي.. وقبل أن أبوح له بشجني.. أفتح صفحة طويتها فأقرأها وسرعان ما ترتد أبصاري عنه محسورة.. فأرتد الى قمقم وحدتي.. أغلق فوهته علي وأنا أبتهل أن أجد من أتبادل وإياه الأحاديث الرفيعة والمناجاة السامية.

(1962)

الى مسافرة

لا لن ادعك تذهبين وحيدة الى البعيد.. إن الذئاب الجائعة تسرح في الدروب وهي تنهش الصخور.. لن أدعك تذهبين وحيدة فأنا هنا.. انظري الي جيداً وضعي يديك في يدي ولنمض معا.. لتهرئ عظامنا الثلوج ولتلسعنا لفحات الريح ولتمزقنا الوحوش.. إنما دعيني أسمع صدى وقع أقدامي مع أقدامك وهي تتردد من بين الأرصفة.. تدوي أن الخطى سائرة معاً على الدرب البعيد.

(1963)

خاطـرة

الريح تصفع شبابيكنا.. بجنون.. والمطر.. ينهمر.. عواصف.. تجتاح النخيل.. تهزه.. في حقد مريع.. والليل.. مهاوي مرعبة.. تتكسر فيها الأماني.. والخيالات اللذيذة.. والبرق يضيء.. يومض بعنف.. الرعد يمزق السكون.. بشبق محموم.. الدروب لفتها الظلمة.. وراحت أوراق الأشجار.. تندفع.. وقصاصات الورق.. والفضلات.. تزوم.. تتكنس عبر الدروب.. والسحب.. ادلهمت.. تكاثفت.. كأنها.. نيران جيش محصور.. غاب القمر.. ما عاد شعاعه إلا شحوباً.. هلامياً.. وارتفعت دقات لا يسمع لها منحى.. تنقذف.. كانها نعيق أشباح.. تقلى على ألف سفود.. في أغوار الجحيم.. وعم الصمت الرهيب.. الأكواخ الطينية.. انطفأت كل أضوائها.. لترقب الليل.. ما سيأتي به.. يرقبون في هلع.. وتتكور الكلاب.. وتموء القطط.. وعلى الأرض تسقط بيوض العصافير.. ما عاد الغرباء إلا عيوناً واجفة.. تنظر العاصفة المجنونة.. تعيث بهم.. يرقبون في صمت.. الموت يزحف اليهم..

كلمات لي

الأمواج الثائرة تتكسر على صخور الجرف.. كما تتحطم أماني اليائس على صخورالحياة..ليحصد كل إنسان شوكه بيديه.

القدر قهقهة ساخرة بالمرصاد لكل جبان..

- جمال المرأة في عينيها.. وأنوثتها في صوتها..

- أهول لحظة في عمر الإنسان حينما يفكر في الانتقام من حبه اليائس

- ما العمر إلا قشعريرة من خيبة ورعشة من فرح وسرعان ما تخبو وتذبل كأوراق الخريف.

- الحب سيل هادر يجرف بلا هوادة أدران النفوس.. والحب الأعمى يجرف الأدران والعقل.

- من يشعر بالحب يدرك سر الحياة..

- الأم مشعل ينير درب الأطفال.. والحبيبة حزمة باهرة من الأضواء تنير للفرد ذاته.

(1964)

همسات

قال لها..عيناك بحيرتان من عسل.. يموج فيهما.. الأمل البعيد.. لغد سعيد..وتسبح في رحابها.. شعاعات الأفق.. التي ترنوا أبداً.. الى المدى الساكن.. فيا حبيبتي.. دعيني أعبد عينيك.. وأغرق في جمالهما..

تمضي الأيام.. وتعدو السنون.. وتبزغ الشمس.. وتزحف الليالي.. والذكريات تظل أبداً ذكريات.. يتلهى بها الهائمون.. السارحون في القفار.. ينقبون عن غدهم.. وراء الصخور.. ويفتشون عن نبع صغير.. يقعون بجنبه.. كأشباح تائهه.. يمجدون الماضي البليد.. ويرتلون آيات الهوى السحيق...

(1964)

خاطرة

البقاع الجميلة.. تبدو نضيرة.. بلا ضياء الشمس.. فالجمال لا يزهو بالمؤثرات الخارجية عليه.. بل سمة الجمال تبدو جلية للعين ذات المرأى العميق.. فالسطح لا ينبئ عن العمق.. والموت لا يعني الانتهاء.. والوجوه الباسمة لا تعني الترحاب بك.. فثمة ابتسامة واسعة تحمل أدراجها مهوى فناء.. والدرب حين ينفتح أمامك.. ممهداً.. لا تنطلق فيه بكل قواك.. أفتدري ماذا يضم لك المنعطف؟ والفتاة حين تبتسم لك.. لا ترمِ نفسك.. وإلا

سيأتي اليوم الذي تبيع فيه نهارك بعتمة الليالي.. وذلك الوجه الأصفر الذي مر بك.. إنه يمضي.. الى الانطفاء.. والحقد يهشمه على الدنيا.. وضحكة ملأى بالفحيح تنفطر منه.. يخدع بها الأنظار.. يزين بها وجهه الكالح.. والغيوم حين تتمزق مطراً.. لا يعني أن الزرع سيحيا وينمو.. ويعم الأغصان الأخضرار.. وتتفتح الزهور.. بل ربما تجلب الصدأ.. فالبقاع الجميلة.. تبدو نضيرة.. بلا ضياء الشمس.

(1964)

خاطرة

حبيبتي، الي أنصتي.. أنصتي بقرارة أسماعك.. كي أناجيك.. وأسمعك مزموري الهامس.. وأشدو لك أنغامي الخفية.. إنك إن سمعت.. فلن تسمعي إلا صدى.. يلاحق صدى.. وهي تردد.. أحبك.. أحبك–

حكى لي الشيخ النحيل.. قال.. هناك على الربوة.. فوق الوادي العميق.. وحيث الليمون والزيتون.. كان كوخي الصغير يهجع ثاوياً.. وفي أحد الأيام.. ارتقى اليهود الربوة.. وطردوني من المنزل.. وصرخت بهم.. أيها القساة.. لم ترمونني عرض الطريق.. ألا أنني عربي يجري في عروقي لهيب البادية وتصدح في أذني عاصفة الرمال.. أيها الرعاديد.. لن أهاب نيرانكم.. سأضمد جراحي.. لألقيكم في البحر.. الذي أتيتم منه.

(1964)

خاطرة

إننا في العراق.. نشتري الحزن.. نفوسنا قاتمة.. تبحث في كل المناحي.. في المجالات المختلفة.. عما يثيرها ويهزها.. ويجعل الدموع.. تتدحرج من العيون..

إننا نهوى الحزن.. لما يحمله من مرارة وألم.

إن لمنبع الحزن.. الذي يزخر في جوف كل منا..أسباباً عديدة.. وكل نتيجة تتلوها الذكريات الوبيلة.. إننا لو نسينا الحاضر..وثقبنا جدار الزمن.. ونفذنا منه الى الماضي.. لرأينا السبب.. في الاستعمار الطويل.. مزرعة الظلم والقسوة.. والاستعباد والرشوة.. وفي الكوارث العسيرة التي مني بها العراق.. وفي الفقر الأسود.. الذي ضيق دنيا الناس.. آماداً طوالاً.. فعتمت النفوس.. واستروح الناس الى الحزن.. وجد الناس لذتهم في الحزن.. فطابت ليالي سمرهم في حكايات المآسي المخيفة.. وحتى أغانينا.. لا ننفعل بها.. إذا لم تكن مثقلة بالواقع الحزين.. والموسيقى لا تشدها الى آذاننا.. أنغامها البهيجة.. إنما نهتف حبوراً وطرباً حين تعلو نغمة ناي حزينة.. أو مجموعة من الأنغام.. مترعة بالجرس الأليم.. إن الغروب حين يزحف.. لا تطيب نفوسنا لمرآته العذبة.. إنما تهفو الى قرصه القاني الذي يعتمل في أعماق نفوسنا..

(1964)

خاطرة

لا تقرؤني.. أيها الأصدقاء.. إن أوسع ما في الوجود.. السماء.. إننا لو غرقنا في الظلام.. سنحس.. أن السماء فوقنا.. واسعة تحتضن الآفاق.. كيان طويل هادئ.. أزرق شاحب ليس صفحة جامدة..

إن العابرين لا يرون السماء تنبض.. لأنهم يمضون سريعاً.. يتخطون وجودهم.. ينظرون الى الأرض.. يبحثون في قمامتها.. عن أشياء تلتمع.. وحين تنفغر هوة تحت أقدامهم.. حينذاك يصعدون أنظارهم الى السماء.. بعيون تملؤها الدموع.. ولكنهم لن يروا شيئاً.. إلا دموعهم.. فتحترق عيونهم.. يموت رؤاها.. فيضيق الخناق.. وعندئذ يصرخ الإنسان ملء أعماقه.. يصرخ.. والصدى صامت.. لا يحركه الأنين.. ولا الرياح.. ويظل الصراخ عالقاً.. يرن في أذنيه.. كقرع الأجراس.. وينظر الى السماء.. فتمر السحب كثيفة.. فيرفع أظافره ليمزق عقله.. بيد أن قواه

تتلاشى وتتلاشى.. فيسقط على التراب.. وحين يسري الانتباه فيه ثانية.. يكون قد بكى كل ماضيه.. وحينئذ يرى السماء..

أما الإنسان الذي لا يبكي.. فيمضي متخبطاً.. بين الصخور.. نحو الانجماد..

(1964)

خاطرة

على حدود.. أرض فلسطين.. في ليلة شتوية.. سمعت صوتاً طفولياً.. ينادي.. من جوف خيمة.. من أين نحن.. أماه؟. وخيمتنا العتيقة.. الممسوخة الأركان.. يبصقنا فيها النهار.. نلعق أطرافها، والغبار.. خيمتنا.. تنزف منها الليالي.. حبات ثلج.. ودفقات من الأمطار.. والدنيا السمراء هذي.. دنيانا النائية.. مصدورة يوجعها المخاض.. من أين نحن.. أماه؟. ما خطب الفجر يموء.. والليل يمزقه الريح، والسعال.. والغد يزحف على ركبتيه متعباً هده الفرار.. يصفع قلب الخيمة.. باحتصار.. وأخاله، أماه، دوماً.. بل ألمس كفيه الشاحبتين.. تفتح عيني.. تغمس فيهما حفنة من ضياء.. وأسمعه يقول.. أي صغيري.. تلك هي.. ويحملني على كفه الطويل.. ويطلق الأخرى للأمام.. تلك هي.. غابة الزيتون.. وذاك ساحلك القديم.. وتلك هي الدروب، التي لوثها الأفعوان.. ويهدري.. ستحمل الصخرة يوماً.. وتدق رأس الأفعوان..

من أين نحن.. أماه؟ ولم نحن.. في هذي القفار..؟

(1964)

خاطرة

هو الذي خبر كل شيء فغني بذكره، يا بلادي..

ويصعد النشيد عالياً.. الى أعماق السماء.. ترتله الآلهة.. بين لحون المزامير..

ذلكم كلكامش.. ألا تعرفه.. سأحكي لكم.. حين كان كلكامش يمر في دروب أوروك.. يفر الناس.. لم يغلبه أحد.. وأصاب البابليين الذعر.. فأخبروا الآلهة.. هات لنا رجلاً يصارع كلكامش.. فجاء أنكيدو يسعى الى أوروك.. وتصارع البطلان في أسواق بابل.. أياماً طوالاً.. لم يفز أحد منهما.. فقبل بعضهما بعضا.. وأصبحا رفيقين.. أخوين.. لا تصدهما قوة.. قتلا ثور السماء.. مخلوق عشتار.. حين التهم أفراداً من أوروك.. وقطعا أشجار الأرز وقتلا حارسها العملاق خمبابا.. قطعا الفيافي والقفار.. اصطادا كل الحيوانات..

ومرض أنكيدو.. فأخذ كلكامش يبكي عليه.. وحين مات أنكيدو.. هرع كلكامش يبحث عن الخلود.. قطع جبل ماشو الذي يقف على بابه البشر العقارب يحرسون مشرق الشمس ومغربها.. وعبر مياه الموت برفقة أور–شنابي.. ووصل الى جده اوتو–نبشتم.. فدله على الخلود.. وأخذ كلكامش نبات الخلود..

وحين عاد.. مثقلاً بالتعب.. جلس قرب نبع يشرب.. فسقط منه النبات.. وسرقته حية.. فأخذت تجدد به شبابها.. هذه الملحمة العراقية الملفوفة بالضباب.. أنشودتنا العظيمة.. هل قرأتموها يوماً؟

(1964)

خاطرة

في الجنوب.. حيث الأرض الواسعة.. وسنابل القمح.. وعيدان الحلفاء اليابسة..والفلاحون المعروقو الأبدان.. والأكواخ الطينية العتيقة.. في الجنوب.. من بلادي.. تطأ ثقل الأرض.. المستنقعات الشاسعة.. المليئة بالشلب.. والبردي.. والأسماك.. والأفاعي.. تولد ملايين الحشرات.. وتمور الآفاق بأجمل الطيور..

في تلك المستنقعات.. حيث تطفو البيوت فوق المياه.. وتموت الدنيا في الليل.. فتصمت المجاديف وتسكن المشاحيف..

في تلك الأصقاع.. يا أخوتي.. يمضي الرجل يومه.. غاطساً في الطين.. تحت الماء.. يزرع الشلب.. ويرعاه..

ويوماً بعد يوم.. تنهرس رجلاه.. يأكل الطين عنفوانهما.. وحين ينام.. تحرسه زوجته.. لئلا تأكل الكلاب قدميه التائختين..

ذلكم أبناء بلدي في المستنقعات.. إنهم أخوتنا.. إنهم لا يعرفون الدنيا.. فلننر جانباً منها.

(1964)

خواطر

إلى أين تمضي؟

ناداه.. لم يأبه.. استعطفه.. لم يلتفت.. فصرخ به من أعماقه.. الى أين تمضي في هذا الليل البهيم.. وتحت هذا الوابل المجنون من المطر..

الى أين أيها الصامت..

إن كنت تبحث عن مرفأ يضمك في رحابه.. فالمرافئ بعيدة عن هذه البراري القاحلة.. وإن كنت تبحث عن النجوم فإنها لا تظهر هنا.. الليل هنا طويل.. طويل.. والبرد ههنا كالثلوج.. إنك تمضي الى المقابرالعتيقة التي تراكم فوقها الغبارونهشت حوافيها الرياح..

أنني اهتف.. مهما سقينا الصخور من دماء قلوبنا فلن ينبت فيها زهور.

لن تذبل الزهور

همسات الليل تصل الي خافتة معشوشبة.. الهمس المرتعش.. إنه يدغدغ أسماعي.. فيمر الوجيب متدفقاً في عروقي.. متخطياً كل أحلامي الندية.. فتصرخ سبعة وحوش أسطورية في خيالي..

إن(...) لا تأبه بقلبك الصغير الذي يخفق كمدفع ذهني محشو بالقنابل..

ويصرخ آخرون.. أيها الواهم إنها ترمقك بأطراف عينيها..

سأحمل لك يا فتاتي خمسين باقة زهر.. بيضاء.. أنقى من اللؤلؤ عند كل غروب وأصفها في حافة نافذتك.. ثم أمضي.. فان فتحت نافذتك فستجدينها.. ربيعاً كبيراً.. وإن تركته موصداً.. فستذبل الزهور.. باقة إثر باقة.. وهي تذرف دموعها بصمت عميق..

قال لها

قال لها.. تعالي يا حبيبتي نمضي وسط الحقول.. وعلى الضفاف نجول.. ونمضي بعيداً.. الى التلال.. نقطف الزهور البرية ونشم النسيم الطري.. فالعيون المجدورة.. التي كانت ترصدنا قد فقأها الثوار.. فهاتي يديك.. لنمض..

(1965)

العطر والرحيل..

-1-

حبيبتي، الي أنصتي.. بقرارة أسماعك، كي أناجيك.. وأسمعك مزموري الهامس.. وأشدو لك أنغامي الخفية. إنك إن سمعت، فلن تسمعي إلا صدىً.. يلاحق صدىً.. وهو يردد – أحبك.. أحبك..

-2-

أنت يا محارتي الذهبية.. إن طغى المد الرهيب.. وجرك بأذرعه المعروقة.. معه الى الأعماق المجهولة.. فلن أنساك يا محارتي الذهبية.. سأقعد أبداً على صخرة الشاطئ، وأنتظر هنالك.. وأنا أنشد من أغوار أعماقي.. لن أنساك يا محارتي الذهبية.

(1965)

الهجرة الثانية*

الدنيا لحن عذاب يقرع صدري.. دندن فيه الخراب.. النهار راح والانشراح.. ويدور الناعور يغرف من قلبي يصب في حفر ظلماء.. المعاول ما زالت تصك الصخور منذ ما بدأت تمشي الدهور.. وعلى أطراف السهول الحزينة تتجمد الخيول والمسافرون وتتخمر سحب العزيمة.. وستظل الدنيا والسماء.. والناعور يغرف من قلبي ليصب في حفر ظلماء..

****

ارتطمت على شاطئ عينيك.. وكانت الجسور قد تهدمت كلها.. وصرخت وحوش قلبك.. أيها الآتي من أقصى الخريف مغطى بالغبار.. لن تصل.. ولن تفلح في تخطى الجدار.. وحين نرحل.. ستزحف عليك أفاعي الوحشة.. ويكون الليل آنذاك. أغلق شبابيك السماء..

****

جبينك النضاح بالهوى.. مر من فوق الغسق.. يحمل الصمت.. يسحب باقة من أنظاري الذابلة.. وكنت متعلقاً بهاوية اللهفة.. شرعت أمدد قلبي المتيبس.. لكنك تمضين.. وصوتي المدمي يعبر الجدران – هتفت: يا بسمتي الحجرية.. يا ناعوراً صب الطمى على جثتي المسكينة.. يا ناعوراً أغرق أعماقي ودحرج انتظاري الى سورة من ضباب.. من جرف الى جرف.. من غربة الى غربة.. من لهفة الى لهفة.. ثم أنشر شراع رحلتي إليك.. أمزق تيار المحال.. لأتسلق الزهرة وأموت بين أوراقها..

(1965)

*** نشرت هذه الخاطرة لمرة ثانية عام 1966 تحت عنوان (ثلاثة أصـــوات مذبوحـــة). (المحرر)**

كلمات النهاية

-1-

حين يكتمل النصر. وتتحقق أهداف المهمة. أعود بالمعنى.. فإذا أخفقت. سأجمع أشلائي في قارب قصبي. وأترك صديقي النهر يحمله. يلقيه تحت أنظارك. ولو حلماً. لتعرفي أن الرجال يموتون بجدوى. ولن أتورع حينذاك عن الصراخ. بأني أحبك...

-2-

من صمت الغفوة المفرغة. من رؤاه الحزينة المثقلة بعناقيد الآلام.. ينسج أحلامه العذراء الحيية، المحاطة بالعنفوان البريء.. فيتخطى العجز ومناعة المستحيل، ويصل مهدود القوى.. مغلق المحجرين.. مرتطماً بالفراغ ثم الحطام.. ويلفى الليالي مقابر سرمدية.. طويلة، فيبدد أحلامه النبيلة.. يشنق أنظاره على ربوة النهاية، سور المدينة الإلهي.. فيصرخ في أعماقه الحيرى حس مريع أملى مسافر مرتعب، أطاش صوابه عواء الذئاب، نعجن حبنا ونخبزه للسراب.

-3-

أيها الصياد الهرم، عبثاً تطوح شباكك، في هذا البحر الأزرق الطويل. وسنارتك الصدئة يفوح منها العفن، دع الأسماك تغوص في الجوف الأصم. تأكل عيون بلوطون. ذلك الإله الحقير. الخائر في قيعان البحار. يزدرد بيوض الحيتان، ويخنق الأسماك الصغيرة. أيها الصياد. ضع شباكك. على كتفك الواهن. وانصرف الى خيمتك البالية. وأرقد الى الأبد. على أذرعة الشياطين.

خاطرة

قال لها.. لو تريدين الشمس جوهرة تزين جيدك لجلبتها لك وعلقتها بخيط الآفاق.. ومن النجوم أنسج وأبني قصراً لك.. فنظرت أليه وأغمضت عينيها.. وتاها في أحلامها..

(1965)

خواطـر

سألته يوماً ما.. هل تعرف ما هي أعماق قلبي.. فقال لها.. من بسمة الشيطان.. ورقص الخمرة في قعر القدح.. وركوب الملائكة البيض في العربات الذهبية وهم يمجدون الله.. ومن قهقهة الغربان.. ووداعة الثعالب حين تنصب الكمائن.. جبل قلبك الصغير.. يا حبيبتي الحسناء..

(1965)

كلمات للأرض

-أصوات للدم العربي الذي تفجر في 59 ولم يهدأ-

-1-

لم تصرين على العبور أيتها الأماني القاسية.. تخلفين آلاف الناس يخبون في قلاع المدينة.. تدعين العصافير المجردة من الريش تهز الأجراس، وتصب الجنون في الرؤوس البيضاء.. إنك تهربين حتى من الأحلام.. تنزلقين ذاهبة في النهر بلا رجوع.. لكن اسمعوا أيها الأصدقاء.. أيها المختبئون في الأزقة المعتمة.. وخلف الجدران.. يا من ترتجف قلوبكم من ثقل النقمة.. اسمعوا.. إن العصافير لن تهرب من أنفاسكم المكتومة ولا من عيونكم الخبيئة في الظلام.. اخرجوا الى الدرب.. فالمدينة ستعود لكم.

-2-

تريدين أيتها المحزونة العينين أن أكتب لك عن الحب والدنيا الحلوة.. والنار تلتهب في الموقد وأنا أمدد قدمي على سجادة وثيرة وعطرك يملأ صدري.. ألا تسمعين العاصفة تزمجر في الدروب.. والعسس تصطاد كل عابر.. والأصدقاء تشدهم نواعير القرصان الى المذبح.. ابتعدي عن خطواتي.. فلن أبصر بعد اليوم إلا الموت.

-3-

سألني عن الشاعر فلان.. أستاذي الذي جعلني أكتب فوق الوجوه الخلفية

سخط الحقيقة.. فقلت له: هو في السجن.. قال: عجباً – إنه لم يسلم منه في كل العهود.. وقلت: لأنه لا يعرف أن يبتسم للذين يصفعونه.. لا ينحني للريح التي تداهمه.. ولا يمد يده الى مائدة الطغاة.

-4-

تلكأي أيتها الدموع في المآقي.. فالدم يزحف من تلك الدروب الناقمة.. وأيتها الجروح كفي عن النزف.. وقفي الخذلان واطرديه خارج الأسوار ولنمض جميعاً بعزم.. فالنسر قد هرم ولن يستطيع الفرار.

(1966)

من دفتر الخيبة

-1-

يا حبيبتي السمراء.. أرسلت بالأمس تقولين – ابتعد.. فأهلي سيوف.. غارقون في صرامة السنين المتعصبة.. والزهور المزروعة خفية في أرض صمتي لم تتفتح بعد.. فلا أريد أن تدوس في دربي.. قلت لها – كما تشائين.. وإن أردت أن أتغيب عن عينيك الى الأبد فسأفعل.. ولن أخطو أمامك ثانية.. لكنني سأراقبك من بعيد.. أجعل دمي ظلك.. عيناي اللتان تفتحتا عليك لن تغمضا إلا عليك.. يا حبيبتي السمراء الصغيرة.. سأنتظر الشمس الضالة علها تشرق يوماً على قلبك.. سأنتظر الى آخرتي..

-2-

حين ابتدأنا الرحلة.. ملأنا قلوبنا بالعزيمة.. وكانت الخلجان ترتجف تحت أقدامنا.. ونظرنا الى المدينة الساقطة في العتمة وقال لنا الربان المحنك – ما ضركم لو انتظرتم الفجر ثم تبحرون.. وبقينا واقفين نمد أبصارنا في جوف البحر حيث يتقلص القمر الجاف.. وقال رفيقي – لن يبزغ الفجر على هذه المدينة.. فحتى الفجر يكرهها.. وحتى الفجر يبقى صامداً وراء البحر بعيداً وجلاً.. ماقتاً.. فأنت أيتها المدينة الملعونة تسدين

أبوابك بوجه الشمس والسلام والحب.. توغلين الغبار والجفاء في عيون شبيبتك.. لكن البحر سينتفض يوماً ويجرفك من جذورك الى النهاية..

-3-

حبيبتي.. أيتها الكلمة الطيبة.. لقد أمات صفاؤك عسكر هذه المدينة.. نزعوا عينيك ورموهما في الصحراء.. وبنوا أمامي سداً من صخر الجفاء.. حبيبتي لو سمعت يوماً.. لو سمعت.. عن فارس خب حصانه مع الريح في روحة لا عودة منها.. وعن مرهق ذابت خطاه في البحر ومات.. فهو أنا.. أنا الذي بنيت في عينيك كوخي ومرفأي.. وكانتا لي الشمس والأرض والمصير.. لكن أهل هذه المدينة لا يفهمون إلا الموت.. وما دامت النهاية قد حتمت علينا فلنتقبلها مرغمين..

(1966)

أسفار

-1-

جر رغباتك المتآكلة أيها الفارس المندحر.. اسحب همومك وصبواتك واجلس خلف التلال بعيداً وتجرع كأسك وحيداً، فالمدينة لا يدخلها إلا الأقوياء.. ولا تتفتح زهورها إلا للمنتصرين..

-2-

امتدي أيتها السحابات في أعماقي وتكدسي على جبيني أيتها الغربان.. فأهلاً بالرحلة الى الأمام.. حيث الضباب يلطم بطون عيوننا.. أهلاً بالمجهول في الرحلة الختامية.

-3-

أيتها الحاملة فوق جمجمتك شارة الزهو.. الأيام تنهار أمام الجليد يا ذات الوجه الهارب.. تلكأي وانظري هذا الواقف على الحافة يحدق الى نبوتك.. ألقي إليه نظرة خاطفة.. سيتلقفها ويموت سعيداً..

-4-

لو أصبح الفارس صديقي في يوم ما.. لجئت وانتزعتك من هذه المدينة العفنة. وجعلت البحر بيتي، حيث المحاذير تتساقط الى القاع وتنتهي..

-5-

لو كان قلبي زهرة لزرعته على باب بيتك لكنه دم ثائر أخشى أن يبطش بالعابرين..

-6-

لنتوقف يا رفيقتي.. لقد أتعبني التجوال.. سأقول لك.. إذا كان ثمة لقاء فسيحدث في يوم خارق، سأدخل غرفتي وأغلق الباب.. ولن يهمني بعد ذلك إن كانت الشمس شارقة أو الرعود تمزق السماء.. أليس هذا هو الصواب يا..؟

(1966)

أصوات

-1-

حين فقدنا الإرادة.. توجبت علينا الهزيمة.. لكننا تعلقنا بظل الالتهاب.. ومضينا نبني المدن ونغسل الجزر بالسحاب.. وعيوننا تمتلئ بالدخان وهي تقذف القوافل تبحث عن مرافئ.. نستلقي عليها ثم نذوب..

-2-

ما أسوأ أن نبحث عن أعين نلقي فيها أيامنا الجديبة.. نلقي فيها قرح مدينتنا الهرمة.. وأغنياتنا القديمة تصلدت في أفواهنا.. إننا نطرح الكلمات

في الدروب الوسخة الموحشة.. ولا من باب ينفتح يدعو.. ولا من قلب يلهف لنا.. سندخل المغارات ولتصب السماء النار..

-3-

إن خيباتنا تدق الاندحار في وجوهنا المغبرة التي تكلس عليها صدأ الأيام الصحراوية.. والتوجد يظل يصرخ فينا.. أنتم أيها المنكمشون على وجوهكم.. ستظل النواعير تصب فوق جثث قلوبكم زيت الخذلان اللاهب.. فأنتم أتهتم الطريق بمشيئاتكم..

قصة

أيها الملاح القاسي الوجنة.. اضرب هذه الموجات الشرسة بمجدافك الثقيل.. فالبحر أسود الطوية.. لا يرحم ولا يقدم لراكبه أي ترحيب.. فترصد لما تبقى في ساعديك من فتوة.. تلك المدينة الناهدة.. تذرفان خطاك الثابتة وجأشك الذي لا يني.. إنك قبلت الرهان في ليلة الخميس في حانة – الأمل – على الإبحار الى الجانب الثاني من البحر.. ومضيت والآن ارتفع صدر البحر.. والليل وشيك السقوط.. وها أنت تجأر.

– أنا الأحمق، أيها العالم، قذفت وجودي في الضباب، بعد أن تيبس عقلي.. آه لو أعود.. لكننا نحن الحمقى عندما نموت نعرف أننا كنا أحياء..

قفزت سمكة رفيعة ثم غاصت.. وبدأت ريح سريعة تتزحلق فوق الموج.. **(1966)**

البحث عن المرفأ الضائع

-1-

جبت المدن وجزائر الوفر المهجورة.. أحمل يأس الثواني المفرغة.. أبحث عن عينيك الغائبتين.

الأماني تقحلها الأرض المتيبسة المصير ودقات الأنهار عند النداء الختامي ترن.. أنا وأنت أو لا كلانا.. نختم طواف القافلة.

-2-

وجه المدينة النائي لاح أمامي في جبهة الضباب.. ناديت مدينتي.. أنا ههنا مقرور في الغربة. الاشواك.. الحجارة.. الأبواب.. تومئ الي.. أيها الغريب.. أيها الغريب.. أيها المرتحل لن تعرفك فتاة عذراء ولا درب له نهاية.

-3-

زهرتي الجميلة إنك تتألقين في مرأة الشمس.. هل سمعت بالومضة الأخيرة.. إنها ومضتك النهائية.. إنني أرقبها من وراء النافذة.. ستذبلين ويغدو شذاك تبغياً.. ويهصرك بين أصابعه المتشنجة.. يفتت وجهك الداكن ويطوح بهيكلك البالي خارج البستان..

(1966)

الفارس والنهر*

المنظر: فارس، طريق

صوت الأرض: أنت أيها الراحل في نهر الظلام.. علام تقذف بمركبك على غير هدى.. اتكئ على الشاطئ برهة.. واستمع الى صوتي.. صوتي أنا الذي تيبس من الهرم وغاصت الحكمة الى قراري.

الفارس: ....

صوت الأرض: إنك تترك المدن العامرة.. تسوقك الهزيمة الأزلية، حيث لا قلب يخفق لك في هذه المدينة.. ستدق أبواب الشمس الموصدة تتوه في صحراء عينين لا نهايات لها.. وتسقط أخيراً.. تجند لك أهداباً مترفعة..

الفارس: ....

---

* **نشرت هذه الخاطرة في جريدة صوت العرب، 1966/1/13 وفي مجلة جمعية الطيران العراقية، شباط 1966، العدد 2.**

صوت الأرض: انكرني وامض.. ولتحفظك مشيئتي النادرة والامتثال..
(الفارس يسير في طريق طويل.. ممتد الى القيامة)
صوت القمر : ليغسل ضوئي الصافي دربك أيها الفارس.. وليمحُ الشر عن مواطئ خطاك.. لكنك تمنح وجهك للغيب.. الظامئ لا يرويه ماء البحر.. والميت لا يحيا مهما كانت الصرخات حزينة..
الفارس: ...
صوت النجوم: تقدم أيها الفارس التائه.. تقدم الى الجانب الآخر من الظل.. حيث يهوي التائه والحائر والخائف.. تغترفهم الجدران الأبدية..
صوت الحجارة: تقدم.. فصلابتي ستجوس يقينك.. وعلى قبضاتي ستخط نهايتك..
صوت القدر : أيتها البوم حومي على هذا الفارس وأغرقيه برفيف أجنحتك المهلكة.. واملأي أيتها الأشواك برية أحلامه..
الفارس : أيتها الأصوات دوّي.. دوّي.. زعزعيني.. اخترت.
(1966)

كلمات الى الغد

- إننا نخلق حياتنا القادمة.. ولنا وحدنا هذا الحق.. وحينما يصل الغد سنقرر أشياء أخرى.

-1-

ها أنا مطروح في الصحراء ممزق الصدر.. يلفحني سراب عينيك القاتل.. أرثي اللحظات المتخدرة التي ربطت في ظلها قلبي..إنني ألمحك من علٍ.. تمنحين وجهك لكل عابر.. تبحثين عن وجه دافئ السريرة.. وعن أصابع تخرج عمودك الفقري من فمك بشره مميت.. فتملأ بسمة السخرية رأسي.. وأحزن ضحكاتي المتشنجة.. وأغرق هزيمتي في البحر.

-2-

على شاطئ عينيك حام غراب أسود.. وكانت العاصفة تتجمع على جبهتي.. هتفت.. يا بحر عينيك.. يا مدفني المحتوم.. لقد مضيت في العتمة تشل عظامي اليائسة إغماضة عينيك.. لكني توقفت.. وصرخت بالمدينة.. أيتها الشاحبة.. وداعاً.. فغداً سأطمر وجهك الرتيب وأحمل قلبي الى خليج صاف، أجد فيه ذراعاً مريحة، أتكئ عليها، وأموت..

-3-

بصوتي المجرور من السنين العاجزة.. أمد كفي الى الأيام الآتية.. وناعور هرم يسحب سنابك الماضي على صدري.. وأظل أهتف في مدينتنا المهجورة.. وأطرق أبوابها المغلقة.. ومن درب الى درب تهوم نداءاتي.. والعيون يابسة والقلوب موصدة..

-4-

الغد يجيء.. قال قلبي الذابل.. ونمحو لوعات الترقب.. في الغد تصطدم على ضفة بسمة صادقة فتسترد أنفاسك الجافة.. وتلج في عينين امحت منهما الضلال.. ولن تجثو منتظراً من يحفر لك قبرك.. فالخطوات داست وجه الحقيقة..

-5-

يا غداً.. يا صيفاً غيبت مآذنه الشمس وامتد الى أقدام القيامة.. يا لوحاً سأخط حروف مشيئتي عليه.. افتح بابك لأدخل..

-6-

أيتها الأمنيات البائسة، لا ترتحلي، فلن أدع خيبتي تطفو على أسوار الإرادة.. امكثي بين أضلاعي وانتظري المصير..

(1966)

مفاعلات متناقضة

-1-

في شمس عينيك أزهر حزني يا معذبتي.. الرحلة مضنية والفارس أنهكه الصبر.. ألغيت المسافة ما بين قلبي وقلبك وكان يحتم علي أن أعبر غابة اليأس.. نقشت في أول الطريق علامات عزيمتي.. ثم فقدت حضوري عندما أغلق التناسي عيني.. هب لي يا رب القلب طريقك لأزرع لك زهرة أبدية ثم أموت.

-2-

بحثت عنك في المدن المختلفة.. وطرقت الأبواب المقفلة.. وحين وجدتك وضعت القيد في يدي ثم انطلقت هاربة.. وكسرت زجاج السماء بقيودي فلم أجدك.. يا فتيات الأرض.. من منكن تريد قلبي؟ فلتأت وتأخذه..

-3-

حين انحدرنا من الجبال الجليدية.. سمعت صوتك في قلبي مبعداً الوحشة.. مالئاً أعماقي.. حبيبتي: الأشجار ميتة والثلج يحطم خطانا.. وأنا أنكفئ في العيون الغريبة.. ولا من باب أستطيع قرعه ولا من كلمات تسطع شمس الحب في شطآنها.. ليتني أعود لأعانق عينيك الدافئتين وأسلخ تغربي الشريد.

-4-

خذ وجه الأرض في سفرك.. وارم الحظ في وطن البؤس.. وتحرر..

-5-

اغرس نارك في قلبي واقطع عني كل الأبعاد..

-6-

أيها العابر الى أقصى الأرض المهجورة.. خذ زهرة قلبي وازرعها تحت الجليد..

-7-

اسمع صوتي يا موت.. يترنح في أقصى الرؤيا خوفي.. ترتعش الأغصان المكسورة فوق جليد القلب الهاتف للحب.. ما من جدوى.. ما من جدوى صوب مرافئنا تنحدر السفن المنهوبة.

-8-

في بئر الخيبة سأقذف يوما تنهداتي.. وأتحرر..

(1967)

جدار الساعة الثالثة

-1-

آه حبيبتي.. القراصنة يملأون الآفاق. يبتغون جسدي ليوثقوه في البحر.. إنني أحملك في دمي ولن أدخلك الغابة السامة. سأهدم جدار هذه الأرض. ونعبر الحراب والمحارات السحرية. آه.. آه.. أعبدك.

-2-

ما أضيق هذا البحر.. زورقنا السهل لا يمر. وعلى الجانبين يرصدون توحدنا.. المياه تغيب.. ونعلق في أعماق النهاية.. سأمد جسدي في الشمس. أصيح: أنصت أيها النسر الجائر.. سأغرقك بدمي لأتحرر..

-3-

ذلك الطير.. وتلك الورقة الخضراء في الخريف.. والقناديل المطفأة على البحار.. تبحث عن الغريب.. المنفي داخل وعيه وذلك الغريب.. وتلك الثلوج التي لن تمحوها شمس. ترتجف في العيون.. وسماء لا تنتهي.

قفي يا بغداد: ولنتصارع حتى الموت.

(1968)

خاطرة

لدى كل امرأة شيء ما يلفت نظر الرجل.. قد يكون الأنف أو العينين أو الشعر أو الشكل العام.. والمرأة الجميلة هي المرأة الرقيقة التي تثير في الأعماق خفقة عند النظر إليها. أنا أمقت مواد التجميل لأنها تزيف المرأة.

(1968)

الشجاعة
هي الجنون أو الموت

-1-

لأننا نمارس التزييف في كل لحظاتنا.. نمارسه حتى مع أنفسنا.. كان البحث عن الصدق والنظافة هو المصباح الذي يضيء أيامنا الغائبة.. وعندما نجد الصدق نشك فيه.. لأننا لم نتعود عليه.. إننا نخادع وننخدع..

وهي اللعبة التي تشدنا إلى البقاء في المباراة.. عندما تتحدث لي فتاتي عن الآخرين.. وتبتسم لهم أكون مقتولاً.. وعندما تروي لي عن حبهم لها.. أهرب.. لئلا أموت مهاناً.. وتقول لي: لو لم أكن صادقة معك.. لما تحدثت لك عن علاقتي بعالم الآخرين والأشياء.. إنها صراحة مخيفة.. إنها شمس جديدة تضيء نهاية أعماق الشرق.. وأرتعب من كوني ملامساً لقشرتها.. وهي تقسم لي بأنها في.. آه يا فتاتي.. إنني رجل بائس من الشرق رجل صحراوي فاعذريني.

-2-

أنا أرغب فيك.. وأنت ترغبين في.. وترتعد هذه الرغبة على السطح فقط.. ثم تنتهي محسورة في أعماقنا، متشنجة، متعقدة لماذا تكون حركاتنا رغبات فقط.. إنه السجن الأزلي، الذي نصرخ فيه: وننعى أنفسنا.

إن الزمن الذي نكون فيه متألقين.. هو الزمن الذي نحول فيه رغباتنا الى أفعال.

-3-

الشجاعة هي الجنون أو الموت. والاستمرار الطبيعي في الحياة هو الجبن فكيف يمكن أن نكون شجعاناً بدون أن نموت أو نجن وكيف نستمر بدون أن نكون جبناء.. هنا يكمن التوتر النهائي الذي يخلق الازدواج: وجه يبتسم ووجه يعبس..

إننا ملزمون بأن نحيا في هذا التراكم.. وتتضاعف حياتنا من خلال وعينا بحقيقته.. وتكون مسألة إفراغ الفعل رجوعاً بالوعي ومدى ارتباطه بالظروف الخارجية أو الداخلية.

إن تفاعل الإنسان داخلياً – فقط – يؤدي الى أن يقذف ببحره السري الى العالم.. وفي هذه الحالة إذا عكس أفعاله مع الظروف الخارجية.. فحينذاك سيدرك أن أي فعل من أفعاله بقدر ما يحمل من رفض للعالم يحمل رفضه لنفسه.. وتكون سلبياته القشرة التي تغطي وتمطر علاقاته الإنسانية.

(1969)

انهيارات مضيئة

البداية

أفكك جسدي فتسقط أجزائي في الانعطافات والقنوات الغامضة.. خرجت من أرض آشور: كنت غاضباً لأن الأرض فقدت زهوها وعفويتها.. أرض منشقة حرة.. أرض غاضبة.. أرض تحرر محنتها

للخوف.. الأرض – هناك – واحدة.. الجبل والوادي والسهل.. كلها تصلح للوقوف.. إذن لن تكون شجرتنا الوحيدة هي التي تمنحنا حمأيتها، فكل أشجار العالم تيسر لنا سقوفاً.

آشور يا آشور.. أيها القوي، الإلهي السطوة، أيها القيد الذي يسطر الجميع: سئمت سطوتك وعنفك.. سئمتك.. فخذ بلادك واتركني.

أرض تمد لك المشنقة وتنحني وترفع عنقك الى الموت.. بيت تدخله وتنغلق عليك ظلمته الى الأبد.. امرأة تعانقك للتلاشي..

أرض تنشق، تلغز أغانيها طلاسم لتفغر فيك جروحاً مدمرة.. أيها الماء النقي الذي يخترق الأعشاب المخضرة العطنة.. أنت وحدك الممجد لأنك تمضي بصمت دونما عنف يؤأخذ..

خذوا أرضكم أيها الأنذال.. خذوها وجاوروا جثثكم وهياكلكم العظمية واقضوا سهرة ممتعة.

السفر

عندما أنهيت بلاد آشور.. أخذت الأرض تتفتح لقدمي.. ضربت الهواء بمرح سرت مع سبع أشجار مزهرة.. كأن الظل الذي تركه جسدي في آشور يكبر ويمتد خلفي ويسير أمامي ويحيط بي ويغطيني.. وكنت أسير مع سبع أشجار مزهرة..

– ثقيلة هي الأفراح.. وثقيل هو الحزن

– خفيفة هي الأفراح.. وخفيف هو الحزن

الفرح يساوي الحزن.. لكن الحياة لا تتعادل بالموت.. الموت نهاية فاشية لجسدنا الذي يمتثل بالأرض ويعمر بصخبها ورعبها وعنفها وجمالها..

– يا ظلي.. يا جسدي الثاني الميت ابتعد.. انقطع عني..

– مدن جديدة.. مدن أخرى يتعمق فيها خزي مدينتنا العتيقة.. أربع شموس جديدة تتكئ

في زوايا المدن الأخرى.. تخلق حيوانات فارة معمرة تقبلك ضمنها دون قوانين.. أيتها المدن

الجديدة.. هذا جسدي وبيده مصباحه الذي حمله من مدينته الملغية.. أخضعي شموسك الأربع
له..

هوامش

-1-

أيتها الرغبات التي استمرت بحدتها.. ثمة غلط جوهري في اليقظة للحياة..

-2-

طيور سوداء تهتاج عند نافذتي.. وحية سرية ترصدني من رف علوي.. فهل ينهي هذا الليل حياتي؟.

-3-

حية تطير، يصطدم ذنبها ولا تلتفت.. حية بيضاء ذات أجنحة حمر.. الموت يقظ خلف الجبل الصخري.. صحراء شاهقة ينزل عليها خروف ضئيل من السماء.. ينزلق والموت يقظ.. وأنا يقظ..

-4-

تلتبس الحركات والسكون.. لم أعد أرى شيئا: رؤوس خلفية تنسحب – وأنصاف وجوه تومئ ثم تختفي.. ووجوه كاملة ساكنة..

-5-

أيتها الرفيقة التي سرت معي، إنك متعبة تحمين تقدمي بصعوباتك.. أنزلي بطيئاً في قلبي ودعيني أتنفسك وأحرك حياتي بك.. فأنت آخر ما تبقى لي بعد أن سقطت الأشجار والشموس والأنهار والأرض لنمتزج ونضيء دون توقف..

(1969)

نصائح الميت

ان إنكسارنا مرده تمكننا من وصف القمر وتربته وما تحتويه وفوائدها دون ان نملك واسطة للوصول اليه!

ان مسيرتنا مع حضارة العالم لا تكون بوضع قبعات فاخرة فوق رؤوس منخورة: انها تتم بوضع العمل في السواعد المصممة والمسؤولة.. إن الميت لا يستطيع ان يصف للحي كيف يحيا!!.

رياضيات وهمية

رهين هذه الأرض التي تفتح أزهارها لقناعات دورها البشري.. أرض ابغي نفسها وتقويسها في نهايات غير مرئية لا يمكن مسها.. رهين أرض الموتى: كيف لي أن أكسر خطوتي المتأنية المحسوبة البعد؟؟.

إن هذا شأني ولا أجد أحداً يستطيع تبخير بركي الطينية.. لا أحد يستطيع فك قدمي من غلها الأرضي: سواي أنا.. إن فولاذاً نافذاً يصكني ليحفرني في القاع.. حلقة سيزيف الخاوية.. حجة البشر المقدسة للموت المجاني.. لحساب لن يتم: إنني أرفض سيزيف.. إن رغباتي هي إنهاء حسابي مع الرياضيات الميتافيزيقية الهزلية: إنسان يحيا مرتين: مرة للموت في الحياة: ومرة للحياة في الموت.. هذه الرياضيات أرفض جدلها.. أرفض جدل بؤس بليارات البشر الذين تملأ جثثهم الأرض منذ آلاف السنوات.. تأريخي يتحرك معي.

إن الموت لا يخلق التاريخ.. التاريخ هو المستقبل: أيها الشجعان!!

(1969)

نصفنا الآخر*

-1-

فجأة.. سمعت صوتك.. مهلاً.. محتاراً..

ثم سمعت الصوت ثانية.. وقرأت كلمات طويلة..

لم أصدق الصوت والكلمات.. وكنت أشكك بالآخرين بعد قناعة مريرة..

الثقة: وجود الإنسان، لا تمنح بنزق، لا تمنح أبداً إلا في أضيق حد.. وبحساب عدم الخسارة المؤذية..

عندما تعاملت معك على أساس من توقف الثقة عند نقطة معينة.. تكون اعتقادك الأليم: بأنني لا أريدك.. وأن كل شيء.. يجب أن يتلاشى..

وعدت قائلاً: من الغباء أن تمنح ذاتك لإنسان لم تره.. لا تعرف إلا صوته التلفوني..

أشد الاحتراق أن تمنح الآخر عاطفتك الجدية.. ثم يتفرج عليك من مرقبه.. وقد يقودك في لعبة تتسطح فيها أمامه.. إن المواجهة هي الطريق الوحيد لاكتشاف الأشياء.. ولكي أكتشف قنواتك ومدنك وعظامك.. قد نقف ونتوحد.. أو نفترق مبعدين كما ابتدأنا.. إن التصالب والتكاتف المأزوم لا ينبغي أن يبقى معلقاً.. فسيلهب بحميته الإحساسات المنغصة ويسقط الإنسان ضحيتها..

والإنسان هنا ضحية علاقاته الخارجية.. فمهمته أن يبقي علاقاته الداخلية معافاة الى درجة ما.. معافاة بعاطفتها ودرجتها الموازنة لشعوره بموته الخارجي..

إننا محتضرون في لهاثنا الأخير.. فلا نريد أن يجهز علينا أحد.. لأننا اخترنا موتنا منذ البداية.. اخترناه خلاصاً.. اخترناه حياة تقية..

*** نصفنا الأخر هي مجموعة مقالات كتبت عام 1969 على شكل حلقات أسبوعية في مجلة الشباب التابعة لوزارة الشباب. وقد أخترت منها تسعة مقالات ذات طابع أدبي. (المحرر)**

-2-

ترسخت أمامي والى الأبد حقيقة

كنت أعرفها لكن لم أملك تطبيقها هي:

إن الإنسان لا يقدر قيمة الأشياء إلا إذا فقدها..

هذه الأشياء – رغم اسم الأشياء الجاف، غير الإنساني – تنبعث كبيرة، تغرق الإنسان وتغلق عليه بواباتها عندما تبتعد وتعد مستحيلة: إنها تنتزعه في توحده وتقتله ملايين المرات.. تحرقه عبر المسافات، إنها موت لا ينتهي..

في البداية يدهش الإنسان بالعلاقة ثم تغيب دهشته بعد استمرار العلاقة.. وإزاء علاقة داهشة فقدت حيويتها ينسحب الداخل فيها ويضحى خارجها.. وبعد أن تتثبت الفجوة تبدأ العودة للدخول المجدد..

ضوء ينتهي وضوء يبدأ: لقد كنت ليناً في اتخاذ موقف حاسم وها إني أتلقى نتائج تلك الرخاوة المجرمة..

لقد اكتشفت نفسي الى نهأيتها فيك..

اكتشفت قوتي وإنسانيتي ورذائلي: اكتشفت قنواتي ومجاهلي والعالم.. أسقطت أولئك الأكوام من البشر – الأوراق، التفهة.. الأكوام من السفلة الذين لا يملكون إلا تناحرات بدنية يومية، وحماقات.

ليس بمقدوري الآن أن أدخل.. ومن مسافة مستحيلة متمثلاً أمامك لكي أجرك الى موقع لا أرتضيه.. ويخيل الي أنك لن تغفري تهاوني.. وهذا ما يفتح جروحي ويوقف طلباتي اليك..

إنني مقتول: اجعليني هكذا أمامك دوماً..

-3-

نفذت الى قلبي: من كل الاتجاهات غزا حضورك جسدي..

امتلأت بك وأصبحت لي قوتان مضاعفتان وانتشرت في لانهاية..

جسد يلغي الحدود: يعبر مضيئاً في أقواس الكون المشعة...

يلتمع متوحداً بشعلته على ساحل وعلى قمة نائية مثلوجة، ممتداً في شموس ملونة، ومقدسة.. ورياح الأقمار تحمل حضورك الى غرفي السرية

في البحر.. يتلاطم إنسان حديدي آتياً عبر زجاج البحر.. آتياً من مرافئ العالم الضاجة.. يتوقف ويحدق بعينيه الفسفوريتين ويدفع الحائط داخلاً..

ضربت بدنه الحديدي ببندقيتي: أفرغت عليه الرصاصات الجاهزة.. أمسك بالبندقية ورماها في الظلام وقال:

- الآن جردتك من سلاحك أيها العاجز، سلاحك الذي لا يجدي.. وثبت عليه بصفعة فانكسرت يدي.. وعدت مقهوراً الى الزاوية.

- يا سجين البحر.. أيها الموثق في الخضم.. دعني أحررك الى الأبد.. أمسك بي وشلني.. تقدمنا في المياه وتخطينا السفن الذاهبة.. وقذفني الى الساحل: كنت عارياً في شمس الأرض البرتقالية..

وكان الناس الملونون ببهجة يرفعون قلبهم لي..

وكنت أنت تأتين وحيدة، متأنية من خارج المرفأ..

والتقينا وحيدين قرب المياه.. فقلت لك:

- لقد انتزعت الى المدينة.. قذفني إله حديدي: إله أنا صنعته.. ولما نما ضجر من إرهاقي فرماني هنا.. إنه مختبئ هناك، صغيراً، يرصدني..

- وأنا غريبة مثلك.. انتبهت فجأة في الصحراء فحثثت الى المدينة.. هبطنا الجرف وقفزنا في زورق صغير.. قطعنا مرساته فتحرك مبتعداً..

غبنا في عناقنا.. وكان الزورق يفتح البحر بعيداً..

-4-

الحب في الشرق يبدأ مندفعاً....

ثم يتوقف ويتوغل في الحزن.. ومرجع

هذه الطبيعة أن الأشياء كلها ساكنة في

الشرق: أجساد خامدة وأذهان كسولة وطبيعة فاترة.

إن الحب حركة تخرج الإنسان من وضعية ساكنة.. وحركة الحب تتوهج في الرجل.. فإذا كان طريقها الى الزواج فإنها تمضي وبعد ذلك يقرر قانون الامتلاك فاعلية الحركة وغالباً ما تخبو بعد فترة..

وإذا كانت الحركة محفوفة بالرصد الاجتماعي البوليسي فإن المرأة هي التي تقرر مسار الحركة. واحدة ترفض هذا الرصد وتقيس حبيبها بالعالم وتضعه مكافئاً له..

والأخرى وهي التي تخرج مثقلة بالقيود والرعب من الرصد وتضع نفسها نتيجة لأشارات وتوجيهات الآخرين فإنها تغلق كل إمكانات النمو والتفتح وتسقطه في السكون..

لا لسكون العذاب البائس الذي يهبط فيه الشرقي، إنما سكون الانهيار الواعي الذي يفرقه تمزيقاً – الواعون فقط! – الحب الحقيقي – لا الحب المبتذل النفعي – يفتح الإنسان وينشره نافياً به لحل الحدود الوقافة...

ان النفعية بأنواعها إذا كانت شرطاً في العلاقة فإنها تحيلها الى توجس ثم طعنة قاتلة..

فينبغي الانفتاح من خلال الوعي والخروج من حالة السكون الشرقية وإسقاط القناعات الراكدة والسعادات الصغيرة التافهة التي تساق الى الإنسان لا التي يخلقها وعيه..

إنني أرفض الحب بالعذاب..

-5-

ثمة صوت سمعته بوضوح كثيف:

لدي أفكار تبدو لي في بعض الأحيان مستحيلة على الرغم من أن أي شيء لم يعد يهمني على الإطلاق (ليست لدي القوة الكافية لأكتب لك بالتفصيل).. إنني أجد نفسي في رؤية مستمرة تجتاح كل الأشكال المزيفة للوجود الإنساني، هذا الوجود المأساوي الذي ما إنْ نحس به حتى نجد أنفسنا في حالة عبر عنها أحدهم: ليس هناك طريق الى الخلف أو الى الأمام.. وليس هناك توقف.. فعندما تتواجد البداية كشيء تحاول أن تكمل مسيرتها بصورة مستمرة ومستمرة الى حيث لا نعلم: الى الأجواء المجهولة.. هذه الأجواء التي لا أكاد أكتشف جزءاً منها حتى أحس بالرعب يغمر كياني لأن كل شيء فيها مريب.. ليس للفرح معنى، فحتى لو انبثقت

لحظة فرح فسرعان ما تموت وتتجمد لأننا لا نجرؤ على أن نخوضها بحرية تامة..

حقا ما تقولين.. إننا بقدر ما نتطلع برغبة الى مباهج العالم ونحاول رمي أنفسنا فيها: تشدنا قواعد ثابتة في أعماقنا لنوازن بين صفائنا ونقائنا وما يمكن أن تستنزفه تلك المباهج منها.. وبقدر ما رأينا وكشفنا الأشياء.. كانت تسقط كلها.. ونجد أنفسنا وحيدين للنهاية.. لا نملك إلا البقاء لنحفظ رقعتنا.. إن وجودنا غير مبرر.. ولكن ما دمنا لا نملك إلا التواجد.. وما دمنا مقسورين على الاستمرار في الحياة.. فعلينا أن ننعم بأضوائنا الداخلية وحدنا، لأنها تعوضنا عن البشر الملغيين والعالم الملغي..

ولكن هل يعني هذا أنني بالضرورة يجب أن ألغيك أنت أيضا؟ انطلاقاً من نقمتي على الآخرين الذين خلقوا القوانين المجرمة.. وأفسدوا الإنسان.. لا أستطيع أن أجد الجواب في السلب أو الإيجاب.. لأنهما لا يمكنان من مواجهة الموضوع.. إنك الآن تملأين يدي ورأسي وعالمي اللامحسوس.. ضوءاً صاعقاً يكشفني.. يكشف حضوري..

لا أستطيع إلا أن أتمثلك.. فلتسقط الاستفهامات والأجابات الوضيعة.. دعيني أحملك في غرفة قلبي وأقربك..

-6-

ماذا يبعث توحد الإنسان؟

في البدء ينحسر الى الأعماق بلذة مهووسة منهياً ارتباطاته وعلاقاته وانتماءه للأرض والآخرين ولجسده.

وعبر حرارة الانقطاع ترتفع قوة حركة فعله إيجابياً: إنتاجاً وتجديداً برؤيته للأشياء..

وترتبط هذه القوة وأمدها بعلة التوحيد.. فإذا كان السبب استياءً خارجياً أو انكفاءً من قواهر تعاملية.. فإن التوحيد يسقط عند أول مصالحة مع تلك الظواهر.. ويتميز هذا الإنسان بالمزاجية والترجرج..

أما التوحيد الحقيقي فيكون ناتج انكشاف سر أفعال الآخرين والأشياء وعياً بلا جدليتها بعطبه كإنسان.

هذا الإنسان الوحيد.. الإنسان الخاص.. ما هي علاقته بالمرأة؟ اثناء احتدام فعل التوحد تسكن المرأة كشيء: كباقي الأشياء.. وتصبح موضوعاً خاضعاً للكشف وحسب..

إن عاطفته تتحجر تجاه وضعية خاصة.. قبالة كيان محدد.. وتكون علاقته بوضع شامل، غير ملموس على الأغلب.. شمول يغمره للحظات كاملة.. ثم ينطفئ العالم وتتحول أنواره الى الداخل. هذا الإنسان الخاص الذي يشك في كل شيء: من جدواها ودفعها لنموه.. تكون علاقاته بالنساء قابلة للانقطاع والانتهاء في كل لحظة لأنهن السبب.. فالعلاقة التي لا يرزح بها الإنسان ويبدأ بها عابرة.. تمضي في عبورها الى أن تهيأ لها فجوة الانقطاع فتسقط في فراغها..

امرأة واحدة فقط هي التي تنهي العلاقات المبددة لهذا الإنسان وتقدر على احتوائه من الداخل والخارج – مهما كانت المدة – .. امرأة يمنحها أشياء من غربته وأنواره وشلله وعنفه لتملأ هي أشياء من تماثلاتهما تحركه للوثوب الى الأفراح..

-7-

الغيرة جنون الحب ونهايته عندما يغار طرف يكشف افتقاده الثقة (بوجوده) لدى طرفه الآخر. فيكون هو المزعزع أولاً، فيعمل على اكتشاف ثقله وحسبما تقرر قناعاته يضع النتائج.. إن اختيار الطرف الثاني ختام نضال عسير.. عليه أن يجهد ليجد ساحله وبحره وباخرته فيه، وعليه أن يفحص الثاني بمنطق صارم ولا يعلق بزاوية أو بواجهة واحدة يبني عليها مصيره: يغطي بتلك الزاوية أو الواجهة التي شدته الى الطرف الآخر الزوايا والواجهات التي تقتلع حياته.

إن الزاوية التي تبرر الزوايا الأخرى سرعان ما يسقط دماغها فتهجم الزوايا الأخرى بمساوئها ونقائضها له، مما يحدوه الى أن يتخذ موقف الدفاع عن نفسه: من هنا يبدأ انهيار الحب..

لقد قرأتك.. إن الغيرة بالتحليل النهائي دفاع عن النفس.. أبصرتك بحياد فعرفتك بإيجابياتك وسلبياتك.. وقبلتك ككل.. ولقد اختبرت ثقلي وديمومته لديك.. كنت أجهد لأريك سيئاتي.. فلست ذلك الرجل الذي يرهق بتزيين جسده ووجوده أمام فتاة ما ثم تكتشف أليافه العفنة بعد انتهاء التمثيل.

أنا أمامك بضوئي وظلامي.. وأنا تسللت اليك واكتشفت ماذا تحتوي عظامك.. وأنت ارتضيتني..

حسناً كسرنا وجوه التمثيل منذ البداية.. ووقفنا محددين بوضوح.. لم يرغم أحدنا الآخر على اتخاذ موقف زائف، ولم نرتض بعضنا بخجل.. وأنا واثق بنفسي الى النهاية، لذا لن أتيح للغيرة أن تجرني.. فأساساً لست سيداً عليك ولا ملكاً أحكمك: في الوقت الذي تكتشفين أنك أخطأت في طريقك معي تمدين يدك الي ونفترق.. وليكن دم الحزن المقدس مغرقنا لا الغيرة..

إنني أحرص عليك في حدود ما تتيحه المحافظة، لكن إذا فككت أنت المحافظة معي: لن أحافظ عليك.. إن حفاظي مرهون بحفاظك معي.

وخلال الصراعات والتناقضات والفجوات والإغراءات التي تحرك حياتنا، لا أملك إلا أن أقول لك.. وبأقصى ما يمكن من نقاء صادق: إنني أحبك..

-8-

تضيء علاقات القلب بقوة ووضوح حين صحوت فجأة، وفي يوم واحد وإذا بالمكونات التي رسخت كحجر – كما خلت، والى الأبد – قد تمددت وارتخت.. صحوت على وثائق ملموسة تربط الجميع.. وجوه تفيض.. روابط تتنفس.. حميمية تمر مرتبطة في أجساد الجميع، ثمة متشابك ومتحرك يلتقي دونما انتهاء..

الحصوة في الأعماق تدوي وتتضبب ثم تتبخر وتمتلىء بالحرارة والتجدد.. قنوات جافة تزدهر وعيون تنير في جسدي للخارج: جنيناً أكون – مندهشاً ومضطرباً: هذه المجسمات التي كنت أحتقرها.. أنا أتلمسها بحنين جهوري ومدوم..

أيتها المرأة.. أيها الجانب الخفي الذي نكتشف فيه ظلمتنا.. إن الإنسان بتوحده لابد له من أرض يستند عليها أو جدار يتكئ عليه – لا يمكن أن يتعلق بتوحده رغم كل الإعصارات التي تهب عليه وتجعله ينكمش داخلاً في داخله..

أنت راسخة كأرض وجدار، تكيفين الخطوات والوقوف حسب تكوينك.

من الذي يحدد قبل وبعد؟

كنت أنا أحدد باختياري متقبلاً النتائج..

وحتى لا تعتقدي أنني أصبحت ظلاً لك: أبقى منتظراً: فالحصاة القديمة ما زالت تعذبني بضبابها وثقل ترسبها..

اكتسحي بتوحدك معي شاخصاتي الهرمة وانفيها..

فهل تستطيعين؟؟

-9-

في السبت كنت أتهيأ لسماع صوت بعيد.. كان صوتاً مجهولاً مليئا بالحياة.. والتقينا ذات يوم واكتشفت أنني أعرف الصوت جيداً.. لكنها أرادت أن تتكر نفسها.. ولم أمنحها فرصة للكذب.. ثم قالت: سمعت أنك تحب غيري..

فشرحت لها: عندما يكون الإنسان نقياً: لا يزج وجوده في علاقات زائفة قد تقدم له لذات آنية – لذات يلهبها في لحظات ثم تقنصه لتمزيق ينهي نقاوته..

لا أريد أن أقوم بدورين متناقضين. أن أصرح بحبي وأحميه وأن أنكر حبي والفتاة..

الفعلان هنا مضنيان: أن أموت وأن أحيا في وعاء واحد.. لا أستطيع أن أحمي حبي لأسباب مانعة في الوقت الحاضر.. ولا أستطيع أن أنكره والفتاة لأنهما ضوئي وقاربي في بحر العالم المظلم.. أية سنابك حادة تنغرز في كياني.. وأية شظية تثب من الظلام لتقسمني الى كيانين: كيانين ضعيفين واحد للنور وواحد للعتمة..

هذه الحيرة تدفع للنصيحة التالية: ليس أسهل من التخلص من هذا الانقسام من اختيار طريق وإسقاط الآخر..

هذه النصيحة السهلة، والمدمرة مخيفة: لبساطتها وسهولتها.. وأخيراً جاء حل مسموم: الصمت.. لقد اشترطت عليها أن نطرح سرية العلاقة.. لكنها صمتت..

فهل الصمت حل للارتباط؟

إذا صمت أنت ورحلت.. فهل أصمت أنا وأرحل في الطريق الآخر.. هل يمنح الصمت إطفاء للنار التي تلتهب في داخلي.. ويجعلني أقف بحزني أتطلع الى العالم الضاج، السعيد بفرحه.. كلا: إنني لن أصمت.. ولن أجعل وجودي أرضاً تسقط عليها بقايا الأفراح والتطلعات المنتشية..

ولن ألتمس فرحي أبداً في قوانين الآخرين..

كيف نقيس الوهم بالسانتيميتر

-1-

الزمن ينفتح ليقينكم فغوصوا. انفخوا بأبواقكم عالياً، عاليا، عاليا، لقد اعتدتم التواطؤات. الأيدي اللينة المموهة لا تؤذي، لكنها تنفضح بالمطر.

الخيانة تنزلق على الأكتاف فتنمو أعشاب زرقاء تنسدل على الأذرع. وتبرز أصابع من الحنجرة تنقض على العشب. وتخرج من ثقوب الكتفين عصافير ملونة تحوم حول الرأس. وتنبثق من الجسد أشرطة ملونة. لا تغضبوا لا تفرحوا. فالرجل يذهب بأشرطته وعصافيره خلف الجدار. وتسقط الأمطار عنيفة لتغسلني تماماً.

-2-

كيف نقيس الوهم بالسانتيمتر؟ إنه يفتتح يوماً جديداً متأنقا أمام أصواته المكبرة: يختلس من الهواء مزماراً سرياً. التراب والرجال والأعشاب يرتفعون في الفراغ منتشين بنشوة مزيفة رنانة. ثم يسأم فيمد كفه ويغرسه في الأرض: ادخلوا في الثقب أيها المحترمون. ادخلوا.

-3-

من الذي يفتح قميصه في الهواء. من الذي يقذف صورته الجميلة في النار. من الذي يرفع بندقيته ويسددها الى معذبه. من؟ لا أحد. إذن فلنغلق هذا اليوم. وليبدأ الزجاج بإخراج راقصاته المشاعات.

-4-

عاطفتي تستعصي. فأتقدم مثلوجاً أنحني فوق مدن العالم أبحث عنك. أنت التي أصبحت وهمية.

وعلى أرصفة العالم وجدت ملايين النساء. وكنت كلما أمسكت واحدة أعطت نصفاً منها لي وغيبت نصفها الثاني.. نساء مقسومات.. فأستدير.. وانزلق في الهواء.. في الهواء.. في الهواء..

-5-

هذه الليلة الدائمة تجزئ زمنها مئات الليلات: أضواء بعيدة ترشح من نجوم غائبة لا تلمس. وهواء أسود يتقاطع بصمته المركز. وأرض تجدد امتدادها الصحراوي. انحنى وجه هائل، ذابل. نهضت وتسلقت حلمه المرتجف ودخلت في جمجمته.

أبصرت من عيونه الألوان أيها المرفهون بقناعكم. لقد حسبتني الجمجمة. وها أنا أصرخ من فمها: وداعاً.

(1970)

خـاطرة

عندما بدأت تقتربين لم أكن واهماً في هواجس التاريخ وحاولت أن أضع جداراً لكنك أيها الطائر المفترس تعرفين كيف تقفزين فوق الجدار وتدخلين من الثقوب.

أردت أن أهرب لكنك أطبقت علي وسجنتني وصحت أنا أخافك. وحاولت أن تطيري بي الى الظلام وكلما أطلقت عليك النار أصبت أنا. أيها الطائر المفترس إنك تقتلعين قلبي، كم أود أن تذهب بعيداً لكن لا تختف لا أريد ذلك.

(بدون تأريخ)

أشعار

لقد تكسرت الإشعاعات

ذات مساء.. والظلام مخيم والرياح العاتية تجتاح المدينة الهاجعة
والنجوم اختبأت رعباً خلف أمواج الغيوم الغاضبة
وعلى عمود نور
استندت طفلة صغيرة
أوصالها تهتز.. وأسنانها تصطك
والريح القاسية القارصة
تلسع جسدها المتواري خلف الخرق
الخرق المتهرئة
كانت الطرقات خالية
تصفر على ذاتها
والأضواء الخافتة تتراقص
كالأشباح
وارتعدت فرائص الطفلة
وأطلقتها
صرخة: أماه.. أماه..
وأجابها صوت من قرارتها
إني لك امٌ أيتها البائسة
وتناهي الى أسماعها حفيف
الأغصان
وهي تنكسر في الظلام
وسرت برودة الخوف وأحاطت بمداركها
فركضت ومن تخال الأبالسة حولها
وعيونهم تبصق النيران
وأيديهم تمتد إليها.. تجذبها
فازدادت سرعتها.. وازدادت
وعثرت قدمها بصخرة ناتئة

فانكبت على وجهها مولولة
وتراءت لها الشياطين..
فجحظت عيناها
وازداد القرع والضجيج
وعلت صرخات الطبول
فنهضت تحاول إمساك شيء
(حيث لا شيء)
وانتفض بدنها وارتجفت حناياها
وأطلقت ضحكة معربدة..
ثم انثنت وهي تبكي
تهدد الظلام والبرد والأبالسة
ثم اختفت في الظلمة الحالكة

(1963)

* * *

الجسر

على الجسر علقوا أسماء المذبوحين
وكانت السفائن تحمل أجداثهم
إلى الميناء
وعلى أبواب مطارح القبائل
نقش الغزاة حروفهـــــم المعسولة
وفي الفجر كان اللصوص
يبيعون للحانات ثمار بساتيننا الكادحة..
هل تسمعين
الصوت من وراء التلة عاد يلهب ظهر الوداع
والعينان جاءتا من خليج الصيف مسودتي الشراع
الصيف الآتي ابن الصيف الماضي
والشتاء هو الشتاء
وفي بحر الدفء ركضت وفي يدي راية المستقبل
حين نامت المدينة
هل نلتقي..

(1965)

* * *

أجراس الزمهرير

جذر الزمن المغروس في الآن.
جسر يحمل أعباء العصر المتشنج.
يقذف أثمار الماضي لفم المستقبل.
للحاملين دفئهم فوق جماجم أبنائهم..
لن يصحو الميت على حزن الصرخات
جئتكم مستعيراً وجهاً فسيفسائي الصيغة
حاملاً عبء السنين القادمة
وحكايات مجدولة من ليف الفراغ
أبحث عن قلب دافئ
عن بيت أرمي على عتبته آهاتي
وأدخل متحرراً.
تعفنت جثة الانتظار.. فتوقفت
وكانت أمطار الهزيمة تهطل بشدة
وكان المجوفون يحملون غناءهم ويمرقون
وتحت الجدار وضعت أيامي المنتهية
جلست أتفرج وأمزق قلبي بأسناني
وأحصي دمائي المتبخرة.
ثلج الوحدة سد ثقوب على جبهتي
حجر فروسية قلبي البائس
وكان ندى الأسى يعشوشب في جبهتي.

(1965)

* * *

سقوط الاحتمال

جاب الموت مدينتنا الواهية الأسوار
خط علامات فوق الحيطان
علق شاراته في الأغصان وتسمر..
زرع الجندي حرابه
في الجبهة
ضم مصيره
وبكى..
أشباح ترفع رأيتنا
ورجال من خوص غروا
جبروت المستقبل
رميت سلاحي ومضيت
عاري الخطوة..

(1966)

* * *

الخاتمة

عيناك
يا نهراً من صمت
يجتاح قباب الشمس
يا ناراً تنحب للثلج المتساقط
من قلب الموت
ألقى في يأسي حجراً من لهفة
عيناك.
–إلهي–
موتي.

(1966)

* * *

الغياب في الضوء

أيها الضوء المختفي في نهاية كوني
امنحني بعض شعاعك
امنح قلبي اقترابك
وضوءك العظيم
أيها السر الخبيئ في انقساماتي المحترقة
اقتربي مني.. غيبي في عيوني،
في رئتي، في يدي
ولنشكل قوة الأضواء وقوة الأرض
امنحي قلبي اقترابك: يا نهري
الوحيد في العالم..
يـــــا....

(1969)

* * *

أطلقي يأسك الكثيف

يحطمون جمجمتي، عيوني، فمي، يدي، جسدي.
هل ترضيك أجزائي؟
انحني وخذي
وضيفي يأسك الدائم
الى إنهيار حريتي.
إنني مقسم أيتها الملكة
لكنك لاترين سوى وهمي
ستنهار رغباتك الآمرة
عندما أتساقط عدداً لا ينتهي من الإشراقات.
لقد شممت عذريتك
وسمعت نفسك المعتم
يدور حولي بأقنعته العتيقة
إنني أنفذ كسهم الى سماء الهزائم
بدون أن أمس شهواتك المنصهرة.
إنني مدعو الى كهوف
لاترى ولا تلمس
إن هناك من ينتظر
حالاتي التي لا تحد.
أيتها الملكة إنك ترزئين
بحبك اليائس
وتطوقين بجسدك الذي تيبس
أبعدي طعناتك لأغيب في الأمام
الى الأمام
اصطحبي ذراعي أيتها السيدة
إنني أدخل الهواء
أتقدم متعجلاً
جزعي المتوسع

الى جزر ومحاور لا توجد
إنني ألقي رغباتي المتوحشة
الى قدرها المجهول
ثم أنتظر
أزهاراً حمراء تتوهج من قدر
مضاد
أمامي كل شيء وخلفي لا شيء
وعندما أستدير، تستدير الأشياء،
ببعد لا يتغير
من يدي الضاجتين
أي نحيب يغطي كتفي
في هذه الليلة
إنني أترك لكم أشيائي
وأرحل متجرداً بجسدي المحطم.
عاطفتي تحتشد في أجزائي
تراوغ شهودك المصطفين
إنكم تتكلمون بصوت موحد
مطالبين بخلع أقنعتي الحقيقية
عشرات الأيدي تتكدس في يدي ولا أعرف يدك
إنها مشاعة بين الأيدي التي
جلبتيها
إنك تستعيرين أصواتاً متعددة
وأمام يقيني الذي تخرب إزاءك
ارتجفت غاضباً
وامتشقت سيفاً لأقطع أصواتهم
لأقلعهم عن جسدك
لكنهم يكبرون كالحرائق التي لاتحد.
لم أعد أميزك.

(1970)

عواطف

لم يبق للقلب إلا أوعيته النازفة
هناك في قمة الجسد،
غابات من ماء،
زهور صفراء متأرجحة،
تنزل كثافتها اللينة،
وتبدأ في الجلد،
يتجرد الجسد من أفراحه ومباهجه
وأحزانه وضوابطه
يتعلق برنينه الدائم
إزاء خطوته المنتفية على سطح الصخب
من الذي يدعو في هذه الصحراء؟
ومن ذا يجيب؟

(1970)

* * *

حزيران

انهيارات دامية
لتوحيد اليقين
إنهم يبعثون مصانعهم
وكيمياوييهم وأنابيبهم
لفحصنا، وخلقنا من جديد
لا يهم أن تكون كلباً او حذاءً
او كرسياً حجرياً مكسوراً قرب الشاطئ
لا يهم أن تكون إنساناً أو بقرة
فالأشياء تتساوى بعد مغادرة المصنع
بعد مغادرة المصنع. مغادرة المصنع. بعد مغادرة
المصنع.
مغادرة.
بعد.
حزيران
تفنين في: فنائي
نسر يحترق: أرض معادة
أيتها الأنثى: الجسد: الكون
الحقيقة هي الوطن المخيف
جنود لم تبق إلا أسماؤهم في الجرائد
مياه أبدية في الأفواه، وفي ساعة الديمومة
أعشاب تتيبس: مدن تختفي
شمس تسقط، رجال، نساء
بيوت، حجرة قارب
مسافات تنهض: تغيب
ثائر لا يعرفه أحد يموت في النضال
أو يتجمد في قمة معزولة

ماذا يتبقى للأبطال والخونة: لا شيء
مقهى يحترق: أقدام تحترق: أنهار تذبل
أجساد يابسة تطيرها الرياح
وفي عري جثثنا الشفافة نحلم بالنصر المستحيل
أيها الغريب ارفع شراعك: لا تقف..

(1970)

* * *

ليست قصيدة*

-سما-

أخذت الحمامة قلبي وطارت الى الله
ياحمامتي الجميلة
آه أيتها الحمامة الذهبية
وطارت الحمامة بعيداً
ترى هل يستطيع رجل راح قلبه أن يقف إلا مثل قصبة؟
وهل يستطيع أن يواجه عاصفات الريح والوحوش الكاسرة؟
هل يستطيع ذلك رجل أخذت حمامته قلبه
وطارت به الى الله.

*****

يتقسم الرجل مثل الرمل ويصيح:
آه من قسوة الحب.
ترى هل يمكن للرجل أن يعزي نفسه؟
وكيف له أن يعزي نفسه؟
وقد أخذت حمامته الذهبية قلبه
وطارت به الى الله.

(1994)

* * *

*** كتب خالد الراوي هذه القصيدة عام 1994 تحديدا بعد ثلاثة أيام من وفاة أبنته سما على أثر حادث مؤسف. وقد أثر به هذا الحدث تأثيرا بالغا وأضحى أكثر صمتا وانعزالا من ذي قبل. (المحرر)**

قصيدة*

-1-

أنطوي
أتطاير
أكاد أزول
هل أبحر في الوهم من جديد؟
من أين يجيء كل هذا الحب؟
من أين تنبثق هذه الشعلة؟
لماذا تحيي الميت يا إلهي
دعه يذهب.
أوقدت لك شمعتين
الأولى في بداية العالم
والثانية في نهايته
سأحوطك من كل مكان.

-2-

من أي قمقم خرجت أيتها الطفلة الساحرة؟
كيف خلقت هذا الفردوس في هذه الصحراء المميتة؟
أيتها الطفلة – المرأة. إنك تأتين مثل النسمة وتذهبين؟
تدخلين مثل الحمامة وتختفين كانطفاء الضوء.

*** كتب خالد هاتين القصيدتين في أواخر التسعينات قبل وفاته بحوالي عامين، ولم يحدد هوية المرأة فيهما. ومن الممكن أنه وقع في حب امرأة، خاصة وانه وقع القصيدة الثانية بأسم محمد موسى بدلا من أسمه الحقيقي. (المحرر)**

وتتركين ألسنة النار تلتهب.
أيها الوهم الرائع – أيها الوهم النقي الصافي.
اغفري لي كل حماقاتي وسيئاتي، فهي كثيرة لا تحصى:
فانت إلهي.
لا تدعيني أتلاشى.

(1997)

* * *

ملحق – 1–

كتابات نقدية

حول قصة ناعور في نهر يابس*

تتصادم التيارات الأدبية في هذه الفترة من حياتنا ويثور السؤال: أين هو الأدب الملتزم في بلادنا؟ وعندما تفتش عنه لا تجد الا لمحات سريعة وتائهة من هذا التيار... يعرض خالد في هذه القصة صوراً وأحداثاً متتابعة متلاحقة مر بها الكثير من شباب ورجال العراق الذين عاشوا أعواماً، سياسية منفعلة فوارة الوقائع والأحداث. ناعور في نهر يابس سبك خالد الراوي خيوطاً حقيقية لا زالت تتراءى أمام أذهاننا التي لم تنس- وكيف تنسى- تلك الأيام الهائجة قبل سنين. ونقطة أخرى أود تسجيلها أن تلك الفترة العصيبة من الزمن لم تدفع أحدا من الكتاب العراقيين ليكتبوا عنها مع أنها داخلت الأجساد الى العظام، تجعلنا نتساءل: أين هي المعاناة أيها الكتاب النحارير!! تحية لخالد حبيب الراوي ونأمل من الملحق نشر المزيد من أمثال هذه القصص الجيدة.

* * *

* بلا مؤلف، ملحق جريدة الجمهورية، 21 تشرين الأول 1966.

الجسد والأبواب:
وضوح بين الأصوات المدغمة*

كثرت في الأيام الأخيرة المنشورات العراقية، فترة خصيبة جدا، كتب صدرت وأخرى ستصدر، دواوين شعر، مجاميع قصصية، روايات، ولكنها فورة غير منظمة، اختلط فيها الجيد بالهزيل، ومات فيها البريء بذنب القاتل، اذ انه – وكما يبدو – ان كل من يملك ثمن طبع كتاب يفعل ذلك بلا شعور بمسؤولية العمل الخطير هذا، المهم النشر ليس الا، ولذا قرأنا ثرثرة وتفاهات سميت قصصا او روايات .. الخ. ولذلك اطالب زملائي بمقاطعة كل النتاجات الهزيلة واهمالها تماما لئلا نمدها بوسائل الحياة حتى يشعر أولئك الفارغون الذين سطروها بفداحة الجرم الذي اقدموا عليه.

ووسط هذه الفوضى نجد بين حين واخر نماذج طيبة ومعافاة منها المجموعة القصصية الاولى (الجسد والأبواب) للزميل خالد حبيب الراوي.

ولنتساءل اولا: لماذا هذا الاسم (الجسد والأبواب)؟ لماذا وضعه المؤلف على مجموعته دون اسم اخر مع انه ليست في المجموعة اية قصة تحمله .. والذي يبدو لي ان المؤلف – وكما فعل زملاء آخرون له – قد التقط هذا الاسم ليضم بين دفتيه المضامين التي تدور حولها اقاصيصه، وما دامت قصصه لا تدور حول الجنس كأحدى الازمات التي تواجه المثقف العربي اليوم، فلذا ان كلمة جسد هنا تعني الإنسان الذي يأكل ويطمح ويفكر ليعيش، اما الأبواب فهي هنا الحرية المنشودة من اجل ان ينعتق هذا الإنسان وتفتح له الأبواب ليتنفس ويعبر موكبه .

فقصص خالد حبيب الراوي هذه تدور اذن حول نقطتين هما الإنسان والحرية وقد اكدت عليهما جميع القصص التسع التي تحتويها المجموعة،

---

* عبد الرحمن مجيد الربيعي، مجلة الف باء، 9 نيسان 1969.

الإنسان البسيط وكدحه اليومي من اجل الحرية والخبز، فهو تارة زبال وأخرى سياسي وثالثة عامل عجوز لا يجد قوته وهكذا، ما عدا الحواريات الثلاث التي تحويها المجموعة ايضا جوار القصص فهي تدور عن الحرية بتساؤلات ميتافيزيقية مدغمة.

ان (الجسد والأبواب) ايذان بميلاد كاتب اجتماعي جديد يملك ملامحه الخاصة به والتي تتركز في التقاطه لحوادث بسيطة جدا وخلقه لقصص منها تذكرنا بأعمال القاص السوري وليد اخلاصي مع الاختلاف في المنطق، وهو يختلف ايضا عن زميله العراقي خضير عبد الامير مثلا الذي يملك نفس الاهتمامات الاجتماعية ولكن في الوقت الذي يعطى فيه خضير عبد الامير للعبارة استمراريتها وللفعل مواصلته نجد خالدا يميل الى الجملة القصيرة المكثفة المحتفظة باللمحة الشعرية، ويميل ايضا الى تكثيف الحدث وانهائه بطريقة تفاجيء القارىء وتجعلها قريبة من القطع في غير اوانه، وهذه هي في رأيي نقطة الضعف في بعض قصص المجموعة التي حاول تلافيها في قصص أخرى وذلك بانهائها بجملة شعرية تترك الخيال هائما وتبعد عنه صفعة القطع مثل (والريح ما زالت تحمل معاطف الثلج للأرض والأحياء) كما في قصة (الرصاص: البيوت) ومثل (استدار واضحى نقطة في الافق) كما في قصة (الحائط) ومثل (تكاثرت الرعود والمطر أخذ يشتد) كما في قصة (رجفة في الضوء).

وعندما نحاول تقييم البناء الفني لقصص الراوي نجده لا يلجأ الى التجديد المتطرف، والسبب في رأيي هو بساطة الموضوع الذي يطرحه. انه اضاف اضافة بسيطة دون ان يلغي قيمة قديمة (نحن نسير بسرعة فائقة ولكننا ايضا نحمل امتعتنا القديمة الصالحة للسفر) على حد قول توفيق الحكيم، ولذلك فالراوي لم يلغ شيئا بل اضاف للقصة هذا الاختصار المفرط الذي يجعلها تؤدي مهمتها باقصر وقت، ولكن هذه عملية خطيرة فقط تؤدي الى قتل القصة وتحويلها الى خاطرة ولذلك فان عليه ان يحاذر قبل أعطاء القصة وجهها الأخير.

* * *

خالد الراوي: العلاقة والتجربة*

الإنسان المطارد المغلوب الذي لا يملك مقومات الصمود، هذا الإنسان هو الموضوع الاهم الذي يصلح اطارا ويصلح صورة داخل الاطار ايضا لقصص خالد الراوي (الجسد والأبواب). محمد الذي يبحث عن مأوى للاختباء وربما مكان آخر لمواصلة المعركة، وعامل الطين الذي يحلم بالعمل والذي تقذفه يد صاحب العمل الى البطالة مع نظرات التشفي والشماتة، والمطرود من الخان الذي لا يملك ايجار الغرفة .. واللذان يبحثان في بحر راكد عن مرفأ الحقيقة، والباحث عن الخيانة في (الانزلاق) الذي يكتشفها فيه مؤخرا، يقول خالد على لسان احد ابطاله الثاني في "الجدار وزهور البحر"..

– انها الغلطة التي لا اغتفرها ان يملك الإنسان جسدين، واحد يتعامل به مع الناس والاخر يتعامل به مع نفسه.. ولكننا في الحائط نجد هذا الإنسان الباحث عن دراجته المسروقة والذي يجيء الى الدار البعيدة عن المدينة لاسترجاع الدراجة التي ابتاعها صاحب الدار من السارق يترك موضوع الدراجة ليتحول الى صاحبة الدار محاولا اغتصابها.. وفي الانزلاق، نجد الشارب نموذجا للخيانة مختبئا تطارده عيون الشرطة، يلعن الخائن ثم يتحول الى زوجة صاحب الدار التي تؤويه.

أراد خالد ان يتمرد على فرضيات الفلسفة معتبرا الانتهازية غلطة، ومن خلال هذه النظرة نجده يسلط العبارة شارحا النماذج المتقدمة.. ومع انه – اي خالد – يملك المضمون الدسم، الا انه أحيانا (رجفة في الضوء) نجده مرتبكا في الحوار وفي الانتقال الى الحدث، ومع ذلك فانه يقدم المضمون الاكثر مأساوية، صباغ الاحذية المطالب بدفع الايجار والذي يطارده البرد وصاحب الخان، وفي (المتربصون) يكاد ينعدم التوصيل في اللغة التي تجسد الحدث وتصل الى لحظة الانفجار، وفي الاعتبار الاكثر انصافا ينبغي

---

* شريف الربيعي، مجلة الاذاعة والتلفزيون، نيسان 1969، عدد 7.

ملاحظة ان مجموعة خالد هي اول مجموعة قصصية خلال هـذا الموسـم تسلط الضوء على الإنسان المنسحق المطارد بعيدا عن حـذلقات المقلـدين، بمعنى انك تقرأ قصة تحمل ملامـح الأرض التـي دارت عليهـا احـداثها والشخوص الذين يطرحهم خالد موجودون بيننا.. ومع ان خالد لم يلجأ الـى العالمية في حوار الاشخاص الا انه استطاع الى حد كبير ان يتغلـب علـى حراجة التصرف عند ابطاله.

ملاحظة أخرى، خالد يبتعد عن التفاصيل التي ترهق القصة القصيرة أحيانا، وهو بالضبط يعي مسؤولية ان تكون القصة قصيرة، والى جانـب اعتمـاده الصور الشعرية أحيانا فهناك العبارة التجريدية ايضا، وخالـد يمشـي الـى النهاية في قصصه بشكل يعطي القارىء فرصة المتابعة اللذيذة، فهو يصـل الى النهاية من خلال الملامسة الدقيقة فـي جريـان الحـدث وبعيـدا عـن المجاملة- خالد الراوي في (الجسد والأبواب) يمنحنا فرصة ان نطالب بقصة قصيرة تستوعب تجربة الإنسان العراقي ونقف عند جزئيات هـذا الإنسـان لتملك بعد ذلك لغة مميزة، مجموعة خالد تترك لنا فرصة ان نتفاعل بمجيء قاص اصيل، ولا بد ان نفهم ايضا ان هذه المجموعة هـي الاولـى، وفـي قصصها ما يمثل ابتعادا زمنيا بالنسبة لزمن صـدورها. ان الـذي يجعـل لقصص الراوي نكهة خاصة ومذاقا خاصا في المضمون وأسلوب المعالجـة هو انها تبتعد عن التكلف الذي يلزم الافتـراض ولغـة معقـدة، ورغـم ان البساطة تلغي في أحيان كثيرة بوادر التفصـيل والكشـف، الا ان الـراوي استطاع ومن خلال هذه البساطة ان يمررنا بتجارب ابطاله عبر التذمر وعبر الانزلاق وعبرالحلم. وهذا لا يمنع ايضا فقصص الراوي تنتمي الى الواقعية.

* * *

أبواب الجسد المقعي*

يقينا ان خالد حبيب الراوي، كان يدري اي موضع سيحتل بنهجه للتكنيك الواقعي، ففي الوقت الذي أخذت فيه أصوات الطليعة من كتابنا الشباب تتجه للبحث عن اراض اكثر ملائمة لهمومها واتعابها يأتي صوت: خالد الراوي كرافض لكافة التطلعات الفنية والمناهج العديدة، رافض بين الرافضين، وهو لا يكف بقناعة شخصية فقط، بمدرسة تشيخوف وموباسان بل بالتأكيد عليها سواء في تناوله للمسرحية او القصة القصيرة (ثمة ثلاث مسرحيات في مجموعة الجسد والأبواب يمكننا الحديث عنها على انفراد)، اقول هذا بمعرض الحديث عن الكتاب الذي صدر للزميل خالد حبيب الراوي في الآونة الأخيرة، لقد قرأت قصة: ناعور في نهر يابس عام 1965 في ملحق الجمهورية، بينما كان زمن قصه، الرصاص: البيوت هو عام 1969 في مجلة العمل الشعبي، فما هو يا ترى الشوط الذي بلغه كاتب الجسد والأبواب خلال المسافة الزمنية تلك، وما مدى تطوره التكنيكي؟

يبدو ان كتاب المدرسة الواقعية لا يحلمون بصياغة الواقع كما يجب، بل كما هو عليه وكما هو في قصص الجسد والأبواب، واذا كانت ثمة مساوىء في هذا المنهج، فهي مدى التصاقها بتراب الأرض، حيث يتحول الكاتب الى مجرد راو وحيث تسقط عملية التحويل الفني من يديه، ولن يجد ثمة ضرورة أخرى لتدخله كفنان الا في حالات قليلة كالذي حدث في قصة: ناعور في نهر يابس، اذ نجد ان المتهم يتغير ليحل محله رجل بريء، لا يدري من السياسة اي شيء، لكنه يلقى عليه القبض بحجة توزيع المنشورات السرية، وما عدا ذلك فلا نجد ثمة تطورا، واذا ادركنا ان القصة المذكورة هي سابقة لقصة الرصاص: البيوت او غيرها من القصص، تأكد لدينا ما تعني الضرورة الفنية بالنسبة لخالد الراوي، وآخرين غيره ينهجون نفس النهج – الواقعي– بمعنى ان الكاتب لم يكن (في القصتين والقصص الثلاث) اكثر من

---

* أحمد خلف، مجلة ألف باء، 18 حزيران 1969، عدد 50.

عدسة كاميرا تمتلك عاطفة النقل والتصوير مع حسن اختيار الزوايا التي يجب تصويرها .

ان الخط العام لقصص المجموعة بصورة كلية، هو التوتر الواقعي الملموس، فمن حالة شخص ما، يحمل حقيبة مناشير سرية، الى شخص آخر في المظاهرات، او بيت يعاني محاصرة السلطة، او رجل يبحث عن عمل فلا يجده، ولكن ما تتطلبه حالة المواجهة والحالات الشعورية لكل طرف من الطرفين، فقد اعذر خالد نفسه من ذلك، مستعيضا عنه بما قدمه من جرأة صادقة، قد يتخلف عنها العديد من كتابنا الشباب، فبينما جاءت القصتان المذكورتان بنفس الحدة والتفاعل الصادق، كشفت قصة: – القطار الذي لن يعود – عن تحدي الكاتب لواقعه المعاشي، فهذه القصة تقدم نموذجها بلحمه ودمه، مواطن يحمل حقيبة كي يسافر، الحقيبة تحمل اثم السلطة السابقة، مناشير لكن الرجل المناضل لم يفلت من احد الوجوه التي تراقبه، حيث يقع في الأخير بين ايديهم.

حتى الان، تأخذ القصص طابع السرد بالتعاون مع الحوار الخارجي، اما ما تتطلبه حالة الشخوص من عمق واستقصاء لا شعوري لهم، وما يجب الكشف عنه من نقاط ضعف، فلم اجد هناك ما يمكن الحصول عليه، فقد اهمل الكاتب كافة الكشوفات الفنية والفكرية للمحاولات العظيمة السابقة، من تداع واع وتداع لا شعوري، او استغلال الرموز والايحاءات، وتناول الحلم مثلا، او الاسطورة.

ان خالد الراوي، مطالب قبل كل شيء باغناء عنصر المحاكاة في القصة اغناءا فنيا لتجاوز المرحلة السابقة لكتاب الحدث الواقعي المشدود لأرض الواقع والاغراق في مناخ المحلية، وبذلك يستطيع (وهذا ما اراه وقد لا يتفق معي الكثير. ذلك ليس مهما البتة) تخطي الاساليب السكونية الرتيبة، التي سنها تشيخوف وبلزاك وموباسان وغيرهم لنا، من ملامح القصة الواقعية.

ولكن ثمة شيء آخر حول المسرحيات، انها لم تأت بالصورة المطلوبة، فبينما تدرك المنهج الواقعي في القصص القصيرة، نجد ان المسرحيات تجاوزت هذا كله الى الشعر والحالات الاعترافية السريعة ذات اللهجة

الخطابية، ولكن ربما جاءت المسرحيات لتقرأ فقط، هذا مهم من ناحية، ولكن تسميتها بالسريعة يظل محل اعتراض بسبب من عدم تحميلها عناصر المسرحية ومقوماتها ... اني اجد فيها تلك اللوحات الفنية المتراوحة بين الحالة التجريدية والتعبيرية، فبينما تنمي المسرحيتان الاوليتان ذلك المنهج، تجد القيمة تختلف عنهما بشكل خاص – تقريبا –

ثمة نقطة مهمة اريد تسجيلها، لمجموعة الزميل خالد الراوي، وهي ان واقعية الجسد والأبواب، ليست واقعية الحدث النامي تدريجيا ليتفجر في الأخير، تاركا نقطة ضوء على جسر العبور الفني، انما هي واقعية رامية بسبب من فقدان الحدث ثم تلاشي الزمن الواقعي، بمعنى انها تعيش على حافة خارج وداخل الزمن المعاش دونما السقوط في شراكه المغرية.

* * *

الى القاص العراقي خالد حبيب الراوي*

مودة، وبعد..

"الجسد والأبواب" قصص فيها طعنة صائبة من قلم علم سطر الـــوعي، طالعتها بسرعة، لان الكلمات تنزلق كالقطعة الثلجية الطالعة من كانون الثلج، كنت جيد الاحدوثة، معاصر اللفظة، حساسا في التعبير، تعرف كيف ترجـــع الى السطر من جديد، وكيف تنساب، الحق اقول لك انك احسنت، واصـــبت، وتوفقت .

انتم يا جيل المتمردين، بتمردكم تفتحون أبواب التحول العصـــري، مـــن اعماقكم ومن روافدكم وجداولكم، وينابيعكم تولد أصوات المياه تحت اغصان السديان والنخيل .

أحسست ان شفرتي اليراعة، قد تحولت في يدك الى ضوء يهدي التائهين الباحثين عن نار القرى. مع فائق مودتي واخلاصي .

* * *

* الأب يوسف سعيد، مجلة الأديب اللبنانية، سبتمبر 1969.

مع خالد حبيب الراوي
في (الجسد والأبواب)*

لن تكون مدهوشاً أمام مجموعة (الجسد والأبواب) للزميل خالد حبيب الراوي، الا انك سوف تقرأها برغبة، تتعطش لكل ما جاء فيها، يمكن ان تحلم وانت تقرأ، يمكن ان تتحسر وانت تقرأ، غير ان هذا كله لن يجعلك مدهوشاً أمام القصص، لأنها لم توضع بعد معاناة مقروءة كما لو كنت فيها تصنع برجا من البيض او تحفر بئراً بابرة عوجاء، وانما سوف تحس ما يبتغيه المؤلف من ايضاح ذوات أبطاله في سياق يتلقفه الشعر في أحيان كثيرة (البحر لا يعرف لهفة الفرحة)، ولا نشوة الخطوة الواثقة ولا تمنعه الصرخات المسرحية من فن مشدود متكامل (لا تدعينا واقفين تتصادم أجسادنا لتبدد مطامحنا الأخيرة). ثم ترى العالم وهو يبدأ في الصغر على طول الصفحات – عملية تنقية هادئة مدروسة – تتركب من طموح يتبدد الى خوف الإنسان العادي من طقوس العالم الغامضة، ومن هنا يقف الرجل المسحوق وجها لوجه أمام الشرطي وهو يخنق بأصابعه ساعد الرجل النحيف ليصرخ فيه ان تحرك، وحين يبدأ السير يمكن ان تحس تخاذله، ورعبه، وحين يأخذنا المؤلف داخل القبو في قصة (القطار الذي لن يعود) يمنعنا من الكشف عن بقية الحقيقة، فقط لأنها معروفة من التعب الاول، منذ ولادة هذا الجيل، بل منذ وطأنا وجه الأرض: العذاب، السخرية المريرة، التنكيل، ومسيرة أقدام. ثم نقع على قصتي (الحائط) و(الكلب) وكنت احسهما اقصر نفسا مما يجب. ان ثمة خاصية في هاتين القصتين وهو كونهما بحاجة الى دراية بمفهوم المضمون، ليس في أن نعرضه على القارىء وننتهي منه كتسجيل جنائي سريع، او جملاً قصيرة مبتورة، انهما بحاجة الى شيء من الوصف، ان لم نقل العمق، فما ذنب البطل في القصة الثانية وهو ينظر تارة الى الكلب ثم الى سيده ويكتفي بالقاء ضوء بسيط على القصة بان يقول (وكان ثمة خط متعرج يتعرى بين التراب خلفه) لماذا؟ الا يستحق مضمون هذه القصة – على ما فيها من كآبة حقيقية – ان تأخذ من جهد الكاتب اكثر

---

* عرض: عبد الستار ناصر. لم أستطع تحديد فيما لو تم نشر هذه المقالة أم لا، لكنها موجودة في مكتبة القاص خالد الراوي. (المحرر)

مما رأينا ؟ وهل يجب – اذا حاولنا ان نكون اكثر قسوة – ان ننتهي من القصة في يوم واحد.

إذن فقد أصبحت القصة لدى الزميل خالد مجرد عرض ليس غير، وربما نقول مثل هذا في قصتي (الانزلاق) و(المتربصون) وربما (الشاحنة) ايضا، غير أن القاص في المسرحيات الثلاث المعروضة كان قد أعطى أهمية أدق في طرح المواضيع وبشيء بسيط من الرمزية الواقعية رغم ان مسرحياته قد تميل الى هيكل القصة القصيرة .

ان (الجسد والأبواب) مجموعة من القصص تعبر عن مرحلة دقيقة من حياتنا في اطار أضيء من قبل على يد الكثيرين من القصاصين الشباب، الا ان خالد الراوي جاء بالجديد الخالي من الكلفة والمبالغة وقد اكتسبنا من المجموعة لمحات سياسية كادت القصة القصيرة في العراق ان تغفل عن طرحها الا في مناسبات متباعدة، وفي الوقت الذي نثمن فيه جهد المؤلف نتوقع ان تكون مجموعته القادمة اكثر من هذه كرماً في طرح المضمون وان نرى قصته ابعد من كونها (قصة قصيرة – مختصرة) فذلك ليس بالعطاء الوافي، ما دمنا بحاجة الى أدب اكثر جودة.

* * *

القناع
بين الصوفية والوجودية*

(1)

قرأت هنا وهناك، الصفحة الاولى، الأخيرة، عنوانات غريبة وليست غريبة جدا فيما أصبح معتادا من العنوانات، وقرأت: الخيول تركض والفرسان يضحكون طريفة، ايجابية، اما مسألة الغموض فلم تعد مسألة، ثم اما ترى الباحث عن منفذ لثورته.

ولتعبر هذه وهذه .. ولنقف لنقرأ "أصبحت أقدامي طيورا". ان المسألة التي يعرضها الكاتب غير واضحة الحدود ولكنها لا تمر من نفس الى نفس دون اثر من مشاركة بالمأساة، ولتكن بعد ذلك المأساة ما تكون .

ولنقرأ "100 ذراع" فنحس بان الرجل ينكشف اكثر واكثر ويدلنا على أشياء من وجودية في المسؤولية والحرية، وليكن فأنه يحسن امتلاك الأشياء ويحسن ان يكون قويا في فنه.

والكتاب يقرأ، والمؤلف فنان، خذه مأخذ الجد – ان شئت – تجده معربا عن ضيقه وضيق جيله وقد استحال الضيق كابوسا، وخذه مأخذ الهزل، فلك ذلك، ولكني لا ارى الى الهزل سبيلا ان اللعبة تجاوزت حد الطرافة.

(2)

ولنبدأ بالبداية، ولنقرأ، ليس بين القصص – او الاقاصيص – السبع عشرة ما يحمل عنوان المجموعة: القناع، ولكن الدنيا التي تعيش فيها هذه الاقاصيص مقنعة، لها ظاهر ولها باطن، والاسرار تكمن وراء القناع، وعلى سكان هذه الدنيا ان يبحثوا عن الاسرار ويعملوا على تمزيق القناع لانهم

---

* الدكتور علي جواد الطاهر، مجلة الف باء، 1970/9/2، العدد 110.

يريدون ان يتخلصوا من الزيف ومن العرف ومن القواعد التي وضعها العقل وقيدها بالمنطق.

ولا يكون هذا القناع على رأس فقد يكون في الرجل، وقد يكون في اليد وقد يكون تحت الأرض .. ومن هنا انبثقت حرية لا بد منها، لا تلبث ان تؤدي الى كشف ما يؤدي الى راحة ما، راحة يقرها اهلها ولا يراد منها ان تقر من قبل الآخرين الذين يريدون لانفسهم ان يبدوا طبيعيين وقرين – اي مبتزين عادة.

ولا يكون التمزيق هينا لينا، وانما هو شاق رهيب يخشى الكثيرون السبيل اليه، اما نحن، فيجب ان نسير ونسير، وليكن من الرهبة ما يكون.

(3)

القناع: مجموعة اقاصيص، صغيرة المدى الورقي، وحسبك ان الـ 17 كلها لم تستطع ان تشبع الـ 75 صفحة الصغيرة الحجم القليلة الكلمات، ولكن العبرة في المدى العمقي، مدى ما وراء الورق، اذ انت في جو، واذ انت مع "الشخص" تفهمه وتتابع حركاته وسكناته كأنه طبيعي وكأنك رأيت امثاله. انه ليس طبيعيا بالمعنى المألوف، ولكن القاص يعايشه معايشة عجيبة وينقل ذلك اليك في يسر والفة .

ليس في الـ 17 قصة 17 بطلا وانما هي الـ 17 صفحة من حياة "بطل" واحد لا اقول انه المؤلف، حتى لو كأنه، لانك لا تراه، ولانه لا يعترضك، فقد امتزج بالكلي وأصبح قطرة في بحر .

(4)

هذا "البطل" ضائق بالحياة حتى "القرف"، مشمئز حتى الثورة عليها، ساخر منها حتى الكفر بكيانها المكون ..

تقول: رأينا امثاله في قصصنا الجديد.

واقول: لم ار مثله حتى في هذا القصص الذي تعنيه.

– وكيف كان ذلك؟

– كان: انه قوي، ليس سالبا وليس واهيا متهاويا ضائعا سخيفا، ضعيفا يغرق في الغائط حتى اذنيه ولا يخرج منه الا البصاق، انه قوي ويجمع الى ذلك الخفة والذوق واللباقة، انه وجودي، ولكنه ليس من هذا النموذج المتهريء الذي تتبناه قصصنا فيلوك كلمات، المسؤولية والحرية والرفض والاختيار والغربة كالادرد الذي يعلك "المستكي" ثم انه يختار النهاية التي يتغلب بها على مبتزه ويعرف معنى الانتصار على الخصم بسلاح الخصم، ولا بأس في ان يروض نفسه طويلا كي يصل الى ما يريد ان يصل اليه.

وقد استعرت كلمة "يروض" من الصوفية، ولا غرو، ففي بطل القناع أشياء من الصوفية، وفيه من الوجودية، وفيه من المسيحية، الا ان المهم فيه انه قوي – وليكن بعد ذلك أو قبله ما يكون، ويدخل في القوة الجانب الايجابي في الحياة .

(5)

واني، اذ اتكلم على "البطل" كأني اتكلم على المؤلف عبر فنه، انك في جملة الـ 17 قصة، ازاء فنان لبق، شاعر خفيف الظل، يجعل الواضح على شيء من غموض يجتذبك، ويغور وراء الغامض حتى يقرب من الوضوح ويبقي منه شيئا يروقك، انه يكتب غامضا عن موقف يحس به واضحا في نفسه فيمر منها الى نفس القارىء، كأنه غير غامض وهو متمكن في ذلك لا يتكلف ولا يفتعل ولا يتعقلن كأنه ينطلق من دفق شاعري تفتح أمامه الطريق فينبع منه ما ينبع ويبقى تحت القاع ما يبقى، وفي هذا الذي يسيل على الحافة دلالة على ذاك الغائر .

ثم انه لا يفقد سيطرته فيدع قسما يطغي على قسم وموجة تلطم موجة، انه يدير مجموع الهيكل بمهارة منذ البداية مارا بنبضات الحدث المعنوي حتى النهاية، وكثيرا ما يترك هذه النهاية مفتوحة على مداخل من وميض.

الفاظه وتعبيراته انيقة، كل شيء سهل من دون ابتذال، سهل راق.

(6)

واليك امثلة من امثلته:

"هذا الزمن الذي فقد الناس جرأة التصدي لضربة غامضة" – ومهما فتحنا أبواب قلاعنا لندخلكم منها فهناك أبواب سرية تظل مغلقة: شئنا ام ابينا" – لكني اغرم، أحيانا، بمعرفة النتائج"، العلاقة لا تبدأ من جوازات السفر والدين، انما من التطلعات الإنسانية العامة"، لقد انتهى زمن الامتلاك، الإنسان يسعى لان يملك نفسه وحدها، كافة الأشياء لكافة الناس دون احتكار ودون امتلاك ايضا".

وفي لغة ما تدخل البلاغة الجديدة من اوسع أبوابها، ومن ذلك: "دخلت الجثة في جمجمتي"، "القحوف .. علامات الحضارة"، استحالت قدماي الى فضاء صلب تصعدان وتهبطان على صحراء شاسعة". ووراء التعبيرات حياة ومشاعر وذكاء، واوصيك خصوصا بـ "سأموت قبل خمسة الاف سنة" .

وتجد من مفرداته ما كان على الغاية من الفصاحة ولكنها تمر في سماحة مثل سواها، من ذلك: تزججت، النوء...

(7)

انك تتحدث عن "القناع" وكانها كلها محاسن، وقد بالغت ..

– اما بالغت، فلا اني لم اقصد الى شيء من ذلك، وانما هو اهتزاز الاعتزاز، ومثل هذا قد يطير بصاحبه الى سماء ابعد مما يريد له الآخرون، وابعد ما يريده لنفسه أحيانا، ولكنه يرى ان يترك الامور تجري على رسلها.

– اما كلها محاسن ؟!

– اما كلها محاسن، فلم اقل ذلك، وليس من المعقول فهنا وهناك ما لا يدخل في هذا الباب او ذاك، والا فاني كنت اتحدث عن المجموع، ولا تخسر اذا قرأت المجموعة كلها، ففيها فن، ودعك من التفصيلات اما اذا اردت الخصوص فابدأ من المجموعة بـ"القارب" اما قبل ذلك فقد يطفو عليه نوع

من التقريرية والخطابة الواعية. كان الكاتب يقصد الى ان يدخل الموضـــوع الفلاني جنسيا مرة ووجوديا مرة وفلسطينيا مرة، والى ان يمـــزج المعالجـــة بالكوابيس والأحلام، وما الى ذلك من مستلزمات السريالية ..

ولم تخل اللغة من خطأ كان يقول "عشرة عيـــون" و "هاتـــان الفتاتـــان تريداني" و "بطنها منتفخة"، "تعلم متى يطلقو" .. والصحيح عشر، تريداننني، منتفخ، يطلقون ..

(8)

– انك، عندما تهتز، تطوي العيوب.

– لا ولكني استصغرها الى جوار المحاسن.

وتبقى الحقيقة هي هي، ان اثرا جميلا يجب ان يهز، وان العبرة في اثار الشباب بالاستمرار فلا تكفي ان تجعل من صاحبها قصاصا بمعنى الكلمـــة، وانما هي علاقة تغرسه على اول الطريق، ولا بد لنا من ان نقف عند هـــذه العلامة ونعجب اذا كانت مثار اعجاب، اما العلامة الثانية فهو المسؤول عنها وهي التي ستوضح موقفه ايجابا وسلبا، ولا بد للثانية من ثالثة ورابعة – في مجتمعنا.

اجل، قرأت "القناع" وسأعيد قراءة عدد من قصصها، وفي طليعة هـــذا العدد: "القارب" و"سهرة تحت غيوم الصباح" وقد تكون الاولى اجمل، وقـــد تكون الثانية اجمل.

* * *

عراقي ايضا لغته صورة*

"تلك الحفنة تأبى ترك البشر يعيشون في مسراتهم الصغيرة"

تصورت وانا اقرأ قصص العراقي خالد حبيب الراوي، بالاضافة الى صور أدبية كثيرة في الذاكرة آخرها تلك التي قدمتها لجمعة اللامي..، وكانت مكتوبة في اشكال مختلفة كزهرة او كصليب او كمسدس، وكذلك روايات مصطفى ابو لبدة، تصورت وانا اقرأ واتذكر ذلك وكل المحاولات الكتابية الجريئة التي بدأت في هذا القرن، اننا على وشك ان نودع عصر الكلمة، الكلمة هذا الرمز المجرد، لنبدأ دخول عالم المرئيات الحسية، عالم الاشكال الفنية التي تخاطب كل الحواس، وتحسرت، اذ اي صبر بعد سيجبر قارىء المستقبل على مراجعة التراث الأدبي الإنساني في تاريخه الطويل.

لكن تصوري هذا بالطبع سابق لأوانه، فالقصاصون الجدد، ومثلهم الشعراء، لا يزالون ايضا تحت سيطرة الكلمة وضمن اطار دائرتها، وان كانت محاولاتهم تنقلهم من القلب الى اطراف الدائرة، فالصورة السينمائية قامت بقفزة رهيبة قواها هذا الاستعداد الكبير لانتقال الذهنية الحالية الى الإحساس العصبي حيث تمكن العودة الى البدائية، بعد كل التعقيد الحضاري، والى البدائية الراقية.

في المجموعة القصصية التي تحمل اسم "القناع" يبدو واضحا جدا هذا التدرج من السرد الروائي الى السرد السينمائي، وليس خالد الراوي الاول، لكن قصصه هي الاقرب الى ما يسمى السيناريو السينمائي من حيث التقطيع المشهدي، والتعليق، والحوار والجو. هذا الجديد ليس هو ما يضع هذا القصاص بين الطليعيين الشباب بل ايضا المحتوى، اي نظرته الى العالم والعلاقات الإنسانية، وهو ينتمي الى خط زكريا تامر (السوري)، وجمال ابو حمدان (الاردني) وان كان تأثره بالرائد السوري اوضح: "ملأ بندقيته بالرصاص، وأخذ يطلق علي النار، سقطت أخيرا على الأرض البيضاء

---

* عصام محفوظ، جريدة النهار اللبنانية، 1970/11/13، صفحة 11.

قتيلا، ولم تخرج من جسدي قطرة دم". وهذه ليست المرة الاولى حيث يتحدث الميت عن نفسه، كما يفعل ابطال تامر في مجموعته الأخيرة "الرعد"، وان كان الرمز هنا يفقد بعض توتره الموجود هناك لعدم تخلص العراقي الشاب من الشرح الزائد، برغم اتباعه أسلوب السيناريو حيث الاعتماد على الصورة، اذ كثرة الصور ايضا يقتل بعضها بعضا، خاصة ان الشرح الموجود عند الاردني يشفع له الشعر، والصورة اذا لم تدخل رواق الشعر، او اذا لم تكن ذات ايجاز نثري عنيف وصارم، تضيع الكثير من قدرتها على لقط القارىء الى النهاية، وهذا يبدأ مع اول كلمة في اول جملة في اول قصة موجهة الى القارىء.

والقصاص الجيد من يستطيع ان يضع اصبع القارىء على الحبة الأساسية في المسبحة لتكر الحبات من ثم في سهولة مريحة ولذيذة، لكن القاسم المشترك بين هذا الكاتب ورفاقه السابقين هو اصالة التعبير الذي يدل عليها التصاق المضمون بجو الأرض التي يعيش عليها الكاتب، الأرض وناس هذه الأرض، ومحنتهم.

هناك جو من الرعب يغلف كل انتاج هؤلاء الحساسين، فيجعل احاديثهم بسبب هذا الرعب، اقرب الى الرمز، وبالتالي الى الشعر، وبالتالي الى الحقيقة المطلقة، وهذا ما يجعل هؤلاء الشبان يعالجون من خلال تفصيل واقعي رهيب، كل المعاني التي هي ابعد من الواقع، او التي قد تكون اكثر واقعية من الواقعي على الصعيد المستقبلي .

"الخيول تركض والفرسان يضحكون"، "أصبحت أقدامي طيورا"، "رجل له سبع أقدام"، "سهرة تحت غيوم الصباح": انها عناوين شاعرية لوقائع لا تمت الى الشعر بصلة، يظل يعلكها حتى يصيرها مزيجا من كل العواطف الإنسانية ورغباتها، من كل ما يقيد هذه العواطف او يطلقها عبر إحساس إنساني قوي التأثير. يقول في احدى قصصه: "عندما ترفع البندقية لتكون حرا لن تخشى السفاكين، واذا كنت حرا تضطر الى القتل او الفرار، تلك الحفنة من سفاكي العالم تأبى ترك البشر يعيشون في "مسراتهم الصغيرة"". ربما هذه الجملة مفتاح فهم قصص الراوي شكلا ومضمونا.

القناع*

في – القناع – مجموعة القاص الثانية، فإن العالم المرفوض هو امتداد لنفس العالم الذي استهلكه الكاتب في مجموعته الاولى. غير ان طغيان الخيبة السياسية والهزيمة الفكرية والجدب الجنسي هوالخط الهارموني الذي يحدد الملامح الأساسية لمجموعته الجديدة .. والكاتب هنا يطرح نفس البديل الأخلاقي لعالمه المرفوض .. لذلك نراه سلبياً في موقفه ازاء العالم المثالي الذي يحلم ببنائه وتأتي قصصه السبع عشرة في لوحة متفردة ذات خلفية متماثلة لتصب في ذلك النهر المتدفق الكبير من عشق عظيم للإنسان .. والحرية .. والعالم .. ان التأكيد المفرط على الشكل المجرد يحول دون الغوص بعيداً في اعماق الشخوص الداخلية، وهذا التأكيد الحاد هو الذي يحدد صورة القلق الكبير الذي يعيشه الكاتب خالد حبيب الراوي في عالم يفتقر الى النظافة. ولعل مما يشكل ثغرة كبيرة في قصص المجموعة هو تأكيد القاص على استعمال الجمل الجاهزة والتعميمات والشروح – "التاريخ طبقات من تراب متراكم" و "لكي نولد دائماً ومجدداً ينبغي المضي وحدنا فلا فائدة من الكشوفات، اذا كان هناك من يراقب .. الخ".

* * *

---

* يوسف الحيدري، مجلة الكلمة، نيسان 1971، السنة الثالثة، العدد الرابع.

القطار الليلي*

يواصل القصاص خالد حبيب الراوي في مجموعته الجديدة ما بدأه في مجموعته (الجسد والأبواب) و (القناع): اتقان القصة القصيرة جدا الجامعة بين مطالب الصحافة والبناء القصصي، ويضيف اليه عودة جديدة الى الموروث، والى منهج همنغوي خاصة: الفوتغرافية القصصية الصحيفة الرمزية البليغة: (زوجة المحارب، الالتحام، الشاحنة، أضواء) او الى الواقعية الخمسينية العراقية وقد أمست اكثر دقة وتهذيبا واحتفاءا باسرار البناء ومطالب الجمال الداخلي: (القوس). وقد يجنح في قصة (العصفور الأسود) الى محاكاة زكريا ثامر هاجسا وتشكيلا: شريحة واقعية مصنوعة في ضربة صحفية مقالية حوارية بالغة التركيز وان لم تكن كاملة الاشعاع .. ووراء اغلب القصص نزوع دقيق واضح الى التقاط ابعاد الواقع السياسي والطبقي الاجتماعي وأضاءة تناقضاته المتشابكة عبر دراما واقعية ناضجة المحتوى بليغة الشكل تتخذ من اللغة الصقيلة الدقيقة الموقعة هدفا واداة في آن واحد. "ان قصص الراوي ذات (تقاطيع صارمة) واشعاع رمزي سهل: (البنادق). ووراء الاستفاضة المألوفة المبررة تناقضات اكبر وواقع اشمل ونظرة اهدأ. ان (القطار الليلي) كسب للقصة العراقية المعاصرة نبذ فيه القصاص تقعر الإنشائية الدخيلة وغموض الرمز. لقد امست قصص الراوي اسهامة في واقعية صقيلة معاصرة وانيقة".

* * *

* بلا مؤلف، مجلة الف باء، 31 كانون الاول 1975، العدد 380.

القطار الليلي*

بمساعدة وزارة الإعلام ومن منشورات مكتبة التحرير في بغداد، كانت قد صدرت مجموعة "القطار الليلي" القصصية، للقاص خالد الراوي، وفيها يقدم القاص صورة لأسهامه في القصة العراقية، بلون نستطيع ان نسميه قصة "اللقطة" او "الموقف"، التي سبق وقدمها في مجموعتيه: "القناع" و "الجسد والأبواب" .

ففي هذه المجموعة .. اقاصيص قصيرة جدا، تكاد لقصرها تقرب من الموقف الواحد او اللقطة الواحدة، لكنها رغم صغرها هذا، تأتي محكمة من الناحية الفنية بكثافتها .. ورغم انها تطرح رؤى محددة للعبث واللا توازن في حركة الشخوص والواقع من جهة أخرى، الا ان إنسانية رؤاها وامتلاءها بأحاسيس قوية، منحها القدرة على البقاء في ذهن القارىء، وان كانت الاقاصيص في بعضها الآخر تبدو وكأنها مبتورة او غير مكتملة او انها صورة درامية صغيرة فقط. وتنجح هذه الاقاصيص: "افراح"، "اشراقات"، "العنكبوت"، "آه"، "نمور من ورق"، "العلبة"، "العصفور الأسود" في طرح موقف احتجاجي نابع من موقف إنساني عام.

وفي قصة "رجل ما .. دون التقاء" يرصد الكاتب حركة تشير الى وضع إنساني طالما عرضه الكاتب في أقاصيصه، وهي عزلة الإنسان ومحاولته اقامة الصلة بالعالم، رغم سقوطه في العجز "الرجل يعاني لحظات الموت" .. والجدير بالإشارة هو تأكيد الكاتب لعلاقة الإنسان القوية بالامل. فهذه الشخصية التي تعيش لحظة موتها، تمتلىء بالرغبات فهو يخاطب اهله: "انتم متعبون .. تعالوا وناموا بجنبي". وهذا ما يمنح هذه القصة ايجابيتها رغم صفاقة العالم حوله. وفي قصة "الاختفاء" يطرح الكاتب صورة الصدق عند

---

*عبد الرزاق المطلبي، جريدة العراق، 27 كانون الاول 1976، العدد 257، صفحة 8.

الشخصية القصصية على مستوى الفعل الدرامي، ولكنها تبدو لشدة كثافتها غير مكتملة، وهي من اقاصيص الموقف اواللقطة.

وفي قصة "القوس" وهي ليست اطول قصة في المجموعة فحسب، بل انها قصة طويلة، ولكنها تأتي ممطوطة، يعوزها الكثير من الضغط والتكثيف، فهي تستغرق الكاتب في نقاشات مجردة، وتطرح تصورات ذهنية، لا يبرر لها كونها ضمن المناخ الذي تبحث فيه الشخصية عن القناعات او أساسيات الصدق في الفعل وفي الموقف الإنساني، وهذا ما جعل الرموز فيها كرمز السيدة، وكالايحاء الرمزي للشخوص يشحب كثيرا على مستوى التحقق الإنساني للشخصية، ولكن ايجابيتها تمنحها شيئا من النجاح القصصي.. خاصة في نهايتها وفي حركة شخوصها، فقد طرحت القصة في حركتها الاولى بحث البطل عن ثقل إنساني لوجوده في مقابلته لشخصية المرأة التي كانت اكثر تماسكا وقدرة على رؤية خلاصها، ثم في حركة النهاية التي انتهى البطل من خلالها الى وجود ثقله الإنساني في الانتماء للنضال الساخن في حركة الإنسان العربي بانتمائه الى حركة الفداء العربية .

* * *

العيون وتفجير التناقضات*

على الرغم من انقطاع الكثير من القصاصين عن كتابة القصة القصيرة جداً، فان القاص خالد حبيب الراوي ظل مواظباً على كتابتها، وفي الوقت الـذي كانت القصة القصيرة جدا مجرد موضة عابرة لدى القصاصين الآخرين، فأن خالد حبيب في الوقت الذي يمتلك اسبقية الكتابة فيها، حيث انه سبق الغالبية من كتاب القصة، فانه ايضا بقى حريصا على ان تكون الاقاصيص الصغيرة هي المسيطرة على اهتماماته وعلى جميع مجموعاته القصصية .

ولم تخرج عن هذا الخط مجموعته القصصية التي صـدرت مـؤخراً عـن وزارة الإعلام بعنوان "العيون"، فهي تواصل الحفاظ على النهج ذاته حيـث تسجل اكثر الموضوعات تعقيداً وسعة في العلاقات الى قصص قصيرة جداً، مضغوطة بكثافة وقوة تركيز، وحيث يحتفظ القاص بالتناقضات التي تنطوي عليها الموضوعات دون التضحية باي جانب منها، ودون ان يقوده الشلل الى الاستسلام للسكون في التعامل مع التناقضات، وجعلها معزولة عن ارهاصات الحركة، والصيرورة والتأثير.

ان اعتماد شكل القصة القصيرة جداً يؤدي بالقاص الى الابتعاد عن الاهتمام بالتفاصيل ذات المحتوى النفسي والشعوري، والى التركيز على الاوصـاف والحركات الخارجية للشخصيات وذلك ما حصل فعلاً، بيد ان القاص حاول التعويض عن ذلك بالتقاط الوصف الاكثر قدرة على تجسيد وابراز الحالات الشعورية كما انه يضع الشخصيات وفق اطر ملائمة لطبيعتها، وهي تمارس أفعالها ومواقفها انطلاقا من الوضع الخاص بها، ولذلك فان القارىء لا يتعب كثيرا في التعرف على هذه الشخصيات رغم ضيق المساحة المحددة لها في النص القصصي .

ويهتم القاص خالد حبيب بالتناقض والتضـاد لكشـف شخصـياته وتحديـد نوعياتها، وان هذا الاهتمام في الوقت الذي يتخذ فيه شكل وسـيلة الكشـف، فانه ايضاً يشكل القوانين الداخلية لمجرى حركة وتفكير الشخصـيات، ففـي

---

* بلا مؤلف، مجلة الاذاعة والتلفزيون، بلا تاريخ.

قصة "العيون"، يبرز التناقض كمحتوى أخلاقي، وكذلك في قصة "مسافات" فيما يتحدد التناقض في قصص أخرى مثل "الرجل" و "رجل الممرات" و "التصاق" في الحقيقة والوهم، حيث تنفصل الافكار والمشاعر والمواقف عن التوقعات والحقائق، وحيث تفكر الشخصيات بعكس ما يحيط بها من مظاهر وعلاقات .

واضافة الى ذلك فان التناقض في بعض القصص مثل "شرفة في بيروت" يتحدد في التباين بين البراءة ودموية الحرب، والتناقض بين الواقع والأحلام، او التناقض في تفكير شخصيات تنتمي الى مواقع طبقية متناقضة مع بعضها.

ويعتمد القاص خالد حبيب على عنصر المفاجأة في قصصه القصيرة جداً، حيث تنتهي خاتمة كل قصة بمفاجأة معينة غالباً ما تكون ممتعة بسبب كونها تسير بالشخصيات الى نهايات غير متوقعة، والى نهايات متناقضة مع بدايات كل قصة، والمفاجاة هنا في الوقت الذي تعمل فيه على تفجير التناقضات او حلها بشكل غير متوقع، فانها العنصر الذي تتجسد فيه مضامين ومحتويات القصص، كما انها تقوم بتحديد مصائر الشخصيات وتوجهاتها وتحديد المصائر في قصص "العيون" من اسباب متعددة، وغالبا ما تستسلم الشخصيات الى مصائر لا تتفق مع مطامحها وأحلامها كما ان هناك شخصيات أخرى تمارس حضورها وإرادتها في تحديد مصائرها الشخصية . وعلى العموم فان هذا التحديد مرتبط بالحدث ونوعيته، وعلاقته بقوى خارجة عن إرادة الشخصية، او بقوى الشخصية ذاتها .

ان شخصيات خالد حبيب بسبب ضيق المساحة المرسومة لها ضمن اطار القصة القصيرة جدا لا تعطي كل ما تملكه من طاقات وعلاقات ولا تقدم من حياتها سوى لحظة آنية ليست بتلك الأهمية من الثراء، ولذلك فان ما بقي من طاقات هذه الشخصيات ظل دفيناً، ورهناً بقدرة القارىء على تخيل حياة هذه الشخصيات خارج اطار القصص، او تخيل وضعها ضمن هذا الاطار .

* * *

قراءة في قصص خالد الراوي القصيرة*

لقد اصدر القاص خالد حبيب الراوي مجموعته الاولى (الجسد والأبواب) عام 1969 .. وقد تميزت قصص تلك المجموعة بالطابع الاجتماعي والإنساني والسياسي، وكشفت عن موقف القاص الواضح والثابت والتقدمي في عملية الصراع الطبقي .. غير ان تلك القصص كانت ذات نفس قصير اقرب الى اللمحة الوامضة، واللقطة السريعة، والصورة التخطيطية الحادة منها الى القصة الكلاسيكية ذات الحدث والبناء الدرامي والشخصيات الأساسية والثانوية واللغة السردية .. الخ، ولذا فان جملها هي الأخرى قد جاءت ذات طابع تلغرافي وبرقي سريع مباشرة وحادة، متشنجة وصادمة!

اما قصص مجموعة خالد حبيب الراوي الثانية (القناع) الصادرة عام 1970 فانها اعتمدت ايضا التخطيط السريع، الحاد والغامض، اكثر من اعتمادها على النمو الطبيعي لابعاد القصة التكنيكية والفنية .. وقد تناول القاص في تلك المجموعة القضية العربية الفلسطينية وظروف القتال والكفاح المسلح، وخاصة في قصتي (الحدقة) و (مياه)، ولكن تلك القصص قد تناولت الجانب السلبي والمعتم من تلك القضية والظروف .. حتى وان كانت واقعية وموضوعية !! ولذلك فان القارىء لا يحس بانجذاب روحي او ذهني نحو القصة، ولا تستطيع هي بدورها ان تعمق وعي القارىء او تنتزع تضامنه السياسي والروحي والأخلاقي مع القضية الفلسطينية .

وقد عاد القاص خالد حبيب الراوي الى تناول ومعالجة القضية العربية الفلسطينية في مجموعته الثالثة (القطار الليلي) التي صدرت هذا العام بشكل اوسع واعمق .

ومع ان القاص من اكثر القصاصين العراقيين تناولا للقضية الفلسطينية في قصصه القصيرة ككل – فان قصصه تلك لا تختلف عن باقي القصص

---

* مؤيد الطلال، جريدة العراق، العدد 287، 2 شباط 1977، صفحة 6.

العراقية الضعيفة، وتظل قريبة من الوجه السلبي والتجريدي لهذه القضية .. اي تعبر عن الخصائص السلبية في القصة العربية التي عالجت هذه القضية. واكثر تلك الخصائص السلبية وضوحا في قصص خالد حبيب الراوي – اضافة الى الضعف الفني – التجريد المحض الذي يحول القصة الى تصور خالص، الى فعالية ذهنية وليست تجربة إنسانية حية ومعاشة، حتى وان كانت هذه القصص تتناول فعاليات العمل الفدائي واشكال النضال الشعبي، كما هو الحال في قصة (الجدران) مثلا!!

فالمحارب او الفدائي اوالمناضل العربي الفلسطيني، يبدو هنا كما لو كان رمزا مجردا خاليا من الاسم والدم واللحم.

والهوية الشخصية، خالياً من الحياة .. وكذا الحال بالنسبة للأرض او القرية العربية، فانها تظهر في القصة كما لو كانت مكانا غريبا، مجهولا وغير مأنوس .

ولعل هذا العيب في القصة العربية عامة، وقصص خالد حبيب الراوي خاصة، يظهر اكثر ما يظهر في القصة القصيرة جدا اذا صح مثل هذا المصطلح .. فمثل هذا اللون الأدبي (الذي يميز أعمال خالد حبيب الراوي مثلا) لا يتحمل التعبير عن قضية مهمة ومتشعبة كالقضية الفلسطينية، مهما كانت زوايا النظر والصور التي يستطيع ان يلتقطها ويكثفها القاص، ومهما كانت النوايا طيبة، حيث ان استدرار عاطفة القارىء العربي ليس سبيلا فنيا ناجحا لامتلاك ناصية او تثبيت موقف سياسي واع، كما في قصة (زوجة المحارب) مثلا .

ومن هنا تصبح الجمل الثورية البليغة والافكار السياسية والفلسفية المجردة نافلة، ان كانت متخللة قصة قصيرة جدا او قصة مسرحية الطابع، كما هو الحال في (الرصيف).

ومع ان القاص خالد حبيب الراوي يستطيع ان يكتب قصصا متكاملة، ومع ان قصصه القصيرة جدا هي بمثابة لقطات متكاملة تمتلك العناصر الأساسية للقصة الجيدة، كالحدث والموضوع والعنصر الدرامي والاثر النفسي .. الخ، غير اننا لا نستطيع ان نفهم سر ولعه الشديد في اختزال

قصصه الى حد غريب وغير مألوف في القصص العالمية، مهما كانت قصيرة، كما هو الحال في قصة (افراح) من مجموعة (القطار الليلي1975).

تلك هي القصة كاملة، وكان من الممكن ان تكون قصة جيدة وذات دلالة إنسانية رائعة لو ان القاص وسع من ضفافها واكساها باللحم والشحم اللازمين ليستوي هيكلها العظمي كيانا حيا .. ومع ذلك فان هذه اللقطة الحساسة الذكية قد وفت بالغرض من كتابتها .. حتى وان كانت بهذه الطريقة التلغرافية السريعة!

وككل فان أعمال (خالد حبيب الراوي) تتصيد اللقطة السريعة الوضاءة او الحادثة الصادمة او المفارقة الغريبة .. في حين يظل أسلوبه واحدا، متميزا، ونفسه القصصي قصيراً ولاهثاً: جمله متشنجة وبرقية، وحواراته، مختزلة، تقترب بعض قصصه من الاداء المسرحي أحيانا ومن الصورة الفوتوغرافية أحيانا أخرى، وان كانت تلك اللقطات والصور الخاطفة مشبعة بالمحتوى الإنساني والفكر التقدمي.

ومع ان القاص يستخدم أسلوبا واحدا في جميع أعماله، غير انه يعالج موضوعات متنوعة ومتعددة تتراوح بين القضايا السياسية الكبرى (كالقضية الفلسطينية) وبين قضايا المجتمع الحياتية والعاطفية .. الخ . وقد تجمع قصة واحدة الاهداف السامية والامور الشخصية الثانوية في آن واحد، كما هو الحال في قصة (القوس)!

والقاص خالد حبيب الراوي ميال ايضا لمعالجة الموضوعات الاجتماعية المأساوية الطابع وابطاله غير متميزين وغير واضحي الملامح: انهم علامات عابرة في مجاهيل الحياة .. رموز تجريدية بحتة.. انهم بلا أسماء، بلا ماض.. بلا مستقبل، شهب خاطفة، ولكنها سريعة الزوال.

* * *

العيون*

لم يبتعد القاص خالد حبيب الراوي عن الاتجاه القصصي الـذي اختطـه لنفسه، منذ بداية رحلته الابداعية، وهي كتابة القصـة-الحالـة او القصـة-الموقف عبر رؤية مكثفة للواقع الإنساني ونظرة فاحصة دقيقة، تجهـد فـي فحص العلاقة الجدلية بين الإنسان والواقع، وبين الفـرد والمجتمـع، بـين الحرب والحب والموت والحياة وذلك من خلال ضربات حـادة، ولقطـات سينمائية مستفزة دوما .

و(العيون) آخر مجموعة قصصية صدرت عن وزارة الإعـلام للقـاص خالد حبيب. وهي تمتاز بالتنوع، وبسعة العالم الذي يتحرك ابطاله فيه، فهناك حالات اجتماعية تعيش وضعا إنسانيا مأزوما وتعاني من ظروف اقتصـادية واجتماعية قاسية وتمزقات ذاتية مريرة وهناك مقاطع من مأسـاة الحـرب اللبنانية جسد القاص من خلالها وعبر تقطيع مكثف صمود الإنسان العربـي ازاء الموت المجاني وازاء عبث الفاشية الجديدة في تلك الأرض الطيبة .

وعلى الرغم من اقتصاده في رسم شخصيات قصصه الثلاثين وفي بنـاء الاحداث فانه استطاع ان يعطي أضاءات سريعة، اشبه بالأسـلوب البرقـي، عن شرائح اجتماعية مختلفة، ومصائر إنسانية مسحوقة .

ومن خلال ضربات قصيرة اوجز القاص حياة بعض ابطاله الباحثين عن الحياة والمرأة والسعادة . فهناك رجل المحراث الذي يصاب بالشلل تتركـه زوجته و(الرجل) الذي تركته زوجته لطول سفراته ومسألة الهرب نجدها في اكثر من قصة: هرب زوجة اوهرب رجل سياسي خوفا على حياته كما فـي قصة (الهروب) وهرب فتاة من رجل يطلب اكثر من صداقة .

وتتسم لغة القاص خالد حبيب بالايحاء وبالعنف فهي قصيرة متوترة خشنة وحادة، وهو يمتلك قدرة جيدة في اختيار نماذج ابطاله من الواقع، كما ويكشف عن مصائرهم بوعي، وبخصوصية متفردة.

---

* بلا مؤلف، جريدة الثورة، 1977/10/16، العدد 2827، صفحة 6.

رحلة القصة
عند خالد حبيب الراوي*

عالم القاص خالد حبيب الراوي متوتر دائما، يبحث بدأب عن الصور التي تعطي حالات متعاكسة لتضيء حالة أخرى ناشئة عنهما لكنها لا تكون مثلهما، قد تكون اكثر كشفا لقسوة البشر مثل تصرفات محمود وافكاره في "السواحل المظلمة" وقد تكون اكثر إنسانية مثل حدث قصة "الجسر الضوئي" الأخير ولكن لماذا تدخل في عالم مجموعة "العيون" الأخيرة مباشرة؟ لنتحدث اولا عن قصص خالد الاولى:

اصدر القاص عام 1969 مجموعته القصصية الاولى "الجسد والأبواب" ثم اصدر بعد سنة واحدة مجموعته الثانية "القناع" والمجموعتان مترابطتان مع بعضهما، تحملان تلك اللغة الستينية الحادة المتوترة والشكل فيهما يستفيد بشكل واضح من اخر مبتكرات فن القصة القصيرة (التقطيع السيناريوهي، المواقتة، الفلاش باك) لكن الذي يميزهما عن سائر المجاميع التي صدرت آنذاك، ان أهم القصص فيهما ليس فرديا ولا رافضا للحياة بشكل عدمي، فالمجموعة الاولى تعيش واقع المقاومة الفلسطينية التي عاش القاص جزءا من حياته في خضم انتصاراتها وهزائمها، اما مجموعته الثانية (القناع) فتعرض صورا للقهر السياسي الملازم لبعض اجزاء الوطن العربي مقدمة نماذج متعددة تسعى لان تجد حياتها تحت شمس حرة، ولذا فان القصة عند خالد هم عام تنطلق خصوصيتها الحديثة من كونها جزءا من واقع يجب ان يسير الى أمام، وحالات الرفض الموضوعية لما هو موجود والقسوة في تصويرها ايضا لا تعني عند القاص الوقوف عندها بل تجاوزها الى افضل.

في قصص خالد حبيب الاولى تجد الشكل لا يتخذ مسارا واحدا فهو يميل للتسجيلية في قصص مثل (الرصاص) و(البيوت) و (اشراقات) ويتخذ شكل

---

* باسم عبد الحميد حمودي، جريدة العراق، العدد 508، 26 تشرين الاول 1977.

التقطيع السينمائي في (الجدار وزهور البحر) و (انقسامات الزاوية) التـــي لا تتميز بذلك فقط بل اعتمادها الفلاش باك بين مقطع وآخر .

وللتاريخ عند خالد مكان واضح في مجموعتيه الاوليتين، لا بمعنى انـــه يكتب القصة التاريخية، بل بمعنى انه يستلهم منه ضرورة التغيير وهو هنـــا يواقت التاريخ مع ذلك الاستخدام الجيد لعملية البناء الجماعي كما في قصته "سهرة تحت غيوم الصباح" و "ناعور في نهر يـــابس". واذا اعتبرنـــا هنـــا مجموعته القصصية الثالثة "القطار الليلي" مرحلة اعادة بناء جديدة فاننا نجد في المجموعة التي صدرت له مؤخرا "العيون" احتفالا غير عادي بالإنسان لا ينطلق عن الحماس الذي صاحب المجموعة الاولى، انما عن الوعي بشـــكل التغيير الاجتماعي الحادث في القطر وفي الوطن العربي.

واذا كانت عبارات من هذا النوع تبدو كبيرة وتطلق جزافا أحيانا فاننا نشير الى مجموعة من القصص القصيرة التي ضمتها العيون منها خماسية "القفزة، رمال، الطيور الجبلية، مسافات، الجسر الضوئي"، انها قصص خمس تصور الحرب كحالة اجتماعية لها سلوكها الواضح على نفسية المقاتل الإنسان الذي يعي قضيته، وهي تحمل تفجراتها الداخلية الايجابية على السطح ايضا، فيبدو التصرف الخارجي ردا لفعل الشعور الداخلي، والقاص في هـــذه الخماســـية وغيرها يحسن استلال الصور والتأكيد على هذا التوافق، وقـــد يســـتعمل او يعطي للقارىء مواقف تدين بعض التصرفات والمشـــاعر التـــي نعـــدها لا إنسانية ولكنه حتى في ذلك يكشف جزء من نزعـــات الإنســـان وتصـــرفات بعض شرائحه تجاه الواقع بردود أفعال لا إنسانية كما في "المنحنى" و"الوهج" و "السلالم" وقصة "السواحل المظلمة".

ان القاص الراوي لا يقف عند هذه الصور والمواقف فحسب بل يضعك أمام صور إنسانية تبدو رومانسية أحيانا وتوصلك بعالم الخمسينات الأخلاقي ولكنها تتحدث وتصور وتؤكد فعلا إنسانيا يحدث الآن كالذي يعطيـــه جـــو قصص مثل: (شرفة في بيروت) و(زوارق) و(اوتاد) و(المزلاج) و(العكازة) التي تشبه في ادائها لواقع موجود عند بعض الشرائح الاجتماعية ما يصوره القاص من انزلاق نماذج من شرائح أخرى متدنية في قصته الاولى (العيون)

رغم طول الحدث في الأولى وقصره وسرعة ضرباته في الثانية واختلاف التفاصيل في كليهما.

ولا يمكن أخيرا هنا الحديث تفصيليا عن مجموعة (العيون) لخالد الا ان الذي يجب ان يقال ان القاص يعمد أحيانا الى استخدام المرح استخداما غير موضوعي كما في قصته "عزيزتي سميرة" والى تقطيع حدث واحد ونشره على قصتين قصيرتين جدا مثل (التصاق) و (التصاق، التصاق) بحيث تحس ان القاص يبدو متعبا في هذه القصة او تلك .

ان هاتين الملاحظتين لا تعنيان ارتدادا او ضعفا في الجو العام وفي مهارة التناول وفي قدرة هذا القاص على التقاط الأشياء الحياتية الصغيرة وتحويلها الى نماذج موضعية، وبذلك فان القاص خالد حبيب الراوي قاص يملك جوا متفردا يحسن توظيفه بادهاش ويقود قارئه الى توتر لذيذ ومستفز لمتابعة ما يحدث صانعا من القصة فعلا اجتماعيا متفوقا وحميما.

* * *

العيون ـ خالد حبيب الراوي*

بلغة لا تتعمد قدر ما تتعمد الافهام والبوح عن كينونتها، وهو اذ يعي ويتعمد ذلك فلأن شرط كتابة القصة (العيون) التي احتوت على ثلاثين قصة، تراوحت بين القصة القصيرة جدا، محاولة ان تستبطن حالات وشرائح إنسانية عديدة تتهيأ للكشف عن نمطيتها الاجتماعية من خلال اللقطة السريعة والذكية التي تتميز بها قصص المجموعة .

ان القاص يعي بانه يكتب عن شرائح معينة من المجتمع هم فلاحون، بحارة، موظفون، جنود، ... الخ ولذلك فهو يطرح علائقها بعضها ببعض وفق منطلق فني يلتقط الصورة السريعة الدالة والموحية عن تلك النماذج المحملة بشرط كينونتها. وهو اذ يعي ويتعمد ذلك فلأن شروط كتابة القصة القصيرة جدا، القصة – الحالة – اللقطة – الموقف، تستوجب وتتطلب تلك الارهاصات التي يحس القارىء من خلالها انه ازاء قاص متمكن من شروط العملية الابداعية في هذا الميدان من ميادين القصة الذي يتميز بطرح حالات اجتماعية مأزومة تتحرك ضمن دوائر فعلية وتعاني من مصائرها الاقتصادية والسياسية الحادة والمريرة. والقاص حين يقتصد في الرسم والمعالجة فانه يعطي أضاءات برقية متوترة تستبطن الايماء والدلالة والعنف، وتكشف عبر تقاطيع مكثفة عن تلك الشرائح الإنسانية المأزومة، معبرة عن سخط وصمود الفرد العربي ازاء الاحداث والتناقضات اتي تقتنص وجوده في كل مكان .. فلسطين .. لبنان ... وازاء العبث الرجعي والفاشي بصيرورته ووجوده .

ان قارئ (العيون) يشعر حقاً، انه يتجاوب تجاوبا كبيرا معها، لانها كتبت وفق رؤية شمولية وفاحصة لعلاقة الإنسان بالواقع، وعلاقته بالكينونة وعدمها والحب والموت معا.

* * *

---

* بلا مؤلف، مجلة الطليعة الأدبية، كانون الثاني 1978، السنة الرابعة، العدد 1.

رؤية
خالد حبيب الراوي في قصته "رمال" من مجموعة "العيون"

اقدار الإنسان وصراعاته*

تبدأ القصة بوصف لخروج الشاحنات من المدينة، وهذه البداية تشكل لاتجانسا بين المدينة والشاحنات، بينما ستنتهي القصة بالتجانس بين جنود الشاحنات والحرب. ويعتمد تطور القصة عبر البنية السردية على الكلمات المتعلقة بالحرب: شاحنات، جنود، طائرات، قذائف .. الخ، وكذلك على الأفعال القوية المعنى والتأثير والمتناسبة مع موضوع الحرب: يمرون، يحدقون، يلوحون، يستطلعون .. الخ، اما عن الصفات، فهي قليلة، واغلب الأفعال في النص تتضمن صفة واحدة او مفعولا، لا تزيد من جمالياته بقدر ما تضيف الى البنية السردية بعض التوتر: سمعوا أصوات القذائف البعيدة، رفع الجنود اذرعهم... الخ. ويتعلق هذا التوتر، بالطبع، بتتالي الاحداث، على ايقاع الشاحنات الذاهبة الى الحدود بسرعة، وعلى الرغم من قصر القصة (صفحتان) – اذ يمكن دعوة هذا النوع بالقصة المكثفة – الا انه يمكن تقسيمها الى وحدات أربع: الجنود في الشاحنات المغادرة للمدينة – الشاحنات تتوقف دون سبب معروف قبل الحدود – الشاحنات تخترق نقاط التفتيش وتقف في النقطة الأخيرة – ثم هبوط الجنود على الجبهة .

وللتعرض للآنية السردية، يجب البحث عن المتكلم في القصة، انه الراوي الذي يحاول ان يؤكد ابتعاده عن القصة حين استعماله ضمير الغائب (بصيغة الجمع هنا)، وانه لا يعرف عن القصة والابطال اكثر مما يعرفه القارىء. ومن الملاحظ انه اقل كلاسيكية من زميله في قصة "الامواج" لكاظم الاحمدي، فهو لايغوص في صدور الابطال واذهانهم، ولا يعرف ما لا

---

* افنان القاسم، مجلة الطليعة العربية، 13 كانون الثاني 1986، العدد 140.

يعرفونه، اي ان الراوي في سرده يعتمد أسلوب "التحديق" فهو لايسعى الى رؤية داخلية لعناصر القصة وابطالها، ولا يرمي الى سبر أغوار حياتهم الداخلية، بل يعتمد على طريقة "الرائي" ويسجل ما تراه عينه وعين القارىء معا.

ومنذ البداية، تبقى عناصر القصة مجهولة لدينا، فلا المدينة لها اسم، ولا الجنود، ولا الحدود، ولا الضابط، ونحن لانعرف المصدر الذي انطلق منه نشيد الثورة في آخر القصة، ومن القصة نستنتج استنتاجا ان الوطن في خطر، وهو الذي ينادي الجنود للدفاع عنه، انه اذن المنادي والمنادى، الطالب والمطالب به .

اما الفاعل فهو الجنود الذين يسعون وراء موضوع معين انتظروه، وأرادوه، وهو الذهاب الى الحدود حيث الحرب تدور، فيشاركون فيها، لا ليحموا الوطن فقط بل وليحفظوا الثورة.

عنصر الزمان التاريخي غير محدد، ولكننا نستطيع ان نحدس ان حوادث القصة تدور في المنتصف الثاني للقرن العشرين نظرا لاستخدام مصطلحات تقنية حربية حديثة مثل شاحنات، قنابل، طائرات، كما ان مدة القصة، اي المسافة الزمنية القائمة بين بدايتها ونهايتها، لا يمكن تحديدها، ونحن نعتقد انها لا يمكن تحديدها، ونحن نعتقد انها لا تتجاوز بضع ساعات من الزمن الواقعي، اما زمان القص، فهو يمضي في تسلسل زمني دون اي قطع يعود بنا الى الماضي.

اما الجملة الأخيرة "ودوى نشيد الثورة قويا"، ففيها استباق للاحداث التي ستقع في المستقبل حيث النصر محتم، حتى ان الراوي حين استخدامه للأفعال بصيغة الماضي، يضعنا على حافة هذا الاستباق للاحداث، لأن كل فعل يشكل تحولا الى فعل آخر اكثر قوة، كما ان الزمان يأخذ صورة الجو القصصي، فهو بطيء لحظة التوقف والانتظار، سريع لحظة اقترابه من مكان المعارك، وعندما يسود الجو التراجيدي.

لقد لعب الزمان القصصي دورا هاما في البنية السردية، وابدى انه احد العناصر الأساسية في الحرب وفي نفس الشعب العربي، فبأمكانه ان يقلب المعطيات التاريخية، ويجعل من الهزيمة انتصارا.

اما بالنسبة للمكان، فنحن نجده منقسما الى ثابت ومتحرك، المكان الثابت هو المدينة، يصفها الراوي بـــ "قديمة" وهو المقاهي، والطرقات، وكلها ثابتة تلوح لقافلة الجنود، تتصف بضيق الافق ودون هوية. المكان الثابت ايضا هو الصحراء التي ترمز الى تقهقر الأعداء: "الشاحنات تمر فوق الشريط الممتد في الصحراء. انهم سيصلون في اي منعطف الى الحرب"، وهـــذه العبـــارة الأخيرة حاسمة في ما يخص عزم الجنود وتصميمهم على كســـب الحـــرب، والصحراء هنا ثابتة، ولكنها واسعة، ممتدة، حاضنة لتقدم الجنـــود فيهـــا، لا تحدها جبال، الصحراء هنا رمز للحرية. الحدود مكان ثابت، ولكنها رمـــز الثبات، فهي الأساس الذي ستبنى عليه باقي الرموز والعناصـــر القصصـــية منها يجب دفع الأعداء، وعليها تتم حماية الوطن وحفظ الثورة.

وفيما يخص المكان المتحرك تشخصه الشاحنات كعنصر حربي، لولاهـــا لما انتقل الجنود ببنادقهم الى الحدود، فهي، اذن وسيلة وضرورة، وأحيانا لها شكل البطن الذي يلد ويحرض، لولاها لما تحقق للجنود املهم بالمساهمة في القتال، ومن ناحية ثانية، تكمن ما بين الشاحنات والطائرات علاقة متناقضة، فعندما تقف الشاحنات، يجري البحث عن الطائرات وعندما تسير الشـــاحنات يذهب خطر الطائرات، هذا يدلل على ان الحركة على الأرض ايجابية وفـــي السماء سلبية، وللانتصار لا بد من درء خطر السماء وعنـــدما نعـــرف ان واقعة الطائرات في القصة لم يذكرها الراوي سوى مرة واحدة، فهذا يعنـــي ان خطرها ليس جسيما، او انه، على الاقل، خطر مدروس، لمواجهته اتخذت كل الوسائل المناسبة. وعلى كل حال، تبقى السماء للطائرات المكان الواسع اللانهائي لتزرع التفاؤل والامل (اذا كانت صديقة) او المـــوت والالـــم (اذا كانت عدوة).

اما القذائف، فلا تسمع الا أصواتها، وهي تضيء وتنطفىء فـــي الجهـــة الأخرى، تساهم في هزيمة الأعداء، وتهيء الجنود الذين وصلوا الى الجبهة نفسيا، ليقوموا بواجبهم.

اما الجنود، فلأجسادهم ابعاد المكان المتحرك: جلسوا علـــى المقاعـــد .. أخذوا يمدون سيقانهم وايديهم ... أنزلوا قبعاتهم على جباههم .. الخ، وهـــم يرمزون بدورهم الى جسد الشعب العربي الذي ينتظر منذ سنوات الانتصار

على الأعداء، ومن ناحية أخرى، يرمز الجنود الى الجيش العربي الذي يسعى لحماية الشعب من قنابل الأعداء. وهنا يكسر الرمز ارتباط الجنود بالحكومات العربية البائعة للوطن، فهي ستبقى في مكانها الضيق وعدم التفتح على الشعب. انهم المجندون تحت رمز الجيش الذي من الشعب والى الشعب.. وكل هذه العناصر الزمانية والمكانية تشكل فواعل القصة حسب جريماس.

اما العنوان "رمال" فله رمز سردي يوحي بالتكثيف، عندما نعرف ان المكان الذي تحتله القصة في المجموعة لا يتجاوز الصفحتين، وله رمز معنوي يوحي بامتداد مسافة الحرب، ووعي صعوبتها، الى جانب العزم والتصميم على قطعها ويمكن ان تكون "الرمال" اقدار الإنسان وصراعاته.

* * *

ملحق -2-
قصص للأطفال

القبضة الوهمية*

في الصباح، ذهب حسن الى مدرسته حاملا كتبه التي تمزقت اغلفتهـا وهو يضرب الحصى والحجارة المرمية على جانب الطريق بقوة، كانت هذه عادته وطالما استخدم (التنك) الفارغ الموضوع أمام الأبـواب ككـرة قـدم فتدوي الأصوات في الشارع.

ورفع حصاة صغيرة ليهدف بها على مصباح النور الموجود ليضـيء الطريق فسمع صوتا ينهره ويمنعه من تحطيم المصباح لانه يضـيء مـن اجلهم، فترك الحصاة تسقط من يده.

ثم تذكر امه وهي تقول له – يا ولدي لا تعتدِ على الآخـرين.. لانهـم سيعتدون عليك ايضا.

وابتسم حسن وهو يفكر بقوته.

دخل الى الصف متأخرا، وكان المدرس يقف على الباب وحين توجـه الى نهاية الصف حيث يجلس، شاهد قدم احد الطلاب بارزة في الممر فداس عليها بقوة.

صرخ التلميذ وأمسك بقدمه وهو يولول.. فسأله المدرس:

-ماذا جرى؟

فأشار التلميذ الى حسن وصرخ باكيا:

-داس على قدمي.

توجه المدرس الى حسن وسأله.

-لماذا دست على قدمه؟

تصنع حسن الاعتذار وقال:

-لم اشاهدها، العفو.

---

* **مجلة المزمار، 6 نيسان 1972، العدد 68.**

رجع المدرس الى بداية الصف، وأخذ حسن يضحك ويخفي وجهه بين كفيه وحين انتهى الدرس وخرج الطلاب وقف التلميذ وانتظر حسن وحين مر بجانبه، أمسكه من يده وسأله بغضب:

– لماذا آذيتني؟

دفعه حسن وأسقطه على الأرض ثم خرج من الصف.

ركض وراءه احد الطلاب وقال له:

-لماذا اعتديت عليه؟

تأهب حسن للعراك معه وهو يقول:

– لا تتدخل بيننا. انني اكرهه، لماذا يضحك عندما سألني المدرس ولا اجيب؟

وحين غادر حسن مدرسته بعد الظهر وجد التلميذ الذي اعتدى عليه في الصباح يقف في الطريق، قال له:

-تعال.

تقدم منه حسن وهو يشدد قبضته، وهنا ظهر ثلاثة تلاميذ كانوا يختفون وراء شجرة ضخمة وأمسكوا به وأخذوا يضربونه بقسوة، فمزقوا ملابسه واسالوا الدم من انفه وكسروا احد اسنانه ثم تركوه.

عاد حسن الى البيت وجسمه يؤلمه من الضرب. فتحت له امه الباب، هتفت به:

-ماذا صنعت بنفسك. ماذا حدث؟

مشى حسن صامتا ودخل الى غرفته وتمدد على الفراش، لحقته امه وهي تسأله من جديد، أمسك حسن بيديها ودمعة تسقط من عينيه.

-لن اعتدي بعد الآن على أحد.

نظرت اليه امه بحنان وانحنت على وجهه وقبلته في جبهته.

* * *

الدراجات*

أمسك نبيل بدراجته الجديدة ونظر اليها.. انه فرح بها لانها توصله الى مدرسته البعيدة عن البيت، وقد خلصته من تعب المشي صباحا وظهرا، ولا سيما عندما كان يعود جائعا بعد انتهاء الدروس.

لقد أمسك بمقودها عندما اشتراها له والده وطاف بها أمام ابناء الجيران واصدقائه متباهيا.. وعندما اقتربوا منه سمح لهم ان يلمسوها ولكنه انطلق بها بعيدا عندما طلبوا منه ان يركبوها ويجربوها.. وقد اشترى قفلا للدراجة لكي لا يستطيع غيره ركوبها.

كان يخرج في الصباح معلقا حقيبته بالمقود.. وكان ابناء الجيران يمشون بسرعة ليصلوا الى المدرسة.. وكلما مر واحد منهم سمعه ينادي:

-نبيل... نبيل.. انه لا يلتفت الى الأصوات التي تناديه ... لانهم – كما يقول – سيطلبون منه ان يوصلهم معه الى المدرسة.

وعرف ابناء الجيران نبيل يحب نفسه فقط ولا يريد ان يساعدهم.. ولهذا امتنعوا بعد فترة من الوقت عن مناداته عندما يذهبون الى المدرسة ويديرون وجوههم الى جهة أخرى عندما يشاهدونه.. وفي الصباح الذي ابتدأت فيه الامتحانات.. اعد نبيل الادوات التي يحتاج اليها في الامتحان وتأكد من وجودها ثم خرج وركب الدراجة.

وفي منتصف الطريق شاهد من بعيد ثلاثة طلاب وقد انهمكوا في اصلاح دراجة كانوا يركبونها جميعهم. وحين رأوه، أشاروا له:

– نبيل، توقف، اننا نحتاج الى المنفاخ.

ونظر نبيل الى منفاخ دراجته وقال لهم وهو يسوق مسرعا.

-انني مستعجل، لا أستطيع ان أعطيكم المنفاخ.

---

* **مجلة المزمار، 25 ايار 1972، العدد 75.**

فقال له أحدهم.

-ولكننا سنمتحن جميعنا مرة واحدة.

ولم يهتم بهم وعبرهم وهو يضحك.

وفي استدارة الطريق سمع نبيل صوتاً:

-فش ش ش

وأخذت دراجته تهتز وتقرقع، فتوقف وأخذ ينظر الى العجلة الأمامية وقد فرغ هواؤها. وحين ادارها بيده وجد فيها مسمارا كبيرا فاخرجه ورماه بغضب وتساءل مع نفسه.

-كيف سأصل الى المدرسة؟

وبعد قليل مر بجانبه الطلاب الثلاثة وقد ركبوا جميعهم على الدراجة التي أصلحوها وبجانبهم طالبان يركبان دراجة أخرى.

فنظر اليهم نبيل وقال مستعطفا:

-هل يوجد لديكم لحام أستطيع به اصلاح العجلة؟

فأجابه احدهم:

-نعم، يوجد لدينا، لكننا لن نعطيك منه. تذكر ما فعلته بنا قبل قليل، ان التعاون ينفع الجميع فلو تعاونت معنا لكنا الان جميعنا نصلح لك دراجتك. وتركوه.

وأخذ نبيل يقود دراجته مشيا.. وعندما وصل الى المدرسة.. كان الطلاب قد بدأوا في الامتحان.

* * *

الناعور*

كانت بقع الشمس تلتمع من بين اوراق الاشجار الكثيفة وتهتز متماوجة مع النسيم البارد.

رفع احمد مسحاته ونظر الى عناقيد العنب التي بدأت تنضج وود لـــو أمسك بحبة وذاق طعمها.. ولكنه ردد ما كان يسمعه:

-سيذبل العنقود لو قطفت حبة منه.

مد عنقه الصغير وهو يحدق في الماء الذي يندفع في الساقية الضيقة ثم ينساب تحت اشجار العنب، ورفع المسحاة بين يديه وغرزها غرزة خفيفـــة في مجرى الماء وأخذ يراقب انشطاره وتحوله السريعين وانتبه فجأة الى ان الماء قليل، همس لنفسه مفسرا.

-ربما ابطأ الناعور، او تسرب الماء في سواقي جيراننـــا المفتوحـــة، كانت البساتين الصغيرة المتجاورة تعتمد جميعا في سقيها على الناعور الذي سمع صوته من بعيد يئن وهو يدور.

اكد احمد:

-اذن لا بد ان الماء يتسرب الى بساتين أخرى.

اقتلع المسحاة وخرج من باب البستان متتبعاً ببصره مجرى الســـاقية، وأخذ يراقب فتحات السواقي الممتدة الى البساتين المجاورة وكانت جميعهـــا مقفلة بسدود صغيرة من الطين ولا تتسرب منها قطرة.

اندهش احمد واستمر يرصد المجرى الـــى ان وصـــل الـــى الســـاقية الرئيسية التي يصب فيها الناعور وأطلق بصره الى ذلك الدولاب الخشـــبي الهائل ورآه يدور كعادته.. لكنه لمح بعض الاكواز التي ترفع الماء وهـــي محطمة.

---

* **مجلة المزمار، 24 آب 1972، العدد 88.**

تسلل بجانب الحائط الذي يهبط الى محور الناعور، خفيفا ومحاذرا اصدار اي صوت، واختبأ خلف البناء الحجري الضخم الذي يرفع المحور، فشاهد غلاماً يحمل بيده عصا صلبة يقف متوازناً على حجر في الحافة يتأمل الاكواز المحطمة وهي تغوص في النهر السريع ثم ترتفع راشة رذاذا متطايراً.. ثم أبصر احمد قبضة الغلام وهي تتجمع على طرف العصا حين ارتفع من اسفل كوز جديد ورفع عصاه وهوى بها على الكوز فتساقطت حجارته المفخورة وانثال الماء منسربا الى النهر. غضب احمد بعنف وهو يتصور عناقيد العنب الزرقاء ستتيبس وتصفر الاوراق الخضراء في البساتين.. فتقدم وصرخ باعلى صوته وبعنف:

-لماذا تكسر الاكواز؟

بوغت الغلام بالصوت القوي الذي انبعث من ورائه.. فالتفت متحركاً بذعر، واختل توازنه فانزلق.. واصابه طرف كوز مكسور في اعلى ذراعه ورمته حركة الناعور الى وسط الماء وهو يصرخ متألما.. هتف احمد.

-نلت ما تستحقه ايها الشرير.

وكان الغلام يمسك بذراعه المصابة وهو يحاول جاهدا البقاء طافياً، والماء يدفعه بعيداً.

* * *

المدرسة الليلية*

كان جسده يتوسط الزقاق المظلم الضيق وهو يمشي متمهلاً في الصباح.. وحين أصبح في الطريق العريض الكبير كانت الشمس ساطعة والضياء يحدث لمعاناً إضافياً على المخازن والبنايات الجديدة.. انحسر الصبي الى جانب الحيطان: كان نحيلاً، يرتدي قميصاً وبنطلوناً ملطخين بالزيت الأسود.. ويشبه بمجموعه قطعة طينية ملوثة..

نظر الى الأولاد الذين يماثلونه عمرا وهم يحملون حقائبهم وكتبهم واحس بضيق من ملابسهم النظيفة ووجوههم المغسولة.. وواصل سيره الى أن دخل في شارع (الشيخ عمر) ثم اتجه الى المحل الذي يعمل فيه.. كانت حركة السيارات بطيئة وثمة محلات لم تفتح بعد. لم ينظر اليه صاحب المحل ولم يكلفه بعمل بعد أن أمسك (بمكناسة) وأزاح التراب المتجمع أمام الباب.. ثم تمدد وأسند جذعه الى الجدار وكانت الصور تملأ عينيه بحزن وألم.

في نهاية الزقاق المظلم كان بيته.. وكانت أمه، وأخته الكبيرة، تنتظرانه عصر كل يوم فتأخذ أمه الدراهم التسعة التي هي أجره لتدبر بها حياتهم.

وكان ذلك منذ خمس سنوات حين دهست سيارة والده الذي كان عاملاً في أحد محلات تصليح السيارات في شارع الشيخ عمر. لقد كان والده يردد دائما عندما يعود من عمله:

-سأدخلك المدرسة في العام القادم.

ثم يستطرد.

-سأجيء بمصباح كهربائي لكي تستطيع القراءة والكتابة في الليل ايضا. وكان ينظر الى الفانوس المعلق وهو يضيء بخفوت ولكن قبل أن تبدأ السنة الدراسية: سمعوا عصرأحد الأيام طرقاً عنيفاً على الباب، وعندما فتحت أمه كان أربعة رجال يحملون جسد أبيه المدمى.

وبعد شهر من موت أبيه أمسكته أمه من كفه وقالت له:

---

* **مجلة المزمار، 16 تشرين الثاني 1972، العدد 99.**

-لم يعد لدينا نقود، اذهب الى (الاوسطه عباس) وتعمل عنده.

أراد ان يقول لها انه سيذهب الى المدرسة ولكنه صمت اذ رأى الدموع من عيون امه واخته.

وعندما عاد في اليوم الاول من العمل كانت بضع نقاط من الزيت على ملابسه وأصبحت ملابسه مثقلة بانواع الدهون والزيوت وامتدت البقع الـــى وجهه وأصبح بلون ملابسه.

احس بكتفه ينضغط تحت أصابع كبيرة قاسية.

-(ها شبيك اليوم؟)

نظر الصبي الى صاحب عمله، ثم قال وهو ما زال في استرخائه:

-اريد ادخل المدرسة

ضحك صاحب العمل مقهقها

-لن يسمحوا لك بالتسجيل لانك ستوسخ المقاعد.

وارتفع ضحكه مجددا واقترب منهما صاحب المحل المجاور قائلا:

-اتريد الدخول المدرسة؟

وازداد ضحك صاحب العمل وهو يظـــن ان جـــاره سيشـــاركه فـــي السخرية.. لكن جاره كان جادا.

-لقد فتحوا مدرسة ليلية هنا.

وأشار بيده الى المنطقة المقابلة واضاف:

-اذهب اليها بعد ان تنتهي من عملك.

انتفض الصبي واقفا وشعر بقوة مفاجئة تضج في داخله وكـــان يـــردد بهمس:

-ساشتري اليوم ملابس جديدة واغتسل ثم اذهب الى المدرسة.

وأخذ يتحرك نشيطاً وقوياً وهو ينظر الى صاحب عمله وكأنما يقـــول له:

-(غصباً عنك سأذهب الى المدرسة)

المياه*

كان الرمل الحار الذي يمتد على الشاطئ يجعل الأطفال يقفزون على مؤخرات أقدامهم ويطلقون صرخات فرحة وهم يهبطون إلى النهر.. ثم يتركون أقدامهم تغوص في الطين البارد وحينذاك يستردون بشاشتهم ويتحدثون بهدوء..

نظر أحمد إلى أصدقائه الثلاثة وهم يرفعون الماء في أكفهم ثم يحدقون في القطرات التي تتسلل من بين أصابعهم وتعود الى النهر.. قال له أحدهم:

- لا يمكننا البقاء على الجرف.. لم لا تعلمنا السباحة؟

ابتسم أحمد وقال:

- لقد وعدت أهلكم أن لا أعلمكم السباحة .. ولكنني لم أعدهم بأن أمنعكم من النزول إلى الجرف.. فضحكوا.. وتلفت أحمد إلى مجموعة من الصبية يمرحون على مقربة منهم فأمسكه أحد أصدقائه من ذراعه وأشار إلى أحدهم ثم قال:

- إنه سليم الذي ضربك بالحجارة قبل خمسة أيام. ما رأيك في أن تنقض عليه من فوق بالحجارة وتأخذ بثأرك؟

انحنى أحمد ومد يده في الماء وأخرج قبضة من الطين السائل ومسح بها يده الأخرى ثم عاد وغسل يديه ولم يجبه.. ثم قال:

- إن كانوا هم جبناء فلا نريد أن نكون مثلهم. إنني أستطيع مسكه في الطريق وأجعله يندم على قذفي بالحجارة.. ولكن، ألا ترى أن بنيته ضعيفة؟

فقال له صديقه:

- دعنا نضربهم مرة واحدة حتى لا يعيدوا الاعتداء علينا ..

وتعالت صرخة من المجموعة الثانية، ثم أخذ الصغار الذين تراجعوا إلى الجرف يولولون ويشيرون بأيديهم إلى الماء دون أن يتقدموا.

ركض أحمد وتبعه الثلاثة الذين كانوا معه متجهين إليهم .. هتف أحمد:

---

* جريدة فارس (عمان)، 7 آذار 1973، العدد 6.

- ما بكم؟

أشاروا جميعهم إلى الماء وقالوا بصوت متقطع:

- سليم.. سليم.. يغرق.

وارتفع رأس سليم فوق الماء ثم هبط.. فأسرع أحمد إلى البقعة التي غطس فيها ثم غاص.. وأخرج رأسه من جديد.. وحين استطاع المشي رفع يد سليم فأحاط به الجميع وسحبوه إلى الجرف.. وضع أحمد أذنه على صدر سليم فسمع دقات قلبه... وقال لرفاقه:

- سينهض بعد قليل.

ثم ترك أحمد المكان وأخذ يرتقي الطريق الصاعد. وفتح سليم عينيه وأخذ ينظر إلى أحمد والدموع تبلل وجهه.

* * *

العبور*

عندما خرج صباح من بيته صباحا ذاهبا الى المدرسة لم يكن في ذهنه شيء مما سيفعله بعد قليل.. لكنه كان يعلم شيئا واحدا هو انه لم يحضر دروسه ولم يكن على استعداد للأجابة على اي سؤال يطرحه اي استاذ وكانت هذه المسألة محيرة حقاً، لا يدري كيف سيتداركها.

في الطريق حدث ما جعل مشكلة ثانية تخلق لصباح، ذلك انه صادف مسيرة للطلائع تنطلق صباحا لممارسة تدريب فوقف متفرجا مع النساء والرجال بينما أسرع رفاقه الى المدرسة، ذلك لانهم يدركون ان دوامهم امر مهم وان الطلائع الذين يتدربون الآن سيداومون في الوجبة الثانية.

وصل صباح المدرسة فوجد ساحة المدرسة خالية لان جميع الطلاب كانوا قد دخلوا المدرسة ولم يبق في الساحة احد.. تسلل صباح الى الصف ودق الباب مرتبكا وكان الاستاذ قد غطى السبورة كتابة وهو يتحدث عن الاواني المستطرقة.. اضطر الاستاذ الى التوقف عن الشرح وسمح لصباح بالدخول، ثم اكمل الدرس مستعينا بالطلاب الذين كانوا متحمسين للمناقشة والشرح.

في نهاية الدرس طلب الاستاذ من صباح ان يلخص له الموضوع وقف الولد مرتبكا لا يدري ما يقول وتمتم بكلمات اعتذار فقال له الاستاذ (لا اريد ان اقول شيئا كثيرا فقد اخطأت عندما تأخرت وعندما دخلت الصف وقاطعتني وعندما لم تفهم ما قاله اصدقاؤك عن الموضوع بحيث انك لم تجد كلمة واحدة للحديث عنه.. انك مطالب بان تغير وضعك هذا والا تخلفت عن زملائك) ودق الجرس عند ذلك معلنا انتهاء الدرس الاول.

خرج جميع الطلاب الى الساحة يقرأون رغم ان الفرصة خمس دقائق وبقي صباح جالسا على رحلته وقد أمسك القلم ليخط على ورقة أمامه رسوما وكلمات وهو في حالة من الحيرة والالم يحدث نفسه قائلا: لماذا

---

* **مجلة المزمار، 5 كانون الاول 1974، العدد 203.**

تأخرت، لماذا لعبت كثيرا امس الجمعة ولم استغل ساعة واحـــدة للـــدرس.. جميع اخوتي كانوا يقرأون الا انا ماذا سأفعل الان؟

في الدرس الثاني بدأ جميع الطلاب الأجابـــة علـــى اســـئلة امتحـــان الجغرافية، كانوا جميعا منحنين على اوراقهم يكتبون بفرح لان الاسئلة كانت واضحة وقد وقف الاستاذ على مقربة من باب الصف ينظر الـــيهم ببهجـــة وهو يراهم يكتبون، كان سعيدا لان طلابه قد استوعبوا المادة لكنـــه لمـــح صباحا لا يكتب شيئا.. اقترب منه فوجد ورقة أجابته بيضاء الا من الاسم.. لم يتحدث معه وظن انه يفكر في الأجابة.. لكن صباحا سلم الورقـــة بعـــد خمس دقائق وخرج الى الساحة.

في الساحة صادفه المدير ووجده وحيدا.. واستغرب ان يكون صباح قد أجاب بهذه السرعة.. أخذه معه الى غرفته ودار بينهما حديث طويل.. ووجد صباح نفسه ينفجر باكيا ويعترف للمدير بتقصيره وشعوره بانه لا يســـتحق هذه المدرسة.. لكن المدير قال له: "ان شعورك هذا دليل علـــى اســـتعدادك لبناء مستقبلك من جديد.. وانا سأساعدك في ذلـــك، ســـأطلب مـــن معلـــم الجغرافية ان يسمح لك بامتحان آخر في صف آخر في وقت تحددانه سوية على ان اجدك منذ الغد الطالب المجتهد الذي لا يتأخر عن الدوام اوعن اداء واجباته".

ابتسم صباح وقال للمدير (اعاهدك يا سيدي ان اكون عند حسن ظنـــك وان اكون الطالب الذي يفخر به اهله واساتذته) وصافحه الســـيد المـــدير مبتهجا.

عندما خرج صباح من غرفة المدير كانت الساحة قد امتلأت بالطلاب من جديد وكانت العصافير تزقزق على شجرة في جانب من الساحة.. كان يشعر انه قد عبر الجانب المظلم والقلق من حياته وانه قد غدا في الجانـــب الاخر من الحياة، جانب الثقة بالنفس والعمل الجـــدي مـــن اجـــل النجـــاح والتفوق.. وامتلأ قلبه الصغير بالسعادة والامل وسار بخطوات واثقة مندمجا مع طلبة صفه.

* * *

الولد الذي فقد ساقه*

كان الولد يسمع أصوات الأولاد الضاجة في الطريق وهم يركضون او يقذفون الكرة، وينصت الى صوت الكرة وهي ترتطم بالجدار اوالباب، ويود لو يكون بينهم، لكنه يتذكر ما حل به عندما لعب مرة معهم، لقد تلكأ في الوصول الى الكرة وأخذ رفاقه يحثونه لكنه سقط على الأرض، وسمع صوت ضحكة مزقته كالسكين، وعندما التفت اليهم كانوا يعرضون بوجوههم عنه، وأخذوا يعنفون الولد الذي ضحك، وهكذا ترك اللعب.

انهم طيبون، بلا شك، فقد دعوه للعب معهم، لكن حركته محدودة، وهذا يكفي لأن يجعله يبتعد عن لعب الكرة.

وهم يلحون عليه بين حين وآخر عندما يكون جالساً على عتبة الباب، لكنه يشكرهم ويفضل مراقبتهم وتشجيعهم.

ويتذكر في جلسته داخل البيت، السيارة المسرعة التي دهسته قبل أربع سنوات وحطمت رجله، كانت السيارة قد خرجت من منعطف، سريعة للغاية، وتفاجأ بها، ولو لم يقفز بأقصى قوته، لكانت قد قضت عليه، ورقد ثلاثة أشهر في المستشفى، خرج بعدها وهو أعرج.

ان الحادثة مغروزة بعمق في داخله، لانها غيرت حياته كلها، فقد كان يهوى كرة القدم ويصرف معظم وقته بلعبها ويقود في الوقت المتبقي دراجته في الشوارع القريبة من بيته، وفي الليل كان يجلس أمام التلفزيون يشاهد البرامج كلها، وبالطبع كانت معدلاته في الدروس ضعيفة، ولم تفلح معه نصائح والده، واكتشف بعد الحادثة ان قوة الإنسان لا تكمن في عضلاته فقط، انما قوته العظيمة هي عقله.

وكانت المفاجأة الكبيرة التي تلقاها اهله ورفاقه انه نجح في نهاية السنة اولا على مدرسته، وارتاب مدير المدرسة في درجاته، فقد كان يعرفه

---

* **مجلة المزمار، كانون الثاني 1975، العدد 210.**

متهاوناً في دروسه، وطلب تصحيح اوراقه وامتحانه شفهيا أمامه، وحضـــر الولد الى المدرسة غير ساخط على هذا الاجراء الاستثنائي، وتم امتحانه أمام المدير الذي لم يتمالك نفسه وأخذ يردد متعجبا بهمس:

-انها معجزة، معجزة.

ثم سأله:

-لماذا لم تنجح هكذا منذ البداية.

وابتسم الولد ولم يجبه.

وأخذ المدير يتحدث عنه في مختلف المناسبات ويضربه كمثل للطالـــب المجتهد الذي يستطيع ان ينجح بتفوق.

وعندما اقيم احتفال توزيع الجوائز للاوائل.. احس الولـــد الاعـــرج ان عديداً من الأولاد كانوا ينظرون اليه بحب، اما رفاقه فقد صفقوا وهتفوا لـــه بحرارة.. وأصبح مألوفاً ان ينجح اولاً في السنوات التالية.. وصار مفخـــرة لرفاقه الذين يلعبون الكرة أمام المنزل.

انه يسمع أصواتهم الضاجة وارتطام الكرة.. ويبتسم بفرح لان رفاقـــه يتمتعون بوقتهم.

* * *

ملحق -3-

خالد ...الإنسان

خالد

خالد، أيها الإنسان الذي يعرف كيف يغرس في جذور العالم
نبعاً من ورود الأرض الحزينة
أحبك صافياً
أحبك لأنك إنسان
والإنسان في مدينتي يفقد حتى ظله
فلتبق أنت
لأني أحبك فيك أنت

إنسان
عبد القادر العزاوي

* * *

ولدي خالد*
بغداد-الجمعة- 1944/5/26

هاأنذا أخط هذه الرسالة بعد ميلادك بساعتين فقط، لقد ولدت في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر من يوم الجمعة الموافق 1944/5/26.

ولدي: لقد أشرفت على السادسة والعشرين من عمري، فأطللت في هذا العام على نافذة الوجود الذي مله أبوك، لأنه عاش في مجتمع يموج بالفوضى، والاضطراب؛ وما كان ظهورك الى هذا العالم رغبة مني ولا اختياراً، وما كنت أود لك أن تشهد هذه الحياة التي مثل فيها أبوك دور البطل من المأساة، فقد تتابعت عليه أحداثها، وطوحت به نكباتها ولكن الله شاء أن يسير حتى الآن في الطريق، وهو لا يدري الى أين سينتهي هذا الطريق به وبك. إنني ذرفت الدمع حين بلغني خبر ميلادك، وفكرت في مستقبلك كثيراً، ولا أدري الى أين ترسو السفينة من بحر هذا العالم المصطخب الذي جن جنونه، وهو الآن شعلة تلتهب في أتون الحرب التي لايعلم مداها إلا الله.

لا أعرف كيف سيكون نظام المستقبل، حين تكون قد بلغت السن التي تستطيع أن تكون فيها عضواً اجتماعياً نافعاً؟ وهل سيكفل هذا النظام حياتك وحقوقك كما يكفل حياة الآخرين وحقوقهم، أم إن السفينة التي نمتطيها الآن، سوف تسير في طريقها قدماً، فلا يحدث تغيير ولا يطرأ تبديل.

*** الأستاذ حبيب علي عبد الراوي (1920- 1988)، حصل على شهادة البكلوريوس آداب لغة عربية عام 1944 من دار المعلمين العالية ودرس بعدها اللغة العربية في ثانويات الكاظمية والكرخ والأعظمية للبنين. وبعد حصوله على شهادة الماجستير في الأدب العربي من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1954، قام بتدريس اللغة العربية في كلية الملكة عالية للبنات، التي صار اسمها فيما بعد كلية البنات. أصبح حبيب الراوي رئيساً لقسم اللغة العربية ومن ثم عميداً لها. وبعد إلغاء الكلية، عمل أستاذاً مساعداً في كلية الآداب، جامعة بغداد في قسم اللغة العربية والإنكليزية وكتب العديد من الكتب والبحوث المتخصصة باللغة والأدب والتحقيق مثل "مأساة شاعر أو المعتمد بن عباد" (بغداد 1965) و تحقيق كتاب بالمشاركة *تحفة الوزراء لأبي منصور الثعالبي* (بغداد 1977). (راجع، حميد المطبعي، موسوعة إعلام العراق في القرن العشرين (الجزء الثالث)، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1998).**

وما دمت قد جئت الى هذا العالم، فلتكن محباً للحياة، ممتلئاً قوة، واثقاً بنفسك، معتمدا على إرادتك، فقد رأيت أن الضعف جريمة في هذه الحياة، ومواكب الناس لا تسير إلا وراء الأقوياء.

ولتكن شجاعاً مقداماً، ولكن في سبيل الحق، فإن الظلم مهاوي يندفع اليها الظالمون حيث لا رجعة ولا نهضة.

وعليك بالصدق والاستقامة فهما القوام الذي ترتكز عليه شخصية الإنسان.

ولتكن قادراً على النقمة والكيد لمن تشعر أنهم يريدون أن يكيدوا لك، ويتربصوا بك.

إنني أكرر القول بأن تكون قوياً، معتداً بنفسك، كما أريدك أن تبتعد عن الهموم والأحزان، ولتكن ضاحكاً في جميع الأحوال؛ اضحك من الكوارث حينما تداهمك، واضحك من الناس حين تظهر لك سفالاتهم ولؤمهم، فما تلك إلا دلائل الضعف الإنساني وما الابتسامة إلا السلاح الذي نستطيع أن ننتصر فيه من هذا الكفاح، ألا وهو كفاح ''الحياة.''

وجسمك ذلك الهيكل المقدس ، إياك أن تدعه نهباً للأمراض والأسقام، فحافظ عليه ما استطعت بوساطة الرياضة، وباجتناب كل ما يؤدي الى هدم الصحة.

ولتكن نقي الفكر، فابتعد عن حمل الأحقاد للآخرين، والحسد، ولا تفكر إلا بما هو صالح ومريح لنفسك وعقلك.

وعليك أن تتمتع بالحياة البريئة، فتأمل الطبيعة ومشاهدها الرائعة ، وبالموسيقى والغناء، والأحاديث الطيبة والاختلاط مع الناس الطيبين.

وفي الأخير، أتمنى لك حياة سعيدة، ومستقبلاً زاهراً، فما حياتك إلا امتداد لعمري، وما جسمك إلا بقية جسمي، فإن بلغت ما تصبو إليه، ففي ذلك لأبيك عزاء وسلوة، وما أنت إلا بقية روحي وكبدي على هذه الأرض.

أبوك: حبيب علي الراوي

* * *

من هو...؟
خالد حبيب الراوي*

أبوه كان وسطاً في حبه وكرهه، وعمل في الجامعة وحاول أن يتوسط في كرم بين تلاميذه وأساتذة الدرس، فأحبه الجميع بلا إسراف، فيما أحبوه عن قناعة تذكر، وروح تسربت اليهم عن طريق نعومة وجدانه..

وكان خالد ابنه في توارث المزايا الروحية، لكنه أعنف منه في تشخيص الحالات. كان يرمي بنظراته المدببة الى الناس، فيقول: تعال أنت مشاكس من الداخل، تعال أنت مختال أو أنت (معداني) الطبائع أو أنت مرعب لأن وجهك عذبته الخرافة. وفي يوم سألته: أية صفة توارثتها من مدينة (راوة)، قال: حنان الأنهارالى روافدها. وأية صفة توارثتها من أهلك، قال: إنني ابن طيف يتغذى على روحه. وابتسمت فاكتأب، لأنه كان يكره أن يبتسم الناس بلا معنى، وهو صريح وأنا أكثر منه صراحة، وهو يلتئم مع صمته، وأنا لا أحب صمت المبتسمين، وكلانا ابن تجربة مرة. هو عاش ثائراً على الأنماط، وأنا لا أجد في الأنماط إلا الموت. ويوم تعارفنا في أواسط الستينات، قلت له في مقهى البرلمان، أنت من أي اليسار، فضحك عالياً، وكان خالد في ضحكاته العالية يبرز لوناً خاصاً من السخرية على القدر الذي جعل اليسار محنته. وهي محنة (أبو الهول) وهو يحاور رياح القدر، وكنت في سري أحفظ لخالد براعته في صيد السذج من المثقفين، وفي ملاعبتهم بالنكت البغدادية الطريفة. وأحفظ له أيضا، مهارته في شد اللحى بعضها ببعض، حتى إذا تعاركت هذه اللحى، نتف الشعرات التي يريدها ويمضي الى سبيله البريء. وكان الناس كلهم يحبون خالداً، لأنه يملك داخلاً أشبه بداخل سقراط، يحركه السؤال الغريب ويملك ذاكرة تمشط الحياة على طريقة المنجمين، لكن الناس أولئك تخافه حين تجرح كوامنه، فينتفض كأسد بابل على دانيال النبي اليهودي، ويخرج وجهه مزمجراً. فالويل لمن يمد أصابعه الى داخله والويل

---

1 نشرت هذه المقالة في جريدة الزوراء، العدد (38)، 26 شباط 1998.

لمن لا يعرف التحاور مع أشواقه الداخلية. ولحظة لمست دواخله، عرفت من أين تكونت، من (راوة) خيط السلالة، ومن كبت الزعامة التي حـــرم منهـــا، ومن واقعيته التي لا تقبل على أي الأحوال.هل هو يشبه العراقي تماماً، أظنه هو العراقي الذي كله تصلب، نصفه يشبه الوهمية الغامضة، ونصف آخر قُدَّ من أنسنة مجربة. وسألني مرة هل أنت أنت؟ ويقصد هل تكشف لي ســـرك في الحياة؟ أجبته: مثلك تماماً.. يغرق في رحيله ويستمتع في لذة الأســـئلة، وما عليكم الآن الا أن تسألوه، هل أنت مثلما كنت أنت يا خالد؟ وأظن أنـــه سيجيب، هذه مهمتكم في اكتشاف النوايا، وأظن مرة أخرى أن نواياه هي أن يمتد ويلتذ، فإذا التذ شهق وتلك مأساته. أما ملهاته فهي أن يستريح من تعب الرحيل، فقد غص في بحر وجاب في النفوس، وطرق على الأبـــواب التـــي عصت على جلجامش القديم.عصي خالد على الفهم والإفهام، وعصي علـــى أساتذة قسم الإعلام بالجامعة، ليس في قلبه ولا في عينيه، وليس في درجات الامتحان ولا في تعامله مع الأطروحات الأمية التي يقرأها للطلبة، إنما هـــو عصي في عمقه، ولا بد أن يكون عصياً على الناس، ما دام خلـــق ليـــربح الحياة. فأولئك الواضحون كل الوضوح يسهمون دائماً في بناء النموذج الهش في الحياة، ويركلون الحياة تحت أقدامهم، إن كانوا هـــم المســـيطرين علـــى مقاليدها. وليس الغريب أن أرى خالداً يشبه وتيرتي كلما مـــر زمـــن علـــى وجودينا في الحياة. أراه مزيجاً من مرارة ونقاء، ومزيجاً من تصادم الحـــي بالميت. لهذا صارت أخلاقه، أخلاق أمراء، وتصرفاته تصرفات الأمـــراء، حتى إذا شاهدته يمخر في صفنة ويتخيل في بعد، تراه معاتباً الحياة بلغة أشبه بلغة المتصوفة، ويقول: تباً لهؤلاء يجرحون كبرياء الزمان، وتبـــاً لأولئـــك يجرحون الحقيقة، ويصحو بعد غياب الصفنة، ويلتفت وإذا هو ثورة متدفقـــة على على نفس سباقة في السخرية على الحياة، وهو يسخر بلذعة القاضـــي، وأنا أسخر مثله بلذعة الشاعر، وكلانا نحب أن نسخر من تراكم الخطايا في لوحة الوجود، هل هو بحاجة الى وظيفة؟ ليس هذا حلمه، فقد طـــوح بكـــل المغريات عندما انتمى الى الحياة. هل هو مذنوب، وسخريته تعويض عـــن ذنوبه؟ ليس هذا أيضاً، إنما خالد عاش ليدين القبح في كل ذرة ســـابحة فـــي التيار المعاكس لحيوات البشر الحقيقية، هو مثلي كئيب الى الأبد، حزين الى

الأبد، يصارع الوجود، أينما رأى الوجود يتفتت تحت ضربات القسوة والعناد واللاعقلية. هو مثلي تماماً، حين يرى، يرى وقد فاض الألم وتراجع الصحو وبلغ السيل الزبى، وخالد كله كتمان، حتى جوارحه لا تنطق الا بالكتمـــان، وهذه هي واحدة من غلطاته. وغلط آخر فيه، هو صمته فـــي الكتابـــة، ولا يكتب إلا مرة في السنة، بينما كنا ننتظر من خالد أن يفرش حرباً في كتاباته، ويرسم في أفكاره طيراً أشبه بالحرية ويجعله يطير فـــي ســـموات العشـــق والسفر والمحبة، ونسأله ما فائدة الأفكار، حتى المقدسة، إنْ هي بقيـــت فـــي الرأس أو في القلب، له عذر لكننا لا نجد له عذراً قوياً قـــوة الحجـــة فـــي القوانين. وعودة خالد الى الكتابة الأسبوعية، تزيد اللهب في خندق الحقيقـــة التي هي ترفس تحت أقدام أنصاف الكتاب الذين جاءوا على حين غرة الـــى ميادين النشر. وهي دعوة لكل من ترك الكتابة، بأن يعـــودوا ويفكـــوا لغـــز الحياة. ومع كل هذا، فخالد من أضلاعنا، وشاهد ساخر مع لوعة مرفوضة، ومتدفق لكن على شاطىء غريب. ومنذ زمان سألني: كيف هي الصـــحافة؟ ولم أجبه، فعرف أني مغرم بالصمت إزاء الصمت، وكلانا مغرم بالتناقضات وهي تسرع بغير هدى، وكلانا أحب أن يتموج داخل ذاته بالأسئلة التي يتفكر بها، هو الى سبيل، وأنا أتحاشى سبل الناس.

حميد المطبعي

* * *

صور وتداعيات من الداخل*

يبدو خالد حبيب الراوي بسيطاً تقتله البساطة في أحيان، لكنه معقد التركيب هائل الإحساس، في كل اللحظات، وأظنه منذ الطفولة خلق هكذا. ولعل الكثيرين لا يعرفونه كما تقتضي اللياقة العلمية، ويشاهدونه هكذا، طيب السريرة، حلو الحديث، ضرب الدنيا بيد العبث. وعيب هؤلاء أنهم يتناسون فيه شيئاً مهماً، وهو المزج بين العبث والسخرية وفكرة التلاشي، وهذه كلها تخدع الأبصار وتشوش على النظر فيتيه في النفوس ولا يستقر. إنه عكس ذلك حقاً، فهو وجودي من الداخل وصلب أخلاقي من الخارج.وإنسان يتصف بذلك هو حتماً إنسان يشاغب على الطبيعة ليقتنص منها الحكمة المجنونة، ويتسلل الى الدواخل ليكشف طبائع كل المراهنين، وأهم مزاياه أنه يدرك أسرار العلاقة الاجتماعية فيهرب منها متعمداً، أو يختطف منها ما يوقف الآخرين عن التهور واللامبالاة، حركي اللفتة، منكت اجتماعي بأسلوب السياسة، مع الرأي العام بأسلوب رجال الدين، والغريب أن كل السياسيين شرقيهم وغربيهم يعتقدون أنه معهم وهو ليس معهم، لأنه فهم لعبة السياسة منذ اكتحلت عيناه بوميض اللعبة السياسية، وكل الذين جالسوه أحبوه بدقة المحامي الذي يدافع عن ضحاياه، وكل الذين زاملوه لم يبق منهم إلا نفر قليل لأنهم طمعوا فيه ولم يربحوا سوى سذاجتهم. هو إذن حكيم بثوب البهلوان، وطبيب يعالج المرض بسخرية عجائز السياسة الغربية، وقد تستغربون إذا عرفتم أن خالداً يملك في أعماقه جحيماً كبيراً يدخره لأولئك المتسولين على موائد السياسة، وصمته الآن على أولئك كصمت حكام افريقيا على الاستعمار. يالهذا الجحيم المخبوء تحت ابتسامات بغدادية الأزل، فإذا إنفجر لم يبق ابليس يتجول في ساحات العهر السياسي، كريم وشفاف، وفيه نفحة من الفرات ونفحة من دجلة إذا غضب، إنه صلب لا أقوى من أحد، لكنه يعالج صلابته بحسن الكياسة التي تعلمها من العلويين الأشداء، ثقوا به فهو قاضٍ رؤوف، وتمسكوا به فهو يعرف أن يميز بين الشكران والعرفان،

---

1. لم يسبق لهذه المقالة أن نشرت ، لكنها كانت محفوظة في مكتبة خالد الراوي.

وخلق لكي يبرئ ساحة المتهم البريء، وإذا رأيتموه غاضباً فتجنبوا ألغـــازه، فهو غامض في لحظات الحزن الوحشي، وواضح في لحظات الثأر الطبيعية، صامت بأناة، جدلي ثائر كأبناء الملوك الثـــوريين، وإذا أراد كمـــا يشـــتهي الانتهازيون لصار في هرم أعلى وحكم عدة دويلات ، لكنه قبل ثلاثين ســـنة آمن أن الانزواء عن الأضواء فرصة طيبة لمن يريد أن يسمو بنفسه، هـــو هكذا قانونه في البيت أو في منهج الدراســـة أو فـــي ســـلوكه مـــع العامـــة والخاصة.

حميد المطبعي

* * *

خالد حبيب الراوي*

لم يستطع قلمي أن يخط كلمة (المرحوم) أمام اسم خالد حبيب الراوي، برغم أن الموت حق، وكلنا فانون ولن يبقى سوى مشيئة الله الواحد الأحد. فالصديق الراحل خالد في فكري، وحبيب الى قلبي ولن تسرق لحظات الموت وقدريته 35 عاماً... فهذه العشرة الطويلة توأم لي وله.. والمقربون إلينا نحن الاثنين يعرفون عمق هذه العلاقة التي تأسست في مرحلة الصبا ثم امتدت حتى غزا الشيب رأسينا.

ولج خالد حبيب الراوي، الصحافة متسلحاً بخلق رفيع، لكنها لم تستهوه ولم تكن هوايته الأولى أو الحبيبة الى قلبه، بل كان الأدب والقصة على وجه الخصوص هما هاجسه وتعلقه، فكان يفرح إذا أطلقت عليه لقب القاص أوالأديب على لقبه العلمي الرصين (دكتور..).

ولعل الذاكرة لا زالت يقظة منتبهة وهي تعود الى بداية الستينات، حيث كان والده الجليل حبيب الراوي عميدا لكلية البنات. كنا ونحن في بواكير الحياة، نحث الصديق (خالد) بكل الطرق الملتوية والبريئة على الدخول الى مبنى هذه الكلية المحرمة على الرجال بحجة السلام على والده ظاهرياً، بينما الهدف الرئيسي هو التلصص على أجواء كلية البنات! كانت الخطة تنجح مرة وتفشل مرات، ولا زلت أتذكر (أم زينب) تلك السيدة التي تقوم على خدمة العميد، تغمز من قناتنا وتتمازح مع ابن العميد (خالد) بكلمات حلوة!

كان خالد حبيب الراوي، يمتلك طيبة متناهية، لكنها طيبة مسؤولة، مما جعله يبدو لغزاً أمام من لا يعرفه أو له معرفة سطحية به.. ويمكن للحكاية التالية أن تبين بعضاً من ملامح طيبته. ففي عام 1968، كنت أعمل محرراً في جريدة الحرية لصاحبها المرحوم قاسم حمودي، ومن ضمن مسؤوليتي عمود يومي بعنوان (نافذة) يحرره عدد من الصحفيين والأدباء المعروفين. وفي هذا العمود نشرت يوماً مقالة لخالد الراوي، وفي اليوم التالي للنشر

---

1. زيد الحلي، "فم مفتوح.. فم مغلق: خالد حبيب الراوي"، جريدة الاتحاد، العدد 261، 13-4-1999.

زارني القاص عبد الرحمن مجيد الربيعي حاملاً معه رأياً معاكساً تماماً لمقالة خالد. ولخلق حالة من المساجلة وتطبيقاً لمقولة (الـرأي والـرأي الآخـر)، سارعت الى دفع مقالة الربيعي الى النشر. وعند صدور الجريدة، فوجئت أن مقالة الربيعي كانت تحمل أيضاً اسم الراوي، حيث نسي (مداور الصفحة) أن يرفع سطر الرصاص الذي يحمل اسم الراوي من مقالة الأمـس واسـتبداله باسم الربيعي.. فظهرت المقالتان المتناقضتان في الرأي وعلى أساس أنهـا لكاتب واحد.. فلم يثر خالد حبيب الراوي برغم سيل الأسئلة والاستفسـارات التي واجهها في حينه.. وقد تداركنا هذه الحالة في كلمة اعتذار فـي اليـوم التالي.

إن الصحفيين الذين عملوا في أواسط السبعينات مندوبين عن صحفهم لدى وزارة التعليم العالي يتذكرون كيف كان خالد حبيـب الـراوي يمـدهم بأخبار الوزارة أولاً بأول محطماً حاجز الروتين عنـدما تـولى مسـؤولية الإعلام في الوزارة المذكورة. فقد تعامل مع زملائه الصحفيين بمهنية عالية أتمنى أن يجد زملائي جزءاً منها هذه الأيام!

لم تنقطع جلساتنا.. وكان يشعر بسعادة غـامرة عنـدما يلـم شـملنا الصديق الصدوق حميد المطبعي في جلسات ودودة بعيدة عن التكلف، فنراه يقهقه على غير العادة، مسروراً منتشياً، خاصة عندما يبـدأ المطبعـي فـي استفزازاته المحببة- وكان يميل برأسه هامساً (إن المطبعي أوعى وأثقف من عشرات ممن يسبق أسماءهم حرف الدال)! وفي جلسة جميلة، هيأها مشكوراً صديق الإعلاميين ليث الكبيسي على شرف الزميل العزيز أحمد عبد المجيد، كان من بين الحضور خالد الراوي وحميد المطبعي، فتحولت الجلسة الى ما يشبه المنتدى الثقافي ولم أر خالداً سعيداً مثلما رأيته في تلك الأمسية.. فقـد ضحك كثيراً وبشكل عجيب .. وعند توصيلي له الى باب داره أصر على أن يناولني بضعاً من (التمرات) من نخلة عزيزة عليه تتوسط داره قائلاً: (تذكر يا زيد، أن حلاوة التمر عندي هي أهم من كنوز العالم كله). كان حبه للعراق عظيماً. رحمك الله ياخالد.. يا حبيب.

زيد الحلي

هؤلاء عرفتهم*

الغربة سفر، والسفر غربة...ولعلنا عرفنا... الغربة المشبوبة بالنار حين حملنا حقائبنا الصغيرة وسافرنا بها من حديثة للدراسة في بغداد... وهناك عرفت الراحل الدكتور خالد حبيب الراوي، وأنا أجد نفسي وحيداً في زحام بغداد، وكان نجدة لي من السماء، أستاذاً قديراً في قسم الإعلام- ولم يكن كلية آنئذ- وطاقة قصصية ممتازة لها من الذكاء والمهارة، وتنطوي على قدر ملموس من الحيوية والخصوبة، ترعرع في أحضان الستينات، وعاش على فتات مشروعها الأدبي. ولقد قامت بيننا صداقة وثيقة العرى ومنسجمة وراسخة تكفلت بتعويضنا- أو في الأقل- بتعويضي عن ذلك الشعور بالغربة، حين أتاح لي فيما بعد أن أستوعب تلك الرابطة العميقة الدقيقة، وأنا اعتقد بأنه لا ينبت الريش على جناح. مثل شمعة قدرها أن تعطينا عطراً، أحببت هذا الراوي، الذي وجدته عكس أساتذة آخرين كانوا كالسيوف المعلقة فوق رقابنا، ووجدته عن قرب، صافي الروح، حلو المعشر، باسم الثغر، موطأ الأكناف، عذب الحديث، سريع النكتة، هيناً ليناً، بعيداً عن التكلف، باحثاً عن شيء يقدمه فائدة لزمن قادم وجيل لم يولد بعد. وكان يريد أن يضيف ويغطي ثغرات ما زالت مثل ثقوب الفضاء مجهولة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه، ويعترف لكل ذي موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، ويكره الظلم والتسلط على عباد الله، ويقول بصراحة: لا أحب أن أتسلط على أحد، ولا أن يتسلط علي أحد.

وكان كلانا يسأل نفسه والآخرين: ماذا يخسر الإنسان، اذا كان رقيقاً، وحنوناً، ولطيفاً، حضارياً، ومهذباً، وخفيف الظل.. وفي بعض الأحيان كنت أجده يختار الصمت عزوفاً عن مشادات يجدها إهداراً للحبر بلا معنى، واستهلاكاً للورق دون جدوى. وكنت قادراً على فهم جزء من مشاعره. كان الراوي يتسمر حتى آخر قطرة زيت في المشكاة، ويضحك في أحلك الساعات كآبة، ويرى أن الحياة أجمل من أن تضيع في العمل، وأنه من دون

1.نشرت هذه المقالة في جريدة "الوطن،" 2005/6/23، العدد 248، السنة الثالثة.

الضحك تصبح الحياة مللاً لا يطاق، ما يسر أمامه سبيل العيش اللاهي العابث. وكانت له فلسفة مؤداها: أننا في قوة الخيل نجمع المال، وفي غباء الحمير ننفقه.. وبرغم تشبثه بالحياة وتفاؤله بها، فقد غادرنا متعجلاً ولم ينتظر حتى يكمل خواطره التي بدأها بقوله: يادامي العينين، إن الليل زائل.. لكن ومع رحيل الليل رحلت روحه هو الآخر وتحول فراش نومه الى فراش موته. وخالد حبيب الراوي- شئنا أم لم نشأ- من الذين بنوا قسم الإعلام حجراً حجراً، وأضاءوا قناديل فضته المعتمة. وقد ترك لنا في كل زاوية من زواياه، ما يترك البلبل على قمر عابر في القصيدة. ومثل هذا الاعتراف، ولو جاء متأخراً، وعلى شكل كفارة، هو تعويض أدبي بسيط نقدمه لأستاذ صحافة قدير أصبح خالداً في رحاب التاريخ. وأما الباقي والدائم والمستمر، فهو إبداعه، وعطاؤه، وتلاميذه. هذا إذا لم نكن نساير تقاليد بعض القبائل العربية التي كانت تقتل حصان الفارس حتى لا يركبه غيره!

أذكر أن الراوي رحمه الله قال لي، وقد خرجنا من كلية الآداب في باب المعظم قاصدين شارع المتنبي: لن نفترق..أمامنا البحار..والغابات وراءنا..فكيف نفترق؟ وها نحن افترقنا من دون أن أحظى منه بنظرة وداع قبل الغياب النهائي، أو أن أقول ياعزاء الميتين سلام عليكم.

رباح آل جعفر

* * *

الى والدي

خالد يانسمة بحر دافئة تهب في ليلة شتاء قارسة
توقظ الحس بفكرك وتلهب الروح ببسمتك
مررت كشهاب في السماء وأنرت درب من أحببت بالضياء

(لنا وحدنا الحق في أن نكتب ما نشاء عن حياتنا، فنحن الذين خلقناها، وهي لنا بحذافيرها)*

الكتابة عن خالد حبيب الراوي صعبة للغاية، ليس لأنه والدي، بل لكثرة ما يجب أن يقال ولقلة ما يمكن التعبير عنه. خالد كان أباً مميزاً لأنه عنيف بحبه وشديد بحنانه وقاسٍ بتعنيفه وسريع بغضبه. على الرغم من حدة أعصابه وانفعالاته حتى في آخر يوم من حياته، كان يخجلني، وأنا ابنه، من دماثة أخلاقه.

الحياة كانت بالنسبة له فرصة يجب استثمارها بالتعلم والبحث والمتعة والاستكشاف والمغامرة. والاستثمار هذا يعني التبحر في عوالم الكتب وتمحيص تفاصيل الحياة الدقيقة التي تدل على الحقيقة، سواء أكاديمياً أو صحفياً. أما العلاقات الإنسانية، فيحيطها بهالة من القدسية يجب على المرء الحفاظ عليها ورعايتها على الدوام، فهو كتوم لأسرار أصدقائه، ومن بينهم طلابه وما أكثرهم، وتوفي ولم يكشف سر شخص ائتمنه عليه.

أما الحب، فهي عاطفة تجعل الإنسان يشعر بآدميته ولا يستطيع العيش بدونها أبداً. والحب لا يقتصر على المشاعر المتبادلة بين الحبيب وحبيبته،

---

1 خالد حبيب الراوي، مسرحية "الجدار وزهور البحر" في مجموعة الجسد والأبواب، النجف: مطبعة الغري الحديثة، 1969، صفحة 26.

بل تشمل العفو والتسامح والرحمة بين مختلف أنواع البشر. ولعل مـــاذكره أحد شخوصه يعبر بدقة عن رأيه في طبيعة العلاقات البشرية، فهو يقـــول: "العلاقة لا تبدأ من جوازات السفر والدين، إنما مـــن التطلعـــات الإنســـانية العامة"[2]. وكان مؤمناً أن الإنسان يفعل الشر لأنه لا يقوى في بعض الأحيان على فعل الخير، فهو مسير بظروفه الخارجية وطبيعته الداخلية.

واستمر بالضحك على المصائب التي يجابهها، وما أكثرها، ويضحك على القدر وما يخفيه كأنه يقول "سوف أتغلب في النهاية". أصـــبح فـــي ســـنواته الأخيرة متهكماً وساخراً من غباء أدعياء الثقافة والعلم، وناقماً على الـــزمن الذي تباع وتشترى فيه المبادىء والقيم.

كان نزيهاً مع نفسه، حراً بروحه وفكره، ثورياً بميوله، خلاقاً في هواياته المتعددة التي شملت جمع السبح والأقلام وزراعة حديقة بيته بالزهور الغريبة والنادرة. ربما أراد أن يجد له منفذاً من روتين الحياة ومن رتابة التـــدريس الذي امتهنه في السنوات الخمس عشرة التي سبقت وفاته.

أخبرني ليلة وفاته أن أجله قد حان، فصاح علي ليكتب وصيته. رفضـــت بشدة واستفسرت منه، فقال: "جسدي كله بدأ يضعف"، لكنني لم أجلـــب لـــه الورقة التي أرادها لكي لا أشجعه على التفكير بهذا الشكل. قال لي بعدها: "لا أريد أن تقام لي مراسيم العزاء للميت"، لأنه لم يرد أن يحزن عليه أحد. لـــن تفارقني ذكرى اليوم هذا ما دمت حياً.

يقولون إن خالد مات، لكنني أجزم بأنه يعيش. فهو يعيش فـــي اشـــتياقي وفكري، أحمله معي في صلاتي ومناجاتي ومسراتي ومصابي. هنالك أناس يعيشون لكنهم أموات، وهنالك أموات لكنهم يعيشون مع الأحياء. لذا خالد لم يمت...

د. أحمد خالد الراوي

بغداد 2005

* * *

---

2 خالد حبيب الراوي، "رجل له 7 أقدام" في مجموعة القناع، صفحة 78.

رقم الأيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 295 لسنة 2006